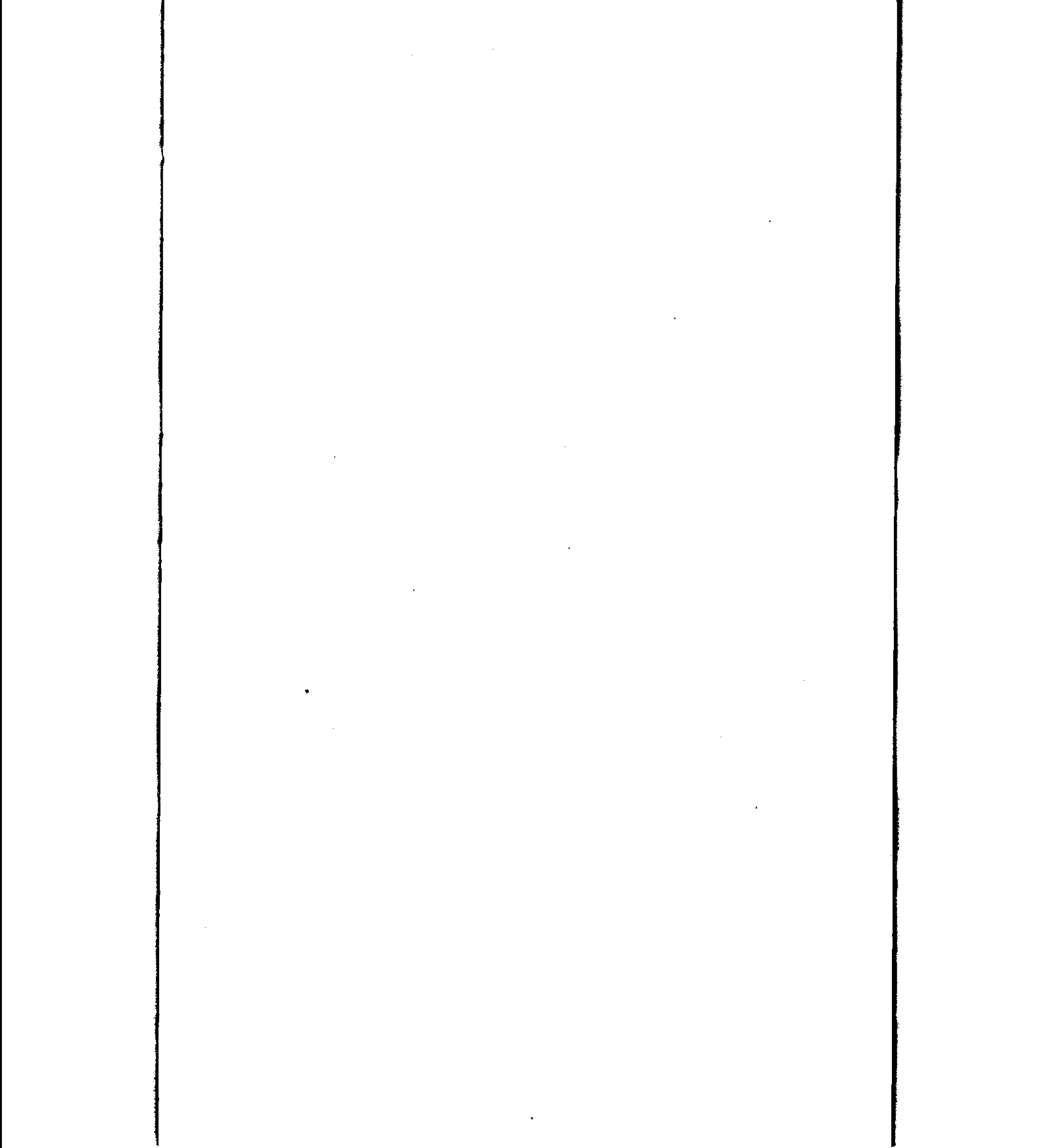


جامعة محمد الخامس
مكتبة كلية الآداب الرباط
رقم التسلسل 2432
رقم الصف 47
تاريخ 22
1982

مجلة كلية الآداب والعلوم الانسانية بالرباط

العدد الثاني

1977



فهرس

الابحات الأساسية

5	الكتابة الصوفية: ماهيتها ومقاصدها	محمد مفتاح
27	النحو الصوري واللسان الطبيعي	عبد الرحمان طه
79	ابن الخطيب والتجديد في المنهاج التاريخي	محمد زنيبر
127	الظاهرة التحليلية والتاريخية في الرواية بالمغرب العربي	سعيد علوش
187	تطور العائلة المغربية المعاصرة	فاطمة المرنيسي
205	مدخل الى تاريخ المغرب الاجتماعي والعسكري في العهد المريني	ابراهيم حركات
245	المشرع والسياسة والمسرح	فوزي بوبية

دراسات وعروض ببليوغرافية

261	أصول النمو العربي من خلال كتاب « الاقتراح » للسيوطي	تقديم رسالة أحمد الادريسي :
269	كتاب ميكيل مرتين حول الاستعمار الاسباني بالمغرب	عزيزة بناني :
277	عرض العدد الخامس عشر من مجلة هسبيريس تامودا	محمد زنيبر وعبد اللطيف الشادلي :
301	عرض العدد السادس والعشرين من مجلة البحث العلمي	عبد اللطيف الشادلي :
307	بيبليوغرافيا المغرب العربي والانديلس منذ سنة 1970	مكتبة الكلية

عروض عن المؤتمرات العلمية

321	حلقة دراسية في موضوع: « تحليل واعداد البيئة القروية في منطقة الساحل »	ادريس الفاسي :
327	مؤتمر الامم المتحدة حول تنميط الاسماء الجغرافية	حسن بنخليمة :
329	الندوة العالمية للكرطوغرافيا الجمرقولوجية	عبد الله العوينة :
333	ندوة حول النمو الحضري في بلدان المغرب العربي	محمد الغوات :
336	انشطة شعب كلية الآداب والعلوم الانسانية.	بوشعيب الادريسي :

الابحاث الأساسية

الكتابة الصوفية ماهيتها ومقاصدها روضة التعريب بالحب الشريف

تمهيد :

متى كون أهل التصوف فرقة بجانب الفرق الكلامية الأخرى، وعبروا عن آرائهم في مؤلفات تنتسب إليهم ؟ ان ما يلاحظ في هذا الصدد أن مؤرخي الفرق الإسلامية الأولى عرضوا آراءهم في الحلول والاباحة ورؤية الله في الدنيا ولم يسموهم فرقة. فربما كان ذلك للنزاع المذهبي الذي كان قائما بين الصوفية وعلماء الكلام وأهل السنة وربما كانت الصوفية لما تظهر في فرق منظمة (1). لها مبادئها ووجهات نظرها وطرقها مبسطة في مؤلفات.

مهما يكن فأننا نجد في أبحاث (القرن الرابع هـ) مؤلفات لهم تتعرض لمبادئهم وطرقهم في التكوين كاللمع لأبي نصر السراج الطوسي (ت 378 هـ - 988 م)، وقوت القلوب لأبي طالب المكي (ت 386 هـ - 996 م)، والتعرف لمذاهب أهل التصوف للكلاذبي أبي بكر بن اسحاق (ت 388 هـ - 998 م)، وتاريخ الصوفية لأبي الفرج عبد الواحد بن بكر الشرازي (ت 372 هـ - 981 م). (2)

فلم يكن بد - بعد هذا - من أن يفرض الصوفية وجودهم فيعتبرهم مؤرخو الحركة الفكرية فرقة بجانب الفرق الإسلامية مثلما فعل ابن النديم في الفهرست والغزالي في كتابه المنقذ من الضلال (3). ولكن الذي أفاض في ذكر الصوفية، وسرد مذاهبهم، وتبيان طوائفهم هو فخر الدين الرازي (ت 606 هـ - 1209 م) في كتابه اعتقادات فرق المسلمين والمشركين (4).

(1) من المؤرخين الذين أهملوا ذكر الصوفية كفرقة الأشعري في مقالات الإسلاميين ابن حزم في الفصل في الأهواء والممل والنحل. انظر الفلسفة الصوفية في الاسلام ص 55 تأليف : د. عبد القادر محمود - 1966. Arkoun M. Essais sur la Pensée Islamique, p. 42

(2) انظر : Massignon L. : La passion de Hallaj, t. IV. p. 17.

(3) المنقذ من الضلال تحقيق : جميل صليبا وكامل عياد ص : 100,69 وما بعدها . ط. دار

الأندلس.

(4) انظر الفلسفة الصوفية في الاسلام والمصادر التي ذكرها ص : 55 - 56.

غير أن الذي يهمنا نحن هو وجهة نظر بعض مثقفي القرن الذي نشغل فيه : (ق8هـ / 14م). فابن الخطيب حينما تعرض لأقسام العلوم الشرعية جعل التصوف أحدها وأسماءه « علم التخلق » الذي هو مكارم الأخلاق، وطرائف أهل الصوفية (5)، فهو علم اذن، وهو خاص بالأخلاق. ومن هنا نراه في موضع آخر ينقل أقوالا تؤكد على الناحية الخلقية بومنها : « التصوف خلق. فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في التصوف ومداره على بذل المعروف، وكف الأذى » (6). ولاريب في أن هذا هو مقصد التصوف عند رواه من حيث التركيز على اصلاح الخلق (7). وأما ابن خلدون فيعده « من العلوم الشرعية الحادثة في الملة » (8). فالذي استقر الرأي عليه اذن أنه « علم » أي له مصطلحات تقنية وطرق في القيام بالمجاهدة والرياضة، ومواضيع يمتاز بها من « العلوم » الأخرى.

فهل يمكننا الآن أن نأخذ ما قاله قد ماؤنا ونسير عليه خطوة خطوة أو نرفضه رفضا كليا باعتباره مفهوما تقليديا لايعنيننا في شيء ؟ ان تبني أحد الموقفين يجعلنا غير تاريخيين، فاذا أخذنا بالمفهوم الاول على علته فسكون تراثيين غير معاصرين واذا أخذنا بالموقف الثاني فسكون معاصرين غير تراثيين مسقطين آراءنا المعاصرة على التراث فنشوهه من حيث لانشعر وندعي أننا نجدد. واذن لامناص من صياغة تحديد جديد يجمع بين الأصالة والمعاصرة، والماضي والحاضر.



(5) يقول ابن الخطيب في روضة التعريف بالحب الشريف - تحقيق : محمد الكتاني. ط. دار الثقافة : « والشرعية كتاب الله.. وعلم الوعظ وهو الترهيد في الدنيا والترغيب في الآخرة وعلم التخلق، وهو مكارم الأخلاق ، وطرائف أهل الصوفية » ج : 1. ص : 197.

(6) روضة التعريف بالحب الشريف (ج : 2. ص : 477).

(7) انظر

— Massignon L. : Essais sur les origines du Lexique technique de la mystique Musulmane.

(8) انظر المقدمة « الفصل الحادي عشر في علم التصوف » ص : 467 وما بعدها . ط. دار

مقدمة

1- فلندع ما كان يسميه قدامونا بعلم التصوف : الكتابة الصوفية. ولنعرفها مؤقتا بأنها تهدف الى تكوينى انسان كامل بطرق خاصة في سياق معين.
ثم لنحلل هذا التعريف تحليلا أوليا لنتبين عناصر التي يتركب منها، والاشكالات التي يطرحها :

- ان هذا التحديد نسبي لاعتماده على استقراء نسبي، فلا ندعي أننا قرأنا كل المصنفات الصوفية قراءة تمحيص، وانما قرأنا بعضها، ثم انه مبني على وجهة نظر معينة تجمع بين المطلق والنسبي، فمن يؤمن بالمطلق سيخالفنا، ومن يعتقد النسبية المطلقة سيفرض وجهة نظرنا وانه ليست هناك كتابة واحدة، فهناك أنواع متعددة منها كالكتابة الفقهية، والكتابة الكلامية، والكتابة النحوية، والكتابة الشعرية.. فالكتابة الصوفية جزء من كل، تشترك مع هذا الكل الذي يرجع الى جنس أعم وهو اللغة الطبيعية (اللغة العربية) وان كانت لها خصائص بنيوية تميزها من غيرها. وهي أنواع فمنها المؤلف الذي نجد فيه غالب أنواع الثقافة العربية، وكأنه من كتب الأدب (9) ومنها الرجز الصوفي (10) ومنها الشعر الصوفي (11).

فما هي هذه الخصائص البنيوية التي تجعل من كتابة كتابة صوفية ؟ فهل يرجع ذلك الى الأغراض التي تناولها مؤلف ما مما درج على تسميته بالأغراض الصوفية ؟ أم يرجع الى استعمال المعجم الصوفي، أو الى الغرض والمعجم ؟ ؟ فليس ذلك ولا هذا بكاف فلا بد من أركان ثلاثة في كل كتابة صوفية وهي : الغرض، والمعجم التقني والمقصد، وهي أركان تكون وحدة غير قابلة للتجزئة. فمثلا اذا تناول مؤلف بعض الأغراض الصوفية ولم يستعمل اللغة الصوفية استعمالا صوفيا فكتابته ليست بصوفية كالكتابة الفلسفية فهي مع تناولها بعض المواضيع المشتركة بينها وبين التصوف مثل البحث في الحواس الخمس وما ألحق بها، وفي النفس والقلب والروح، وفي البحوث البرهانية لاثبات

(9) مثل : البيان والتبيين والكمال الخ

(10) مثل : مراسم الطريقة في فهم الحقيقة من حال الخليفة لابن البناء المراكشي....

والمباحث الأصلية... لابن البناء السرقسطي

(11) نجد أشعارا كثيرة في التصوف في هذه (ق8/ 14) مثل أشعار الساحلي صاحب

المدرسة الصوفية بما لقة وابن الخطيب وغيرهما.

وجود الله وغير ذلك. كما أن الذي يستعير القاموس الصوفي ولا يستعمله في غرض من الأغراض الصوفية المتعارف عليها فلا تسمى كتابته صوفية، مثلما نجد في الشعر الذي يستعير القاموس الصوفي. وإذا هدفت كتابة ما إلى نفس المقصد الذي تهدف إليه الكتابة الصوفية، ولم تستعمل اللغة الصوفية، ولم تطرق الأغراض نفسها فليست بصوفية كالكتب الإصلاحية (12). وإذا تناول مؤلف ما الأغراض الصوفية كلاً أو جزءاً واستعمل القاموس نفسه، ولم يقصد الذي يريده التصوف فليس بكتابة صوفية كما نجد في المؤلفات في الحب (13).

التجربة

الأصوات الثانوية :

فهو كل مؤلف في التصوف يحقق هذه الشروط من مبتدئه إلى منتهاه ؟ فلنجرب وليكن موضع التجريب « روضة التعريف بالحب الشريف » (14). لابن الخطيب، فأين يبتدئ الغرض الصوفي في هذا الكتاب وأين ينتهي ؟ للإجابة عن هذا السؤال يتحتم القيام بعزل للفصل بين ما هو صوفي فعلاً وما ليس به ظاهرياً بناءً على الاعتبارات السالفة. وسنسمي الأول بالمحور والثاني بالأصوات الثانوية.

وقد أشار ابن الخطيب نفسه بأن كتابه جمع فنونا من القول عدة فقال « ولم أترك فناً إلا جمعت بينه وبين مناسبه ولا نوعاً إلا ضمته إلى ما يليق به » (15). فما هي هذه الفنون أو الأصوات ؟ وهل يمكن تصنيفها ؟ وما الهدف منها ؟ هي القرآن والحديث والشعر والحكايات وأقوال العلماء السالفين والوعظ وعلم الكلام... أو بتعبير آخر فلنقل : إنها قسمان : مصادر تشريعية ومصادر إصلاحية، وبينهما تلازم وتداخل. إن المؤلف مطالب،

(12) مثل أدب الدنيا والدين للماوردي..

(13) مثل كتاب الزهرة لمحمد بن أبي داود، وطوق الحمامة لابن جزم

(14) سنعتمد على تحقيق الاستاذ محمد الكتاني - ط - دار الثقافة في جزئين

(15) روضة التعريف ص : 103

ضمن مفهوم التأليف العربي القديم، أن يرجع حتما إلى مصادر التشريع ليستمد منها شرعية ما يكتب، وفي أي ميدان من الميادين (16) فيستشهد بالقرآن والحديث وأقوال وأفعال السلف. ومن ثمة تصبح هذه المصادر تتكلم أصالة، ويصبح المؤلف يخاطب من خلالها تبعها.

— وأهم مصدر في كتاب ابن الخطيب : القرآن. فنراه أحيانا يأتي بآيات قصيرة تشبه الأمثال في إيجازها وعمومها وتأثيرها وجمالها. وأحيانا بآيات طويلة إذا كان المقام يقتضي ذلك، ويفسر مرات أخرى بعض الآيات المستشهد بها تفسيرا تأويليا لتلاءم مع تفريعات المتصوفة والفلاسفة وتخريجاتهم.

— أما الحديث فقد احتل حيزا كبيرا في كتابه. فقد أحصينا 187 « حديثا » وقد قصد المؤلف إلى هذا قصدا. فقد نقل : « شواهد من الحديث والخبر يجري صلاحها مجرى الزكاة من الأموال والخواطر من الأحوال، ويجري ماسواها من غير الصحيح مجرى الأمثال (17). فهو — إذن — يأتي بالصحيح لإقامة الحجة على صحة ما قاله أو ما قاله غيره، ويأتي بغير الصحيح قصد الإصلاح. ولسنا في حاجة إلى القول بأن كتب المؤلفين في التصوف زاخرة بهذه الأحاديث الموضوعة وضعا قصد الإصلاح. فقد « وضعوا أسانيد خيالية ليذيعوا في الناس أحاديث تحث على الصلاة والتوبة والحب الإلهي (18). ونذكر من بينهم المحاسبي والغزالي في كتابه الاحياء. وقد أثارت هذه الأحاديث الموضوعة نقاشا حادا في مختلف العصور بين المتصوفة والفقهاء المتشددون في الدين، وقد انتقل هذا النقاش إلى الغرب الإسلامي (19). وسواء حصل هذا في المشرق أم في المغرب فإن الموقفين يعسكان وجهتي نظر مختلفتين. فالفقهاء يرون كل ما خرج عن السنن الصحيح، وخرق

(16) ومن هنا شاع الأثر الذي يقول : كل أمر ذي بال لا يبيد في الله فهو أقطع أو أجذع.. أو ابتر.

(17) روضة التعريف ص : 103

(18) — انظر

— Massignon L. : Essais sur les origines du Lexique technique de la mystique Musulmane, p. 120.

(19) انظر لمعيار للونشريسي (ج 11، ص: 85 و 12 ص: 132).

قوانين التحديث بدعة وضلالة وكذب وبهتان. وأما المتصوفة فإن (المهم لديهم فيما يستشهد به ليس الحرص على إيراد كلمة كلمة أو أن فلانا أو علانا هو أول من قاله، وإنما هو بمثابة مثل يقبله السامع ويتذوقه وكأنه قاعدة حياة) (20). وإذا راجعنا الأحاديث التي أوردها ابن الخطيب فإن أغلبها مراسل أو أحاديث قدسية. فمصادره وموضوعة ومقصده حتمت عليه النسيج على هذا المنوال وقد أورد من الشعر ما ينيف على 1104 بيتا من الشعر ولا يقصد من الاستشهاد بالشعر إقامة الحجة، فهو يعرف أنه لا يصح احتجاج بما ليس بديني على ما هو ديني، وإنما يهدف إلى إثارة العواطف والانفعالات خدمة للغرض العام. فقال بهذا الصدد « واستكثرت من الشعر لكونه من الشجرة بمنزلة النسيم الذي يحرك عذبات أفنانها » (21). ولذلك كثيرا ما كانوا يصاحبون إنشاد الأشعار بالألحان، وذكر للهوى وأوصاف للمحبين ليؤثروا في المتعلم (22)

ووظيفة الشعر عند المتصوفة تحقيق المعاني العلمية والعملية وقد جلاها الشاطبي في كتابه « الموافقات » فرأى أنهم « ينتزعون معاني الأشعار ويضعونها للتخلف بمقتضاها، وهو في الحقيقة من الملح لما في الأشعار الرقيقة من إحالة الطباع وتحريك النفوس إلى الغرض المطلوب، ولذلك اتخذها الوعاظ ديدنا وأدخلوه في أثناء وعظهم (23). وقد وضعوا لهذا الشعر آدابا وشروطا تتعلق بمعانيه إذ يجب أن يكون مما لا يثير الشهوات، ولا يشجع على المحظورات ولا مما يناقض المعاني الدينية، واشترطوا في آله أن تكون مما لا تناله خسة العادة (24).

(20) انظر لويس ماسينيون المصدر السابق ص : 126 - 127. فقد ذكر أسماء بعض المؤلفين المسؤولين عن بعض الأحاديث القدسية المشهورة.

(21) روضة التعريف ص : 108

(22) روضة التعريف ص : 278

(23) الموافقات ص : 40 لابي اسحاق الشاطبي (ت. 790 - 1389م)

(24) كان انشاء الشعر مصحوبا بالآلات شائعا في هذا القرن (14.128م) بالغرب الاسلامي فمدرسة ابن سيد بونه قد جعلت الرقص والسماع من أهم تعاليمها وسنرجع في دراسة مفصلة لهذه النقطة. انظر روضة التعريف ص. 287 وما بعد وقد جمع الونشريسي عدة فتاوي تتعلق بالموضوع [انظر ج 11 ص (22)]

وارتباط الشعر بالدين، والسحر والكهانة والموسيقى ظاهرة عامة عند جميع الشعوب، ولذلك كان له لغته الخاصة به، ويغترف فيه مالا يغترف في الكلام النثري من ضرورات ومن تكرار وتجاوز في اللغة (25). « فإذا كان التكرار في اللغة العادية لا يغير دلالة الخطاب وحسب بل يسيء إليه إذ يكون تحصيل حاصل.. فإن الحال ليس كذلك في الشعر، فالوحدات الشعرية غير قابلة للتكرار، فإذا ما أعيدت فليست هي » (26).

— وأما الحكايات فهي صوت ثانوي يحتل مكانا بارزا (27). في مؤلف ابن الخطيب وهي تقوم بدور وظيفي مثلما تقوم به الأصوات الأخرى، إذ تجري دموع المريدين وتؤثر في قلوب العارفين وتهيج مواجد المحبين (28)، فكان يوردها بقصد هذه الوظائف لا باعتبارها مصدر تشريع، فقد اعترف بعدم صحتها في قوله : « وإلا فهذه الأنماط من الشعر والحكايات ضعيفة وما تقدمها مراتب شريفة، ولكن الشجرات أجزؤها متفاضلة، وبعضها عن البعض متنازلة فمنها الضروريات، وكماك الضروريات » (29). ويتجلى اعترافه بعدم صحتها في مظاهر تعبيرية عدة مثل : قيل. قال بعضهم حكى أن.

وصوت آخر يتصل بالحكايات وهو الأمثال فقد أورد في كتابه أمثالا عدة لسهولة حفظها ونجاعة تأثيرها. فقد استشهد بها في ذم الكسل معتلا إيرادها بقوله ونورد بعض الأمثال في ذمه مما يسهل حفظه ويجب لحظه فمن ذلك ... (30).

— على أن الذي يجب أن نقف عنده من هذه الأصوات الثانوية هو الصوت المتعلق بالحب إذ نستطيع أن نفصل قسما كبيرا منه (31)، ونجعله غير داخل في موضوعه الأساسي. فقد تعرض فيه لعلامات المحبة، سواء منها ما يرجع إلى باطن المحب كالشوق

(25) في المكتبة العربية مؤلفات عدة تتناول الضرورات الشعرية

(26) انظر 259-258.

— Cristiva Julia : Recherche pour une Semanalyse, pp. 258-259.

(27) فقد خصص للحكايات مايقرب ص 24 ص متتابعة بالإضافة الى الحكايات الأخرى

المتناثرة اثناء الكتاب كله

(28) انظر روضة التعريف (ج.2 ص 676)

(29) روضة التعريف (ج.2 ص 676)

(30) روضة التعريف (ج.2 ص: 193)

(31) فقد كتب فيه حوالي : 60 صفحة

الى المحبوب، والوجد والمراقبة، والطاعة له وكنتم سره، والعبية، والتعظيم، ومداومة ذكره والولوع بالاسم والصفة والغيبة والذهول والغيرة والأنس والحزن والحياء والخوف والرجاء، أو الى ظاهر المحب كحب الخلوة والصفرة والنحول والبكاء والزفير والسهر، والذل، والانكسار والدهش والحيرة، والسكر، والصحو.

فهذه المواضيع أولى بها الكتب الخاصة بالحب، وإن كانت تتوفر على جزء من القاموس الصوفي وعلى جزء من أغراضه، فإذا نظرنا اليها مستقلة عما قبلها وعما بعدها كانت حشواً، ولكننا ننظر اليها على أنها متعلقة بما قبلها وبما بعدها. ومن ثمة تسهم في خدمة المقصد العام.

وقد فطن ابن الخطيب نفسه لهذا التداخل الموجود فبين أن الفارق هو الهدف وأن « الأعراض التي تتبع المحبة من لوازم الشوق والهيام والوجد والغيرة والاستهلاك موجودة بنوع أشرف (32). » وأن هذا الحب السامي ليس كالحب الذي دون فيه المدونون « (32) ».

– وهناك أصوات أخرى متنوعة ذكرها ليكون كتابه « مسرحاً للفاره وغيره ويجد كل ميداناً لسيره وملتقطاً لطيره ومحكاً لغيره » (34). كما أنه لما تعرض لبحوث النفس البرهانية خاض في القول في ذلك « حتى يكون الكتاب مناهب في عيون وممتعاً في شؤون » (35). فكان يستطرد – اذن – لارضاء الآخرين من القراء الفعليين أو الضمنيين بمختلف نزعاتهم أو لفتح باب الاعتبار والانتقال من الخلق الى الخالق. فقد رأى الكلام في البدن من وظائف صنائع أخرى، ولكنه تكلم فيه للاعتبار (36)، أو لهدف الموضوعية والاحاطة بالموضوع (37)، أو لظهار معرفته كما هو الشأن لما أفاض في السيمياء والفلك ،

(32) روضة التعريف (ج2 ص 541)

(33) روضة التعريف (ج: 1 ص: 193)

(34) روضة التعريف ص: 103

(35) روضة التعريف ص: 103

(35) روضة التعريف ص: 149

(36) روضة التعريف ص: 156

(37) روضة التعريف (ج2 ص: 554)

فراى أن الوقت خال من يقوم بهاتين الصناعتين، ولذلك نبه على أنه « ممن لهم مماسه وتطفك في هذه الأغراض » (38). أو لصرف النفس من جو السرور واللعب بالزور الى جو الحزن والارتماض، فلذلك أفاض في الوعظ (39). أو لتعليم العامة مبادئ التوحيد. ففي فصل التوحيد اعترف أنه خرج عن الموضوع (40). ولكن الذي يغفر له نزعه التعليمية.

المؤلف والآخر :

والذي يثير انتباهنا في الكتاب كله هو الاستشهاد بأقوال السالفين. فلم ذلك ؟ أن الاستشهاد بأقوال السالفين لا يعتبر شهادة مرتبطة بزمان غير ولكن يعبر تعبيرا أنيا عن حقيقة يقينية (41). ثم بجانب هذا، فإن العقلية العلمية، في « العصور الوسطى » كانت ترى وفاءها لمصادر معلوماتها شرطا أساسيا للوصول الى الحقيقة (42).

على أننا يجب أن نفرق بهذا الصدد بين نوعين من المصادر (43). مصادر يأخذها مأخذ المصادر اليقينية التي لاتقبل نقاشا لقد استها أو لدليلها القطعي أولهما معا كالقرآن والحديث وأقوال سلف معروف كالغزالي، ومصادر أخرى يأخذ بها أحيانا ويرفضها أحيانا أخرى، فلم هذا التناقض ولم يجرئ الشخصية هذه التجزئة ؟ نعتقد أن المؤلف اثناء كتابته كان يستحضر الآخر فيتصور رد فعله المتوقع فيحتاط لإرضاء له، وخوفا على نفسه (44). وتمشيا مع العقيدة السائدة (45). فمن كان ينظر اليه بعين الرضا في بيئته

(38) روضة التعريف (ج.1ص. 393)

(39) روضة التعريف ص 21 وقد كتب في الوعظ 23 صفحة يغلب فيها وعظ الآخرين

(40) روضة التعريف ص : 204

(41) انظر

— Arkoun M. : Contribution à l'étude de l'humanisme Arabe au IVc/Xe siècle, p. 140. Essais sur la Pensée Islamique, pp. 185-231.

(42) نفس المصدر السابق ص : 148 وقارن أيضا ص31 و185 وسنكتفي هنا ببعض الايماءات

العابرة

(43) سنتعرض لدراسة المصادر الصوفية في القرن (14/8م) في دراسة أخرى مفصلة

وسنكتفي هنا ببعض الايماءات العابرة.

(44) ومع ذلك فقد كان كتابه روضة التعريف بالحب الشريف من الاسباب الأساسية في قتله.

(45) سنتعرض لهذه العقيدة في برنامج التكوين

يستشهد به بدون تردد كما يظهر في موقفه من الحلاج الذي كان الاندلسيون يحترمونه في هذه الفترة (46). وكذلك الشأن في ابن عربي، وابن الفارض الذي يرى بعض الباحثين أن ابن الخطيب لم يؤلف هذه الكتاب إلا دفاعاً عنه ورداً على ابن أبي حجلة وكتابه « غيث العارض في معارضة ابن الفارض » (47). مع أن الحملة على هؤلاء كانت على أشدها في المشرق، وصدرت فتاوى عديدة تدينهم (48).

على أننا سجلنا مواقف الرافضة والمحتاطة في عدة مواضع من كتابه، ففي صدر الحديث عن النفس النبوية قال : « وملك ذلك مما جلبناه ردعاً للعلة » (49). وقد يقول « وهذا يشم من قدره رائحة مطبخ الوحدة » (50). وأحياناً ينقل أقوالاً ولا يسمى أصحابها للاحتياط مثل الأقوال المتعلقة بالجبر المطلق وبأن الإنسان كتب له السعادة أو الشقاء منذ الأزل فادعي أنه اختصرها إذ لا يسعه الأسهاب (51). وإذا ما وصل إلى رأي قد يساء فهمه يرى أن لافائدة من إيضاحه (52).

فالمؤلف من حيث موقفه من مصادره كان يعيش في جبرية مزدوجة : مصادر معلوماته حددت له المجال الذي يجب أن يتحرك فيه، وموقف الآخر المفترض أو الواقعي كان يكيّف وجهة نظره إلى هذه المصادر. فكان إذن يحاول أن يوفق بين هذين المحورين : إرضاء قوائين الفن الذي يؤلف فيه، وإرضاء الجمهور القارئ في إطار اجتماعي وثقافي معين.

(46) انظر احتفاء زاوية ابن سيد بونة بالحلاج

كما لأن لابن الخطيب أشعاراً قالها بمحض أبي الحجاج يثني فيها على الصوفية والحلاج خاصة.

(47) ماسينيون في المصدر السابق والصفحة. أما كتاب ابن أبي حجلة المشار إليه فمنه نسخة

مخطوطة بالخرانة المكلية رقم : 1846م

(48) انظر كشف الغطاء... للحسين بن الأهدل اليمني (ت. 855-148م) فقد أورد هذه

الفتاوى وهي لبدر الدين بن جماعة وابن تيمية وغيرهما.

(49) روضة التعريف ص 196

(50) روضة التعريف ص : 196

(51) روضة التعريف (ج. 2 ص. 521)

(52) روضة التعريف (ج. 2 ص : 522)

البرهان

المحور :

قد يعترض معترض بعد هذا الذي قدمنا أن كتاب ابن الخطيب ليس الا كتاب أدب، وليس كتاب تصوف الا مجازا، وليس هذا بصحيح الا اذا نظرنا الى الأمور نظرة سطحية، فهذه الأصوات الثانوية متصلة كل الاتصال بالغرض المحوري متضافرة معه ومودية بصحبته الى المقصد العام أي المعنى الاجمالي الذي يؤدي اليه المؤلف (بالفتح).

وفوق ذلك، فالكتاب في التصوف لاريب فيه ويعزز هذا التأكيد عدة مظاهر : الأخذ بتقسيمات المتصوفة في القلب والروح والسر (53). والأخذ بتعريفهم للمحبة (54). واستعمال مصطلحاتهم والقصد الى مقصدهم وتناولهم اغراضهم، وتخصيصهم بباب دعاهم فيه بسادة المسلمين (55). وعنوان الكتاب نفسه « روضة التعريف بالحب الشريف ».

ومكونات المحور الأساسي مفهومان : مفهوم المحبة الذي يرى فيه المؤلف أنه : « لب هذا الباب ولباب هذا الكتاب، وعليه فليكن تحويم أولى الالباب » (56). وأن المحبة أصل وعنصر وباب جامع لجميع مقامات الصوفية، والأحوال الذوقية وأن المقامات مندرجة فيها (57). ومفهوم المعرفة « وهو جمهور الكتاب ومهمته والعنفوان الذي أوصل اليه نشوء المحبة، ومن بابه يشرع الى حضرة الفتاح العليم » (58). فاللب والمحور - اذن المحبة والمعرفة واذا كانت المحبة وسيلة الى الوصل والقرب ثم الشهود، ثم البقاء فان المعرفة وسيلة الى الوصول بالانسان الى مرتبة الولاية.

(53) روضة التعريف ص : 127

(54) روضة التعريف ص : 377

(55) روضة التعريف ص : 120 الفتن السادس في ذكر الصوفية سادة المسلمين

(56) روضة التعريف ص : 397

(57) روضة التعريف (ص : 406 : 2)

(58) روضة التعريف (ج : 2 ص. 413)

ونظن أن هناك محورا آخر ضمن هذا المحور وهولب اللباب، ونعني به المعنى الخلقي. فاختيار المؤلف تعريف التصوف بالخلق الحسن وتبنيه تعريف أهل التصوف الخلقي للنفس من حيث هي أصل جامع للصفات الذميمة من الانسان تجعلنا نرجح أن لب لباب الكتاب أو مقصده العام هو اصلاح الأخلاق. وهذا كما سنرى هو ما يتلاءم مع وضع المؤلف، والحالة في الأندلس في هذه الفترة وان كنا نسلم بوجود جدلية بين المفاهيم الثلاثة (المحبة - المعرفة - الاخلاق الحسنة).

فلنختر اذن ما يتعلق بالأخلاق إذ أنها أساس الارتياض ولنحلله لنتبين مقاصد المؤلف ونكتشف ماهية الخطاب الذي صاغ فيه هذه المقاصد من خلال فقر من المؤلف (59). وأول خطوة هي أن نرد مفاهيم هذا النص الى محورين : محور الخير ومحور الشر، ثم يمكن اختصار هذه المفاهيم الى مجالات دلالية.

الخير :	الشر	العدل (أو الحد الأوسط)
المجال 1 :		
الحكمة حسن الرأي	التبذير	التهور
سلامة الفطرة	البله	الشجاعة
استقامة التدبير	الغباوة	الجبن
التقصي لدقائق الأشياء	الحمق	الشهوة
		العفة
المجال 2 :		الخمود
كبر النفس	التهور	
المسامحة	الكذب	
الظرف	المكر	
الوقار	الخداع	فمحور الخير يعني العدل
الحلم	الجبرية	(الحد الأوسط) ومحور الشر
العفة	الصلف	يعني غيره (الافراط والتفريط)
المساعدة	الكبر	
حسن الخلق	التصريب	

المجال 3 :

الحرص	السماح
الشره	الورع
	القناعة
	الزهد
	العدل

المجال 4 :

الجبن	الاقدام
المهانة	الاحتمال
الذلة	النجدة
	الشهامة
	الثبات
	الصبر
	الشجاعة

ملاحظة :

تظهر هذه المجالات متداخلة، فليس لكل مجال سمة أو سمات تميزه من غيره. على أن الذي يجب التركيز عليه هو المحور وما يحتوي عليه. فالخير ونقيضه الشر يؤديان الى الحد الأوسط.

إن هذه المجالات يمكن لنا أن نصوغها في تعبير : الانسان - في - العالم ومعناه علاقة الانسان مع الله ومع مجتمعه ومع نفسه. فإذا تغلبت خصال محور الخير فهو من أصحاب اليمين الذين يرضون ربهم ويفيدون مجتمعاتهم، ويعيشون في وئام مع أنفسهم، وإذا تغلبت خصال محور الشر فهو من أصحاب الشمال المتسمين بأضداد ما تقدم.

ولا شك فإن هذه الخصال الحميدة من حكمة وحسن خلق وعدل وشجاعة قديمة قدم الانسان العربي، فأدبه مليء بها، ولكنها تستمد تاريخيتها من حاجات المجتمع الاندلسي في هذه الفترة (ق 8هـ / 14م) فقد كان في حاجة الى حكيم عليم يضع الأمور مواضعها ويزنها بميزان العدل، وشجاع يواجه النفوذ المتعاضم للنصارى وتهديدهم لمملكة غرناطة، كما كان المجتمع في حاجة الى أخلاق مثالية تضمن وحدة الأمة، وتجنبها التفرقة.

فقد كان الاصلاح الخلقي يهدف الى تكوين إنسان كامل متسم بصفات العدل (الحد الأوسط) متشبه بالمبدأ الاول، ومعلوم أنه لا يمكن التشبه به إلا بتجرد النفس (عن الشرور والظلمات، وهي الأوصاف التي لا يتصف بها المبدأ الاول) (60). مشارك للنبي في عدة أمور منها : انه يصير يفعل بمجرد الهمة : « فيما لم تجر العادة أن يفعل إلا بالجوارح والجسوم مما لا قدرة عليه بعالم الجسوم » (61). ومعنى هذا في نظر ابن الخطيب - أن يصير هذا الانسان « إلهاً » أرضياً قد حل فيه جزء أو أجزاء من الذات الإلهية لأنها أحبته، وإذا أحبته كانت سمعه وبصره. ولعل هذا يؤدي بنا الى معرفة السبب العميق الذي جعل مفكري هذا القرن يتبنون النموذج الصوفي ويختارونه حلاً لمعضلات المجتمع.

وقد قدم ابن الخطيب هذه المثل في أسلوب تعليمي « علمي » ويتجلى هذا الأسلوب في المظاهر الآتية - غياب العلامات التي تدل على المتكلم كمثل ضمير المتكلم (أنا) و « يائه »، وأفعال الظن واليقين والرجحان، أو تعابير مثل : عندي، وفي رأيي ... وهذا لا يعني أنه غائب مطلقاً، فهو يتكلم من خلال أصوات الآخرين، وهذا ما نراه في عبارته « فلنتكلم » « فنقول ».

(59) روضة التعريف (ج : 1 ص : 227 - 228) (ج : 2 ص : 438 - 440)

(60) روضة التعريف ص : 295

(61) روضة التعريف (ج : 2 ص : 508)

(62) فقد اعترف ابن الخطيب أنه ادار كتابه حول الحديث المشهور « فإذا أحببته كنت

سمعه وبصره » انظر روضة التعريف (ج : 2 ص : 404)

- لا نرى أي خطاب صريح مثل أفعال الأمر، والنهي والاستفهام، والنداء والدعاء لأنه ليس خطاب جدال أو نزاع، فما صاغه من مبادئ متلقى من الأمة جمعاء بالقبول، وأن كان لا يخلو من الخطاب الضمني (افعل ولا تفعل)

- كثرة الاحالات (63). وهي نوعان : إحالة خارج النص ليثبت صحة ما يقدمه من معلومات، ورأيها في موقفه من مصادره. وإحالة داخل النص نفسه ليضمن تنسيق خطابه وربط أجزائه بعضها ببعض. وإذا ما تجاوزنا النص المحلل الى الكتاب كله فإننا نجد فيه إحالات كثيرة. فمثلا لما تكلم في القسم الثاني من إعادة السكة أحال بقوله « وتامم الإشارة يلح من طاق أقسام المحبة أن بلغنا الله اليه » (64). ولما تكلم على أهل الاتحاد والحلول قال : « وكان حق هذا الفصل أن يجعل مع الثمرة لكن استدعته جرثومة الاتحاد، ويتم الكلام عليه في محله ان شاء الله » (65). ولما تكلم على الأخلاق المذمومة وانحراف النفس ودواء انحرافها قال : « وعلاجه العام المجرب هو الذكر، وتتبين أقسامه وفوائده، وصورة استعماله في دكان الأسباب الذي نحكم فيه صيدليته إن اعان الله على ذلك بحوله وقوته » (66). هذه أهم خصائص الخطاب التعليمي، ونحن نعلم أن ليس هناك خطاب تعليمي محض فقد ينضم بعض مظاهر الخطاب الجدالي أو الشعري (67).

(63) ترجمنا Anaphorisation. بإحالة

(64) روضة التعريف ص : 213

(65) روضة التعريف ص : 220

(66) روضة التعريف ص : 213، وانظر أيضا ص : 127، 147، 206، 231، 248، 254، 277

528.

(67) استفدنا في كتابة هذه الفقرة من التيار اللسني المدعوبنظرية الخطاب أو الحديث :

La théorie du discours.

برنامج التكوين

2 - قد رأينا فيما مر الأغراض التي تناولها الكتاب ودلالاتها ومقاصدها، وعلينا الآن أن نرى الطرق الخاصة التي يتبعها التيار الصوفي في التكوين، ولكن هذا التكوين يختلف باختلاف نزعات شيوخ التصوف إذا الطرق الصوفية متعددة، فهي فيما يرون - عدد أنفاس الخلائق وقد اعترف المؤلف بأن « الطرق المملوكة الى تجريد النفس عن عالم الحس وتصفيته متعددة » (68). وهكذا نراه يهاجم أهل الوحدة المطلقة مثل الطائفة الشاذلية والسبعينية وأصحابهم لأنهم ارتكبوا « مرتكبا غريبا من القول بالوحدة المطلقة وهاموا به ومؤهومه ورمزه واحتقروا الناس من أجله » (69). ومن ثمة يهاجم ابن سبعين كبيرهم الذي علمهم السحر وتلميذه الششتري ومريديهما لأنهم يدعون الاتحاد بالله وصاروا معه شيئا واحدا، فهم الى الهذيان أقرب وأبعد الناس عن الصوفية، (70). وأن كانوا يعتمدون في دعواهم على آيات مؤوليتها تأويلا يتفق وأنظارهم، « وأحاديث نبوية لم يثبت شيء منها في الصحيح ولا ينبغي عليها حكم » (71).

وصورة السلوك عند هؤلاء : الرياضة، وعبور النفس بطريق التحليل وتنزل الفيض الرحمانى من لدن الذات الى العقل الى النفس الى ذوات العالم الى الهيولى الى العنصر الى المولدات الى الانسان ثم يصعد بالترتيب راجعا عن سلسلة التنزل الى بده اللازم وهو الحق (72).

وأما مدرسة ابن العريف وأصحابه فهم « يبنون السلوك على الرياضة الى مقام الجمع شأن من قبلهم وأتقن ترتيبا وأكثر معارج » (73).

(68) روضة التعريف (ج:2، ص: 597)

(69) روضة التعريف (ج:2، ص: 605)

(70) روضة التعريف (ج:1، ص: 219)

(71) روضة التعريف (ج:2، ص: 603)

(72) روضة التعريف (ج:2، ص: 602)

(73) نفس المصدر والصفحة

فما المنهج الذي اختاره المؤلف للتكوين والتربية ؟ لقد اختار طريقة الشاذلية لأنها أشهر طائفة في عصره في الاندلس والبلاد المشرقية (74). وبرنامج التكوين يتلخص في أن يبدأ بتعليم المريد كلمتي الشهادة، والايمان بالجنة والنار والحشر ومعرفة مسائل من علم الكلام يناضل بها عن اعتقاده، والمحافظة على أركان الايسلام الخمسة مع العمل بروحها، والأكل الحلال، وتجنب الحرام، وعدم التعقم في مسائل التصوف، واختيار اصدقاء اتسموا بسمات حميدة غير فسقة ولا مبتدعة، ولا حريصين على الدنيا، واختيار وقت العبادة وأفضله ثلث الليل الأخير الى الفجر والأدعية المناسبة لكل حالة ووقت، والحرص على الذكر الذي هو «هجري السنة المحبين، وسلم الواصلين من السالكين» (75). بأصنافه العشرة من تعوذ وبسمة واستغفار، وتصلية، وتقديس، وتسبيح، وحمد له، وتهليل، وتكبير، وحوقلة، ودعاء بالاسماء الحسنى. وتقرب الى الله بالسمياء مع شروط في ذلك. واتخاذ شيخ طيب الأخلاق عالم بالشريعة والطريقة والحقيقة وبحقائق الأمراض النفسانية والأدوية المزيلة لها من رياضة وأذكار ومجاهدات ومكابدات (76).

والمريد عليه أن يسلك طريق الشاذلية ضمن عقيدة الأشعري من حيث أن يعلم وجود الله وقدمه وبقائه، وأنه ليس بجسم ولا جوهر ولا عرض ولا جهة له ولا مكان وأن يعلم أنه حي عالم قادر سميع بصير متكلم منزّه عن ظروف الحوادث (77). وأن يعلم أن معرفة الله وطاعته واجبة بإيجاب الله وشرعه لا بالعقل (78). وأن يعتقد نظرية الكسب السننّيّة

(74) روضة التعريف (ج:2، ص: 620)

(75) روضة التعريف (ج: 1، ص: 303)

(76) حل هذه العناصر المذكورة يحتاج الى دراسة خاصة. فمسألة الذكر مثلا كانت مدرسة الساحلي تعيها أكبر الاهتمام ومسألة السلوك على يد الشيخ أثارت جد الا غنيقا في أواخر هذا القرن (14هـ / 18م) شارك في هذا الجدل ابن عباد، وابن خلدون والقياب. والشاطبي

(77) روضة التعريف (ج: 1، ص: 205) وانظر أيضا ص: 198

(78) روضة التعريف (ج: 1، ص: 255)

التي جمعت الدلائل السمعية (79). وأن يبتعد عن المذاهب الغالية من معتزلة واتحاديين وحلوليين (80).

ولب برنامج التكوين المجاهدات والرياضات. مجاهدة النفس على ترك المال والجاه والعصيان والتقليد، وتعويدها على الخلوة والصمت والجوع والسهر واختيار الوان بسيطة من الخضرة والبياض، وسماع ألحان مناسبة ومشموم طيب، وتزوج لا تشعل اغراضه عن القصد، وملبوس يكون دافعا لضرر الفصول نظيفا موافقا للشرع والطبع.

وأما الرياضات فعليه أن ينتقل من مقام الى مقام الى أن يصل الى حضرة الحق « فكلما عرج عن مقام التفت اليه من الذي يليه فكملة حتى يستوعب المنازل ويطوي المراحل ويتصف بهما في أطوارها الثلاثة ودرجاتها المتفاضلة » : اسلا ما وايما نا واحسانا « (81).

والرياضات عشرة أقسام، وكل قسم عشرة فروع :

- فقسم البدايات فروع : اليقظة ، والتوبة، والمحاسبة، والانابة، والتفكير، والتذكر، والاعتصام ، والفرار، والرياضة، والسماع.

- وقسم الأبواب فروع : الحزن، والخوف، والاشفاق، والخشوع، والاختبات، والرهذ، والورع والتبتل، والرجاء، والرغبة.

- وقسم المعاملات فروع : الرعاية، والمراقبة، والحرمة، والاخلاص، والتهديب، والاستقامة، والتوكل، والتفويض، والثقة، والتسليم.

- وقسم الأخلاق وفروع : الصبر، والرضا، والشكر، والحياء، والصدق، والايثار، والخلف، والتواضع، والفتوة، والانبساط.

- وقسم الاودية وفروع : الاحسان، والعلم، والحكمة، والبصيرة، والفراسة، والتعظيم، والالهام، والسكينة، والطمأنينة، والهمة.

(79) روضة التعريف (ج : 1. ص : 221)

(80) روضة التعريف (ج. 1. ص 214 - 225) وعلاقة العقيدة الا شعرية بالطريقة الشاذلية

تحتاج الى دراسة مفصلة فمثلا لتفهم مسألة التوكل عند الشاذلية فلا بد أن تفهم مسألة الكسب الاشعرية.

(81) روضة التعريف (ج : 2 ص : 466)

- وقسم الاحوال وفروعه : القصد، والعزم، والارادة، والأدب، واليقين، والانس، والذكر، والفقر، والغنى، ومقام المراد :

- وقسم الاحوال وفروعه : المحبة، والغيرة، والشوق، والقلق، والعطش، والوجود، والدهش، والهيمن، والبرق، والذوق.

- وقسم الولايات وفروعه : الحظ، والوقت، والصفاء، والسرور، والسر، والنفس، والغربة، والفرق، والغيبة، والتمكن.

- وقسم الحقائق وفروعه : المكاشفة، والمشاهدة، والمعانية، والحياة، القبض، والبسط، والسكر، والصحو، والاتصال، والانفصال.

- وقسم النهايات وفروعه : المعرفة، والفناء، والبقاء، والتحقيق، والتلبيس، والوجود، والتجريد، والتغريد، والجمع، والتوحيد.

- فهذه عشرة أقسام تحتوي على مئة مقام تستوعب المنازل والمراحل يتدرج فيها كل صوفي

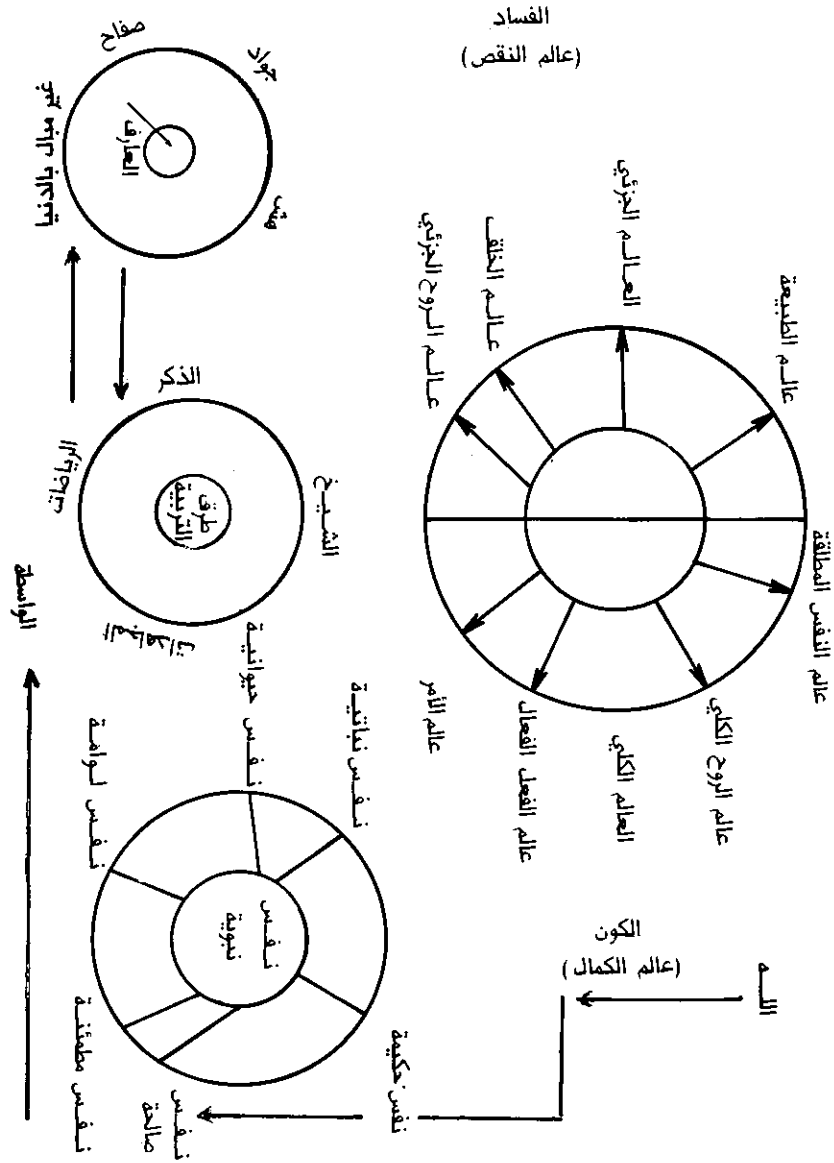
اثناء سيره في طريقه نحو ربه. حتى يصير عارفا « والعارف أنموذج مختصر من النبي » (82) ومن هناك يكتسب العارف سمات الالهية فيأتي بالخوارق والمعجزات (83).

ومنطق المتصوفة - بناء على ما تقدم - يمكن أن نتصوره فيمايلي : أن نفس العارف أنموذج مختصر من النبي، ونفس النبي مستمدة من الكون، والكون صادر عن الله. فهو اذن يستمد من الله بواسطة بعد أن صفى نفسه وقطع كل المقامات الصوفية تدريجيا أو طرفة. ولنوضح الآن هذا بتبليغات :

(82) روضة التعريف (ج : 2 - ص : 414)

(83) قدمنا أسباب هذا الحلم. وهذا أيضا ما أكده ابن خلدون في المقدمة بقوله : « وقد يوجد البعض المتصوفة واصحاب الكرامات تأثير أيضا في أحوال العالم، وليس معدودا من جنس السحر، وإنما هو بالامداد الالهي، لأن طريقهم ونحلهم من آثار النبوة وتوابعها » ص : 502 ط - دار البيان

(84) اقتصرنا في البيانات على بعض المفاهيم دون استقصاء اكتفاء بما يوضح المنطق الضمني الصوفي. فهناك نفس امارة، جزئية، كلية...



وليس هناك شك في أن برنامج التربية المقترح وبخاصة ما يتعلق بالرياضات والمجاهدات قد ائتم فيه بكتاب منازل السائرين للهروي (85). لان مؤلف هذا الكتاب هو الامام، وكتابه الزمام، وأن كان ما جاء فيه نتائج لا تفيد وأخبارا لا تبدئ في صورة السلوك ولا تعيد (86). فهو يخالفه - اذن - ولكنه ينقل عنه، وان كنا نجد عبارات ساقطة بتمامها فلا ندري أذلك من ابن الخطيب أم من النسخ أم من اشتداد الحملة على الهروي، واتهامه بالحلول والوحدة. وقد أكد هذا ابن خلدون بعد سنوات قليلة من قتل ابن الخطيب. فقد ورد في المقدمة قوله : « ان هؤلاء المتأخرين من المتصوفة المتكلمين في الكشف، وفيما وراء الحس، توغلوا في ذلك فذهب كثير منهم الى الحلول والوحدة.. وملأوا الصحف منه مثل الهروي في كتاب المقامات له وغيره » (87).

في سياق معين

3- وقد اقترح ابن الخطيب برنامج التكويني ضمن سياق معين، ونعني بالسياق الثقافة السائدة، والأوضاع السياسية والاجتماعية واعتبار شخصية المؤلف (88). وقد ألمعنا الى الثقافة السائدة بشكل غير مباشر (89). حين استعرضنا برنامج المؤلف في التكوين. فلنلمع الآن الى الناحية السياسية. ولن نستفيض في القول فيها بل سنقتصر على الاشارات الواردة في الكتاب محافظة على الوحدة، ورفضاً للبحث عن الاسباب خارج الكتاب. وأهم مراكز عليه المؤلف الهلع الذي أصاب الاندلسيين من النصارى في هذه الفترة. فالأمة الاندلسية غريبة « عن الانتصار والأقطار من وراء أمواج البحر الزخار » (90). وقد توفر العدو على حصره ودار به دور السوار على خصره » (91). وقد تكاثر هذا العدو على المسلمين حتى صاروا « نسبة الشعرة من جلد الناقة » (92). وقد كان ابن الخطيب صادقاً في هذا

(85) ابو اسماعيل عبد الله بن محمد الانصاري الهروي (396 - 481 هـ)

(86) روضة التعريف (ج : 2، ص 406 - 476)

(87) انظر الفصل الحادي عشر في علم التصوف من المقدمة

(88) لذلك سنختلف معا لجنتنا لاثار الساحلي وابن عباد عنها هنا.

(89) ص : 16

(90) روضة التعريف ص : 92

(91) روضة التعريف ص : 94

(92) روضة التعريف نفس الصفحة

الشعور. فقد بدأت بوادر النهضة في أوروبا تظهر في استعمال أسلحة جديدة، وفي نشاط تجاري متعاطف وثقافي، مما رجع كفتهم فصاروا ينتصرون في جل المعارك التي يخوضونها ضد المسلمين في الأندلس. وإذا أضفنا إلى هذا الفتن الداخلية، وثورات الرعية، والكوارث الطبيعية من طواعين ومجاعات.. نعرف لماذا انكشفت هذه الفئات على نفسها وبدأت تحن إلى الماضي بشكل أكيد، والميل إلى أشكال تعبيرية تتلاءم والوضع الذي حدث فتأليف ابن الخطيب اذن في التصوف ينبغي أن يفسر لا أنه دلالة على الانحطاط، ولكنه عملية إعادة التوازن للمجتمع حيث صار العقل يكون عامل تفرقة اضافي « (93). وزيادة على اشباع هذه الحاجة الجماعية فقد ألف فيه لاشباع حاجة ذاتية : فقد عانى النفي والمكاييد السياسية، وفقد الأهل، وجرب التصوف في المغرب الأقصى، واراد أن يبسط التصوف لقراءه اذ تعاطاه الجهلة « الذين ليسوا بواصلين ولا مجربين وليست فيه الا كتب مقفلة وأغراض مغلقة » (94).

خاتمة :

- وأهم ما نستخلصه مما سبق أن التصوف هو ككل نوع أدبي له بنية دينامية تتغير خلال عملية التاريخ، فليست مطلقة كل الاطلاق، وليست نسبية كل النسبية فالمطلق يحقق ضمن النسبي والعكس حاصل. وهذا ما توخيناه في التحديد الذي اقترحناه.

- أن الخطاب الصوفي لا بد أن تتوفر فيه ثلاثة اركان لا تتجزأ (الغرض، المعجم، المقصد). وليس فصلنا الذي قمنا به الا بقصد بالتحليل. فالاصوات الثانوية والمحورية متضافرة تؤدي الى مقصد وحيد.

- أن الكتاب من حيث التعبير يمكن النظر اليه من ناحيتين : خطابية ويدخل ضمنها الشعر والوعظ والدعاء، ويحتاج الى تحليل خاص يراعى فيه ما يراعى في الأسلوب التعبيري، وخطاب غيبية وهو من أهم سمات الخطاب التعليمي، وقد حللنا جزءا منه.

- ان اللجوء الى الحل الصوفي يعكس فشل وجهة النظر الرسمية، والرغبة في إعادة التوازن الى المجتمع، واقتراح طرق جديدة لتكوين الفرد المنقذ.

طه عبد الرحمان

النحو الصوري واللسان الطبيعي

استجد السؤال عن اللسان الطبيعي في اطار الوسائل الصورية والرياضية التي توفرت للباحثين في ميادين اللغات الاصطناعية، ولغات البرمجة والترجمة الآلية. وابتدأ هذا الطرح الرياضي للسؤال اللغوي مع شومسكي في كتابه « البنى النحوية » الصادر سنة 1957، وتوالى، بعد ذلك، الدراسات في هذا الاتجاه لباحثين من مختلف الاختصاصات : رياضيين ومناطق، ولسانيين، تأسس بفضلها علم اللسان الرياضي. ويمكن مبدئيا تعريف موضوع هذا العلم بأنه دراسة الخصائص الصورية للغة والنحو. ولما كانت هذه الأبحاث تلجأ في تحليل اللغة ووصفها الى وسائل الجبر والمنطق، فقد طغت عليها الرمزية والصورية، وكان لابد أن ينفر منها النحويون واللغويون الذين لم يألفوا مثل هذا الأسلوب في أبحاثهم.

ولسنا هنا بصدد تبرير استعمال المناهج الرياضية والمنطقية فيما عرّف الى الآن بـ « العلوم الانسانية »، كما استعملت، من قبل، في العلوم الطبيعية فجعلت تقدمها أمرا محتوما ؛ وانما غايتنا أن نقدم، للقارئ، جوانب من علم اللسان الرياضي تساعدنا على ادراك طبيعة اللغة والنحو الذي تقوم عليه، نبتعد فيها، قدر الامكان، عن تعقيدات المنهج الصوري التي لا مناص منها في الحقيقة لأي مجال يريد أن تكون له نتائج علمية وفوائده العملية.

وقد ابتدأنا بتعريف بعض المفاهيم الرياضية الأساسية حتى يسهل على القارئ استيعاب النتائج المثبتة خلال هذا البحث، وانتقلنا بعد ذلك الى بيان النحو الصوري وخصائص اللغة التي ينشئها وأصنافها، ثم عالجت تطبيق هذه النتائج على الالسن الطبيعية، كما أننا أثّرنا بعض الملاحظات بصدد اللغة العربية وخاصة الجملة الفعلية فيها، هذه الملاحظات التي قد تشكل منطلقا لبحث لغوي يعتمد الأسلوب اللساني الحديث في معالجة اللغة.

أولا : مفاهيم رياضية أساسية

1 - الأبجدية :

ننطلق في وضع أي نحو أو بناء أية لغة من مجموعة غير خالية من العناصر أيما كانت.

وقد تتكون هذه المجموعة من حروف (ب، ج، د) (ننبه القارئ، الى أننا سنستعمل، لسبب تقني قاهر، بالنسبة للمجموعات، بدل الأقواس الحاضنة المتداولة، الأقواس الهلالية المخصصة في الرياضيات للبنىات المرتبة مثل الأزواج والثلاثوات والرابعوات ...)
أو من صويفات (1) أو صريفات (2) أو مفردات (3) أو من مقولات نحوية :

(فعل، فاعل، حال) أو من رموز مختلفة : (هـ ، ؟ ، +)

سوف نسمي هذه المجموعة، بالمقارنة مع حروف الهجاء التي ننطلق منها في تعلم اللغة المنطوقة، بـ « الأبجدية »، ونرمز اليها بـ « با » ونسمي عناصرها بـ « الحروف ».

2 - مجموعة المتواليات :

بعد تحديد الأبجدية، نقوم بضم حروفها، بعضها الى بعض، ونكون، بذلك، ما نسميه « متوالية » (4) أي ضمنية من الحروف متجهة في ترتيبها من اليمين الى اليسار.
مثال :

با = (المنطق، حضر، أستاذ)

متواليات = (أستاذ المنطق، حضر أستاذ، حضر أستاذ المنطق ...)

ولا نكتفي بضم حروف مختلفة بعضها الى بعض، فقد نضم الحرف الى نفسه أو نكرره في مواقع مختلفة من المتوالية، كما هو الشأن في المتواليات الآتية :

(أستاذ أستاذ، حضر حضر أستاذ، المنطق أستاذ المنطق ...)

وتشكل مختلف المتواليات المتكونة من أبجدية مشابهة مجموعة غير متناهية نرمز اليها بـ « بـو » (5)، ولكنها مجموعة معدودة إذ من الممكن مقابلتها بمجموعة الأعداد الطبيعية.

وتعرف العملية التي تقوم في ضم الحروف بعضها الى بعض بـ « المـوالاة »

(6).

وتتميز الموالاة بخصائص رياضية محددة تجعل منها :

- عملية بالمعنى الجبري : أي علاقة معرفة تعريفا كلياً، فكل زوج مركب من عناصر مجموعة انطلاقاً - وهي مجموعة المتواليات - يقترن بعنصر واحد وواحد فقط من مجموعة الوصول.

- عملية داخلية : ذلك أن مجموعة تقويم الأزواج في هذه العلاقة هي نفسها مجموعة الانطلاق.

وكل مجموعة غير فارغة مزودة بعملية داخلية، تشكل، في الجبر المجرد، بنية خاصة تعرف بـ « شبه الزمرة » (7).

- عملية تجميعية : لا تتغير المتوالية المركبة بتغير مراحل مولاة عناصرها بحيث يتحقق فيها الشرط التالي :

$$س (ع ص) = (س ع) ص = س ع ص$$

فقد نضم ص الى ع ثم الحاصل منهما الى س أو نضم ع الى س ثم ص اليهما، لكن المتوالية الناتجة تظل هي في كلا التركيبين المختلفين.

وتعرف كل مجموعة غير فارغة مزودة بعملية داخلية تتمتع بخاصية التجميع، بـ « نصف الزمرة » (8).

- عملية ذات **عنصر محايد** ايسر وايسر هو المتوالية التي لاتضم أي حرف أي المتوالية الفارغة : خ
مثال :

$$خجد = جد (9)$$

$$جدخ = جد$$

وتعتبر خ بمثابة الوحدة بالنسبة للضرب.

وندعو في الجبر كل مجموعة مزودة بعملية داخلية تجميعية تتوفر على عنصر محايد بـ « نصف الزمرة الواحدى » (10).

وعليده، فإن لمجموعة المتواليات من الناحية الجبرية، بو، بنية نصف الزمرة الواحدى.

ومن الممكن تعريف مجموعة المتواليات، بو، تعريفا استقرائيا (11).

- قاعدة الابتداء : كل حرف من حروف الأبجدية متوالية.

- قاعدة الاشتقاق : اذا كانت س و ص متواليتين فإن س ص متوالية.

- قاعدة الختم : لا متوالية بغير قاعدتي الابتداء والاشتقاق.

ولن نهتم في بحثنا الا بالمتواليات المركبة من عدد متناه من الحروف، وسوف نطلق على المتوالية المتناهية اسم « جملة ».

ومن الممكن حساب عدد المتواليات المنتهية إذا حددنا عدد عناصر الأبجدية وعدد الحروف التي تتكون منها المتواليات. فإذا كانت $با$ تتضمن n من الحروف وكانت كل متوالية تحتوي m منها، فيمكننا تركيب n قوة m متوالية مختلفة (12).

مثال :

$$با = (ب، ج، د) \text{ أي } n = 3.$$

وإذا افترضنا أن $m = 2$ فإن عدد المتواليات التي تتكون من حرفين هو 9، وهذه المتواليات هي :

$$= (بب، بج، بد، جب، جج، جد، دب، دج، دد).$$

3 - اللغة الصورية :

1.3 - تعريف اللغة :

إذا كانت $با$ هي الأبجدية و $بو$ مجموعة الجمل، فإن كل مجموعة جزئية من $بو$ تكون لغة صورية، $ل$ ، على $با$.
قد تكون هذه اللغة الصورية متناهية أو غير متناهية.

مثال :

$$با = (ج، د، ر)$$

$$بو = (خ، ج، د، ر، جج، جدد،)$$

$$ل = (جدر، جرد، جرج، جدد، رجد، ردد)$$

$$م = (جدر، جدد، جدددر،)$$

$$ن = (جدر، جسر)$$

فإن $ل$ لغة متناهية متفرعة عن مجموعة المتواليات، و $م$ لغة غير متناهية، ذلك أن مواقع الحرف ليس لها حد تقف عنده.

أما $ن$ فليست لغة على الأبجدية لأن إحدى جملتيها، $جسر$ ، تحتوي على رمز، غير موجود في $با$.

وإذا اتخذنا كأبجدية مجموعة الصوينات في اللسان العربي، فإن مجموعة الألفاظ العربية نعتبر مجموعة جزئية متناهية من مجموعة المتواليات الصوتية، تقوم القواميس بمهمة تعدادها وتدوينها. أما مجموعة الجمل العربية فهي مجموعة جزئية غير متناهية، لما يقوم في الجمل من إمكان تنويعها، وتمديدها بواسطة أدوات تقبل التكرار مثل واو العطف. واسم الموصول. وأداة الشرط.

2.3 - العمليات المجموعية على اللغات

ولما كانت اللغات الصورية مجموعات، فإنها تخضع للعمليات المجموعية مثل الاتحاد والتقاطع والاتمام. بل تتصف بجميع خصائص « جبر بول » من تبديل، وتجميع، وتساوي القوة (13). وتوزيع الوصل على الفصل، والفصل على الوصل، ونفي النفي، وقوانين مورغان.

مثال :

با = (ب، ج)

- فإذا حددنا ل بأنها اللغة التي تحتوي على المتوالية الفارغة وكل المتواليات التي تبتدئ ب « ب »، أي :

(خ، ب، بج، بب، ببج، ببب، ببجج، بببب، ...)

- وم بأنها تتضمن المتوالية الفارغة وكل المتواليات التي تحتوي على « ج » وحيدة أي :

(خ، ج، بج، جب، ببج، ببب، ببجج، بببب، بببجج، ...)

- فإن اتحاد ل وم (14) سيكون هو اللغة التي تتألف من المتوالية الفارغة وكل المتواليات التي تبتدئ ب « ب » أو تحتوي على « ج » وحيدة، أي :

(خ، ب، ج، بب، بج، جب، ببب، ببج، بببج، بببجج، بببب، ببببج، ببببجج، ...)

- ونقاطعها (15) هو المجموعة التي تنتمي إليها المتوالية الفارغة وكل المتواليات التي تبتدئ ب « ب » وتحتوي على « ج » وحيدة، أي :

(خ، بج، ببج، بببج، بببجج، ببببج، ببببجج، ...)

وإذا اتخذنا كأبجدية مجموعة الصوتيات في اللسان العربي، فإن مجموعة الالفاظ العربية تعتبر مجموعة جزئية متناهية من مجموعة المتواليات الصوتية، تقوم القواميس بمهمة تعدادها وتدوينها. أما مجموعة الجمل العربية فهي مجموعة جزئية غير متناهية، لما يقوم في الجمل من امكان تنويعها، وتمديدتها بواسطة أدوات تقبل التكرار مثل واو العطف. واسم الموصول. واداة الشرط.

2.3 - العمليات المجموعية على اللغات

ولما كانت اللغات الصورية مجموعات، فإنها تخضع للعمليات المجموعية مثل الاتحاد والتقاطع والاتمام. بل تتصف بجميع خصائص « جبر بول » من تبديل، وتجميع، وتساوي القوة (13). وتوزيع الوصل على الفصل، والفصل على الوصل، ونفي النفي، وقوانين مورغان.

مثال :

با = (ب، ج)

- فإذا حددنا ل بأنها اللغة التي تحتوي على المتوالية الفارغة وكل المتواليات التي

تبتدئ ب « ب »، أي :

(خ، ب، بج، بيب، ببج، بجب، ببج، بببب، ...)

- و م بأنها تتضمن المتوالية الفارغة وكل المتواليات التي تحتوي على « ج »

وحيدة أي :

(خ، ج، جب، بج، جبب، جبب، ببج، ببج، بجب، ببب، بببب، ...)

- فإن اتحاد ل و م (14) سيكون هو اللغة التي تتألف من المتوالية الفارغة وكل

المتواليات التي تبتدئ ب « ب » أو تحتوي على « ج » وحيدة، أي :

(خ، ب، ج، بب، بج، جب، بيب، ببج، بجب، جبب، ببب، بببب، ببج، بجب، ...)

بجب، ببج، ببج، ...)

- وتقاطعها (15) هو المجموعة التي تنتمي اليها المتوالية الفارغة وكل المتواليات

التي تبتدئ ب « ب » وتحتوي على « ج » وحيدة، أي :

(خ، بج، ببج، جبب، ببج، ببب، ببج، ببب، ...)

- أما اللغة المتممة (16) للغة ل فهي المجموعة المؤلفة من المتواليات التي لا تبدأ بـ « ب ».

أي : (ج، جب، جج، جيب، جيج، ججب، ججج، ...)

- كما أنه من الممكن تكوين حاصل ضرب لغتين (17)، وذلك بموالة جمل إحدى لغتين اللغتين بجمل الأخرى . وتنشأ عن مجموعة الجمل المتكونة لغة جديدة.

مثال :

هب أن ل وم لغتان

ل = (قام، يكتب)

م = (الطالب، الأستاذ)

فان ل × م = (قام الطالب ، قام الأستاذ، يكتب الطالب، يكتب الأستاذ)

م × ل = (الطالب قام، الأستاذ قام، الطالب يكتب، الأستاذ يكتب) .

نلاحظ هنا أن اللغة الناتجة عن الضرب ليست تبديلية.

3.3 - طريقنا تحديد اللغة

إذا كانت اللغة الصورية المركبة من رموز الأبجدية مجموعة جزئية من مجموعة المتواليات، وكانت جل اللغات تحتوي على عدد لا متناه من الجمل، فإن السؤال الذي يطرح علينا هو كيف نحدد لغة ما وكيف نعين الجمل التي تتكون منها. هناك طريقتان لذلك .

- طريقة السرد : إذا كانت ل لغة متناهية ، فيكفي لتحديد ل أن نسرد جميع عناصرها دون أي استثناء.

مثال :

با = (1,0)

فمن الممكن تحديد لغة ل، كمايلي :

ل = (01,001,0,10)

- طريقة التفعيد (18) إذا كانت ل لغة متناهية، فلا بد من توفر وسيلة غير السرد

لتحديد الجمل التي تنتمي إليها أي الجمل التي تعتبر سليمة.

هذه الوسيلة هي مجموعة متناهية من الأوامر المحددة التي يمكن تطبيقها خطوة خطوة، وبصورة آلية، والتي تؤدي إلى النتيجة المطلوبة، ابتداء من عناصر أولى معينة. ولا

بد من توفر آلة مجردة (19) أو حقيقية (20) تستوعب هذه الأوامر وتقوم بتنفيذها.

مثال حسابي :

لنفرض أننا نريد حل المسألة التالية وهي :

« أوجد عددا ، س . بحيث اذا جمعناه الى عدد معلوم ، ب ، اعطانا هذا الجمع عددا معلوما ، ج ، أي $ب + س = ج$. »

نفرض أن الآلة التي لدينا بمقدرتها التعرف على الأعداد الطبيعية، وأنها لا تستطيع القيام إلا بعملية حسابية واحدة هي الجمع، في حين يمكنها أن تقوم بالمقارنة والتصرف بناء على نتائج هذه المقارنة، فيمكننا أنذاك أن نصدر اليها الأوامر التالية :

- (1) - اقرأ العددين ب و ج .
- (2) - اجعل قيمة س مساوية 0 .
- (3) - صغ ب + س .
- (4) - اذا كانت ب + س أكبر من ب ، اكتب : « لا جواب » وتوقف ، واذا لم يكن الأمر كذلك . استمر .

(5) - اذا كانت ب + س = ج ، اكتب قيمة س وتوقف ، والا فاستمر .

(6) - ارفع قيمة س ب 1 .

(7) - عد الى الخطوة (3) .

مثال لغوي

البحث عن الكلمة في القاموس

(1) - خذ الحرف الاول من أصل الكلمة وابحث في القاموس عن الجزء الذي تبتدئ أصول كلماته بهذا الحرف .

(2) - خذ الحرفين الاولين من أصل الكلمة وابحث في هذا الجزء عن الصفحة الاولى التي تبتدئ بهما .

(3) - انظر انطلاقا من هذه الصفحة كلمات القاموس وقارنها مع الكلمة المطلوبة الى حين العثور عليها أو التأكد من عدم وجودها .

(4) - في حالة عدم وجودها ، خذ قاموسا آخر أشمل من القاموس السابق وعد الى الأمر (1) .

وهذه الطريقة التعقيدية هي التي يتضمنها الجهاز النحوي لكل لغة والأوامر التي تتكون منها بمثابة القواعد التي يضعها النحو لبناء جمل اللغة وتحديد انتماء أية جملة إليها.

4 - النحو الصوري :

نفرض أننا أمام لغة تتألف من جمل اسمية من هذا الصنف :

= (كل آمن بالله، المولود يولد على الفطرة،)

ونريد أن نضع طريقة تعقيدية نتأدى بها الى تأليف مثل هذه الجمل.

يلزمنا، بادئ ذي بدء، تحليل هذه الجمل لنتبين تركيبها، فهي جمل تتركب من مبتدأ هو اسم مرفوع ومن خبر، والخبر يتركب من فعل وشبه جملة. وشبه الجملة من جار ومجرور هو اسم أيضا : وكل من هذه الأسماء والأفعال وحروف الجر تقابله ألفاظ معينة.

ويقودنا هذا التحليل الى تمييز مجموعتين من الحدود :

- حدود لفظية هي

(كل، الله، الفطرة، المولود، آمن، يولد، ب، على) .

- حدود صرفية ونحوية هي :

(مبتدأ اسم مرفوع، خبر، فعل، شبه جملة، جار، مجرور .)

والى ربط عناصر هاتين المجموعتين بعضها ببعض في علاقات محددة هي :

(1) الجملة : مبتدأ خبر

(2) المبتدأ : اسم رفع

(3) الخبر : فعل شبه - جملة.

(4) شبه-الجملة : جار مجرور

(5) المجرور : اسم كسر

(6) الاسم = (كل، الفطرة، المولود، الله ،)

(7) الفعل = (آمن، يولد،) .

(8) الجار = (ب، على،)

(9) الرفع = و

(10) الكسر = ي

فنقطننا التفسير : « هنا تفيد « تتركب » وعلامة التساوي « = » تعني « هو » ، بينما موالاة أجزاء الجملة تقوم مقام واو العطف ، كما أننا اعتبرنا « و » بمنزلة الرفع و « ي » بمثابة حركة الكسر.

وتسمح لنا هذه العلاقات التي تنتقل بنا شيئاً فشيئاً من الجملة الى اجزائها، الى الألفاظ بإنشاء الجمل المطلوبة، فهي إذن بمثابة القواعد التي ينبغي الالتزام بها في انتاج مثل هذا الصنف من الجمل.

وعلى سبيل المثال نشق الجملة :

المولود آمن بالله

كما يلي :

- (1) مبتدأ خبر
- (2) اسم رفع خبر
- (3) اسم رفع فعل شبه - جملة.
- (4) اسم رفع فعل جار ومجرور
- (5) اسم رفع جار اسم كسر
- (6) المولود رفع فعل جار اسم كسر
- (9) المولود فعل جار اسم كسر
- (7) المولود آمن جار اسم كسر
- (8) المولود آمن ب اسم كسر
- (6) المولود آمن ب الله كسر
- (10) المولود آمن ب الله ي

قمنا بإشتقاق الجملة ، خطوة خطوة، بتطبيق قاعدة واحدة في كل مرة، وتشير الأرقام على اليسار الى رقم القاعدة المطبقة.

وبصفة عامة النحو نسق صوري متناه، يسمح بإشتقاق مجموعة غير متناهية من الجمل، وتحديد انتمائها الى لغة معينة، ونرمز اليه ب « نح »

ويتركب هذا النسق من العناصر التالية :

- أبجدية : وتتكون هذه الأبجدية كما رأينا من صنفين من الحروف :

- حروف نهائية (21) : مجموعة متناهية من الحروف المستعملة لبناء الجمل السليمة، وهي في المثال السابق مجموعة الألفاظ، ونرمز إليها بـ « حن » وإلى مجموعة المتواليات المركبة بـ « حنو ».

- حروف مساعدة (22) : مجموعة من المقولات النحوية أو الرموز النظرية التي تسجل المظاهر المطرنة والعامّة للغة والتي نستعين بها على انتاج الجمل السليمة، ومنها : الجملة والفعل والمبتدأ.....، وسوف نرمز الى هذه المجموعة بـ « حس » وإلى مجموعة المتواليات المركبة من عناصرها بـ « حسو » .

ويشترط في كلتا الفئتين من الحروف حن و حس الا تحتويا عناصر مشتركة فيما بينهما أي أن يكون تقاطعهما فارغاً.

فالأبجدية با هي بمثابة اتحاد حن مع حس، ومجموعة المتواليات « بو » بمثابة مجموعة المتواليات على هذا الاتحاد بما فيها المجموعة الفارغة ، وسنرمز بـ « بي » الى مجموعة المتواليات باستثناء المجموعة الفارغة أي بو - (خ) .

- القواعد النحوية : كل قاعدة نحوية زوج مرتب ينتمي طرفه الأيمن الى بي وطرفه الأيسر الى بو. وتقتضي القاعدة بإحلال الطرف الأيسر، في أية متوالية يرد فيها، مكان الطرف الأيمن.

مثال :

نفرض أن القاعدة هي : (ع، ف) وأن ه هي المتوالية = س ع ص ، فبمقتضى القاعدة نحصل على المتوالية و = س ب ف ص. وقد جرت العادة لدى اللسانيين أن يكتبوا القاعدة النحوية في صورة سهمية بهذا الشكل :

ع ← ف (السهم هنا لا ينتمي الى با)،

ويقرأوها : « ع تنسخ ف » أو « ع تنقل الى ف ».

ونصطلح على الرمز لمجموعة القواعد النحوية بـ « قع ».

ثانيا : أصناف النحو الصوري ولغاته :

لقد رأينا أن مجموعة المتواليات، بو، مجموعة غير متناهية، ولكنها معدودة مادامت الأبجدية التي تتركب منها محدودة العناصر وحيث من الممكن تطبيق مجموعة الأعداد الصحيحة الطبيعية، ط، تطبيقا تقابليا معها.

ولقد رأينا أيضا أن اللغة الصورية مجموعة جزئية من مجموعات المتواليات.

ونعلم من ناحية أخرى أن المجموعات الجزئية التي تتضمنها ط لا يمكن عدها حيث إنها تساوي، بمقتضى صيغة مجموعة أجزاء المجموعة : 2 قوة عدد عناصر ط ولما كانت مجموعة أجزاء ط غير معدودة (23)، فإن مجموعة اللغات التي هي أجزاء من بو غير معدودة هي الأخرى.

وإذا كانت اللغات غير معدودة، فهل من الممكن تعريفها بواسطة الانحاء الصورية التي رأيناها ؟

لقد بينا أن النحو مركب من حروف مساعدة ونهائية بحيث يمكن صوغه في متوالية متناهية، ومختلف الأنحاء تشكل مجموعة مكونة من عدد غير متناه من المتواليات المتناهية، بمعنى آخر، مجموعة معدودة عدا غير متناه.

وعليه، فإن مجموعة اللغات الصورية التي تنشئها الأنحاء الصورية هي، على أكثر تقدير، مجموعة معدودة أي أنها تشكل صنفا ضيقا من مجموعة اللغات غير المعدودة والممكنة ابتداء من ابجدية متناهية.

يتضح إذن أن من اللغات مالا يمكن انشاؤه عن طريق الانحاء الصورية، أما اللغات التي تنتجها فهي لغات معدودة.

فقد رأينا انه من الممكن تحويل النحو الى وسيلة آلية، وقواعده الى أوامر مضبوطة شكلا وعددا، تقوم بتعداد عناصر اللغة المطلوبة، الواحد تلو الآخر، في مجموعة المتواليات الممكنة.

وتتمتع بعض اللغات المعدودة بخاصية إضافية هي، خاصية « القبول » (24) فتكون لغات مقبولة.

فقد نستطيع بالنسبة لمجموعة ما من الجمل أن نتعرف على دخولها في لغة معينة، حيث من الممكن ايجاد وسيلة آلية تفصل في شأن انتماء كل جملة من هذه المجموعة أو عدم انتمائها الى هذه اللغة.

فما هي اذن أصناف الانحاء الصورية وخصائص اللغات التي تنتجها ؟
يميز الرياضيون بين أصناف مختلفة للنحو. ويتم هذا التمييز بناء على نوع القيود
التي يخضع لها طرفا القواعد النحوية. فكل صنف من الأنحاء له صورة خاصة من التقيد
تحده، وتحدد بالتالي صنف اللغة الصورية التي يولدها.

1 - النحو غير التركيبي :

نقصد بـ « النحو غير التركيبي » : النحو الذي لا يسند للجملة تركيبا معينا، وإنما
يكتفي بإشتقاق الجمل بعضها من بعض عن طريق القواعد.
ونصنفه الى نحو « غير مقيد » ونحو « غير قصري ».

2.1 - النحو غير المقيد واللغة غير المقيدة

يقصد بـ « النحو غير المقيد » (25)، كل نحو تكون قواعده مطلقة بحيث لا يشترط
في طرفيه توفر أي شرط من حيث طول كل منهما.
مثال للنحو غير المقيد :

نرمز للحروف المساعدة بحروف ممدونة بالألف وللحروف النهائية بالحروف العادية
القصيرة

حس = (جا)

حن = (ب، ج، د)

قع = ((بجاج، جاب)، (بجاج، ججا)، (جا، بجا)، (جاج، ج)،
(جاجد))

نشقق المتوالية : « يجدجب » بهذا الشكل :

جا، بجا، ببجا، ببجاج، بججا، بججا، بججاج، يججاب، بججاب، يجدجب.

وإذا كان النحو غير المقيد من أعم الأنساق النحوية، وأقدرها على انشاء أوسع
اللغات الصورية، فإنه ليس في متناوله أن يصف الكيفية التي تشتق بها تدريجيا الجملة
السليمة من المسلمة.

بالإضافة الى ذلك ، لا يستطيع النحو غير المقيد تحديد انتماء جملة معينة أو عدم
انتمائها الى اللغة الصورية أي تحديد اماكن اشتقاقها من مسلمة النسق النحوي.

3.1 - النحو غير القصري واللغة غير القصرية

من الممكن أن نضع بعض القيود للنحو غير المقيد، فقد نشترط بالنسبة لقواعده ألا
يرد الطرف الأيسر بطول أقصر من طول الطرف الأيمن.

ونحصل بهذا القيد على نحو يختلف عن النحو غير المقيد، ندعوه بـ « النحو القصري » (26).

مثال للنحو القصري :

حن = (ب، د، هـ)

حس = (جـ ا)

قع = (جـ، جـاد) ، (جـ، دجاب) ، (بـد، هـجـا) ، (دب، جـاه) ، (جـا، هـ)

ويتميز النحو غير القصري عن النحو غير المقيد بكونه :

- نحوا تستطيل فيه المتواليات أثناء عملية الاشتقاق ولا تقصر أبدا، حيث إن الطرف الأيسر يكون فيه إما مساويا للطرف الأيمن أو أطول منه.

- نحوا يتم فيه تحديد انتماء جملة معينة أو عدم انتمائها الى اللغة الصورية، ويكفي لذلك أن نشترك جميع الجمل التي يكون طولها مساويا لطول الجملة المذكورة، فإذا وردت الجملة المقصودة بينها كانت منتمة الى اللغة وإذا لم ترد، كانت غير منتمة اليها :

مثال :

لنسلم بالجملة النهائية « بههد » ، ولنحاول تحديد انتمائها : فطول هذه الجملة 4 رموز : ينبغي انن أن نقوم باشتقاق جميع الجمل التي يكون طولها 4.

إذا انطلقنا من المسلمة، فإننا نحصل على المتواليات :

جـاد (27)، دجاب، هـ

وما دامت بعض هذه المتواليات تحتوي على حروف مساعدة، فينبغي انن الاستمرار في الاشتقاق لكي نحصل على متواليات نهائية.

إذا طبقنا القاعدة (جـا، هـ) فيمكن انشاء بهد، دهب، وهما جملتان نهائيتان. ولكنهما أقصر من المطلوب.

أما إذا طبقنا القاعدتين (جـا، جـاد) و (جـا، دجاب) ، فإن المتواليات المتحصلة : بججاد، بد جـا بد ، « جـابب، دبجـادب، أطول من الجملة المطروحة.

وعليه، يتبين أن « بههد » لا تنتمي الى لغة النحو الذي وضعناه.

لكن النحو غير القصري يظل كسابقه غير المقيد، غير قادر على بيان طريقة تركيب الجملة.

ذلك أنه لما كنا نجري الابدال لا بحرف واحد وإنما بمتواليات من الرموز يفوق طولها

أو يساوي 2، فإنه لم يعد من الممكن أن نحدد تحديدا مضبوطا أسلاف الرموز.

فبالنسبة للقاعدة (دب، جاه)، فمثلاً، لا نستطيع تعيين سلف جاه، هل هو د أو ب أوهما معا كما يظهر ذلك في الشكل الاول (28).

4.1 - النحو السياقي واللغة السياقية

1.4.1 - النحو السياقي

قد يشترط في النحو غير المقيد :

- ألا يطول طرفه الأيمن عن طرفه الأيسر.

- أن يكون العنصر القابل للابديل في طرفه الأيمن رمزا مساعدا واحدا، بينما تكون العناصر الأخرى المحيطة به بمثابة السياق الذي يتحقق فيه الابدال، أي أن تأتي القاعدة على هذه الصورة :

(سجاص، سهاص)

حيث س و ص تنتمي إلى بو و ج إلى حس وها متوالية غير فارغة أي تنتمي إلى بي

يتبين من الشرطين المذكورين أن هذا النحو غير قصري، وأنه مرتبط بسياق يحدد بالضبط اطار تطبيق القاعدة، أي أن الرمز المساعد، ج، لا يمكن ابدال المتوالية غير الفارغة به، الا اذا ورد في سياق المتوالية اليمنى س والمتوالية اليسرى ص.

لذا، سمي هذا الصنف من النحو بـ « النحو السياقي » (29)

ومن القواعد غير القصرية ما يمكن رده إلى قواعد سياقية متكافئة معها أي تعمل عملها.

فمن الممكن تحويل كل قاعدة يتساوى طول الطرفين فيها أو يقصر طرفها الأيمن عن طرفها الأيسر إلى قاعدة سياقية.

مثال للنحو السياقي : ثا خا)

فقد تحول القاعدة غير القصرية

(جا ها، شاتا ثا خا)

إلى مجموعة القواعد السياقية التالية :

(جاها، جاطا) : السياق أيمن : جا

(جاطا، ضاطا) : السياق أيسر : طا

(شاطا، شاطا) : السياق أيسر : طا

(شاطا، شاتا ثا خا) : السياق أيمن : شا.

مما يدل على أن النحو السياقي متكافئ والنحو غير القصري، وأنه ينشئ نفس الصنف اللغوي الذي ينشئه النحو غير القصري.

وهو كالنحو غير القصري لا يسمح ببيان تركيب الجمل التي ينشئها. ذلك أن المتوالية في الطرف الأيمن لا تقتزن مباشرة بهذا الطرف فتمثل تحليلاً تركيبياً له (نحوياً)، وإنما ترتبط بالسيف في جزئيه الأيمن والأيسر.

علاوة على أن النحو السياقي قد يتضمن قاعدة تؤدي إلى قلب حرفين مساعدين بحيث جاها مثلاً، تصبح هاجا، فلا ندرك إذ ذاك هل الرمز هـ تحليل لـ جا أم أن جا هي التي تشكل تحليلاً لها.

2.4.1 - اللغة السياقية :

وينشئ النحو السياقي لغتين أساسيتين، اللغة النقلية واللغة الثلاثية ذات الصورة :

ب قوة ن ج قوة ن د قوة ن.

اللغة النقلية : تتكون كل جملة فيها من متوالية تليها متوالية مثلها.

مثال :

ل = (بب، جج، ججب، ججب،، بججبج، ببججبج،)

- اللغة الثلاثية يتركب كل عنصر فيها من عدد معين من مواقع الحرف ب يتلوه عدد مماثل من مواقع ج يليه عدد مماثل من مواقع د.

مثال :

م = (بجد،، ببجدد،، ببببجددد،)

وتتصف الجمل في اللغتين السياقيتين بترابط خاص بين عناصرها.

فبالنسبة للغة النقلية يرتبط الموقع الأول من المتوالية بالموقع الأول من المتوالية التي تليها والموقع الثاني بالثاني وهكذا.

وفي اللغة الثلاثية يرتبط الموقع الأول من المتوالية الأولى بالموقع الأول من المتوالية التي تليها، هذا الموقع الذي يرتبط بدوره بالموقع الأول من المتوالية الثالثة، وهكذا تستمر العملية بالنسبة للمواقع الأخرى.

ويمكن أن نمثل هذا الترابط بالنسبة للجملتين ببببجج من ل بالشكل الثاني و بببببجددد من م بالشكل الثالث.

ويظهر من خلال هذين الرسمين أن عناصر المتواليات المكونة للجملة متشابهة فيما بينها وبالتالي أن البنية السياقية « بنية تشابكية » (30) . ويمكن أن نعرف هذه البنية بواسطة النحو التالي الذي يولد متواليات من صنف $\mathbb{N}^3$.

حن = (ب، ج، د)

حسن = (ج، هـ، ش، ظ)

قـع = (جـاء ، بجاءعاشا) ، (جاء ، بعاشا) ، (شاعا ، شاتا) ، (بعها ، بج) (جـهـلـا .

جج) ، (جشاء، جد) . (دشا، دد) (

2 - النجوى التركيبى

نقصد بـ « النحو التركيبي » كل نحو لا يكتفي بإنشاء الجملة المطلوبة. وإنما يقوم أيضاً بإسناد بنية تركيبية معينة لها.

فلو كانت المتواليته هي : بجد. فإن النحو التركيبي لا يقتصر على اشتقاقها من المسلمة بل يبين طريقة هذا الاشتقاق ، ويحدد ما إذا كانت قد نشأت عن ب تليها ج يليها د أو عن ج يليها د أو عن ب تليها ج.

ويقوم هذا النحو في الأصل، على أساس تقسيم الجملة الى تراكيب مترابطة فيما بينها، والتراكيب الى أجزاء متصلة، بحيث لا يندرج الجزء الواحد تحت تركيبين مختلفين في آن واحد، وبحيث لا يحتوي التركيب الا أجزاء متجاورة.

فلا يمكن أن نقسم مثلاً، بجـد الى بـج وجد حيث يتكرر ج في التركيبين ولا الى بد
و ج حيث ب و د جزءان غير متجاورين.

ومن الممكن بيان هذا التقسيم التركيبي للجملة بواسطة ما يعرف بـ «التشجير» .
والشجرة تحدد، رياضيا، بكونها مخططا، وكل مخطط موجه وغير موجه، والمخطط
الموجه مكون من مجموعة من النقاط تدعى بالقمم. ومن مجموعة من الخطوط تدعى
بالأفواس، بحيث ينطلق كل قوس من قيمة معينة وينتهي الى قمة معينة. وإذا ارتبطت كل
قمة بعضها ببعض، يعتبر المخطط الموجه اقترانيا. وإذا تطابقت في هذا الارتباط قمة
نطلاقة بقيمة انتهائه، فإنه يكون دوريا.

والمخطط الشجري هو بالضبط مخطط موجه، متناهد، واقتراضي وغير دوري بحيث :

— توجد قهوة وحيدة لا يستعمل اليها أي قوس تعجب « أصل الشدة ».

— وكل فئة أخرى غير الأصل يقتضي اليشع قودس جديد.

- وكل قمة لا ينطلق منها أي قوس تقتزن برمز نهائي، ويدعي « ورقة ». في حين
كل القمم التي ليست أوراقاً فإنها تقتزن برمز مساعدة.
- ويكون اسقاطيا بمعنى أن الأقواس لا يختزف بعضها البعض، أي أن أخلاف القمم
تظل في نفس الترتيب الذي أتت عليه أسلافها يمينا ويسارا.
ويمكن تشجير المثال الذي عالجتنا تركيبه سابقا :
« المولود آمن بالله » كما في الشكل الرابع.
1.2 - النحو غير السياقي واللغة غير السياقية :
1.1.2 - النحو غير السياقي .

قد تتخذ القواعد النحوية صورة واحدة وتستجيب للشرط التالي :

- ألا يزيد طول الطرف الأيمن عن رمز مساعد وحيد ، أما الطرف الأيسر، كما هو
الشأن في النحو غير القصري، وبالتالي، في النحو السياقي، يكون متوالية غير فارغة
تتركب من رموز مساعدة أو نهائية أو منهما معا. وقد يتعدى طولها رمزا واحدا.
وتأني القاعدة غير السياقية على الشكل الآتي :
(جا، ها) حيث تنتمي جا إلى حس وها إلى بي
ويختلف هذا النحو عن النحو السياقي في كون المتواليات السياقية غير موجودة أو
مساوية للصفر، وهو بهذه الصفة « نحو غير سياقي » ويعرف أيضا باسم « نحو
شومسكي » (31)

مثال النحو غير السياقي :

حس = (جا، ها، طا)

حن = (ب، ج)

قع = (جا، بطا)، (جا، جها)، (ها، ب)، (ها، بجا)، (ها، جها)،

(طا، ج)، (طا، ججا)، (طا، بططا)

يتميز النحو غير السياقي عن غيره من الأنحاء الآنف الذكر بكونه لا يولد لنا الجمل
اللغوية فحسب، بل يصحب توليدها بالوصف التركيبي لها.
وقد رأينا أنه من الممكن تأدية هذا الوصف بطريقة التشجير.

2.1.2 - الصورة السالمة للنحو غير السياقي

ويمكن أن نشترط في قواعد النحو غير السياقي أن تأتي كلها بالصورة التالية :

- وكل قمة لا ينطلق منها أي قوس تقتزن برمز نهائي، ويدعي « ورقة »، في حين كل القمم التي ليست أوراقاً فإنها تقتزن برمز مساعدة.

- ويكون اسقاطيا بمعنى أن الأقواس لا يخرق بعضها البعض، أي أن أخلاف القمم تظل في نفس الترتيب الذي أتت عليه أسلافها يمينا ويسارا.

ويمكن تشجير المثال الذي عالجنا تركيبه سابقا :

« المولود آمن بالله » كما في الشكل الرابع.

1.2 - النحو غير السياقي واللغة غير السياقية :

1.1.2 - النحو غير السياقي .

قد تتخذ القواعد النحوية صورة واحدة وتستجيب للشرط التالي :

- ألا يزيد طول الطرف الأيمن عن رمز مساعد وحيد : أما الطرف الأيسر، كما هو الشأن في النحو غير القصري، وبالتالي، في النحو السياقي، يكون متوالية غير فارغة تتركب من رموز مساعدة أو نهائية أو منهما معا، وقد يتعدى طولها رمزا واحدا.

ونأتي القاعدة غير السياقية على الشكل الآتي :

(جا، ها) حيث تنتهي جا إلى حس وها إلى بي

ويختلف هذا النحو عن النحو السياقي في كون المتواليات السياقية غير موجودة أو مساوية للصفر، وهو بهذه الصفة « نحو غير سياقي » ويعرف أيضا باسم « نحو شومسكي » (31)

مثال النحو غير السياقي :

حس = (جا، ها، طا)

حن = (ب، ج)

قع = (جا، بطا)، (جا، جها)، (ها، ب)، (ها، بجا)، (ها، جهها)،

(طا، ج)، (طا، ججا)، (طا، بططا)

يتميز النحو غير السياقي عن غيره من الأنحاء الأنفقة الذكر بكونه لا يولد لنا الجمل اللغوية فحسب، بل يصحب توليدها بالوصف التركيبي لها.

وقد رأينا أنه من الممكن تأدية هذا الوصف بطريقة التشجير.

2.1.2 - الصورة السالمة للنحو غير السياقي

ويمكن أن نشترط في قواعد النحو غير السياقي أن تأتي كلها بالصورة التالية :

- أن يتركب الطرف الأيمن فيها من رمز مساعد وحيد.
 - أن يتركب الطرف الأيسر إما من رمزين مساعدين وإما من رمز نهائي وحيد.
 بمعنى أن القواعد صنفان :
 - الصنف الأول :
 (ها، طا شا)، ها وطا وشا تنتمي كلها الى حس ويدعي هذا الصنف بالقواعد التركيبية.

- الصنف الثاني :
 (ها، ه)، ها تنتمي الى حس وه الى حس.
 ويدعي هذا النوع بالقواعد اللفظية.
 ويسمى النحو غير السياقي الذي تنحصر قواعده في هذين الصنفين بـ « صورة شومسكي السالمة » (32).
 ويبرهن رياضيا على أن كل نحو غير سياقي يمكن رده الى نحو سالم.
 من المعلوم أن النحو غير السياقي غير السالم قد يتضمن الى جانب القواعد ذات الصورة السالمة قواعد أخرى يتضمن طرفها الأيسر :
 - إما متوالية من حرفين نهائيين أو أكثر.
 - وإما متوالية من حروف مساعدة ونهائية معا أو من حروف مساعدة فقط.
 لكن من الممكن رد هذا الصنف من القواعد الى آخر يكون سالما وذلك بإدخال رموز مساعدة أخرى ووضع قواعد جديدة مناسبة.

مثال :

(ها، طشت)

بالنسبة للمتوالية ثنائية : طشت المركبة من ثلاثة حروف. نورد طا وشا ونا ونا
 تنتمي كلها الى حس ونضع القواعد التالية :

(ها، طا شا)

(شا، نا نا)

وهي من الصنف السالم الأول.

(طا، ط)

(تا، ش)

(ثا، ت)

وكلها من الصنف السالم الثاني .

مثال آخر :

(ها، شثا) تنتمي شروث الى حن وتنتمي تا الى حس

نستبدل بهذه القاعدة الصيغ الآتية :

(ها، شاثا)

(تا، تاضا)

(شا، ش)

(ضا، ث)

مثال ثالث :

(ها، شاثاثا)

تنقل الى :

(ها، شاضا)

(ضا، ثاثا)

أو تنقل الى :

(ها، ضاثا)

(ضا، شاثا)

وفائدة النحو السالم الشومسكي أنه يمكننا من تحليل الجملة الى تراكيب ثنائية تتقف والتحليل النحو المتداول دون أن يؤثر ذلك أو يحد من اللغات التي ينشئها أي نحو آخر غير سالم.

ومعنى هذا أنه نحو متكافئ معه، إذ يولد نفس الصنف اللغوي. لكن هذا التكافؤ ليس تكافؤاً قوياً لأنه يحد من الامكانيات الوصفية التي تكون لأي نحو غير سياقي غير سالم.

حس = (جا)

حن = (ب. ج)

قع = ((جا. جباب) ، (جا. ججلج) ، (جا. بيب) ، (جا. جج))

ونلاحظ هنا أن الرمز المساعد جا يحتوي على نفسه في القاعدتين الأوليين. ويظهر هذا الاحتواء بالنسبة للمثال المرآتي : بججججب في المخطط الشجري بالشكل السادس .

أما النحو الذي ينشئ اللغة م التي تتضمن المتواليات مثل بببججج وجججبيب فهو الآتي :

حس = (جا. ها. شا)

حن = (ب. ج)

قع = ((جا. ها) ، (جا. شا) ، (ها. بهاج) ، (ها. بج) ، (شا. جشاب) ، (شا،

جب))

ويمثل التشجير الاشتقاقي الوارد في الشكل السابع البنية التداخلية القائمة في الجملة : بببججج.

2.2 - النحو المطرد واللغة المطردة :

بالإضافة إلى تقييد الطرف الأيمن من القواعد غير السياقية، فمن الممكن أيضا إدخال القيود على الطرف الأيسر منها.
فقد يلتزم فيه :

- بطول لايتعدى حرفا نهائيا واحدا وذلك بالنسبة للقواعد اللفظية

- بطول يساوي حرفين. وبشترط، في هذه الحال، أن يكون أحدهما حرفا مساعدا والآخر حرفا نهائيا.

ويسمى صنف النحو الذي ينتج عن هذا التقييد للنحو غير السياقي، « بالنحو المطرد » (35).

ويطرد هذا النحو اطرادا أيمن إذا وقع الحرف المساعد، في صدر الطرف الأيسر واطرادا أيسر إذا وقع في عجزه.

مثال النحو المطرد يمينيا :

حس = (جا. ها)

حن = (د، هـ)

قع = (جـ، جاد)، (جـ، هاد)، (هـ، هاه)، (هـ، هـ)

وتقترن كل جملة ناشئة عن هذا النحو بتشجير يميني :

مثال :

تشجير المتوالية المشتقة : ههدد في الشكل الثامن.

مثال النحو المطرد يساريا :

حس = (جـ، هـ)

حن = (د، هـ)

قع = (جـ، دجا)، (جـ، دها)، (هـ، هها)، (هـ، هـ)

وتشجير المتوالية : ددهه يساري (انظر الشكل التاسع).

ويتضح من التشجيرين أن المتواليات في هذا النحو تنمو نموا مستمرا إما نحو اليمين وأما نحو اليسار.

ونلاحظ أيضا أن البنية التي تحدد المتواليات المطردة بنية يرتبط فيها كل موقع بالموقع الذي يسبقه، وهي بهذا الارتباط الذي يتم دائما بين عنصرين متتاليين بنية متسلسلة (36).

ويوضح الشكل العاشر هذا التسلسل في المخطط الشجري الذي يتخذ شكل مشط تحتل المواقع النهائية أسنانه.

واللغة الأساسية التي يولدها النحو المطرد والتي تكون لها بالتالي هذه البنية التسلسلية هي اللغة التي تتكون عناصرها من عدد معين ن، من مواقع حرف واحد ب، أي لغة واحدة.

مثال :

حن = (ب)

ل = (ب، بب، بيب، ...)

أي: ب قوة ن

لكن ليس معنى هذا أن النحو المطرد لا ينشئ عبارات تولدها أنحاء أخرى : فقد ينتج جملا تتركب من حرفين يتساوى عدد مواقعهما.

مثال :

حن = (ب ج)

حس = (جا، سا، شا)

قع = (سا، ب سا) (سا، جشا) (شا، ج)

نشقف بواسطة هذا النحو المطرد العبارة : ببجج (أنظر الشكل الحادي عشر)

لكن اذا انظرنا مليا في هذا النحو، نلاحظ أن « ببجج » لا تشكل الا جملة من عدد غير متناه من الجمل الممكنة التي تختلف فيها عدد مواقع الحرفين مثل ببججج، ببججججج. ومعنى هذا أن اللغة التي لا تتضمن الا عبارات من النوع الذي تتماثل فيه مواقع الحرفين لا يمكن أن تكون لغة مطربة.

أضف الى ذلك، أن الوصف المطرد للعبارة المذكورة « ببجج » وامثالها هو وصف تسلسلي، بينما الأمر بخلاف ذلك بالنسبة للنحو غير السياقي الذي لا تتسلسل فيه الجمل. وانما تتداخل، فيشمل بعضها البعض ويحافظ بذلك على العلاقة القائمة بين عنصريهما مهما توسط بينهما من العناصر الأخرى.

تأكد لنا مما سلف، أن الانحاء تختلف باختلاف القيود التي تحكمها وأن هذه القيود تحد من سعة كل صنف نحوي تدخل عليه، حاصلين بذلك على أنحاء ضيقة فأضيف.

ومن شأن هذا التدرج في التقييد، أن يمكن اللساني والرياضي والمنطقي من تحديد الوسائل المستعملة لوصف اللغات تحديدا دقيقا، وضبط قدرتها على هذا الوصف.

واذا اختلفت الانحاء اختلفت معها اللغات التي تنشأ عنها، فمنها، هي الأخرى، غير المقيدة وغير القصيرية والسياقية وغير السياقية والمطربة، كما تختلف البنيات التي تقوم في هذه اللغات.

وبعد هذا العرض لأصناف النحو الصوري واللغات الناتجة عنها، ننتقل الى بيان مدى توفر الألسن الطبيعية على خصائص اللغات الصورية، ومدى انطباق الأنحاء الصورية عليها، ومدى صلاحية هذه الأنحاء لأن تكون نماذج تحتديها الأنحاء الموضوعة لللسان الطبيعية.

ثالثا : النحو الصوري واللسان الطبيعي :

1- القيد النحوي واللسان الطبيعي :

إذا انطلقنا من مجموعة الحروف العربية. فإن مجموعة المتواليات التي تتكون منها تتضمن اللغة العربية المنطوقة من بين اللغات الممكنة في إطار هذه المجموعة غير المتناهية.

وعليه فالمشكلة الأساسية التي تواجه اللساني أو النحوي هي وضع الأحكام المناسبة التي نستطيع بواسطتها فصل المتواليات المنطوقة عن المتواليات غير المنطوقة. ويتوقف اللساني الى هذه الأحكام إذا توصل الى تحديد القيود القائمة في المتواليات التي يتداولها الناطق العربي.

ونوضح ذلك ببعض الأمثلة مفترضين أن القارئ يخلو ذهنه من قواعد النحو التقليدية.

فالجملتان :

- قام زيد

- زيد قام

سليمتان لكن أولى الجملتين الآتيتين :

- قام الرجال

- ★ الرجال قام

سليمة والثانية غير سليمة.

والقيد الذي نخرج به هنا هو :

- أن الفعل إذا تأخر عن الاسم تبعه في العدد (وهنا في الافراد والجمع).

لننظر الآن الى الجملتين الأخريين :

- ★ قام هند

- قامت هند

الأولى منهما غير مقبولة والثانية مقبولة.

وهذا يجزئنا الى قيد آخر وهو :

- أن الفعل إذا تقدم الاسم تبعه في الجنس (أي في التذكير والتأنيث)
وتدفعنا مقارنة القيد إلى التأكد مما إذا كان الفعل المتأخر يتبع الاسم في
جنسه.

والجمل التي توضح هذا هي التي تكون الأسماء فيها من جنس مختلف أي :

- زيد قام.

- هند قامت.

وتبين هذه الجمل أن الفعل يتبع الاسم المتقدم عليه في جنسه.
ويظل هذا الارتباط الجنسي قائماً حتى لو أدرجنا متواليات أخرى بين الفعل والاسم
مثلاً :

- قام للصلاة زيد

- زيد الذي انتهى من عمله قام.

ويبدو أن الارتباط الجنسي الذي لا ي صاحبه ارتباط عددي يقتضي للحفاظ عليه
متواليات معينة مكونة من جار ومجرور، وظرف ومظروف..
فالجمل :

- قام الذي انتهى من عمله زيد

التي تتوسطها « الذي انتهى من عمله » (أي جملة من موصول وصلة) غير سليمة.
وإذا افترضنا أنها كذلك، فإن الارتباط الجنسي القائم فيها ليس بين « قام » و « زيد »
وإنما بين « قام » واسم الموصول « الذي »، في حين لا تقتضي الجملة التي يجتمع فيها
الارتباطان: الجنسي والعددي أن تتوسطها متواليات محددة، فبالإضافة إلى الموصول
وصلته، من الممكن أن تتخللها شبه جملة، أيضاً :

- زيد للصلاة قام.

ويمكن أن نستمر في إبراز هذه القيود سواء بين عناصر الجملة أو بين الجمل فيما
بينها.

وتفيدنا هنا، وسائل علم اللسان والنتائج التي توصل إليها بصدد الانحاء واللغات
الصورية، في دراسة القيود التي تقوم في اللسان الطبيعية وإبراز خصائصها وتصنيفها
بحسب هذه الخصائص.

نتفحص الآن الانحاء الصورية، مبتدئين بالأضيق منها فالأضيق، فالواسع فالأوسع، ونختبر قدرتها على وصف الألسن الطبيعية.

2 - النحو المطرد واللسان الطبيعي :

رأينا أن النحو المطرد ينشئ المتواليات في اتجاه واحد، وأن الترابط الذي يقوم بين عناصر هذه المتواليات ترابط تسلسلي .

فبالنسبة للتعبير :

هذا الرجل الطيب .

الذي تتلاحق فيه الألفاظ، يمكن أن نضع له نحواً مطرداً بهذا الشكل، نرى فيه التركيب الاسمي بـ « سا » وإلى الاسم بـ « ما » .

حن = (هذا : الرجل . الطيب ...)

حس = (سا ، ما)

قع = (سا ، سا الطيب) (سا ، ما الرجل) (ما . هذا)

ونمثل على اشتقاق هذا التعبير بالتشجير الثاني عشر :

علاوة على استعمال النحو المطرد في التراكيب التي تترابط العناصر فيها بعضها ببعض من اليسار إلى اليمين مثل الجار والمجرور، والظرف والمظروف، والمضاف والمضاف إليه، والصفة والموصوف، فإنه يفيد في المجال الصرفي .

ونورد هنا مثال الاسم المذكر والمؤنث السالم وأحوال أفرادهما وتثنيتهما وجمعهما .

ونرسم لذلك مخططاً متتابعياً (37) (انظر الشكل الثالث عشر) .

ويمكن أن نستخرج من هذا المخطط الشجري النحو المطرد التالي :

حن = (ب . ج . د . هـ . و . ز . ح . ط . ي . ك)

ومعاني هذه الحروف هي :

ب = اسم جنس : ج = المفرد المذكر : د = علامة الجمع المذكر أي ون .

هـ = الجمع المذكر : و = علامة التانيث أي ة : ز = المفرد المؤنث : ج = علامة الجمع

المؤنث أي ا ت : ط = الجمع المؤنث :

ي = علامة التثنية أي ان : ك = المتنبي .

حس = (س . ها . شا . تا . ثا . ضا)

قع = (طاء، بعا) . (ها، ج) . (ها، دشا) . (شا، هـ) . (ها، ونا) . (نا، و) . (نا، حنا) . (نا، ط) . (نا، يثا) . (ضا، ك) . (ها، يضا) .

قلنا بأن العلاقة التي يصوغها النحو المطرد تقضي بأن ننتقل من العنصر الأيمن إلى العنصر الذي يليه مباشرة في المتواليّة، ومن هذا العنصر إلى الذي بعده وهكذا... لكن هذه العلاقة لا تظهر إلا في مجموعة محصورة جدا من تراكيب اللسان العادي. وأغلب التعابير المتداولة تظهر فيها عناصر مترابطة فيما بينها تتخللها عناصر أخرى مترابطة هي الأخرى فيما بينها.

مثال :

زيد. كبير القوم. قام الينا

زيد. الرجل الطيب. قام الينا

ولن يتأتى لنا ربط العنصرين المتباعدين إلا إذا حملت كل العناصر التي تتوسط بينهما، معالم ارتباطهما.

فلكي ترتبط « قام » في المثال الأخير بـ « زيد » ينبغي أن ترتبط بـ « الطيب » . ولا يمكن « للطيب » أن يوفق بعد الارتباط إلا إذا حملت معها دلائل ارتباطها بـ « زيد » الذي هو الفاعل الحقيقي بـ « قام » ولن ينم لنا هذا الارتباط إلا إذا ظهر تعلق « الرجل » بـ « زيد ».

ولا تقف العناصر المتوسطة عند هذا القدر. بل قد تتعدد عددا كبيرا، وتتداخل فيما بينها كما في المثال التالي :

- ان الشخص (1) الذي هاجم اللصوص الذين احتجزوا (2)، عندما دهمتهم (3) الشرقة (3)، بعثر الرهائن (2)، أصيب (1) بجروح خطيرة ...
(تدل الأرقام على نوع العناصر المترابطة فيما بينها دون أن تدل على اتجاه هذا الترابط).

مما يؤدي إلى إضافة مقولات متعددة أخرى وقواعد جديدة، وتعقيدها تعقيدا يذهب بها بعيدا عن ادراكنا، وربما تطلب هذا التغيير عددا لا نهائيا من المقولات بينما من خصائص النحو أن يكون محدودا.

أضف إلى ذلك، أن النحو المتعدد، وإن كان نحوا تركيبيا حيث إنه نوع خاص من النحو غير السياقي، فإن التراكيب المتتالية التي يديرها في الجملة تبدو غير طبيعية، وتظل قيمتها عجزية فحسب.

فما دامت قواعده التركيبية تقضي بالا يتولد. في كل تطبيق لها. الا حرف نهائي واحد الى جانب حرف مساعد واحد. فسوف تكون التراكيب بالنسبة للجملة :

- اعطيت كتابا

كما يلي :

اعطى « ته كتابا »

اعطيت « ه كتابا »

اعطيت « كتابا »

ومن الصعب ان نعتبر التراكيب :

« تد كتابا » « ه كتابا » وحتى « كتابا » (بالنصب) من التراكيب التي يقبلها

الناطق العربي.

وبناء على المأخذين المذكورين :

- من ناحية. قصور النحو المطرد عن توليد عبارات لسانية يتجاوز الترابط فيها

مستوى التسلسل.

- ومن ناحية أخرى. وصف لكثير من التعبيرات اللسانية التي ينشئها وصفا غير

طبيعي.

يمكن اعتبار النحو المطرد نحوا غير كاف بل غير تام لتوليد مختلف التعبيرات التي

يسعملها الناطق العادي وان توقف في توليد بعضها ووصف مستواها الصرفي.

2- النحو غير السياقي واللمان الطبيعي

لقد ساء استعمال النحو غير السياقي لتوليد الجمل الطبيعية ووصفها بالانفاقة الى

استعماله في مجال اللغات الاصطناعية والالية.

وقد ابرزنا خصائص هذا النحو واللغة التي ينشئها. وبيننا ان من اهم هذه الخصائص

ان لا يندلج الا زمر واحد في الطرف الايمن.

وعلى سبيل المثال فقط. نضع نحوا غير سياقي يولد بعض الجمل العربية التي

تشتمل على المفعول وعملند.

حن (المدير. الأستاذ. المدرس. القس. زار. حضر. الذي.)

حسن (جاء. فاء. ساء. عل. ما. صا. تا)

(جا : إحدك : فا = التركيب الفعلي : سا = التركيب الاسمي : عا = الفعل : نا =
= الاسم : تما = جملته الصلة : تا = اسم المرحول)

قع = ((جا. فا سا) . (فا. عا ما) . (فا. غامسا) . (سا. ما صا) . (صا = تا فا) . (غا.
الذي) . (عا. حضر) . (عا. زار) . (ما. الأستاذ) . (ما. المدير) . (ما. الدرس) . (تا، الذي)) .

ويسمح لنا هذا النحو بإنشاء جمل نحوية مختلفة الطول منها ماله دلالة ومنها ما

ليست له دلالة مثك :

- ألقى الدرس الأستاذ الذي زار المدير

- زار الدرس المدير الذي ألقى الأستاذ

- ألقى الدرس الأستاذ الذي زار المدير الذي حضر الدرس.

وهكذا من الممكن تطويل هذه الجملة بالقدر الذي نريد أو توليد أية جملة من هذا
الصف، وبكفي لذلك أن نضيف إلى الابدئية النهائية المعطيات المناسبة. كان نضيف
القاعدتين اللفظيتين التاليتين :

(عا، أعجب)

(ما، المعهد)

فنحصل مثلاً على الجملة الآتية :

ألقى الدرس الذي أعجب المدير، الأستاذ الذي زار المعهد.

بحيث يرتبط فيها الاسم سواء كان مفعولاً أو فاعلاً باسم الموصول : « الذي ».

وما دامت هذه القواعد كلها تركيبية، فإنها تقتصر بالمخطط الشجري (أنظر تشجير
الجملة السابقة في الشكل الثامن عشر).

إلا أن قدرة النحو غير السياقي على وصف الجمل من حيث تركيبها والتزام هذا
التركيب لترتيب معين، ينبغي ألا تخفى علينا الصعوبات التي يجدها هذا الصف من
النحو في وصف الأحوال الصرفية والاعرابية للعناصر التي تتركب منها الجمل. وخاصة أن
هذه الأحوال تقوم في بعض الألسن مثك اللسان العربي مقام الترتيب.

هـب أننا وضعنا القاعدة غير السياقية التالية :

(جا، سا صا) حيث سا = التركيب الاسمي و صا = الصف.

فإن تطبيقها قد يؤدي إلى متواليات مختلفة : منها :

- زيد قائم

★ زيد قائمة

★ رجلا ن قائم

وبعض هذه الجمل، سليم وبعضها الأخير غير سليم ؛ والسبب في ذلك أن القاعدة غير السياقية لا تنص على الترابط الجنسي والعديي .
ويستلزم منا اجتناب التراكيب الركيكة، أن نفرع الاسم الى أصناف أو الصفة الى اصناف، ونخصص القاعدة المذكورة بالنسبة لكل حالة جنسية وعددية .

- مما ينتج عنه ادخال مقولات صرفية جديدة.

- لتفريع الاسم

- سذف : اسم مذكر مفرد

- سذث : اسم مذكر مثنى

- سذج : اسم مذكر جمع

- سوف : اسم مؤنث مفرد

- سوث : اسم مؤنث مثنى

- سوج : اسم مؤنث جمع.

- لتفريع الصفة

- صذف : صفة مذكر مفرد

- صذث : صفة مذكر مثنى

- صذج : صفة مذكر جمع

- صوف : صفة مؤنث مفرد

- صوث : صفة مؤنث مثنى

- صوج : صفة مؤنث جمع.

حيث س = اسم ؛ ص = صفة ؛ ذ = مذكر ؛ و = مؤنث ؛ ف = مفرد ؛ ث =

مثنى ؛ ج = جمع.

ووضع قواعد أخرى

(جا، سذف صذف) (جا، سوف صوف)

(جا، سذث صذف) (جا، سوث صوث)

(جا، سذج صذج) (جا، سوج صوج)

وكل قاعدة من هذه القواعد تنطلق من المسئلة بحيث يستغني مبدئيا بعضها عن البعض.

يتبين أن الارتباط الجنسي والعدي يؤدي بنا الى تكثير القواعد النحوية والابتعاد عن التعميم الذي كنا نهدف اليه، وذلك بتفتيت القاعدة العامة ؛ فقد لزمنا استبدال ست قواعد بقاعدة واحدة.

وقد لا نقف عند هذا الحد، ونريد تمييز صنفين آخرين في الاسم وهما اسم العلم ، ع، واسم الجنس، ج ، فنضطر حينذاك الى اثبات مقولات صرفية جديدة مثل : سدفع، سدفع، سوفج، سوفج، ومضاعفة عدد القواعد.

أما اذا أخذنا بعين الاعتبار تمايز صنف الانسان، ن، عن صنف الحيوان والجماد، د، من جهة الترابط الجنسي والعدي، فلا بد من استحداث رموز مساعدة مثل : سدفعن، سدفعن، سدفعج، سدفعج، واستخراج القواعد التي تنشأ بسبب هذه الرموز.

وهكذا تتعدد المقولات وتتعدد القواعد الى درجة يصبح معها من المتعذر الاستفادة من هذا الاسلوب النحوي في وصف الجمل، ويصبح من اللازم استبدال أسلوب آخر به تختصر القواعد عن طريقه.

أضف الى ذلك أن من التعابير مالا يستطيع النحو غير السياقي توليده مثل :
- سافر زيد وعمرو، الاول الى البيضاء والآخر الى فلس.

حيث الارتباط قائم فيها بين « زيد » و « الاول » وبين « عمرو » و « الآخر ».

ومن العبث محاولة اشتقاق هذا التقاطع بواسطة النحو غير السياقي، وخاصة اذا تعددت، في الجملة، العناصر المقترنة بهذا النوع من العلاقة، وليس هناك أي مبرر منطقي لان نقف عند حد معين، فاللسان موصوف بعدم التناهي، والنحو من شروطه ان يوفي بهذه الصفة اللسانية.

واذا حاولنا ذلك، فلن تولد العبارات الا توليدا تداخليا تضع فيه الصيغة التقاطعية لهذا التعبير.

اتضح لنا أن النحو غير السياقي، اذا كان يتميز عن النحو المنظم بقدرته على بيان

تداخل التراكيب اللساني، فانه غير قادر على وصف التراكيب المتقاطعة فيه وعلى بيان الخصائص الصرفية والحالات الاعرابية.

ولو حاولنا ذلك لا اضطررنا الى تجزئة المقولات الواحدة الى مقولات متعددة. وتفتيت القاعدة الواحدة الى قواعد كثيرة، وفقدنا بذلك التعميم الذي نقصده، وحولنا البنية التشابكية المميزة للجملة الى بنية تداخلية لها.

3 - النحو السياقي واللسان الطبيعي :

يلجأ اللسانيون الى القواعد السياقية لتدارك مافات النحو غير السياقي، فبمقدرة هذه القواعد أن تولد من التعابير اللسانية ما قد تتشابه فيه العناصر.

ففي المثال :

زيد وعمر، طيب وخبيث

يتبين أن « زيد » تقترب ب « طيب » و « عمرو » ب « خبيث ».

واذا استعملنا لكل من « زيد » و « طيب » الرمز « ب » ولكل من « عمرو » و «

خبيث » الرمز « ج »، فإننا نحصل على المتوالية : « بججج ».

ويمكننا توليد هذه المتوالية بواسطة النحو السياقي التالي :

حـن = (ب، ج -)

حس = (ج ا)

قع = (ج ا، ج ا)، (ج ا، ج ا)، (ج ج ا، ج ج ج) .

كما أن النحو السياقي يفيد في صوغ الخصائص الصرفية.

من الممكن أن نستعين على وصف الجملة الاسمية التي استعصت على النحو غير السياقي بنوع آخر من القواعد نقيده فيه عملية ابدال الطرف الأيسر بالطرف الأيمن، بالسيف الذي يرد فيه.

فبالإضافة الى القاعدة الأساسية :

(ج ا، س ا ص ا)

نعدد القواعد غير السياقية التي تضبط الجنس والعدد.

(س ا، س ذ ف)، (س ا، س ذ ث)، (س ا، س ذ ج)

(س ا، س و ف)، (س ا، س و ث)، (س ا، س و ج)

ثم نبرز الترابط الجنسي العددي في القواعد السياقية التالية :

(صا، صذف) في السياق صذف

(صا، صذث) في السياق صذث

(صا، صذج) في السياق صذج

(صا، صوف) في السياق صوف

(صا، صوٹ) في السياق صوٹ

(صا، صوج) في السياق صوج

ومن الممكن اختصار هذه القواعد في الصورتين القاعدتين الآتيتين :

(سا، سا نا طا) حيث « نا » ترمز لصنف الجنس و « طا » لصنف العدد.

(صا، صا نا طا) في السياق : سا نا طا .

وهكذا نتخلص من تكرار المقولات وتعدد القواعد، ونحتفظ بالقاعدة العامة الأساسية.

وبإمكان النحو السياقي أن يصوغ أيضا الأحوال الاعرابية التي تتغير بحسب السياق.

نعلم أن الاسم المنصوب الذي يدل على الهيئة، قد يكون مفعولا إذا كان دالا على

هيئة الفعل أو حالا إذا كان هيئة للفاعل.

مثال :

- العدو رجع خائبا

- العدو رجع القهقري

نرمز الى السياق الذي تتحدد بمقتضاه الحالة الاعرابية للفظ المنصوب بـ « هف »

بالنسبة لهيئة الفعل و بـ « هس » بالنسبة لهيئة الحال، كما نرمز الى الحال بـ « حا »

والى المفعول بـ « ما »

ونضع القواعد التالية :

قع : (جا، سا فا)، (فا، عا سا)، (هفسا، هفما)، (هسسا، هسحا) .

(سا وفا عا لها نفس الدلالة السابقة أي على التوالي: التركيب الاسمي والتركيب

الفعلية والفعل).

وبواسطة القواعد السياقية نستطيع تحديد الصفة الحالية أو المفعولية للفظ وغيرها من أحواله الاعرابية مثل حالات الرفع (مبتدأ ، فاعل ، خبر) والنصب (مفعول ، حال ، خبر كان ، تمييز) والجر (مضاف ، مجرور) وأحوال الفعل من رفع ونصب وجزم.

4- النحو غير المقيد واللسان الطبيعي :

بعد معالجتنا لفوائد الانحاء وحدودها : المطرد منها وغير السياقي والسياقي ، يجمل بنا أن نشير في الأخير الى النحو غير المقيد، أما النحو غير القصري فهو متكافئ مع النحو السياقي، وقد تردد اللسانيون بين التصنيفين : تنصيف الانحاء الى قصري وغير قصري (38)و والتصنيف الذي اتبعناه.

ان المجموعات المحدودة التي ينشئها النحو غير المقيد بلغت من السعة والعمومية درجة تجعل الخصائص التي تتصف بها غير مناسبة لللسان الطبيعية. نعلم أن من هذه المجموعات المحدودة مجموعة الأعداد التامة، والعدد التام هو العدد الذي يكون مساويا لمجموع الأعداد التي ينقسم عليها باستثنائه هو (39)، ومنها أيضا مجموعة الأعداد الأصلية، والعدد الأصلي هو العدد الذي لا ينقسم الا على نفسه أو على 1 (40).

الا أنه لا يمكن تصور لغة مركبة من ألفاظ عربية يكون طول كل جملة فيها عددا تاما أو عددا أصليا، فمثل هذه اللغة العربية لم تنطقها أمة في غير الأزمان ولن ينطقها أحد. لذا، ينبغي ابعاد هذه المجموعات باعتبارها نماذج غير صالحة للسان المنطوق. فلا يكفي في اللسان الطبيعية أن تكون فئة معدودة فنقيسها بالمعدودات بل تحمل، الى جانب الخاصية التعدادية، خصائص أخرى تدعونا الى تقييد النحو أكثر فأكثر. فقد رأينا أنها فئة مقبولة إذ يمكننا التعرف على جملها وتحديد انتمائها وأنها كذلك فئة تركيبية بحيث يمكن وصف بنياتها.

رابعا : النحو التركيبي والجملة الفعلية :

رأينا أن النحو التركيبي لا ينشئ العبارات اللسانية فقط، بل يصف كيفية بنائها أيضا.

وتعتمد كل قواعده على عملية الابدال حيث تقضي بأن نستبدل بعنصر مساعد أيمن متوالية يسرى تتكون من التراكيب التي ينحل اليها والتي تقتزن فيما بينها كما تقتزن العناصر التي تتركب منها، بعضها ببعض.

فهو معنى هذا أن كل التراكيب المنطوقة تراكيب متصلة العناصر ؟ أليست في مختلف الألسن تراكيب تتقاطع فيها الترابطات بحيث لا ينفع معها أسلوب الإبدال ؟

1- التركيب المنفصل

إن أدنى تفحص للجمل العربية يطلعنا على تراكيب مختلفة لا توالي العناصر المترابطة فيها بعضها البعض ، وإنما تتقاطع فيها اضطراراً .

نذكر هنا بعض الأمثلة ونشير إلى العناصر المترابطة فيها بحروف متماثلة .

- انفض (ب) الرجال (ج) عن الجمع (ب) ساخطين (ج)

- زيد (ب) أخو (ج) هـ (ب) اكتسب (د) غلامه (ج) مالا (د) .

- للعلم (ب) استشعر (ج) حاجة (ب) (ج) زيد (ج) .

ولا يقوم الترابط بين عنصري كل زوج من الأزواج فحسب . بل يتخذ هذا الرباط اتجاهها معيناً ، ويختلف من زوج لآخر داخل الجملة ، فبالنسبة للمثال الأخير . يحد الرباط من « حاجة » إلى « العلم » ثم من « زيد » إلى « استشعر » ومن « استشعر » إلى « حاجة » وهكذا بالنسبة للجمل الأخرى .

ولكن ما وضع هذه التعابير من التعابير التركيبية . وكيف يباشر النحو التركيبي معالجتها ؟

لو تناولنا بالبحث المثال :

- ألقى (ب) الأستاذ (ج) الدرس (د) قائماً (هـ)

فإننا نلاحظ أن « ب » ترتبط ب « د » و « ج » ب « هـ » ، وأن كلا الارتباطين متلازمان ومتقاطعان في هذا التلازم ، ويدل هذا على أن التركيبين القائمين في هذه الجملة يتضمنان عناصر منفصلة فيما بينها .

وإذا حاولنا أن نيسر إجراء النحو التركيبي عليها ، لكان يلزمنا أن نصل فيما بين العنصرين القائمين في كل تركيب منها : ونحصل بهذا الوصل على العبارة التالية التي لا تخلو من ركاقة :

- الأستاذ قائماً القى الدرس

والنحو غير السياقي الذي دنطبق عليها هو :

حن = (الاستاذ، ألقى، قائما، الدرس)

حس = جاء، فاء، ساء، عاء، حا

ترمز فا الى التركيب الفعلي وساء الى التركيب الاسمي وعاء الى الفعل وحا الى الحال.

قع = (جاء، ساء، فا)، (ساء، ساء، حا)، (فاء، عاء، ساء)، (ساء، الدرس)، (ساء، الاستاذ)، (حاء، قائما)، (عاء، ألقى) .

ويصف المخطط الشجري (أنظر الشكل الرابع عشر) بنيتها.

وبعد هذا التحليل التركيبي للجملة « الاستاذ قائما ألقى الدرس » ، يحق لنا أن نستنتج منها العبارة « ألقى الاستاذ الدرس قائما » باعتبار الجملة التركيبية جملة أصلية. وعملية الاستنتاج هذه هي التي ساقطت النحويين وعلى رأسهم شومسكي (41) الى اثبات مقوم جديد الى جانب المقوم التركيبي في تأسيس أي نحو يدعون بالمقوم التحويلي.

وقد نستنبط العبارة المذكورة من الجملة التركيبية بواسطة قواعد القلب التحويلية الآتية .

سنكتفي في هذه القواعد باستعمال الرموز التي وضعناها لحدود الجملة : ب ل « ألقى » و ج « للاستاذ » ود « للدرس » وهـ « قائما » (ومن الممكن استعمال المقولات النحوية المقابل لها عاء، ساء، حا مع تمييز ساء الواصفة « للاستاذ » عن ساء الواصفة « للدرس »)

فالجملة الأصلية هي « جهب »، ينبغي أن نستنبط منها « بجدة » . ويمكن أن يتم ذلك بواسطة القواعد الآتية :

(جهب، جبه)

(بهـد، بهـده)

(جبد، جبد)

لكن هذا التحليل لا يتأتى لنا الا اذا افترضنا ان « الاستاذ قائما ألقى الدرس » جملة أصلية وأن « ألقى الأستاذ الدرس قائما » جملة محولة عنها، ويترتب على هذا الافتراض أن الجملة الاسمية أصلية والجملة الفعلية فرعية، وبالتالي أن التركيب المنفصل الذي تتضمنه

الجملة الفعلية ناتج بعملية تحويلية عن تركيب متصل قائم في الجملة الاسمية الأصلية، وهذا ما نريد أن ننظر فيه الآن.

2- الجملة الفعلية :

قد يستنتج البعض مما تقدم أن الجملة الفعلية -جملة محولة عن الجملة الاسمية بطريق القلب، لا نريد هنا الدخول في تفاصيل هذا الموقف، ولا في الاختبارات النحوية والتبريرات التي يمكن أن تضع هذا الرأي موضع الشك، وربما موضع التقنيد، وإنما نكتفي بإبداء بعض الملاحظات (وسوف نعود في مقال قادم الى تفاصيل هذا الموضوع).

أ) الجملة الفعلية بسيطة بينما الجملة الاسمية المقلوبة عنها مركبة مثال :

- قام زيد

- زيد قام

- ألقى الأستاذ درس

- الأستاذ ألقى الدرس

وهذا التأويل يغلب عند النحاة العرب، ويكفي لتبريره أن

- قام

- ألقى الدرس

جملتان تامتان ومتداولتان.

ويظهر هذا بوضوح مع الضمائر، كما في المثالين

- القيت الدرس

- أنا القيت الدرس

فلا ابتداء بالضمير لا يلغي نهائيا موقعه فاعلا بالنسبة للجملة المتضمنة.

ب) كل جملة اسمية يمكن ردها الى جملة فعلية غير الجملة الأصلية.

يكفي أن نبني الفعل « ألقى » للمجهول في الجملتين السابقتين لكي يكون حاصل هذه العملية جملة واحدة.

« ألقى الدرس »

هي نفسها بالنسبة للجملتين الأصليتين، وتختفي منها كل علامات الجملة الاسمية.

وقد يتبادر الى ذهننا أن الجملة « الدرس ألقى » ممكنة هي الأخرى وهي جملة اسمية. إلا أنها في الواقع مشتقة بالقلب عن الاولى كما تشتق بواسطة نفس العملية، الجملة الاسمية عن الفعلية المبذبة للمعلوم.

ج) من الممكن ادخال الفعل على الجملة الاسمية بينما لا يمكن ذلك بالنسبة للفعلية.

مثال :

- كان زيد يقوم في الصباح الباكر.

* كان يقوم زيد في الصباح الباكر.

والجملة الأخيرة غير نحوية أما اذا حذفنا « زيد » فاننا نحصل على

- كان يقوم في الصباح الباكر.

الا أن هذه العبارة السليمة هي في الأصل جملة اسمية وقع فيه حذف المبتدأ.

وقد نجد دعماً لما نقول في الرأي النحوي الذي يذهب الى أن « ان واخواتها » ادوات تقوم مقام « الافعال » كأن تحمل « ان » دلالة «ؤكد» فنكون بمثابة الفعل الذي يدخل على الجملة الاسمية.

وتكفي هذه الأدلة لاعتبار الجملة الفعلية بمثابة الجملة الاصلية وأن أية قاعدة تركيبية مناسبة للعربية، ينبغي أن تبني على أساسها كما أن أية قاعدة تحويلية ينبغي أن تنطلق منها.

3 - التحليل التركيبي للجملة الفعلية

لنفرض أننا نريد اشتقاق الجملة الفعلية :

« ألقى الأستاذ الدرس »

بواسطة النحو غير السياقي الذي هو، كما نعلم، نحو تركيب

حسن = (الأستاذ، ألقى، الدرس)

حسن = (جاء، سا، فا، عا)

قع = ((جاء، فا سا)، (فا، عا سا)، (ساء، الأستاذ)، (ساء، الدرس)، (عا، ألقى))

ينتج عن اشتقاق الجملة (أنظر الشكل الخامس عشر)، ان النحو غير السياقي يعتبر التركيب الفعلي « ألقى الأستاذ » الذي يدخل فيه الفاعل بدل المفعول تركيبا مستقلا مقابلا للتركيب الاسمي الذي يندرج تحته المفعول وحده بدل الفاعل، والواقع أن هذا التوزيع للجملة الفعلية من الصعب قبوله، ذلك انه قد يؤدي الى التباس التركيب الفعلي بالجملة الفعلية اللازمة وبالتالي يصبح المفعول به فاضلا والجملة كلها غير نحوية. فلننظر في الأمثلة التالية :

- سافر زيد الى البيضاء : « سافر زيد »

- أتى زيد منكرا : « أتى زيد »

- قضى زيد نحيبه : « قضى زيد »

- بات زيد ليلة : « بات زيد »

فهذه القواعد غير السياقية تمدنا بتركيبات غير طبيعية. فكل التركيب الموضوع بين مزدوجتين من الممكن أن تكون جملا فعلية لازمة.

ولكي نتجنب هذه الصعوبة لا بد أن تميز قواعدنا بين الفعل والفاعل.

لنبحث ان هذا الحل الثاني ونصغ القواعد التالية :

قا = (جا، عا سا)، (سا، سا سا)، (سا، استاذ)، (سا، الدرس)، (عا، ألقى) .

ويرسم الشكل السادس شجر الاشتقاق للجملة .

وهنا نكون أمام تركيبين أساسيين من ناحية « الفعل » ثم من ناحية أخرى

« الاستاذ الدرس » وهذا الأخير تركيب غير طبيعي بالنسبة للغة العربية.

بالإضافة الى ذلك فإن هذا الحل تعترضه صعوبات لا تقل عن تلك التي رأينا

بصدد التحليل الاول.

ولبيان ذلك نورد الأمثلة التالية :

- زار الأستاذ الشيخ : « الأستاذ الشيخ »

- عمت الفرحة الدنيا : « الفرحة الدنيا »

نلاحظ ان المفعول به في هذه التركيب التي تبدو طبيعية يختل ويصبح بمثابة

الصفة بالنسبة للفاعل وبالتالي تصبح الجملة الفعلية لازمة.

ولكي لا يلحق المفعول به بالفاعل يبدو أن من الترتيب السابق من الممكن

بمنحى قاعدة :

(جا، عا سا سا)

فنكون بذلك امام المخطط الشجري الذي يرد في الشكل السابع عشر

وهذا التوزيع يبدو غير كاف حيث المقاميل قد تتعدد وتمتل الى ثلاثة فنستبدل به (جا، عا سا سا سا سا). ويمكن ان نكتبها بطريقة اكثر اختصارا : (جا، سا سا (سو)) حيث (سو) ترمز الى امكان ورود مفعولين اخرين.

لكننا نفقد بهذه القاعدة خاصية تراتب التراكيب التي هي علاقة اساسية بالنسبة لكل نحو تركيبى. فكل عنصر من عناصر الجملة هنا تركيب مستقل بذاته. ولا يندرج أي واحد منها تحت الاخر او يجتمع معه ليشكل تركيبا اشمل واعلى وهكذا الى ان نصل اعلى مستوى الذي هو مستوى الجملة.

يستخلص من مختلف التحليلات السابقة ان النحو التركيبى لا يصف الجملة

الفعلية التي تشكل الجملة الاصلية في اللغة العربية وصفا طبيعيا.

وعليه، فالكفاية التوليدية للنحو التركيبى بما في ذلك النحو غير السياقي تصبح امرا مشكوكا فيه بالنسبة للسان العربي.

اما عن الكفاية الوصفية التي تتعلف بالقدرة على الوصف البنوي للعبارات، فس النسبة بهما ناقصة.

فالنحو التركيبى لا تساعدنا كثيرا على صوغ العبارات الموجودة بين بعض النحويين مثل :

- استقر زيد في المدينة

- زيد استقر في المدينة

- زيد في المدينة استقر

- استقر في المدينة زيد

- في المدينة زيد استقر

- في المدينة استقر زيد

وغيره :

- يد تحرق حبرا

- حبر يد تحرق حبرا

- زيد تحت

- زيد تحت

ولا ينبغي في تحديد اختلاف الينس تحت المستويين :

- زيد جمع زكيا

- زيد جمع التعقير

- زيد جمع لصوت

وقد كانت مظاهر النقص التي لاحظها اللسانيون في الكفاية الوصفية للنحو التركيبي. العامل الرئيسي في تزويد المستوي النحوي. الا ان هذا المستوى له تلك بعد المعالجة الرياضية الكافية. وله تتقدم في العدم الذي تقدمت به على المستوى التركيبي.

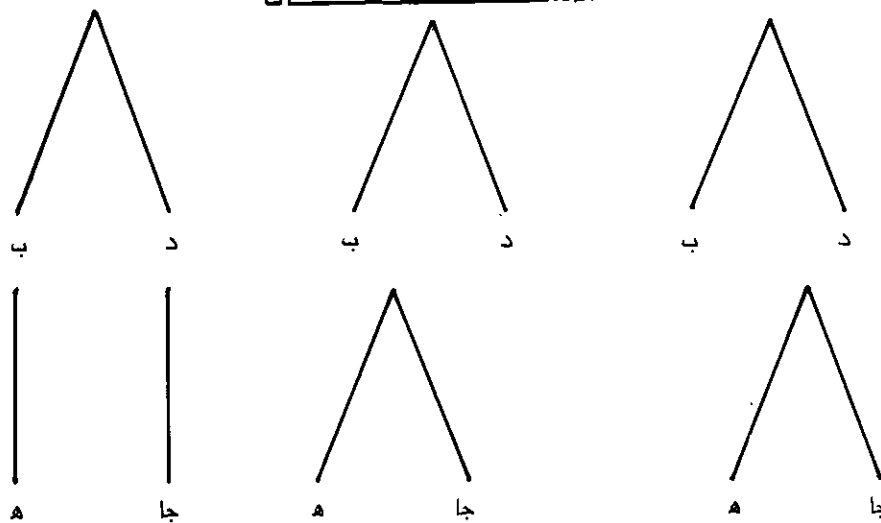
ولا يفوتنا ان نسير مما الى ان المستويين التركيبي والنحوي قد يختلف من لسان الى اخر : فما هو تركيبي في لغة ما قد يكون نحويًا في اخرى والعكس صحيح ايضا. وفي رأينا ان ادوات النفي التي تدخل على الافعال قد تتبعا بالنسبة للعد العربية في البنية التركيبية على الرغم مما يبدو في هذا الرأي من ابتعاد عما اعتاد دارسو اللسان الاجنبية : الفرنسية مثلا (وسوف نعالج موضوع النحويين وعلاقاتها بالذات في دراسة مقبلت).

وخلاصة القول. ان الانحاء الصورية يندرج بعضها تحت البعض الآخر. فالنحو غير المقيد يتضمن النحو غير القصري. وهذا يتضمن النحو السياقي الذي يندرج تحت النحو غير السياقي، وهذا بدوره يحتوي النحو المطرد (42).

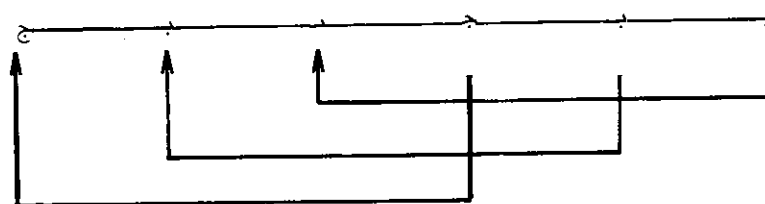
وكل هذه الانحاء تشكل وسائل رياضية أو نماذج صورية في يد اللساني تساعد على اكتشاف بعض خصائص اللسان الطبيعي ووصف أجزاء هامة من تعابيره.

ولا ينتظر منها أن تستوعبه استيعابا كليًا أو تقوم لغاتها مقامه لان اللسان المنطوق ليس من صنع الرياضيات والمنطق، لأن ما تصنعه هذه العلوم ما هو الا صورة مجردة تحاكي ما يجري في النطق الانساني.

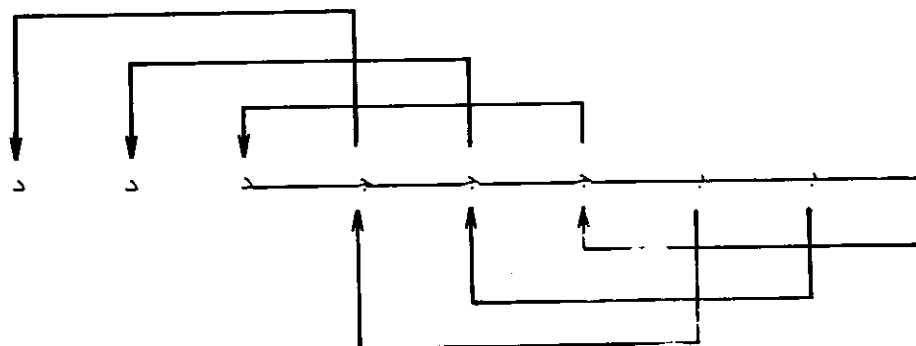
الأشكال



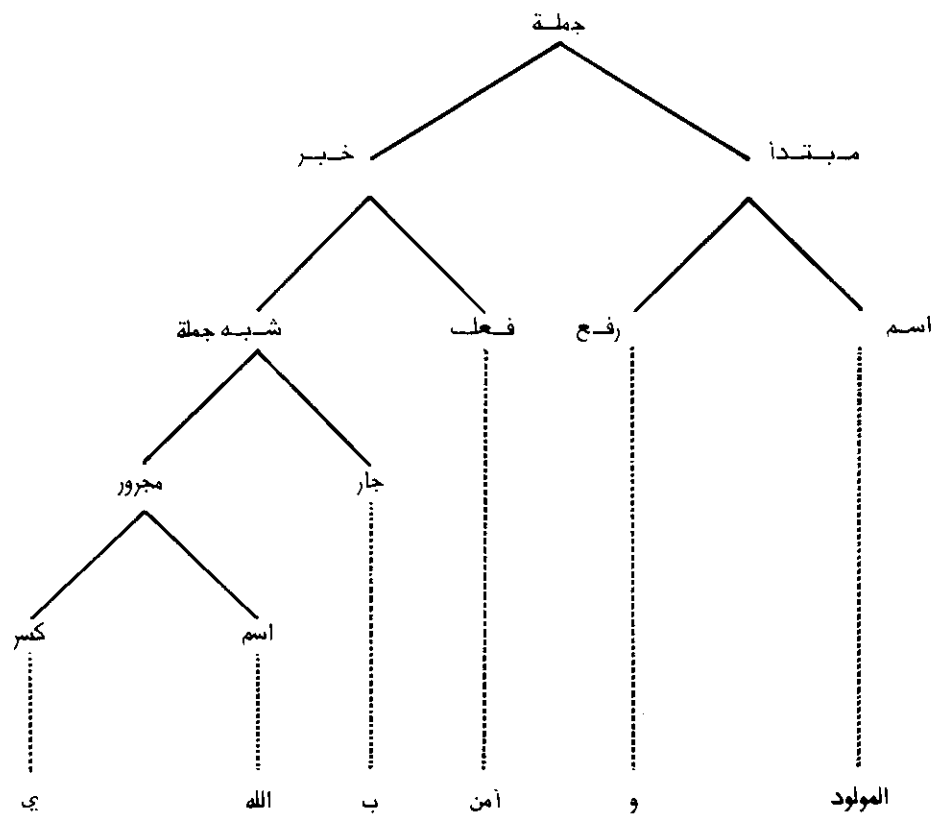
الشكل الاول



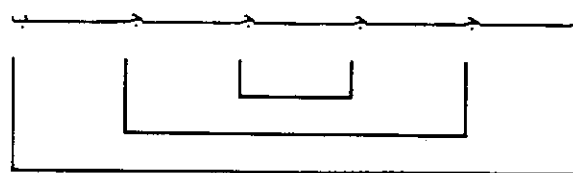
الشكل الثاني



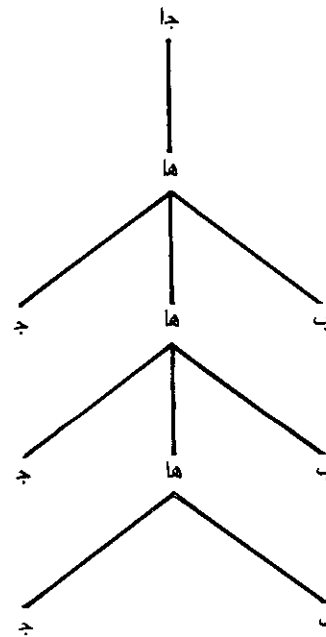
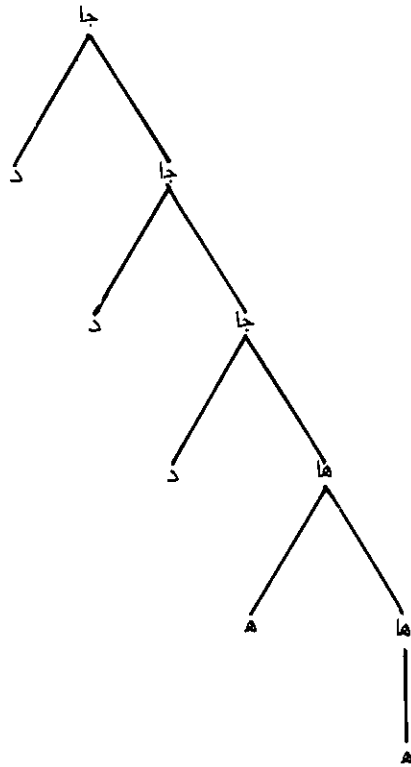
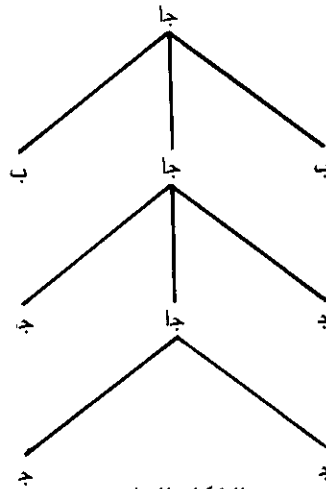
الشكل الثالث

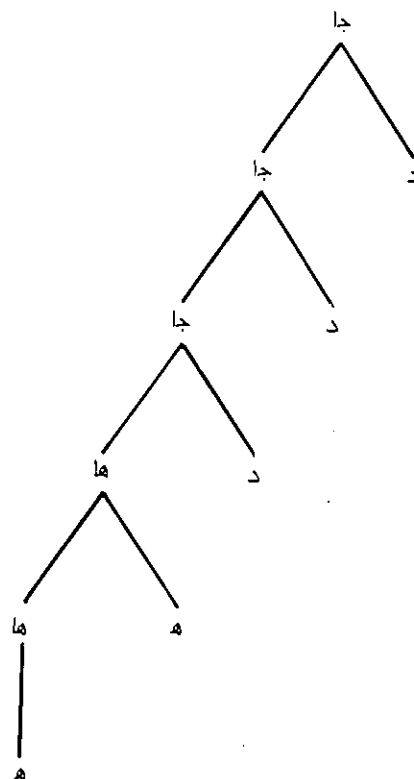


الشكل الرابع

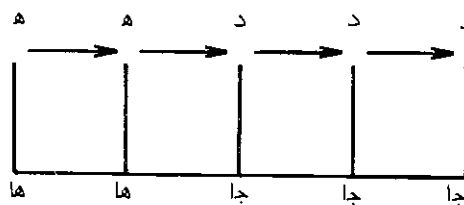


الشكل الخامس

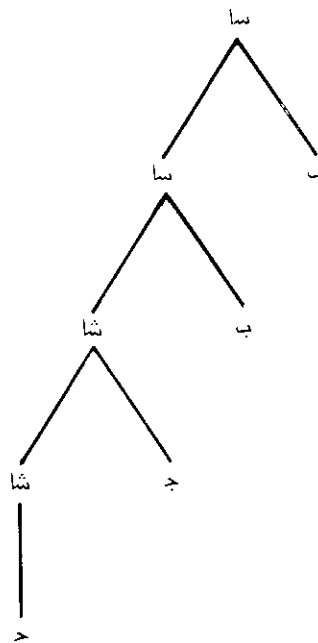




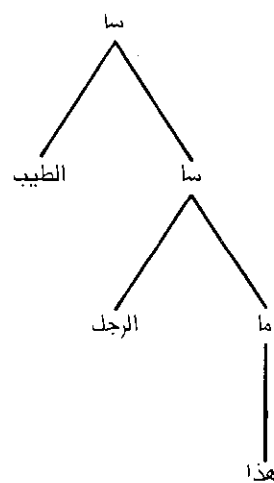
الشكل التاسع



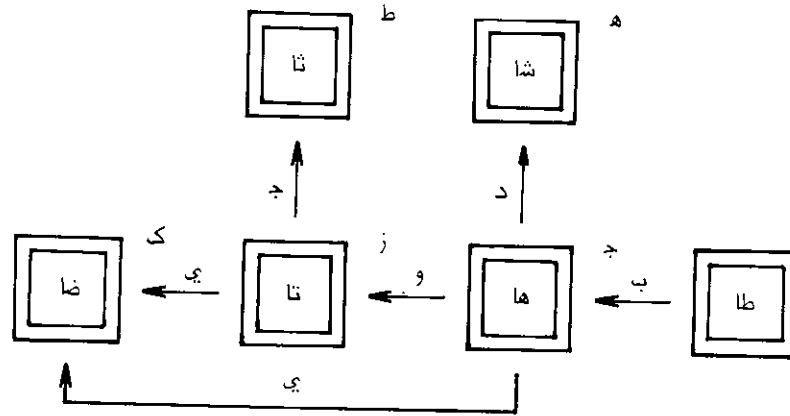
الشكل العاشر



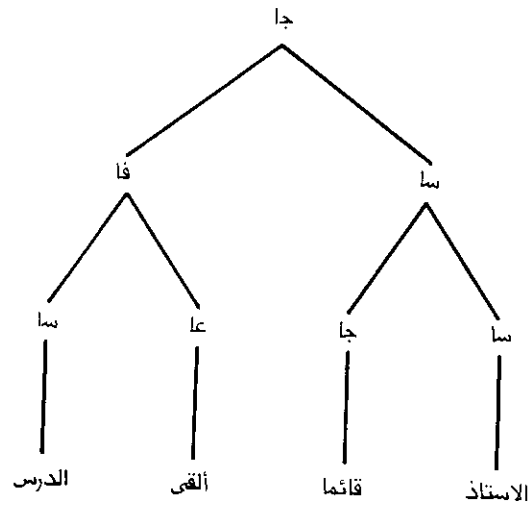
الشكل الحادي عشر



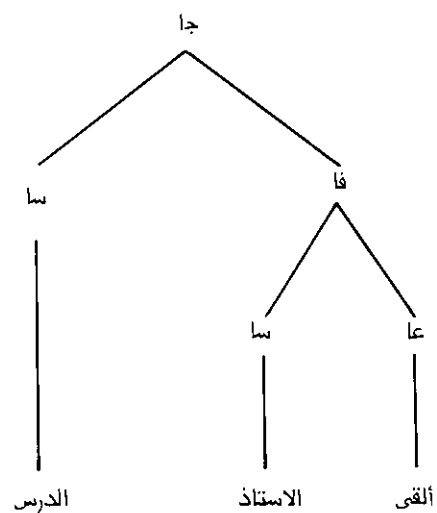
الشكل الثاني عشر



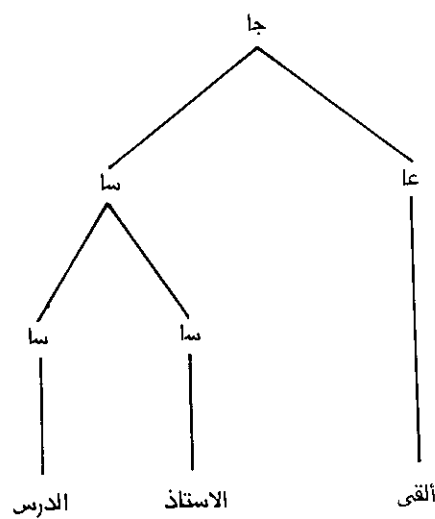
الشكل الثالث عشر



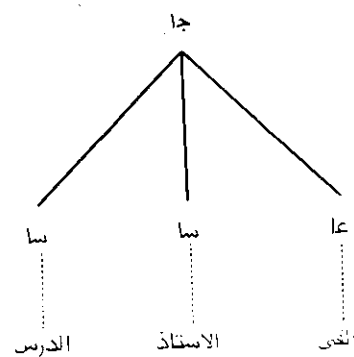
الشكل الرابع عشر



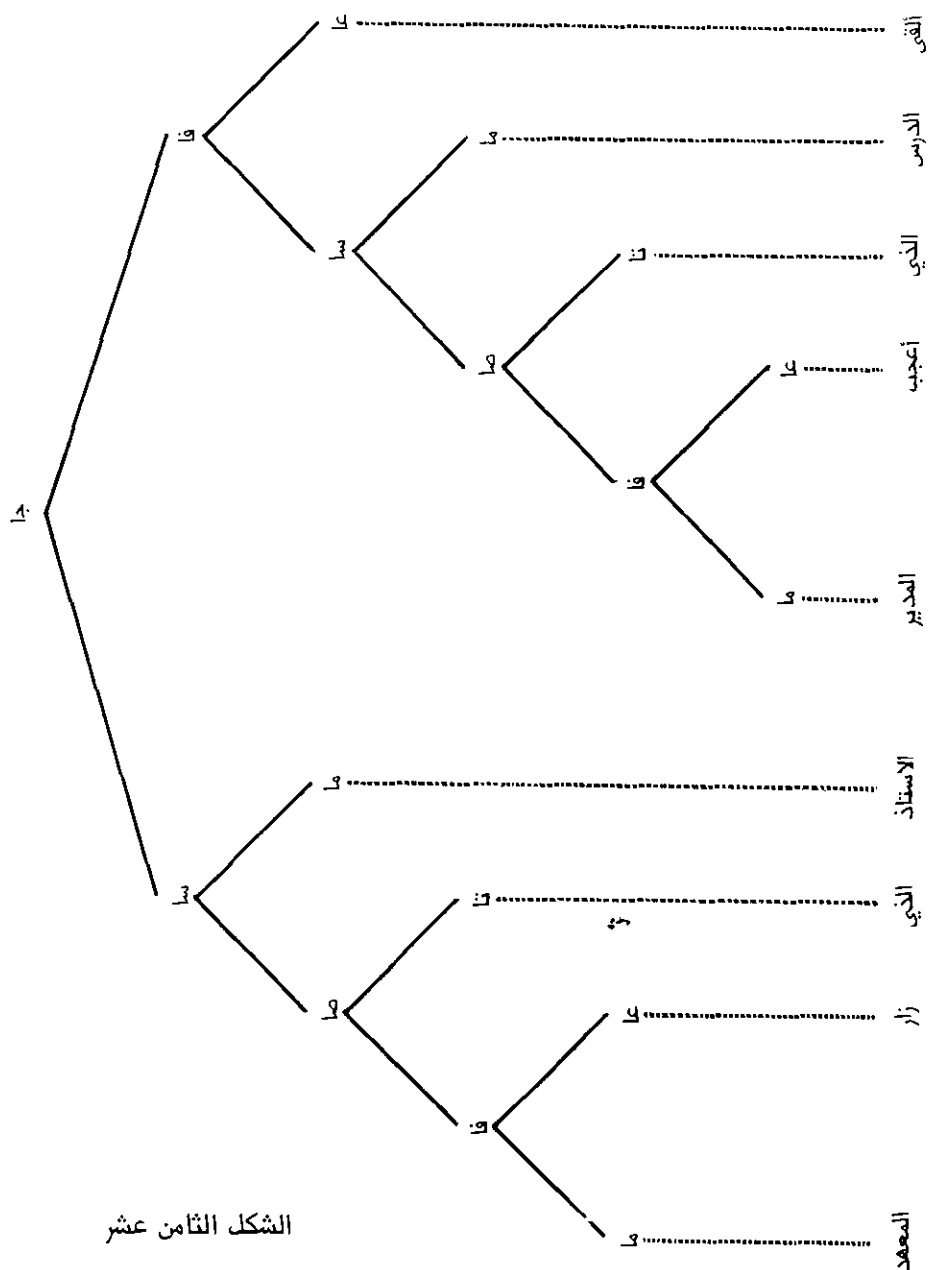
الشكل الخامس عشر



الشكل السادس عشر



الشكل السابع عشر



الشكل الثامن عشر

- Automate - 19

- Machine réelle _ 20
- Alphabet terminal _ 21
- Alphabet auxiliaire _ 22
- Ensemble non dénombrable _ 23
- Langage reconnaissable ou acceptable _ 24
- Grammaire sans restriction _ 25
- Grammaire raccourcissante en production _ 26
- 27 - نذكر بأن الحرف الممدود يشكل حرفاً واحداً، و « بجاد » هنا متوالية من ثلاثة حروف فقط.
- 28 - نقدر ما سوف يجده القارئ من عناء في الرجوع الى الاشكال الواردة في آخر المقال، لكننا اضطررنا الى ذلك لاستهيل طبعه.
- Grammaire Contextuelle _ 29
- Enchevêtrement _ 30
- Grammaire non Contextuelle ou context-free Grammaire ou C- Grammaire _ 31
- Forme normale de Chomsky _ 32
- Langage-miroir _ 33
- Emboîtement _ 34
- Grammaire régulière ou K-Grammar _ 35
- نسبة الى Kleene الذي درس خصائص النوع من النحو
- Structure en chaînage _ 36
- Graphe à états finis _ 37
- Chomsky dans «Formal Properties of Grammar.» _ 38
- Handbook of Mathematical Psychology,
vol; II, John Wiley and Sons, 1963.
- Nombre parfait _ 39
- Nombre premier _ 40
- Chomsky, Aspects de la Théorie syntaxique : _ 41
- 42 - هناك نوع آخر من النحو لم نتعرض له في هذا البحث، يصف نفس الصنف اللغوي الذي يصفه النحو غير السياقي، وهو النحو المقولي، وسنتناوله بالدرس في مقال مستقل.

المراجع

- CHOMSKY, (N), MILLER, (G), L'Analyse des Langues naturelles, Edit., Gauthier-Villars, 1971
- CHOMSKY, (N), Aspects de la Théorie syntaxique, Edit., du Seuil.
- CHOMSKY, (N), Structures syntaxiques, Edit., du Seuil, 1969.
- GROSS, (M), Mathmatical Models in Linguistics, Edit., Prentice-Hall, 1972.
- GROSS, (M), LENTIN, (A), Notions sur les Grammaires formelles, Edit., Gauthier-Villars, 1967).
- HOPCROFT, (J.E.), ULLMAN (J.D.), Formal languages and their Relation to Automata, Edit., Addison-Wesley, 1969.
- KIMBALL (J.P.), The Formal Theory of Grammar, Edit., Prenticehall, 1973).
- MOREAU. (R), Introduction à la Théorie des Langages, Edit., Hachette, 1075.

محمد زنيبر

ابن الخطيب والتجديد في المنهاج التاريخي

المؤرخون بين المادة والمنهاج

من التساؤلات التي تساور الباحث في علم التاريخ : هل يزدهر هذا العلم في عهد انحطاط الأمم أم في عهد صعودها ؟ أليست الأمم، في وقت انطلاقها وتحمسها وتقدمها، تكون مشغولة بقضاياها الأنية، منهكة في البناء والتأسيس والتوسع والتنمية في سائر الميادين، أكثر مما تتفرغ للتأمل والتفلسف فيما تحققه مع مر السنين ؟ أليس الشباب والقوة من المواعع عن الاكثار من الحديث عن الماضي ومن المشجعات على الابتكار والمبادرات الجديدة ؟

وإذا أخذنا بنظرية الفيلسوف الفرنسي « أوجست كونت » التي تقول بأن الانسان لا يستطيع في آن واحد أن يعمل ويرى نفسه كيف يعمل، فمعنى هذا أن جوابنا على تلك التساؤلات هو أن التاريخ لا يمكن كتابته على حقيقته الا بعد أن تكون المرحلة التاريخية الطبيعية الكبرى قد وصلت الى نهايتها ودخل التاريخ في مرحلة جديدة.

وليس معنى هذا أن التاريخ لا يكتبه المعاصرون لتلك المرحلة. فهذا ابن سعد واليعقوبي والواقدي والبلاذري والمسعودي والطبري، وكلهم من كبار المؤرخين، نبغوا في عنفوان الدولة العربية الاسلامية، على ضفاف الرافدين، ووقت هيمنتها على مصائر العالم في العصر الوسيط. ومع ذلك، فلا أحد من هؤلاء المؤرخين بلغ في نظرتهم الى التاريخ وتفهم عوامله وقوانينه الى الدرجة التي أدركها ابن خلدون، ذلك الرجل الذي لمع نجمه وقت ادبار الدولة الاسلامية وانحدارها في هوة الضعف والانحطاط السياسي.

فكان نبوغ ابن خلدون في تلك الحقبة بالذات جاء شاهدا على الفكرة القائلة بأن عهد تدهور الأمم يعطي مجالا أوسع لعمل المؤرخ وتفكيره ويساعده على التعمق في موضوعه والنفوذ من وراء شبكة الحوادث الظاهرة الى مصادرها الخفية. كما أن الانسان لا يحسن محاسبة نفسه الا عندما يتردى، في مزالق الخطأ ويخونه النجاح. وحينذاك يكون أقدر على تحليل نفسه والتأمل في تصرفاته السابقة. ولعلنا اذا رجعنا الى تاريخ اليونان

والرومان، مثلاً، سجد مايجرز مثل هذه الفرضية. فظهور مؤرخين مثل « هيرودوت » و « تيوسيديد » في منعطف كبير من تاريخ اليونان، وكذلك ظهور « تيتوس ليفيوس » و « تاسيتوس » بعد انتهاء عهد الجمهورية وقيام عهد « القياصرة » (1). كل هذا يبين أن المؤرخ لا يتقن عمله إلا بعد أن تكون التجربة التاريخية نضجت وأبرزت كل طواهرها وبواطنها. ومن ثم، فإن كتابة التاريخ المعاصر من أصعب الأشياء.

دون أن نقطع برأي في مثل هذه النظرية التي تخطر على الفكر بسهولة ويكاد يقبلها لأنها تلتقي مع قرائن لها وجود في الواقع، يجب أن نعترف بأن ما يسمى، اصطلاحاً، عصر « الانحطاط » في التاريخ الإسلامي والذي يمتد من غارات المفعول في القرن الثالث عشر إلى أواخر القرن الثامن عشر ربما كان لا يعني شيئاً واضحاً ودقيقاً بالنسبة للحياة الثقافية، خاصة. حقاً، لقد ظهر نوع من الجمود وأقفل باب الاجتهاد وطغت التيارات المحافظة على غيرها، ولكن إذا قارنا هذه السلبيات مع إيجابيات أخرى، فلا يسعنا آنذاك إلا أن نسلم بأن هذا العصر اهتم بغير حق، وأنه عرف نشاطاً علمياً وفكرياً متزايداً في شتى الميادين (2).

وبالنسبة للتاريخ، بالخصوص، نرى هذا العصر يشاهد في الشرق والغرب العربيين نبوغ عدد من المؤرخين الذين ندين لهم اليوم بالشيء الكثير من معلوماتنا عن الماضي والذين نعتبر تأليفهم من المصادر الأولية، بحيث لا نستطيع أن نسطر حرفاً في تلك السنين الخوالي دون الرجوع إليها. يضاف إلى ذلك أن كثيراً من المؤرخين الذين ظهروا في هذا العصر كانوا أغزر مادة وأكثر احاطة بموضوعهم من المؤرخين الذين جاؤوا في العصور السالفة. وقد سبق أن ذكرنا ابن خلدون ويمكننا أن نضيف إليه أسماء أخرى مثل ابن الأثير، وابن الجوزي، والرازي، وابن طباطبا، وابن خلكان، والقلقشندي، والعمرى،

1) Widgery : les grandes doctrine de l'histoire pp. 87-125

« Idées » N.R.F.

Berthant et Georgin : histoire illustrée de la littérature latine.

2 - انظر في هذا الصدد : المقال القيم الذي كتبه « شوقي » صيف « بعنوان » « عصرا احياء

التراث العربي وتجديده في « المجلة » عدد 132 سنة 1967.

وكذلك : Classicisme et déclin culturel dans l'histoire de l'Islam :

Paris (Besson - chantermerle) 1957.

والصفدي، والسخاوي، والمقريزي، وابن الخطيب، وابن عذاري، وابن سعيد، وابن عبد الملك المراكشي الخ.. والقائمة طويلة جدا تدل بصورة واضحة على ما نستطيع أن نسميه «ازدهار علم التاريخ» دون الخوف من المبالغة (3).

وفي هذا الصدد، يجب أن لا ننسى أن هذا العصر عرف، أيضا، بأنه عصر «الموسوعات». ويفسر المؤرخون ظاهرة الاتجاه الى التأليف الموسوعي بعدة أسباب :

أ - عاطفية : فقد عم الشعور في أوساط العلماء والادباء بالخطر الذي يتهدد الثقافة العربية وتراثها، غداة استيلاء الاعاجم من مغول وأتراك ومماليك على أقطار الشرق العربي وغداة تدهور وضع الدولة العربية بالأندلس. ورأوا عواصم كبرى مثل بخاري سمرقند وهرات وبلخ وبغداد ينالها التخريب الكامل على يد المغول وتتلف خزائن كتبها ومدارسها. كما رأوا حواضر الاندلس الكبرى التي كانت زاهرة بالعلم حافلة بالمكاتب مثل طليطلة وقرطبة وأشبيلية تسقط الواحدة تلو الأخرى في يد الاسبان المعادين للوجود العربي. فتحركت فيهم غريزة المحافظة على النفس، وتباروا في المحافظة على التراث حتى لا يضيع كله، فكان ذلك حافزا على تأليف موسوعات كبيرة في مختلف العلوم.

ب - اجتماعية : مع خروج السلطة الفعلية من يد العرب في بلادهم، قل الطموح الى المناصب السياسية التي أصبح يشغلها الاعاجم من مماليك ومغول وأتراك دون غيرهم. فالتجفت همم المثقفين الى العلم يسعون فيه للحصول على مجد من نوع آخر. وهكذا كثر العاملون في الميدان وقويت المنافسة. وأصبح رجال الدولة أنفسهم من أمراء ووزراء يرغبون في الحصول على المجد العلمي مثل ابن ماكولا، والقفطي، وأبي الفداء، وابن الأبار، وابن الخطيب. فكانت ثمرة هذا التنافس تلك التأليف الموسوعية.

ج - عملية : الرغبة في جمع المبادئ والعناصر الأساسية للعلم في تأليف واحد حتى يسهل تداوله على العلماء والمتعلمين. وهذا له أهميته في وقت لم تكن فيه طباعة، وكان الحصول على نسخة من أي كتاب يقتضي بذل مجهود ووقت من أجل النسخ أو

بذلك قدر مهم من المال. وبالإضافة الى ذلك، كانت تلك الموسوعات بمثابة مراجعة ونظرة فحص وتحقيق للعلوم الواردة فيها (4).

وهكذا برزت للوجود تلك التأليف الضخمة مثل «صبح الأعشى» أو «نوح الطيب» أو «مسالك الابصار» التي استطاعت بالفعل أن تنتشل من الضياع جزءا مهما من التراث الثقافي.

وليس من موضوعنا الآن أن نتحدث بإسهاب عن الموسوعات. وإنما اشرنا اليها لنستحضر في أذهاننا احدى الظواهر الرئيسية التي اتسمت بها الثقافة العربية في هذا العصر، وهو انتشار الفكر الموسوعي، وإن شئت فقل الروح الموسوعية. وقد كان، بالطبع، لهذا الفكر أو لهذه الروح آثارها البينة في علم التاريخ الذي عرفت مؤلفاته في هذا العصر من الوسع والضخامة ما قل أن يوجد له مثيل في السابق.

ولنذكر هنا، على سبيل المثال لا الحصر، «تاريخ دمشق»، في ثمانين مجلدا لابن عساكر المتوفي سنة 571هـ، و«الكامل» لابن الأثير المتوفي سنة 630هـ، و«مرآة الزمان» لسبط ابن الجوزي في أربعين مجلدا و«الوافي بالوفيات» لصالح الدين الصفدي المتوفي سنة 764هـ، و«تاريخ الاسلام» للذهبي المتوفي سنة 748هـ (5).

لكن هذه الموسوعية التاريخية لم تكن تقتصر دائما بروح منهجية ذات أهداف وسبل محددة، وبتجديد للرؤيا ومراجعة للنتائج التي توصل اليها السابقون. ولذلك لا بد لنا من التمييز بين صنفين داخل هؤلاء المؤرخين الموسوعيين:

أ - هنالك عدد من المؤرخين يعتبرون أن دورهم يقتصر على جمع المعلومات والروايات من كل نوع وحشرها في كتاب واحد مهما تباينت في جنسها وطبيعتها. فهو عمل لا يكاد يتجاوز مرحلة جمع المواد الأولية التي هي مرحلة تمهيدية في البحث التاريخي ونحن، وإن كنا لانستطيع اليوم أن نقنع بمثل هذا المفهوم للتاريخ، لانتمالك عن الاعتراف بالجميل لهؤلاء المؤرخين، لانهم احتفظوا لنا، أحيانا، وسط المعلومات الثانوية أو التافهة بروايات وأخبار كان لها الفضل في انارة السبيل أمام الباحثين في عصرنا هذا. فهم على أي، قاموا بدور المحافظين على الوثائق والشهادات. وهذا ليس بالشيء القليل

4- شوقي ضيف : المرجع السابق

في نظر علم التاريخ. وكل ما يؤخذ عليهم هو أنهم يتجنبون ابداء أي رأي شخصي أو أية محاولة لتأويل الأحداث وتحليلها (6).

ب - هنالك طائفة ثانية من المؤلفين لهم حاسة تاريخية دقيقة وبرهنوا في هذا العصر بالذات على أنهم يتصورون المقصود من علم التاريخ. وهم، في الواقع، يمثلون بالنسبة للمجموع أقلية صغيرة استطاعت أن ترتفع من مستوى جمع المواد الأولية الى مستوى التفكير في تلك المواد وتحليلها واستغلالها بروح منهجية : فهؤلاء لم يعودوا يقنعون بحفظ المعلومات والأخبار من الضياع. بل صاروا يطمحون الى أن يقدموا لقرائهم صوراً كاملة واضحة المعالم والقسمات عن الماضي يظهر فيها توالد الأحداث وتفاعلها. وهذا يقتضي أن تتوفر لدى المؤرخين الذين ساروا في مثل هذا الاتجاه نوع من الروح العلمية والفلسفية بالاكتساب الشخصي والاجتهاد الفردي، ذلك أن العصر الذي نتحدث عنه - وهذا احد مظاهر انحطاطه - ساد فيه الجمود والدوجماتية الرجعية في ميدان الفكر بالتوازي مع انتشار الاقطاعية في عدد من الاقطار الاسلامية على يد الامارات المغولية والملوكية والتركية. ولذلك، فلم يكن من السهل التوصل الى دراسة الفلسفة وأكثر العلوم الوضعية في المساجد والمعاهد والمدارس القائمة تحت رعاية الدول.

ومع ذلك، فلا يخامرنا شك بأن الفلسفة ظلت تدرس وتتداول في المجالس الخاصة. ولا أدل على ذلك من كون ألد خصومها كالغزالي وابن تيمية كانوا، في الغالب، من المتضلعين فيها (7). أضف الى ذلك أن الحملة ضد الفلسفة ظلت قائمة باستمرار في المجتمعات الاسلامية مما يدل على وجود المتعاطين لها. ويكفي أن نذكر هنا منشورين أحدهما للسلطان سيدي محمد بن عبد الله العلوي، والآخر للمولى عبد الرحمن في القرن الماضي وكلاهما يمنعان تدريس الفلسفة في التعليم العمومي ويسمحان بها في البيوت، في دائرة خاصة (8).

٥ - من هذا القبيل نذكر على سبيل المثال ابن كثير وابن عذاري المراكشي والنويري. فكتبهم قيمة بالمعلومات الواردة فيها لا بما يبدية المؤلفون من تفكير.

7- نجد أثر التكوين الفلسفي عند عدد من العلماء مثل ابن خلدون والسيوطي والمقريزي والنسفي والتفتازاني وابن سبعين وعدد من رجال الصوفية.

8 - ابن زيدان : الاتحاف 3 : ترجمة محمد بن عبد الله.

وعلى أي، فقد أصبح ذوو العقول الثاقبة مضطرين، في هذا العصر الى سلوك سبيل التقية وتحاشي كل ما من شأنه أن يعرضهم لسخط العامة الأميين أو نقمة الطغاة المسيطرين. والامثلة كثيرة لهؤلاء العلماء الذين تعرضوا للمحنة لانهم أقدموا على الجهر بما يعتقدون أنه هو الحق (9).

وبالرغم من كل ذلك، فإنه يستشف من تأليف بعض المؤرخين وأبحاثهم أنهم كانوا يستندون الى نوع من العقلانية في كتابتهم وتحليلهم للأحداث. وهذه العقلانية قلما كان يعبر عنها بصورة واضحة وصريحة. وابن خلدون هو الذي استطاع، بالفعل، أن يبسط نظرية تركز على العقلانية التاريخية الا أنه كان يحتاط كثيرا في تقديم منهجه الجديد ويغلفه في جمل مليئة بتعابير التوحيد وحسن الاعتقاد والآيات القرآنية حتى لا بوصم بالانحراف عن جادة السنة التي أصبح الجامدون من العلماء يضيقونها الى الحد الذي لا يستطيع معه المؤمن، مهما تحرى وتورع، أن يضمن نفسه من الذنب والخطيئة (10).

ومن دون شك أننا اذا اردنا أن نضع الى جانب ابن خلدون مؤرخا يتميز بفتح الفكر وثقوب الذهن فلن نجد خيرا من لسان الدين ابن الخطيب الذي، بالرغم من المسؤوليات الجسام التي تحملها كوزير ورجل دولة، استطاع أن يكون رجل علم من الدرجة الاولى، وصاحب فكر موسوعي تدرس بكل المبادئ.

ونستطيع أن نقول ان التاريخ يأتي في طليعة المعارف التي اشتغل بها، إذ له فيه تأليف عديدة ما بين مطولة ومختصرة برهن فيها عن معرفة واسعة بتاريخ الاسلام منذ بدايته بصفة عامة، وعن تاريخ المغرب والاندرلس، بصفة خاصة.

ولعلني في غنى عن ذكر تأليفه وتخليها باسهاب. فهذا موضوع بحث ودرس. ولذلك فلن أعرج عليه الا بقدر ما يتطلبه الموضوع الذي أريد أن أعالجه في هاته الدراسة الا وهو طريقة ابن الخطيب في معالجة الكتابة التاريخية والروح التي كان يفهم بها التاريخ. فهذا هو الجانب الذي مازال فيه، على ما اعتقد، مجال للبحث والاخذ والرد (11).

9 - نذكر منهم : ابن عقيل، السهروردي، ابن تيمية، ابن رشد

10 - عمر فروخ : موقف ابن خلدون من الدين ومن القضايا الدينية - أعمال مهرجان ابن خلدون

- القاهرة 1962

11 - انظر : نفح الطيب، ومقال للدكتور أحمد مختار العبادي « مؤلفات لسان الدين بن

الخطيب » في Hesperis 1959 ومقدمة عبد الله عنان لكتاب الاحاطة.

لقد وجد ابن الخطيب نفسه أمام تقاليد عريقة عند العرب في كتابة التاريخ، وهي تقاليد لها محاسنها ومساوئها. فالمنهاج الذي اتبعه العرب كان يختلف عن منهاج اليونانيين والرومانيين. وهذا راجع، في الأساس، إلى كون الأولين لا ينطلقون من ففس المنطلق الذي سار منه الآخرون. فالطريقة التي عالج بها « تيوسيديد » Thucydide اليوناني أو « تأسيت » tacite الروماني، مثلاً، بعض المواضيع التاريخية تعتمد كثيراً على حرية المؤلف في تناول موضوعه والتصرف في المواد التاريخية المتوفرة لديه. بحيث لا يشعر أنه ينقل أو يروي عن الغير، بل هو يحدثك بأسلوب شخصي ولهجة خاصة تجعل منه ناطقاً باسم التاريخ مباشرة، وكأنه شاهد عيان لأحداث التي يقصها. وقد يقع في بعض الفصول من التأليف أن يتحدث المؤرخ عن أحداث عاصرها وعرفها عن كتب، فيكون له مجال في ابداء آرائه وملاحظاته كمعاصر له نزعتة ومواطن معنًى بالأمر يريد أن ينصح شعبه ويستخرج العبرة من الوقائع الماضية. وكيفما كان الأمر، فالمؤرخ اليوناني أو الروماني يحتفظ بكثير من الحرية في تناول الموضوعات التي يعالجها. ومن ثم اكتسبت عدد من المؤلفات التاريخية الإغريقية واللاتينية قيمة أدبية كبيرة (12).

هذه الحرية في تناول الموضوع التاريخي التي وجدت عند اليونان والرومان لم تتوفر عند العرب بهذه الصورة. فالتاريخ امتزج منذ اليوم الأول بالدين وتقيد ببعض قيوده. وكان أهم فصل عنى به المؤرخون الأولون هو السيرة النبوية، ثم عهد الخلفاء الراشدين. وهذا الاهتمام كانت له دواع أخرى هي أقوى من داعي البحث التاريخي المجرد. فالذين كرسوا جهودهم لجمع مواد السيرة كانوا يسعون، قبل كل شيء، لجمع الحديث النبوي والروايات المتعلقة بالسنة، بصفة أعم، وتحقيق أسباب النزول بالنسبة للقرآن وغير ذلك من الاهتمامات الدينية التي كانت تأتي في المقام الأول (13).

ولم يكن من الممكن لمؤلف السيرة أن يتحدث فيها بأي أسلوب شاء، وأن يتصرف في موادها بحرية مطلقة، سواء من حيث التصنيف أو التعبير. بل كان عليه أن يتلف موادها من الرواة الأولين الذين كانوا، في الغالب، من التابعين وأن يحتفظ بعبارتهم، ما وسعه ذلك، وهو ينظر إليها بنوع من التقديس، لأنها ربما خرجت من أفواه رجال عاصروا النبي وعاشروه أو من أفواه رجال نشأوا في البيئة التي تركها بعده بالحجاز والتي ظل صاحبته يهيمنون عليها هيمنة روحية كاملة. وما قيل عن السيرة النبوية يمكن قوله عن الخلفاء الراشدين الذين، بالرغم من الخلافات المذهبية، ظلوا في الغالب، يستمتعون عند كبار المؤرخين بنوع من الاحترام والتقديس (14).

من ثم جاء اهتمام المؤرخ العربي بالخبر في حد ذاته وبالجزئية التاريخية. فكل رواية تتعلق بحياة النبي وسلوك الصحابة ليست لها أهمية تاريخية فحسب، بل لها اعتبارها الأول السابق لغيره كنموذج، كتشريع يظل مفعوله ساريا بالنسبة للمستقبل في لاهئتيته. فالتاريخ بهذا المعنى مرجع أساسي يعتمد عليه المفسر والفقيه والمشرع والحاكم - ولذلك كان المؤرخ يوجه عنايته الأولى لتحقيق كل رواية وتوضيح كل جزئية. وربما اضطره ذلك الى التخلي عن الهندسة العامة للتأليف التاريخي، لان كل هندسة تقتضي نوعا من التنسيق والترتيب، وكل تنسيق وترتيب فيه مساس بالجزئيات من حيث اخضاعها لنوع من الرباط المنطقي النظري الذي ربما كان فيه تجاهل وابتعاد عن الواقع. فالمؤرخ الاسلامي يريد اعادة بناء الواقع انطلاقا من عناصر وجزئيات حققها عن طريق نقد الروايات حسب منهاج الجرح والتعديل. ولا عليه في أن تكون هنالك وحدة وتناسق.

ومن ثم يظهر الفرق بين المنهاج اليوناني الروماني والمنهاج العربي. فالاول يرتكز على حسن التأليف والتنسيق ويمدح أولوية للناحية الأدبية والجمالية ويدخل نوعا من الحيوية الدرامية على العرض التاريخي. ولكن، هل يستجيب ذلك تماما الى علم التاريخ الذي تعنيه الحقيقة قبل كل شيء ؟

وأما المنهاج العربي فهو طريف في نوعه، ناشيء عن معطيات خاصة بالاسلام وبالمجتمع الثقافي الاسلامي. فهو يهتم، في الغالب الواجبة الفنية والجمالية، التي كثيرا

متغري القارئ وتغره، ليركز نظره في الوقائع والعناصر المفردة هدفه تقديم كل ماورد في شأنها من روايات حتى تبرز الحقيقة من خلال عملية نقدية.

لقد تصرف المؤرخ اليوناني كفناني معماري يشيد البنايات المتناسقة في سموها، بينما تصرف المؤرخ العربي كمؤمن يبحث عن المسارب التي تؤدي به الى الحقائق، يجمعها واحدة فواحدة وكأنه صائد يغوص على اللؤلؤ في لجة البحار المظلمة. على أن المنهاج التاريخي الاسلامي مازال في حاجة الى المزيد من التحليل والدرس لتحديد ملامحه بكامل الدقة والوضوح (15).

وكل ما نستطيع أن نؤكد في المرحلة الراهنة هو أن أول التقاليد المنهجية في كتابة التاريخ عند العرب نشأت عن الاهتمام بالسيرة النبوية وسيرة الخلفاء الراشدين، معتمدة، قبل كل شيء، على النقل الأمين للروايات المأخوذة من مصادر مباشرة، ما أمكن ذلك، مع اجتناب أي تدخل شخصي في تصنيف الأحداث وصياغتها وتأويلها. وهذا يقتضي نوعا من الالتزام بالموضوعية، وإن كانت هاته الموضوعية شكلية في بعض الأحيان لان المصدر المباشر الذي نقل عنه المؤرخ قد لا يكون موضوعيا. وعلى أي، فقد انطبع ذلك المنهاج بطابع الرواية الشفوية أو الكتابية مع الحرص على التأكد من السند، كلما كان ذلك في المستطاع. وبهذه الصورة، أصبح من الصعب على المؤرخ العربي أن يكون شخصيا في كتابته (16).

هذا هو السر في كوننا نرى كبار المؤرخين الاولين عند العرب يعتبرون أن عملهم الأساسي هو جمع الروايات على اختلافها وتبويبها وترجيح ما يمكن ترجيحه منها دون الحاح، مع التخلي، في الغالب، عن كل محاولة تركيبية من أجل إعادة بناء التاريخ حسب تصوراتهم الشخصية. بل انهم يتركون هذا الاجتهاد لقرائهم. فهذه هي المدرسة الاولى لكتابة التاريخ عند العرب التي بلغت منتهاها مع « تاريخ الرسل والملوك » للطبري، وظل أثرها متغلغلا في تأليفنا التاريخية الى عهد قريب.

وهذا ما غاب عن عدد من الباحثين الاروبيين فراحوا يتحاملون ويتهمون على أسلوب العرب في كتابة التاريخ حتى أن « جوتيي » أدى به الغرور العنصري الى القول

« النقطة الجوهرية هي أن العربي لا يمتلك، على ما يحتمل، معاييرنا التي يقيس بها الأحداث التي تظهر لنا ذات أهمية تاريخية. بل انه لا يمتلك أي معايير، بالمرّة (17). ونعتقد نحن أن العربي حينما أقدم على كتابة التاريخ كان يضع نصب عينه، باستمرار، معايير الحقيقة. وهذا ليس بالشيء القليل بالنسبة لاهداف التي يتوخاها كل مؤرخ.

كيف جاء ابن الخطيب الى التاريخ

تلك هي التقاليد التي كانت سائدة عند معظم المؤرخين العرب منذ اقبالهم على التأليف. لكن هنالك طائفة من المؤرخين حاولوا أن يوسعوا رؤيتهم فحوروا ذلك المنهج التقليدي وأغنوه وشقوا لانفسهم طريقا جديدة في كتابة التاريخ. ومن هؤلاء ابن الخطيب. ولكي نقدر مجهوده العلمي حق قدره، يجب أن ننتبه الى أنه لم يكن عالما متفرغا للتاريخ وحده. بل له مشاركة واسعة في ميادين فكرية متعددة تجمع بين الشعر والأدب والفقه واللغة والرجل والتصوف والطب الخ.. ثم انه لم يأت الى هذه الثقافة المتنوعة كرجل محترف وكمؤلف منقطع لعلمه، وانما كرجل دولة يمضي أوقات فراغه بين المطالعة والكتابة، ويشعر أنه مدين بمركزه في الدولة لشهرته كأديب وعالم. وليس العجب في الجمع بين الصفتين، فقد سبقه الى ذلك عدد من اعلام الاندلس، ولكن في الجمع بينهما واتقانهما كل الاتقان. ولاشك أن الرجل أوتي درجة رفيعة من الذكاء والقدرة على العمل. ثم ان الأثر المزمّن الذي كان مصابا به ساعده على أن يجمع في ذاته بين شخصيتين متميزتين : شخصية الوزير الذي يقضي نهاره في شؤون الدولة، ساهرا على مصالحها، وشخصية الأديب، الذي ينتقل الى حياة فكرية واسعة الأفاف كلما جن ليله، فيقرأ ويؤلف ويفتح وينتج انتاجا خصبا (18).

فالتاريخ لم يكن، اذن، الا شعبة من شعب هذا الفكر المتطلع المتحول. ومع ذلك، فابن الخطيب يعد من كبار المؤرخين العرب ولولاكتبه، لضاع منا كثير من أخبار الاندلس وتاريخ غرناطة بالخصوص، ولقد تأثر بالظروف المختلفة التي احاطت به في حياته الخاصة والعامة، فجعلت منه مؤرخا ذا طريقة متميزة، جديدة بأن تستلفت النظر وتذال حظها من

الدرس والتقييم. ومن دواعي الإعجاب، أيضا، أن ابن الخطيب لم يكتب التاريخ على شكل مذكرات شخصية فقط، كما يفعل الوزراء ورجال المسؤولية. بل أنه، بالإضافة إلى المشاهدات الشخصية، أقبل على التأليف التاريخي كعالم يستقرئ الأصول والمراجع، على كثرتها، ويتحمل كلفة المطالعة الطويلة والفحص الدقيق. فكانت ثمار مجهوداته أنه ترك لنا تأليف مهمة في كل أبواب التاريخ وأنواعه، كما يتبين من استعراض بعض آثاره (19).

وهكذا نجده حاول أن يؤلف في التاريخ العام، فكتب « أعمال الاعلام » الذي يمكن أن يعد من المختصرات المفيدة عن تاريخ الاسلام. كما نظم رجزا طويلا ممزوجا بشروح تحت عنوان « رقم الحلك في نظم الدول » واتجه الى التاريخ الاقليمي، فبرز بموسوعته النفيسة عن تاريخ غرناطة « الاحاطة » التي نال بها شهرة واسعة. وهناك « اللوحة البدرية » التي هي مختصر عن تاريخ غرناطة. وطرق باب التراجم سواء في « الاحاطة » أو في كتاب « معيار الاختيار » الذي يحتوي، هو أيضا، على تراجم لاعيان غرناطة كما ساهم في تاريخ الأدب بكتابه المعنون « الكتيبة الكامنة في من لقيته بالاندلس من شعراء المائة الثامنة ».

وهناك طائفة من التأليف التي يمكن ادخالها اما في عداد المذكرات الشخصية أو الرحلة مثل « نفاضة الجراب » وفيها يتحدث ابن الخطيب عن مقامه الاول بالمغرب ورحلته الى سلا وأغمات، ومن هذا القبيل « معيار الاختيار » الذي يصف فيه غرناطة مع بعض المدن المغربية، مضيفا اليها عدة تراجم أندلسية، كما ذكرنا من قبل، و « المفخرة بين مالقة وسلا » وهي مقامة يستعمل فيها المؤلف معلوماته ومشاهداته المباشرة، و « خطرة الصيف في رحلة الشتاء والصيف » وهي رسالة تتضمن وصفا لزيارة قام بها صحبة سلطان غرناطة الى عدة مدن أندلسية. وهناك تأليف أخرى ضمنها ابن الخطيب وثائق تاريخية مهمة نذكر منها : « ربحانة الكتاب » الذي يحتوي على عدة رسائل منها ماله صيغة رسمية، و « كناسة الدكان » الذي يحتوي على عدد من الرسائل المتبادلة بين سلطان غرناطة أبي الحجاج يوسف النصري وأبي عنان المريني. و « رسائل الى بعض الملوك والاعلام » وهناك، أخيرا، كتب ابن الخطيب في السياسة التي لها ارتباط بالتاريخ

19 - فهو يشير الى المصادر التي يعتمد عليها. مثلا. في كتاب الاحاطة « وكتاب » اعلام

من بعض الجوانب مثل « الاشارة الى أدب السياسة في الوزارة. » ورسالة له أخرى في نفس الموضوع وثالثة اسمها « رسالة في أحوال خدمة الدولة ».

تلك نظرة خاطفة على أهم ما ألفه ابن الخطيب من كتب في التاريخ وهي تبين أنه كان ذا ميل خاص نحو هذا العلم، برغم تعدد منازعه الثقافية كشاعر وكاتب وأديب وصوفي وطبيب. لكن التاريخ كما نعلم، يتطلب الخوض فيه وقتاً وجهداً كبيرين وإقدام رجل دولة له شواغل ومسؤوليات، على الكتابة فيه لا يمكن تفسيره بالهواية الشخصية وحدها فلا شك أن هنالك عوامل موضوعية أخرى أثرت عليه ودفعته به الى هذا الاتجاه. نعم، هنالك الأسباب العادية التي تدفع الكثير من الكتاب الى معالجة المواضيع التاريخية. وليس في نيتي أن أعرض لها هنا لا بالاجمال ولا بالتفصيل، لأنها واضحة. ولكن، الذي يهمني أن أقف عنده هو بعض العوامل الخاصة التي تتصل بابن الخطيب وبيئته وعصره.

ويأتي في طليعة هاته العوامل ما نستطيع أن نسميه القومية الاندلسية التي ظهرت في الأندلس العربية بشكل ملحوظ منذ القرن الخامس الهجري وعبر عنها كتاب مشهورون مثل ابن حزم والشقندي، وابن سعيد وابن بسام وغيرهم (20). وهي قومية ذات مضمونين ديني وسياسي في آن واحد. فمن جهة، كان الاندلسيون يقاومون أو يحاولون أن يقاوموا المسيحيين الاسبان الذين كانوا شركاء لهم في نفس الأرض أي في نفس الوطن. ومن جهة أخرى، كان الاندلسيون يتضايقون من حكم المسلمين الآخرين أمثال المرابطين والموحدين الذين هم شركاء لهم في نفس الذين ونفس الثقافة. ويعبرون عن تضايقهم بالثورة، أحياناً، فإن لم يستطيعوا فبالشعر والنثر، وذلك أضعف الايمان. من كل ذلك نشأت تقاليد قومية انطبع بها الفكر الاندلسي وبرزت، بالأخص، في كتابة التاريخ. وابن الخطيب لا يشذ عن جماعة المؤلفين الاندلسيين، بل هو أحد زعمائهم.

ولئن كانت تكتسي القومية عنده، في غالب الأحيان، صورة معقولة ومحمودة، فقد يدفع به الغلو في بعض المرات الى شيء من التعصب يحاول أن يغطيه بجمال العبارة وحرارة النكته. وعلى كل، فابن الخطيب يكتب التاريخ كرجل وطني، يحتفظ في نفسه

20- المقرئ : نفح الطيب . بيروت (دار صادر) ج 3 / 150 - 122 - عبد الرحمن القاسي :

محاولة للدفاع عن بر العدو مجلة المجمع العلمي العراقي المجلد السابع عشر

بغيرة قوية على الاندلس، وان كانت رقعتها ضاقت وتجمعت حول مدينة غرناطة التي يحرصها بالاهتمام والتجديد. ويكفي أن نقرأ الفصول الاولى من « الاحاطة » لنجد شواهد كثيرة على حب ابن الخطيب لوطنه والتعلق به والرغبة في تبيان فضائله ومزايا أهله وأخلاقهم، وعاداتهم المستحسنة.

ويلاحظ في مقدمة الكتاب أن المؤرخين انقسموا الى فرقتين : فرقة اهتمت بالتاريخ العام وأخرى فضل أصحابها أن يكتبوا في تاريخ بلادهم، وفاء بالعهد للوطن. ويبين أنه من الفرقة الثانية، ويورد أمثلة كثيرة عن الاعلام الذين سبقوه الى الانتماء اليها من الشرق والغرب حتى يبرر اختياره. ويعلق على ذلك بقوله.

« قد اختلفني عصبية لا تقدر في دين ولا منصب، وحمية لا يذم في مثلها متعصب، رغبة أن يقع سؤالهم وذكرهم من فضل الله جناب مخصب، ورأيت أن هاته الحضرة التي لاختفاء بما وفر الله من أسباب ايثارها، واراده من جلال مقدارها، جعلها ثغر الاسلام، ومتبوا العرب الاعلام، قبيل رسوله عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام. وما خصها به من اعتدال الاقطار وجريان الأنهار، وانفساح الاعتمار والتفاف الأشجار. نزلها العرب الكرام عند دخولهم مختطين ومنقطعين، وهبوا بدعوة فضلنا معطهين، فعمروا وأولدوا وأثبتوا المفاخر وخلدوا الى أن صارت دار ملك وولية سلك، فنبه المقدار وان كان نبيها، وازدادت الخطة ترفيعا، وجلب الى سوق الملاء بما نفق فيها. فكم ضمت جدرانها من رئيس يتقي الصباح هجومه، ويتخوف الليل طروقه ووجومه، ويفتقر الغيث لنوائله الممنوحة سجومه، وعالم يبرز للفنون فيطيعه عاصيها، ويدعو بالمشكلات فيأخذ بنواصيها، وعالم بالله قد وسم السجود جبينه» (21)

فهذا النص، على قصره، يجمع لنا الاسباب التي كانت تجعل ابن الخطيب يكن لوطنه كل محبة واكبار. فهو ثغر الاسلام، وهو منزل من منازل العرب الصرخاء، وهو مكان الخصب وجمال الطبيعة. وهو دار ملك ومسقط رأس لعلماء ورؤساء وصلحاء. وهو ذو ماض حافل بالامجاد والمفاخر. ولاشك أن محبة ابن الخطيب لبلاده ازدادت وتعمقت مع التجارب القاسية التي عاشها كوزير والتي صهرتها النكبة الاولى والثانية والعربة عن البلاد وشعره حافل بالتعبير عن هاته العاطفة. فهو الذي يقول في قصيدته المشهورة التي تقدم بها الى السلطان المغربي ابي سالم المريني حين قدومه الى المغرب رفقة ملكه المخلوع الغزي بالله، وقد جاء يلتمس الحماية والملجأ في المغرب :

سلا هك لديمها من مخبرة ذكر
وهك باكر الوسمى دار اعلى اللوى
بلادى التي عاطيت مشمولة الهوى
وجوى الذي ربي جناحي وكره
نبت بي لا عن جفوة وملاية
ولا نسخ الوصل الهني بها هجر (22)

وهو الذي يقول في قصيدة أخرى، شاكرًا أبا سالم المريني على حسن ضيافته
واكرامه :

فامنني الدهر الذي قد أخافني
وخولني الفضل الذي هو أهله
تخونني صرف الحوادث فائنني
وأزعجني من منشأي ومبواي
بلادى التي فيها عقدت تنائمي
تحدثني عنها الشمال فتتثنني
وأمل أن لا استفيق من الكرى
إذا الحلم أوطاني بها ترب أوطاني (23)

والعاطفة الوطنية كثيرة في شعر ابن الخطيب فهو يدخلها، مثلاً، في القصائد التي
يمدح بها النبي، متوسلاً إليه بانقاذ الأندلس :

فعذرا وأغضاء ولا تنس صارخا
بعزك يرجو أن يجاب مجيب
وحينما يمثل أمام أبي عنان كسفير لبلاده يكون أول ما يخاطبه به قوله :

والناس طرا بأرض أندلس
وقد اهتمهم نفوسهم
لولاك ما أوطنوا ولا عمروا
فوجهوني اليك وانتظروا

كما نجد قصائد أخرى يهتم فيها بالجيش وتقويته من أجل الدفاع عن الوطن
الأندلسي (24).

22 - المقرئ : نفخ 10 دار صادر 5 / 86

23 - نفس المصدر 5 / 32

24 - ابن الخطيب : ديوان الصيب والجفام : القصائد رقم 154 و 283 و 299 و 169 و 173

كل هذا يبين أن ابن الخطيب ما فتئ لاهجا يذكر وطنه في شعره ونثره. هل كان صادقا في شعوره أم هو ينتحل لنفسه دورا تقتضيه الوظيفة والمسؤولية والمحافظة على منزلته بين أبناء بلده ؟.

هنا، يجب أن تميز، بالطبع، بين ما قيل في المناسبات، وبين ما كتبه المؤلف يعبر به عن فكرته الحقيقية. ولا يسعنا الا أن نسلم بأنه كان صادقا في شعوره، وان كان غير مرتاح للوضع الذي كان يوجد فيه ذلك الوطن الأندلسي، وان كان طموحه يدفعه في بعض الأحيان الى الانصات الى هو أجس أنانيته، كما تدل على ذلك المنعطفات التي مر منها في حياته (25).

على كل، ان ابن الخطيب في احواله العادية رجل يحب وطنه، وهذا الحب للوطن جعله لا يكتفي بالنقل عن الغير أو بإيراد الروايات المختلفة، بل أوجد عنده الرغبة في كتابة تاريخ وطني للأندلس يسخر له قلمه وملكاتة الأدبية. فابن الخطيب بصفته كاتباً معتدا بنفسه، مؤمنا بعقيدته ما كان ليعتمد على النقل عن الغير بالحرف، كما حصل لعدد من المؤرخين. بل هو يريد أن يستعمل أسلوبه الشخصي ويقدم المادة التاريخية حسب طريقته الخاصة التي روضها وارتضاها.

على ان ابن الخطيب لم يكن خاضعا لدوافع ذاتية فحسب، بل كانت هنالك مؤثرات موضوعية من جملتها البيئة التي كان يعيش فيها. لقد كان المجتمع العربي الأندلسي بسائر طبقاته يعيش منذ أجيال في جو الصراع والحرب ويتقرب باستمرار خطر الهجوم من الممالك الأسبانية المسيحية. فكانت تساوره عاطفة النقمة من الحظ. و كان المثقفون من ابنائه تخامرهم الفكرة بأن الاقدار لم تنصفهم. فهم من جهة، كتبوا صفحة من انصاع الصفحات وأروعاها في تاريخ العرب والمسلمين. وهم من جهة أخرى، عاشوا مهددين في ديارهم، مزعجين منها، يدافعون عن وطنهم شبرا بشبر. وما يستريحون من حرب حتى تقوم عليهم أخرى. وفي نفس الوقت كانوا يشعرون أنهم محط انظار المسلمين، ومحط انظار التاريخ، وأن مصيرهم مرتبط بالتضحيات الجسام. وليس امامهم الا أن يستبسلوا في الدفاع

25 - هاته الانانية تظهر في قراره من الأندلس لاسباب ترجع للنزاعات الشخصية انظر رسالته

الى الغني بالله عند وداع الأندلس التي أوردها ابن خلدون في تاريخه.

عن كيانهم وشرفهم وأن يصمدوا لضغط العدو ومؤامراته فهل كان لمؤرخ اندلسي، ايا كان، أن يكتب عن تاريخ بلاده دون أن يكون واعيا بهذا الوضع متأثرا لهذا الشعور ؟ (26).
هناك عامل ثان يكاد يلتقي مع حب الوطن، ولكنه يختلف عنه في العمق لانه يرتبط بوضع تاريخي خاص وفريد من نوعه. انه عامل ذو صبغة نفسية كان يسيطر على عقول الاندلسيين، بصفة عامة، والمتقنين منهم بصفة خاصة لاننا نلمس آثاره في كتابات الأدباء والمؤرخين والشعراء. ونستطيع أن نسميه « المركب الاندلسي » وكلمة مركب استعملت هنا بمعناها التام الدقيق اذ هي تجمع، كما سنرى، بين عناصر نفسية متناقضة وتركز الاهتمام والشعور، بشيء غير قليل من الغلو، في فكرة تفوق الاندلس على غيرها ويكتسي ذلك في بعض الأحيان صبغة التعصب الجنوني. فالشقندي، مثلا، لا يتردد في التهكم على يوسف بن تاشفين ووصفه بأقبح الأوصاف، دون أن يتذكر الدور الحاسم الذي لعبه هذا الرجل في انقاذ الأندلس. وهذا ناشيء عن تعقيد نفسي جماعي يحول دون النظر الى الأشياء بتجرد وموضوعية.

فالاندلسيون، في وضعهم التاريخي العام، كانوا يتأرجحون بين الاعجاب بنفسمهم والتشكي من حظهم. لقد كانت لهم دولة وصوله أيام الأمويين، فاذا بهم يصبحون مغلوبين ومستضعفين وفي الوقت الذي يقدمون فيه انفس بضاعة في ميادين العلم والأدب والحضارة، كانوا يقفون موقف الاستجداء من العالم الاسلامي، بصفة عامة، ويستصرخون المغرب الأقصى، بصفة خاصة، للحصول على النجدة العسكرية ولذلك فهم يصبون جام غضبهم وسخريتهم على المغرب الذي اصبح عنصرا من عناصر تلك العقدة النفسية. وفي الوقت الذي يواجهون فيه خصما لدودا ويرددون فيما بينهم شعار الوحدة والتآزر، كانوا يظهرون بمظهر الجماعة التي لاتستطيع أن تتغلب على انقساماتها ولا ان تتجاوز نعراتها وعصبيتها الاقليمية والعنصرية. انهم واعون، ولكنهم عاجزون، كالمريض المبتلي الذي يعرف اسباب مرضه، ولكنه لا يستطيع أن يقلع عنها. فهم يرون انفسهم كومة من ومضات التاريخ الالامعة، ولكنها ومضة مهددة بالانطفاء في كل لحظة. وبما انهم يشعرون، بصورة أو بأخرى، ان لهم حظا من المسؤولية في هذا الوضع، فقد كانوا يعيشون بضمير منكسر، ثائر على نفسه، ناغم على الاقدار.

26 - يراجع الباب الثامن من « نفح الطيب » المعنور « في تغاب العدو على الاندلس

واستغاثة أهلها معاصريهم لانقاذها ».

هذا المركب الاندلسي « كانت له آثار حسنة وأخرى سيئة. فمن آثاره الحسنة تلك الغيرة التي نشأت عند الاندلسيين على حضارتهم وتاريخهم وتراثهم فدفعتهم الى الكتابة عنها وتسجيل ما يمكن تسجيله منها. وهكذا ستخلد أخبار الاندلس العربية، ولن تقبرها امواج الحروب الاستردادية التي مافتى المسيحيون الاسبان يشنونها على عرب الاندلس في صمود ومثابرة وتخطيط متجدد. كما دفعتهم الى الكتابة من أجل تبرير ضعفهم وعجزهم أمام خطط العدو المبيتة، ومن أجل الدفاع عن انفسهم تجاه التاريخ وتجاه الرأي العام الاسلامي الذي كان يعايشهم مأساتهم باستمرار، ويرقبهم من قريب أو من بعيد. ومن المفيد، هاهنا، الرجوع الى تلك الفصول التي عقدها المقرئ في «نفح الطيب» والتي يتحدث فيها عن المجتمع الأندلسي وفوائده المختلفة. وكل هذا طبيعي، بل واجبا، مادام يجري في الحدود المعقولة. ولعل أحسن ما كتب في هذا المعنى هو كتاب «الاحاطة» الذي يشبع فيه ابن الخطيب الحاجة العلمية والحاجة العاطفية، في أن واحد (27).

لكن « المركب الاندلسي » كانت له آثاره السيئة تجلت في ذلك التحيز السافر الذي نجد أثره لدى أحسن العلماء والمفكرين الاندلسيين من ابن حزم الى ابن الخطيب نفسه. فرغم أن هذا الأخير كان للمغرب والمغاربة دالة كبيرة عليه، ورغم أنه كان يعد نفسه مغربيا بقدر ما هو اندلسي، فإنه لم يتورع عن توجيه اللسعات الى المغرب كلما اتاحت له الفرصة، هذا مع العلم أنه كان صاحب مجاملة، وأنه يبطن أكثر مما يظهر.

فهو، مثلا حين يتحدث عن سبقة يبدأ بالكلام الجميل، ولكنه ما يلبث أن يتقلب وسط الكلام فيصفها بأنها « ثغر تنبو فيه المضاجع بالجنوب، وناهيك بحسنة تعد من الذنوب. فأحوال أهلها رقيقة، وتكلفهم ظاهر مهما ظهرت وليمة أو عقيقة.. فهم يمسون البلالة مص المحاجم، ويجعلون الخبز في الولايم بعدد الجماجم » (28). فإذا تحدث عن فاس التي كانت مزدهرة في زمانه، يصفها بكثرة العمران، لكنه يردف ذلك بقوله :

«يلقي الرجل أبا مثواه فلا يدعوه لبيته، ولا يطعمه من بقله وزيته. لا يطرق الضيف حماهم ولا يعرف اسمهم ولا مساهم، الا الذين أمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم » (29). وأما

27 - نفح الطيب : الباب السابع المعنون « في ذكر توقد الاذهان الاندلسية وحب

الاندلسيين للمعرفة وبراعتهم في الاجوبة وغير ذلك مما يدل على فضلهم ».

28 - معيار الاختيار ص 146

29 - نفس المصدر ص 179

مراكش، فان « خرابها هائل، وزحامها حرب وائل، وعقاربها كثيرة الديب، منغصة لمضاجعة الحبيب » الخ (30).

ويظهر الفرق في اللمحة حينما يتحدث عن مدن الأندلس. وأنصت اليه كيف يتحدث عن غرناطة « فهي في وقتنا هذا قاعدة الدنيا، وقرارة العليا، وحاضرة السلطان وقبة العدل والاحسان. لا يعدلها في داخلها ولا خارجها بلد من البلدان، ولا يباهيها في اتساع عمارتها وطيب قرارها وطن من الأوطان. ولا يأتي على حصر أوصاف جمالها، وعد أصناف جلالها قلم البيان. » (31). فاذا تحدث عن مدينة صغيرة مثل بسطة وصفها بأنها « محل خصب، ومنزل رحيب، وكفاها مسجد الجنة دليلا على البركة، وباب المسك دليلا على الطيب. ولها من اسمها نصيب، اذ هي بحر الطعام وينبوع العيون المتعددة بتعدد أيام العام » (32). ونحيل القارئ، أيضا الى رسالته المشهورة بعنوان « مفاخرة بين مالقة وسلا » التي ينسب فيها كل المزاي الى مالقة وكل العيوب الى سلا، مع العلم أنه ما قصر في مدحه لهاته الأخيرة في كتابه « نفاضة الجراب ».

وقد يقال انها تناقضات مقبولة من رجل اديب يتلاعب بالكلام كما يتلاعب العازف بالانغام وأن هذا التحامل مستساغ من مثله لانه لا يخلو من نكتة ودعابة. فهو في ذلك شبيه بالكاتب الفرنسي « سان سيمون » صاحب المذكرات الذي عاش في القرن السابع عشر والذي أقبل الناس على قراءته لما في كلامه من سخرية ونكتة لاذعة. الا أننا نشعر أن ابن الخطيب يظهر هذا التحامل في النصوص التي كتبها لتعبر عن فكرته بصدق، لا في النصوص التي أوجت بها المناسبة أودفعت اليها المجاملة. ومن ثم فهو متأثر الى حد كبير، برغم تعقله ووزانته، بالمركب الاندلسي.

هناك دافعان آخران لا بد من الإشارة اليهما، وهما السياسة، من جهة، والتلف، من جهة أخرى، وهما دافعان قد يلتقيان في بعض الأحيان، وقد يفترقان في أحايين أخرى. وليس من الصعب التمييز بينهما بتحليل دقيق للمواقف المختلفة.

30 - نفس المصدر ص 163

31 - الاطاعة 1 / 101

32 - نفح الطيب ط دار صادر 446/ 6 وهذا النص فيه اختلاف مع ما ورد في « معيار الاختيار

» عن بسطة ص 109.

كانت السياسة هي المهنة الاولى لابن الخطيب، وهي الأمر الذي يشغل فكره بصفة فعالة كل يوم. وقد وضعته في اعلى مستويات المسؤولية ببلاذه، جاعلة منه رجل دولة له تصرف واسع في العمل السياسي وفي توجيه الاحداث ومواجهتها والرجل السياسي لايرتاح لكتابة المؤرخ المحترف، لانه يرى فيه باحثا يقتصر على مخاطبة الوثائق ومناقشتها في مناخ طغت عليه برودة الموت وسكونه، في حين أن التاريخ كله دينامية وحركة وحرارة. والرجل السياسي كصانع للاحداث يعيش تلك الدينامية والحرارة في تجربته المباشرة، ويكتسب منها رؤيا أخرى تختلف عن رؤية المؤرخ الأكاديمي. ولذلك فإن طائفة من الرجال السياسيين تصدوا لكتابة التاريخ بانفسهم، غير قانعين ولا مقتنعين بطريقة الأكاديميين. ومن المع الأمثلة على ذلك : يوليوس قيصر، ونابليون وتشرشل ودوجول.

هل كانوا أكثر وفاء للحقيقة التاريخية وأصدق في ادائها ؟ هذا موضوع آخر المهم هو أن المسؤولية السياسية من أقوى الدوافع على التصدي لكتابة التاريخ، وقد كان ابن الخطيب يخامره هذا الشعور ويرى انه أقدر من يقوم بكتابة تاريخ بلاده، على الأقل، وهو، في هذا الشعور، يستطيع أن يقدم حججا لها وجاهتها :

أولا : اتصالاته برجال الدولة من السلطان الى من دونه يخوله امكانيات وفرصا في جمع روايات شفوية متعددة، والكشف عن كثير من الوقائع التي لايتوصل لها المؤرخ العادي.

ثانيا : هنالك القسم الذي مارسه بنفسه مباشرة وهو يمارس شؤون الدولة، والذي يقدم له مادة واسعة ويستطيع أن يتكلم فيه كأول خبير.

ثالثا : هنالك الكثير من الوثائق والمخطوطات التي كانت مهمته تسهل عليه أن يطلع عليها ويستفيد منها.

هذا، طبعاً، بالإضافة الى التجربة اليومية التي لها ايجاباتها الخاصة، كانت وضعيته كرجل سياسي مسؤول تدفعه الى خوض الكتابة في التاريخ وهذا يتجلى من شعره نفسه الذي يواكب حياته كرجل دولة ومؤرخ في آن واحد (33). ولذلك نجده يستعمل أحيانا، لهجة المذكرات الشخصية في صفحات متعددة من آثاره التاريخية.

الدافع الآخر كان، ولاشك، هو التملق. وهذا يظهر جليا من استعراض مؤلفاته التاريخية. فهو يتجه الى كتابة تاريخ غرناطة ليشيد بأجداد الدولة النصرية، محلها نفسه في أحد كتبه بأنه « جهينة أخبارهم وقطب مدارهم وزمام دارهم » (34). ويخصص لأمرائها تراجم ضافية في كتابة الاحاطة. فهو، حينما يعرض لترجمة السلطان اسماعيل بن فرج النصرى يصفه هكذا : « كان رحمه الله حسن الخلق، جميل الرواء، رجل جد، سليم الصدر، كثير الحياء، صحيح العقل، ثبتا في المواقف، عفيف الازار، ناشئا في حجر الطاهرة، بعيدا عن الصبوة، بريئا من المعاقرة »... (35) الخ.

وحينما يتحدث عن إحدى الأميرات يصفها هكذا : « السلطانة الحرة الصالحة، الطاهرة، فاطمة بنت أمير المسلمين أبي عبد الله بن أمير المسلمين الغالب بالله، بقية نساء الملوك، الحافظة لنظام الامارة، رعيًا للممات، وصلة للحرمة، واسداء للمعروف، وسترا للبيوتات، واقتداء بسلفها الصالح في نزاهة النفس وعلو الهمة ومثانة الدين الخ.. » (36).

ومن المعلوم أن كتابه الاعلام في من يبيع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام قام «بتأليفه لا لغاية علمية مجردة ولكن ليتقرب به الى السلطان المريني السعيد الذي كان ما يزال طفلا، أو، بالأحرى، الى وزيره ابن غازي، الذي كان كما يقول الناصري « صاحب الابرام والنقض، والصبي كالعدم اذ لم يكن في سن التصرف » فهو يستعمل التاريخ ليدافع عن تولية ذلك الصبي ومساندة وزيره، بقصد التقرب اليهما، ولو كانت ظروف تلك التولية تشير الى تدهور الحالة السياسية بالمغرب. حقا ان ابن الخطيب كان يجتاز من حالة حرجة جعلته يبحث عن يحميه ويدرا عنه خطر اعدائه، ولكن كان في مستطاعه أن يستعمل وسيلة أخرى، دون أن يلجأ الى تسخير العلم لمثل هاته الغاية (37).

وعلى أي، فلا نكون مخطئين اذا قلنا ان المجاملة أو التملق من البواعث على التأليف التاريخي عند ابن الخطيب وانه حقق من وراء ذلك لنفسه مكاسب مادية ومعنوية وارضى

34 - ابن الخطيب : اللمحة البدرية ص 11

35 - ابن الخطيب : الاحاطة 1 / 385

36 - ابن الخطيب : الاحاطة 1 / 387

37 - نفح الطيب : 5/ 180 وانظر، أيضا : مقدمة الدكتور أحمد مختار العبادي للقسم الثالث

من كتاب « أعمال الاعلام ».

به جانبا من طموحه واناانيته وبرغم كونه خاض ميدان التصوف كمفكر نظري وخالف بعض الصوفية مثل أحمد ابن عاشر الذي عرف بتخرجه من الاتصال بالحكام فلم يستطع أن يقتدي بهم، على الأقل، في تنزيه العلم والفكر عن الاغراض الشخصية (38). لقد كان حب الدنيا والجاه والرياسة قويا لديه الى درجة جعلته يعتبرها هي الغاية وكل ما عداها وسيلة.

ومع ذلك، فلا يحق لنا أن نصب كل جام غضبنا على ابن الخطيب وحده. فالعيب الذي نحاسبه عليه كان عاما في المجتمع الثقافي بذلك العصر، ولا سيما عند المؤرخين. فلهجة التملق نجدها عند ابن خلدون وابن مرزوق وابن ابي زرع وابن الأحمر والملزوزي أي عند من يعدون من كبار المؤرخين في عصر بني مرين. وهذا يرجع الى ظاهرة ليس من موضوعنا أن نحللها وإنما نكتفي بإبراز نتيجتها، وهي أن التاريخ كان في الأساس علما سلطانيا، أي علما يكتب، قبل كل شيء للأولي الأمر، ويقوم بكتابته رجال ينتمون الى الدولة، بصورة من الصور. ولو لا تشجيع الملوك ومكافأتهم لما ألف العديد من كتب التاريخ التي وصلتنا. وعلى هذا، فلهجة التملق التي تفاجئنا اليوم، كانت في الحقيقة مطابقة لمنطق الواقع الثقافي في تلك الازمنة المنصرمة.

نضيف الى ذلك أن التملق يجوز لرجل سياسي اذا كان يخدم به قضية كبيرة أو قضية مقدسة. فابن الخطيب حينما جاء الى المغرب يلتمس مساعدة السلطان ابي سالم المريني على اعادة المشروعية في الأندلس، كان يصح له أن يستعمل المدح وكل وسائل التقرب لتحقيق غايته. فالفوائد التي نظمها في تلك المناسبة والرسائل التي كتبها مشحونة بالتملق، ولكنه تملق مقبول باعتبار القضية التي يخدمها، بخلاف التملق الرامي الى خدمة المصالح الشخصية (39).

نضيف الى كل ذلك، في معرض الدفاع عن ابن الخطيب، أن التملق كان لديه دافعا لكتابة التاريخ ولاختيار موضوعاته، ولكنه لم يؤدبه الى تغيير الحقائق أو تشويهها بكيفية مقصودة. بل نشعر ونحن نقرأه أن من مبادئه احترام الحقيقة ومحاولة الكشف عنها وأنه رجل فكر يؤمن بالقيم الفكرية (40). وهذا ما يجعل منه مؤرخا له منزلته المرموقة ويجعل طريقته في كتابة التاريخ جديرة بأن تدرس وتسلط عليها كل الأصوات.

38 - عن لقائه باحمد بن عاشر. انظر « نفع الطيب » 492 / 6

39 - هذا سلوك مازال العمل جاريا به الى اليوم عند رجال السياسة

40 - باستثناء الفقرات التي سار فيها مع عاطفته.

معالجة المادة الاولى للتاريخ

هكذا اقدم ابن الخطيب على الكتابة في التاريخ تحت تأثير هاته الدوافع المختلفة، مما سينعكس مفعوله على طريقته. وقد حان الوقت لنتحدث عن تلك الطريقة. غير خاف ما للمناهج من قيمة أولية بالنسبة لكل العلوم وخاصة علم التاريخ الذي مازالت منهجيته مثار النقاش والأخذ والرد بين رجال التاريخ والفلسفة والمنطق والاجتماع والاقتصاد والسياسة. الخ.. كل مفكر. وكل من له ضلع في العلوم الانسانية يجد في نفسه من الفضول ما يحفزه للخوض في موضوع التاريخ ومنهجه حتى أصبح ذوو الاختصاص أقلية بين الفضوليين والمتهافتين (41).

وهذا يبين، على الأقل، أهمية المشكل، فاذا رجعنا الآن الى مؤرخنا نستطيع أن نقول انه كان من المجددين في المنهج التاريخي عند العرب. وهذا جانب لم ينل حظه من اهتمام الباحثين. ولعل عبقرية ابن خلدون المعاصر لابن الخطيب غطت على هذا الأخير في هذا الميدان وسترت محاسنه ومساهمته الفعلية في تقدم علم التاريخ. وصار الكثير ممن يتحدثون عن وزير غرناطة لا يرون فيه الا الأديب البارع والكاظم البليغ والسياسي النبيه. ولكن القراءة المتأنية المستوعبة لتأليفه التاريخية تميظ لنا اللثام عن فكر متفتح على الواقع التاريخي في سكونيته وحركيته.

فهو أن قدم لنا لوحة عن عصر من العصور أحسن تقديمها وتفتن لعناصرها الأساسية وما يجمع بينها من ارتباطات وتفاعلات. وان اندفع في عرض سياق من الأحداث اهتم بجانب التعليل وعرف كيف يبرز السببية التاريخية في تركيباتها وتعقيداتها واضعا في حسابه كل العناصر ما بين مادية وروحية وما بين فردية وجماعية، وما بين نفسية واجتماعية، بحيث نتتبع معه التسلسل في اطار من الشفافية والمعقولة. وهذا ما يمكننا أن نستجليه بدقة اذا تتبعنا معه أهم جوانب المنهج.

ولنبداً أولاً بطريقته في ابراز الحدث التاريخي وغني عن البيان أن المادة الاولى التي يصنع منها المؤرخ عمله هي الاحداث أو الظواهر، فعليه أن يكتشفها، أولاً وأن يحققها، ثانياً ويربط بينها ثالثاً. ويضع الصورة التي يحصل عليها اثر هذه المراحل الثلاث في محك النقد والفحص، متسائلاً عن مطابقتها للواقع والمنطق، باحثاً في ثغراتها

ومنسياتها. فهو ينتقل من تحليل الى تركيب، ولا بد له من أن يراقب تركيباته باستمرار حتى لا ينساق مع الصور الوهمية أو الخيالية.

نستطيع أن نقول ان ابن الخطيب جلى في هاته الناحية في بعض الفصول من مؤلفاته. لكن هنالك، مع ذلك، مؤلفات وفصول أخرى، تبرز نقضا في المعلومات التاريخية. وأحدث هنا، مثلا، عن كتابه « أعمال الاعلام » الذي هو بمثابة تاريخ عام للإسلام فهو حينما يتعرض لتاريخ الشرق لا يأتي بأي عنصر جديد ويكتفي بتقديم ملخص عن ما هو متداول ومتعارف لدى المؤرخين الذين سبقوه الى الميدان. وكذلك نجد بعض النقصان في القسم المتعلق بالمغرب وصقلية، فالصفحات التي خصصها لدولتي المرابطين والموحدين قليلة بالنسبة لأهميتهما.

ولكن النقصان لانجده فقط في القسمين المتعلقين بالشرق وافريقيا الشمالية، بل هو يشوب، أيضا، القسم المتعلق بالأندلس. فقد كنا نلتمس بعض العذر للمؤلف اذا لم يظهر اطلاعا واسعا وشاملا في القسمين الاولين، ولكن هل يجوز لنا أن نلتمس له نفس العذر بالنسبة للقسم المتعلق بالأندلس، وطنه الذي من المفروض فيه أن يكون عارفا به معرفة مباشرة وموسعة ؟

فنحن عند تصفحنا لهذا القسم، نفاجأ بنوع من عدم التوازن بين فصوله. فهو لا يخصص لعصر الولاة، وهو عصر الفتح والاستقرار، الا صفحتين. وعندما يعرض للدولقة الأموية، يمعن في طريقة الاختصار ويقتصر احيانا على عناصر بسيطة في ترجمة كل أمير. لكنه حينما يصل الى عصر هشام المؤيد والمنصور ابن أبي عامر يتبسط في القول، وكذلك شأنه في عصر ملوك الطوائف فاذا تطرق الى عصر المرابطين، فانه لا يفيدنا كثيرا اذ لا يتجاوز كلامه في الموضوع ثماني صفحات. وقس على ذلك ما أورده عن الموحدين ولعل افيد ما أتى به في شأن هؤلاء هو المعلومات التي قدمها عن الثورات التي قامت عليهم بالأندلس. أما الفصل الخاص بالنصريين، فهو مختصر ايضا باستثناء الترجمة المسهبة نسبيا التي خصصها لمحمد بن يوسف النصري المدعو كذلك محمد الخامس، وهو الأمير الذي كان ابن الخطيب وزيرا له. ولا بد من أن نشير في آخر هذا التحليل الى كون ابن الخطيب عقد فصلا خاصا بتاريخ الممالك المسيحية بإسبانيا وهذا اهتمام غير معهود عند المؤرخين المسلمين فيما سبق.

وهكذا، فنحن إذا اعتبرنا مثال كتاب « أعمال الاعلام » الذي هدف منه ابن الخطيب الى تقديم تأليف عام عن تاريخ الاسلام، نجده لا يرضى حاجتنا من حيث التوسع واستنفاد المعلومات والاحاطة بالموضوع، وينفتح امامنا السبيل لا بداء ملاحظات وانتقادات متعددة. وهذا ما فطن له عدد من المعجبين بابن الخطيب فراحوا يدافعون عنه ويلتمسون له العذر. فالعالم التونسي حسن حسني عبد الوهاب يعزو جوانب النقص الملحوظة في الكتاب الى الظروف الخاصة التي وجد فيها ابن الخطيب وهو منكب على تأليفه، وهي ظروف كان يغلب عليه فيها الاضطراب وعدم الاستقرار بسبب المضايقات والتهديدات التي كانت تلاحقه من جهة اعدائه. ويذهب المؤرخ المصري أحمد مختار العبادي الى أن المؤلف لم يتمم القسم المغربي من كتابه الذي واعد بايصاله الى أيام المعاصرين له من بني مرين، يشهد على ذلك كون المخطوطات المنوارة من الكتاب تقف كلها عند بداية الدولة الموحدية. وسبب ذلك، في اعتقاده أن المؤلف قتل قبل أن يأتي على انجاز مشروعه بالصورة التي كان يرتضيها يضاف الى هاته التعليلات التي لا تخلو من وجهة أن المؤلف في حالة تنقله وغربته لم يكن متوفرا على كل المصادر الضرورية والكافية لمعالجة موضوعه باشباع واستقصا (42).

حقا، ان المجال واسع لايجاد العذر لابن الخطيب عن ما يشوب كتابه من نقض ولكن، لنفرض أن ابن الخطيب لا عذر له، فهل يغير ذلك من قيمته كمؤرخ ؟ اعتقد أن جانب القوة عنده لا يمكن في التوسع والاستقصاء، بل في الطريقة التي استغل بها المؤلف العناصر المتوفرة لديه لاعادة بناء الحدث التاريخي وتشخيصه من جديد.

وقد فطن ابن الخطيب الى كون أهم عنصر يحقق هذه الغاية هو الوثيقة. ولذلك نجده يعيرها اهتماما خاصا ويحرص على تسجيلها كحجة أساسية يركز عليها المؤرخ. وقد استعملها ما وسعه الأمر لذلك ورضع بها معظم كتبه. ومادامنا نتحدث عن كتاب « أعمال الاعلام »، فلنذكر، على سبيل المثال بعض الوثائق التي أوردتها. فهو يورد فضلا من رسالة بعثها المنصور بن أبي عامر إلى جنده يعاتبهم على تقصيرهم في احدى المعارك بقشالة مع العدو. كما يورد الوصية التي أوصى بها المنصور ولده عبد الملك وهو على

42 - تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط (القسم الثالث من أعمال الاعلام) نشر العبادي والكتاني (ص ب)

فرائش الموت. ويذكر الرسالة التي وجهها هشام المؤيد، ذلك الخليفة الذي حامت حوله الأساطير وبنيت على اسمه عروش ودول، الى عبد الملك بن المنصور ليفوض اليه الأمر ويخلع عليه لقب المظفر، وكذلك البيعة التي أسند بمقتضاها هشام المؤيد ولاية العهد الى عبد الرحمن بن المنصور بن أبي عامر وأخرجها من بني مروان. كما يذكر شهادة ابن حزم عن الخراب الذي أصاب قرطبة أيام الفتنة البربرية مع الشعر الذي نظم في رثائها. وشهادة ابن حزم ذات قيمة لاتخفى لانه كان من المعاصرين لتلك الاحداث المؤسية. ومن الوثائق المهمة التي أوردها ابن الخطيب في كتابه نص الرسالة التي وجهها الخليفة المستنصر العباسي سنة 631هـ الى السلطان محمد بن يوسف بن هود الجذامي الذي توطدت سيطرته بالاندلس مع انحلال الدولة الموحدية. والرسالة مهمة من عدة نواح. فهي تبين لنا جانبا من العلاقات الروحية والسياسية التي كانت تربط بين دول المشرق والمغرب. كما أنها تكشف لنا عن الاسلوب الذي أصبح العباسيون يلجأون اليه في الدعوة لانفسهم. وهي، علاوة على ذلك، شهادة عن العلاقات الوطيدة التي غدت تربط بين مذهب السنة والخلافة العباسية، في وقت كان الصراع المذهبي مايزال على أشده بين فرق الشيعة وطائفة السنة والجماعة. وتحتوي الرسالة على تعاليم دقيقة ومفصلة في هذا الكتاب.

هذه نظرة عجلى على بعض الوثائق التي تضمنها كتاب « أعلام الاعلام » اسي لايصح أن يتخذ كمثال، لانه كتب في ظرف فتنة واستعجال وفي غيبة المؤلف عن مصادره ومراجعته. ومع ذلك، فقد شعر بضرورة الاستشهاد بعدد من الوثائق التي يمكنه الحصول عليها. فاذا اردنا أن نعرف الاهتمام الحقيقي الذي يوليه ابن الخطيب للوثيقة التاريخية، يكون من الأنسب أن ننقل بانظارنا الى تأليف أخرى استطاع أن يمهد لها ويجمع لها الوسائل في ظروف عادية وبكفي أن أشير هنا، بادئ ذي بدء، الى كون بعض الباحثين تخصصوا في تحقيق وثائق ابن الخطيب ونشرها مثل الدكتور محمد كمال شبانة، ومحمد عبد الله عنان الخ.. وهذا يدل على غزارة المادة وتنوعها (43).

43 - نشر الدكتور محمد كمال شبانة عددا من وثائق ابن الخطيب في « دعوة الحق » و

« البحث التاريخي ». ومن المعلوم أن الأستاذ محمد عبد الله عنان يقوم الآن بنشر كتاب « الاطاحة »

والحقيقة أن اهتمام ابن الخطيب بالوثائق حدا به الى أن يفرد لها تأليف خاصة. فمن جملة ذلك « كناسة الدكان بعد انتقال السكان » وهو يضم مجموعة من الرسائل كتبها ابن الخطيب على لسان امير غرناطة ابي الحجاج يوسف الاول الى السلطان ابي عنان المريني ولا حاجة الى الاشارة بمثل هذا الكتاب عند دراسة العلاقات بين فاس وغرناطة في فترة معينة. وهناك « ربحانة الكتاب ونجعة المنتاب » وهو أن كان كتاب أدب يحتوي على امثلة من أنواع النثر المستعمل في عصره، فانه يضم بين دفتيه طائفة من الرسائل السلطانية المتبادلة بين النصريين والمرينيين في أغراض سياسية وعسكرية. وقد خصص لذلك بابا عنوانه « جمهور أغراض السبلطانيات » كما أورد الى جانب ذلك ظواهر وكتبا موجهة الى الرعية والأقاليم ونصوصا مختلفة لها مساس بالتاريخ. ولنا أن نقول مثل ذلك عن تأليف مثل « التاج المحلي » و « الكتبية الكامنة » و « اللحة البدرية » و « نفاضة الجراب » و « معيار الاختيار » الخ ... (44).

ولعل كتاب « الاحاطة » يستحق وقفة خاصة من هاته الناحية، لانه الكتاب الأساسي الذي افرغ فيه ابن الخطيب كل مجهوده كمؤرخ. وهنا نجده يحرص، ايضا، على الوثائق ويستشهد بها، سواء أكانت معاصرة أم قديمة. ومن بين النصوص التي يورد، نذكر على سبيل المثال : وصف ابن عميرة المخزومي لسقوط بلنسية، رسالة ابن عطية القضاعي المشهورة في استعطاف عبد المومن، كتاب المأمون الموحي الى أهل الأندلس، كتاب بلكين بن باديس بتعيين القاضي ابي عبد الله الجذامي، كتابات مختلفة منقوشة على قبور ملوك بني نصر، رسالة في التحريض على الجهاد صادرة عن السلطان الغني بالله، رسالة تقدم بيانا عن الثورة التي اطاحت بالغنى بالله، رسالة المعتمد بن عباد الى ولده الرشيد الخ ...

يبقى علينا أن نتساءل بعد ذلك هل كان ابن الخطيب مدفوعا في اختياره للوثائق التي أورد نصوصها بذوقه الأدبي أم بذوقه التاريخي. فلا ننسى أنه أديب كبير وانه يواصل العمل الذي بدأ به ابن بسام في ذخيرته والفتح ابن خاقان في « قلائد » من تسجيل النصوص الجديدة بالتسجيل، نظرا لقيمتها الأدبية من بلاغة وسلاسة وتصوير.

44 - عن تأليف ابن الخطيب ينظر الى :

أ. مختار العبادي : مؤلفات لسان الدين بن الخطيب في المغرب (1959)

ب. عبد الله عنان : لسان الدين بن الخطيب

ومع ذلك، فاني مقتنع اننا نطرح هنا تساؤلا، من جهة المبدأ فقط، والا فانه غير وارد بالنسبة للواقع السياسي والثقافي في ذلك العصر. وذلك أن كل المراسلات الرسمية وكل الوثائق السلطانية كانت تصطبغ بالصبغة الأدبية. ولا أدل على ذلك من رسائل الموحدين التي هي من أروع النماذج في بلاغة ذلك الوقت، وهذا ما أشار اليه ابن خلدون في فقرات متعددة من مقدمته. فهو حينما يعرف بوظيفة الكتابة، يقول : « وانما أكد الحاجة اليها في الدولة الاسلامية شأن اللسان العربي والبلاغة في العبارة عن المقاصد. فصار الكتاب يؤدي عنه الحاجة بأبلغ من العبارة اللسانية في الأكثر » (45). وقد ظهر هذا الاتجاه الأدبي في المراسلات السلطانية منذ العهود الاولى من الدولة الاسلامية. ويفسر ابن خلدون أن إحدى المهمات المنوطة بالوزارة في عهد بني العباس هي « النظر في القلم والترسيك لصون اسرار السلطان ولحفظ البلاغة، لما كان اللسان قد فسد عند الجمهور » (46). بل ان الأدب العربي نفسه في تطوره العلم تأثر كثيرا بهاته الحاجة السلطانية الى كتاب بلغاء متضلعين في العربية وأساليبها البيانية. ولست افشي سرا اذا قلت ان ما ألفه الجاحظ وابن قتيبة، مثلا، في ميدان الأدب كان يهدف الى مساعدة الكتاب العاملين في بلاط الخلافة. وهذا ما بينته الدراسات الحديثة عن الأدب العربي.

ولست أريد الآن أن أطيل في هذا الموضوع العارض الذي مازال فيه مجال واسع للكلام. ويكفي أن نعرف أن الصبغة الأدبية كانت ملازمة في أغلب الأحوال للوثائق الرسمية. ولذلك فيمكننا أن نستنتج من هاته الملاحظة العامة أن ابن الخطيب كان مدفوعا في أن واحد بذوقه الأدبي واهتمامه التاريخي في اختياره للوثائق التي أورد نصوصها. هنالك، بالطبع، الوثائق التي استفاد منها دون أن يسجلها وهاته يصعب علينا تحديدها وتقدير أهميتها.

والكلام عن الوثائق التاريخية يجرنا، بالطبع، الى الحديث عن مصادر ابن الخطيب أو، بالأحرى عن المكانة التي كان يمنحها للمصادر. في منهاجيته. وما الوثائق الا جزء متميز ضمن المصادر التي تقدم لنا كل المطان التي نجد فيها معلومات عن الموضوع والعصر الذي يهمننا. وليس من موضوعنا أن نتكلم عن محل المصادر التي اعتمد عليها ابن الخطيب، بل الذي يهمننا هو أن نعرف مدى حرصه على مراجعة التأليف السابقة وكيفية

45 - المقدمة (طدار الكتاب اللبنانية) ص 436

46 - نفس المصدر ص 422

استفادته منها. وقد بين لنا مقدار وعيه بأهمية المصادر وتنوعها في مقدمة كتاب الاحاطة حيث يذكر لنا جملة لا بأس بها من أهم الكتب التي ألفها مشارقة ومغاربة في علم التاريخ (47).

فإذا عدنا الى كتاب « اعمال الاعلام » وتفحصناه. من جهة المصادر. نجد أن ابن الخطيب، برغم الظروف الخاصة التي احاطت به وهو يؤلفه والتي سبقت الإشارة اليها، لم يظهر قصورا في الاستفادة من المصادر التي امكنه أن يتوصل اليها. وهكذا نراه يأخذ عن ابن حيان في كتاب « المتين » و « اخبار الدولة العامرية ». وعن ابن بسام في « الذخيرة » والرشاطي في كتاب « اقتباس الأنوار » والخشني في « طبقة الفقهاء ». والفتح بن خاقان في « القلائد » و « مطمح الأنفس ». والمظفر ابن الأفتس في كتابه « المظفري » وابن خميس والميزاني والقاضي عياض وابن الصير في وابن الصلت وابن قلابحة وابن حزم وابن الرقيق وابن حماد الصنهاجي وابن جبير والادريسي الخ.. ويجب أن نلاحظ، بين قوسين، أن جل هؤلاء المؤلفين فقدت تأليفهم اليوم. مما يعطي للمعلومات التي نقلها عنهم قيمة خاصة. والاهتمام بالمصادر بهاته الصورة يدل على حاسة العالم وضميره المهني.

على أننا اذا أردنا أن نأخذ فكرة اتم وأصح عن اهتمام ابن الخطيب، فمن الأنسب أن ننحني على كتاب « الاحاطة » الذي تفرغ لكتابته في ظروف كان أكثر ارتياحا واستقرارا وسيوضح لنا أن المصادر التي اعتمد عليها كانت تتميز بالكثرة والتنوع. بحيث يصعب علينا استقصاؤها في دراسة مقتضبة كهاته، ويكفي أن أذكر من بينها تأليف ابن القوطية، وبنو الرازي وابن حيان والفتح بن خاقان وابن بسام واحمد بن موسى العروبي. وفيما يخص غرناطة، فانه اعتمد على « تاريخ مالقة » لابن عسكر. ولأنك أنه استفاد، أيضا من تاريخ أبي عبد الله بن أبي القاسم بن الحكيم الرندي الذي عاش فيما بين سنتي 659 و707 هـ والذي كان يسود الاعتقاد بأن كتابه ضاع في جملة ما ضاع من تراث الاندلس. لكن، علمنا أن قسما منه يوجد عند البحاثة المغربي. صديقنا الاستاذ محمد المنوني، فعسى أن يتفضل بنشره وتعميم فائدته. وهناك كتاب ابن الفارق (المتوفى سنة 690 هـ) في تاريخ بني نصر. ويمكننا أن نتساءل في هذا الصدد إلى أي حد استفاد ابن الخطيب من كتاب معاصره رخصه الديلمي المتوفى سنة 704 هـ والذي يحمل عنوان « نزهة البصائر والابصار ».

واعتمد كذلك على عدة مؤلفات في كتب التراجم والتاريخ الاقليمي مثل « تاريخ علماء البيرة » لابي القاسم الغافقي. و « تاريخ قومه لابن مسعدة و « القدح المعلي » و « الطالع السعيد » لابي الحسن ابن سعيد، و « الحلقة السبراء » لابي الابرار، وتاريخ ابن جماعة، و « ثورة المريدين » لابن صاحب الصلاة، و « الذيل والتكملة » لابن عبد الملك المراكشي، و « الصلة » لابن بشكوال و « صلة الصلة » لابي جعفر بن الزبير، و « المؤتمن » لمحمد ابن عياش، وفيما يتعلق بالمغرب، خاصة، نجده استفاد كثيرا من « البيان المغرب » لابن عذاري، و « روض القرطاس » لابن أبي زرع، و « الانوار الجلية » في تاريخ الدولة المرابطية « لابن الصيرفي. ويذكر ابن الخطيب نفسه عدة مصادر أخرى عن تاريخ الاندلسي والمغرب كانت موجودة في زمانه ولا أثر لها اليوم.

تلك هي المصادر المكتوبة. لكن هنالك مصادر من نوع آخر ربما كانت تفوقها أهمية من بعض النواحي، وهي المبنية على المشاهدة الشخصية المباشرة. هنالك مؤرخون لم يخرجوا عما هو مسطر في الكتب فتحدثوا عن العالم دون أن يغادروا مدينتهم ودون أن يجروا أي اتصال حتى مع أبناء المجتمعات التي يؤرخون لها. وابن الخطيب، لحسن حظه، ليس من هؤلاء، بل كان له تطلع الى معرفة البلاد التي أرخ لها معرفة مباشرة مبنية على بحث واستكشاف وحوار شخصي مع الأحياء، وفي نفس الوقت مع الآثار الناطقة باسم الأموات. ولذلك فانه حرص على أن يقوم برحلات مفيدة جدا في المغرب والاندلس امكنه أن يقدم بها مادة دسمة للتاريخ. ونحن حينما نتصفح، اليوم، ماضنه رحلته من أوصاف وشهادات نشعر بما كان سيخسرهُ التاريخ لو لم يحفظ البعض من تلك الصفحات التي لم تسلم من الضياع.

وقبل أن نبرز قيمة العناصر التاريخية المستخلصة من مشاهداته، يكون من المفيد أن نستعرض أهم المراحل في جولاته حتى نضع لانفسنا أساسا صالحا للحكم والتقييم. قد يلوح، لأول وهلة، ان ابن الخطيب لا يمكن أن يقارن بكبار الرحالين من أمثال المسعودي وابن جبير وابن بطوطة، باعتبار الرقعة التي تجول فيها. ولكن العبرة ليست في طول المسافات واتساع المساحات، وانما في قوة الملاحظة ودقتها وفي القدرة على استكشاف الملامح الأساسية لكل بلد بالنظرة السريعة، تبعا لمراحل التنقل والتجوال. فابن الخطيب لم يخرج عن مملكة غرناطة الصغيرة والمغرب الأقصى، ومع ذلك، فان الفوائد التي سجلها

في رحلته ربما كانت أشد تركيزا وعمقا من المشاهدات التي قام بها ابن بطوطة أو ابن جبير. ذلك انه استطاع أن ينتقل من فكرة العجائب والغرائب التي كثيرا ما غلبت على مؤلفي الرحلات الى فكرة التعرف على المجتمعات بظواهرها وبواطنها (48).

فهو حين يقدم لنا انطباعاته عن شرق مملكة غرناطة في الرحلة الرسمية التي قام بها في موكب السلطان أبي الحجاج يوسف والتي سجلها في « خطرة الصيف »، نشعر اننا بازاء ملاحظ حريص على أن يلتقط عناصر ومعلومات تهم المؤرخ في الدرجة الاولى من وصف للمدن والمناطق الزراعية والتحصينات العسكرية والمعالم العمرانية الخ (49).

ولعل أهم ما يقدم لنا في هذا الصدد نجده برحلة أضخم وأهم هي « نفاضة الجراب » التي يعرض لنا فيها فصولا ممتعة عن المغرب، والتي تعد أهم كتبه بعد « الاحاطة » في رأي البعض ممن درسوا آثاره . والواقع أن ابن الخطيب قام بجولة مهمة في المغرب قادت من الشمال الى مراكش والى الأطلس الكبير، الشيء الذي جعله يتعرف على أكبر عدد من المدن والوادي المغربية. ويكفي أن نرجع الى « معيار الاختيار » لنرى قائمة المدن التي تحدث عنها ابن الخطيب والتي تبتدئ من بادس في الشمال، ثم تليها سبتة وطنجة وقصر كتامة وأصيلا وسلا وأنفا وأزمور وتيط وأسفي ومراكش وأغمات ومكناسة وفاس وأقر سلوين، وسجلماسة وتازة وغساسة وتلمسان التي كانت داخلية في الايالة المغربية آنذاك. لست في حاجة الى تحليل ما بقي من « نفاضة الجراب » الذي اكتشف منه مؤخرا السفر الثالث. ولم يبق الا السفر الاول الذي يعد في حكم الضياع. فقد تعرض لذلك عدد من الباحثين. وانما الذي يهمني إبرازه، ولو بصفة اجمالية، هو كيف اتخذ ابن الخطيب من الواقع المشاهد والمسموع مصدرا أساسيا لكتابة التاريخ. ولا بد هنا من ايراد بعض الأمثلة (50).

يخصص ابن الخطيب صفحات عديدة للحديث عن جبل « درن » أو جبل « هنتالة » الذي هو جزء صغير من الأطلس الكبير فيتناول الموضوع من جوانب متعددة :

48 - انظر م. عبد الله عنان : لسان الدين ص 223 - 228

49 - نشر الدكتور مختار العبادي « خطرة الصيف في كتاب » كمشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب والاندلس.

50 - نشر الدكتور العبادي الجزء الثاني من الكتاب. لكن مخطوط الخزائن العامة لهذا الجزء أطول وأكمل. اما الجزء الثالث. فقد عثر عليه مؤخرا في الخزائن الملكية

1 - المنظر الطبيعي : « وفي يوم الاثنين المتصل بيوم القدوم، توجهنا الى الجبل في كنف اصحابه تحت اغراء برّه، وفي مركب قرّة عينه، فخرجنا نستقبل بين يديه السهل، ونسائر الجهة، ونشاهد الآثار، ونتخطى المعاهد، ونشق النسيم البليل القريب العهد بمادة الثلج وعنصر البرد. ولما بلغنا درج الجبل، وانتحينا طريقه من السفح، وهي تركيب ضفة الوادي الملتف بعادي شجر الحور والطرفاء وشجر الخلاف والدردار، وأمعنا وكابدنا عنقا في اقتحام الوادي ذي الجرية الكثيرة الصبب، المسوقة المد، العظيمة التيار، المجهولة المخاض، ونقتحم منه أزرق شفافا عن الحصباء، كثير الجليات، أملس الصفاح، لذاع البرد » (51).

2 - المنظر البشري : بعد مشهد الجبل بلامحه القوية، يصف لنا ابن الخطيب الاستقبال الذي خصه به رئيس المنطقة. فيقول : « وصعدنا الجبل الى حلة سكناه، المستندة الى سفح الطود، وقد هيا بيعض السهل الموطأ للاعتماد بين يدينا من المضارب كل سامي العماد، بعيد الطنب، سوى القامة، مقدر التفاصيل، بديع النقش والصنعة ظاهر الجدة، مصون عن البذلة، يظلك من مراتب الوطاء الرفيع، ولحف الحرر ومساند الوشي، وأنطاع مزعر الجلد ما تشيق عنه القصور المحجبة، والابهاء المنضدة، ولم يكد يقر القرار، ولانتزع الخفاف، حتى غمر من الطعام البحر وطما الموج ووقع البهت » (52).

3 - المنظر الآثاري : بعد أن زار ابن الخطيب ملجأ السلطان أبي الحسن المريني، مر على بلد أبي تومرت فقال :

« وكان الانصراف بعد أن المما في تلك المحلة بمسجد امامهم المهدي، ودار سكناه، وأثر مدرسته وسجنه، كل ذلك من الخمول واللطو استهجان الآلة على حال شبيهة بمباني الدبر، وقرى النمل، وأعشاش الخشاش من الطير. فعجبنا من مفتاح تلك الدويرة المهتزمة، كيف تملك من القصور العظيمة ما ان مفاتحه لتنوّ بالعصبة أولى القوة، ولمنبر ذلك المسجد كيف أخذ على كونه قميء الجلسة، مصاحبا لبعض القشر، برياً من الصنعة،

بأزمة المناير المتخذة من الالوة والصندل المقاصري في لونييه. والابنوس الحبشي، وأنياب الفيول، وأرعها بعصياه، واستاقعا بين يدي طاعته كالذود الشائل والسائمة الواردة ما بين قرطبة واشبيلية وغرناطة وافريقية والمغرب. سنة الله في ادالة الدولة، وتعقيب النحل « (53).

4 - المنظر العمراني والاقتصادي : ينحدر ابن الخطيب من الجبل، متجها الى أعماق وريكة، فيقدم لنا انطباعاته عند دخوله الى تلك المدينة في هاته العبارات : « ثم أتينا مدينة أعماق في بسيط سهل موطا لانشر فيه، ينال جميعه السقي الرغد. وتركبه الخلجان وقد تموج به العشب، وعافته الايدي، وغلت ايدي فلاحه الفتنة. وهذه المدينة قد اختطت في الفضاء الافبح، فبلغت الغاية من ربح الساحة وانفساح القورة، مثلت قصبتها منها قبله، وسورها محمر التراب، سجع الجلدة، مندمل الخندق، يخرقها واديان اثنان من ذوب الثلج وسور الجبل، قامت بصفتيها الارحاء واردة وصادرة، مرفوعة الاسداء، منيعة البناء يمر أحدهما بشرقي المسجد الجامع طامي العباب، محكم الجسور، نظيف الحافة، نزهة لابصار، وعبرة لآعين النظار » (54).

تلك أربعة مشاهد تتعلق بمنطقة واحدة زارها ابن الخطيب وهي تبرز لنا مدى وعيه بكل الظواهر التي تهم المؤرخ. فهو لا يقف عند الاحداث السياسية أو الحربية بل يشعر بأن العامل الطبيعي والعامل البشري والعامل التاريخي والعامل العمراني والاقتصادي كلها تساهم في صنع التاريخ وتعطيه معنى اعمق وأوسع من الذي اقتصر عليه بعض اصحاب الحوليات ذوي النظرة السطحية.

ومثال جبل هنتاتة الذي قدمناه ليس فريدا من نوعه بل نجد نفس الاهتمام يرافق ابن الخطيب في جك الأماكن التي زارها والم بوصفها. وحتى في النصوص المختصرة والتي هدف منها، قبل كل شيء الى البلاغة والأدب، لم يفارقه هذا الاهتمام. ولننظر اليه كيف يتحدث في « مقامة البلدان » أو « معيار الاختيار » عن سجلماة اذ يقول :

« تلك كورة، وقاعدة مذكورة. ومدينة محمونة مشكورة، كانت ذات تقديم، ودار ملك قديم، وبلد تبر واديم، ومنهى تجر ومكسب عديم. معدن التمر. بحكمة صاحب الخلق

والأمر، تتعدد أنواعه، فتعبي الحساب، وتجم بها فوائده فتحسب الاقتناء والاكتساب. قد استندار بها - لحلق السور - الأمر العجائب، والقطر الذي تحار في ساحته النجائب، فضرب منه على عذارها الحجاب. باطنه فيه الرحمة، وظاهره من قبله العذاب. يحيط بها مرحلة راكب، ويصيرها سماء مخضرة ذات كواكب فمنازلها لاتنال بهوان. وفدنها ودمنها تحت صوان. ونخلها تطل من خلف الجدار، وتنبؤا الأيمان والدار. وحللها مبتوتة بين الدمن، وضياها تتملك على مر الزمن. وسوائها ألفة للسنن، موجودة بنزر الثمن. وفواكهها جميمة ونعمها عميمة. وسورها حصين مشيد. وجسرها يعجز عن مثله معتصم ورشيد، وسقيها يخص دار الملك بحظ معلوم. ويرجع الى وال يكف كل ظلم.

« وهي أم البلدان. المجاورة لحدود السودان، فتقصدها بالنبر القوافل، وتهدى الى محرابها النوافل. والرفاهية بها فاشية. والنشافي الحلية ناشية. لكنها معركة غبار وقتيل عقربها جبار. ولباسها خامل، والجفاء بها شامل. والجو يسفر عن الوجه القطوب، والمطر معدود من الخطوب. لبناء جدرانها بالطوب. والقرع برؤوس أهلها عابث، والعمش في جفونهم لا يث، والحما يصيبهم، ويتوفر منه نصيبهم » (55).

هذا النص. برغم قصره، وبرغم اجتهاد المؤلف في ترصيف اسجاءه. يحتوي على كل شيء كشهادة تاريخية ففيه ابانة لمنزلة سجلهاسة بوصفها مدينة مغربية لها ماضيها. وفيها ذكر لمواردها الاقتصادية ونشاطها التجاري الحافل، واسارة لاقليمها الصحراوي وتحرك القوافل بينها وبين السودان وتعريج على منظر النخيل الجميل ومنظر اليهائم، دون أن ينسى الكاتب الحديث عن المشهد المعماري ونوع البناء ومادته. وفي الأخير لا ينسى ذكر الجوانب السلبية في المنطقة متحدثا عن الأمراض المتفشية فيها، وعن طباع أهلها.

من هاته النظرة العجلى، نستطيع أن نخرج باستنتاج أول وهو أن ابن الخطيب كان ملما في منهجه بالوسائل الكفيلة بمساعدته على اعادة بناء الواقع التاريخي في تركيبه وتشعبه، مسلحا بفكرة واسعة عن مفهوم المصدر التاريخي، مما جعله يقرن، بشيء غير قليل من التوفيق، بين ما هو مسطر في الوثائق والكتب. وما هو قائم في الواقع الجغرافي والاجتماعي كما استطاع أن يسجله بملاحظته المباشرة ولمسه لاشياء عن كتب.

توسيع مفهوم التاريخ

لكن ستعامل الوثائق والشهادات، كيفما كان نوعها، لا يكون مفيدا الا اذا كان، المؤرخ يخرج الحدث التاريخي من الحدود الضيقة ويعطيه مفهومه الحقيقي الذي يشمل الواقع التاريخي في سائر أبعاده الأفقية والعمودية. ومن المعلوم أن كثيرا من المؤرخين العرب اقتصروا على حصر اهتمامهم بحياة الامراء، وما جرى في عهدهم من حروب، دون أن يلتفتوا لحياة المجتمع في شموليتها وكثافتها. فضيقوا على انفسهم مجال البحث والتحليل وقدموا لنا، في النهاية، صورة ناقصة عن الواقع التاريخي كما صرنا نفهمه اليوم. فالحدث التاريخي اذا عزل ونظر اليه على انفراد، يمكن أن يحدث كل المعاني وكل التاويلات. ولا يمكن أن يضبط ويوزن على حقيقته الا اذا وضع في سياقه التاريخي فهو جزء لا يمكن أن يرى رؤية صحيحة الا اذا وضع في مكانه داخل الكل.

وهذا هو معنى اعادة بناء الحدث. فهي عملية لا ترمي الى تفكيك الواقع وتشتيت عناصره. بل الى لمس كل عنصر في مكانه وتقدير فاعليته وأهميته. انها تحليل مرتبط بتركيب وهذا لا يمكن التوصل اليه الا اذا كان المؤرخ واعيا بالروابط التي تجمع بين الظواهر والأحداث المختلفة. وقد كان ابن الخطيب مسلحا بمثل هذا الوعي الى درجة تثير الاعجاب، اذا وضعنا في اعتبارنا العصر الذي ينتمي اليه.

هكذا، نجده يعطي للحدث التاريخي مدلولاً واسعاً ويكاد يلتقي في هذا الباب مع معاصره ابن خلدون. فهو مثلاً، في كتاب «الاحاطة» لا يكتفي بعرض تراجم الرجال الذين لهم صلة ما بتاريخ تلك المدينة الاندلسية بل انه يرى من الضروري أن يعرفنا بالاطار الاجتماعي الجغرافي الذي جرت فيه الأحداث التي سيطرقتها في التراجم. ولذلك نجده يحدثنا، مثلاً، عن النشاط الفلاحي القائم حول غرناطة، وعن القرى القائمة بإقليمها (56). ثم يتعرض للجانب البشري والاجتماعي فيحدثنا في فصل آخر عن أهل غرناطة ومظاهرهم وأنسابهم وأزيائهم وطرق معيشتهم وصنوف تقديمهم وصفات نسائهم (57). ونجده يسير في نفس الاتجاه في كتابه المختصر عن تاريخ غرناطة «اللمحة البدرية في تاريخ الدولة النصرية». وكما اشرنا الى ذلك من قبل، فهو يدرك أهمية الجانب العمراني كعامل من عوامل التاريخ، ويفيض في الحديث عن ذلك كلما اسعفته المصادر بمعلومات

في هاته الناحية. فهو حينما يؤرخ للمصور بن أبي عامر. مثلا. لا ينسى أن يذكر التوسع الذي بلغت قرطبة في أيامه قائلا :

« وبلغت المدينة مع الاتساع والانبساط وبعد الاقطار الى أن كانت ارباضها احدى وعشرين ربضا . كل رضى منها يعد أكبر مدينة من مدائن الاندلس . بالجهة الغربية منها تسعة : رضى الرقاقين . رضى مسجد الكهف . رضى حوانيت الريحاني . رضى مسجد السقاء . رضى مسجد مسرور . رضى بلاط مغيث رضى حمام الالبيري . رضى السجن القديم . رضى الروض المحدث . وبالجهة الجوفية ثلاثة : رضى الرصافة . رضى باب اليهود . رضى قوت راشة المنسوب الى أم سلمة . وبالجهة القبلية اثنان : رضى شقنقة . ورضى منية المغيرة . وبالجهة الشرقية رضى منية عبد الله . رضى فرن بريك . رضى فحص الناعورة . رضى المدينة . القصبة العتيقة واسطة البلدة . وكان ينقسم على ربضين الجامع وما حوله رضى واحد يتولاه عريفه ومحارسه على حده . ورضى آخر بذاته ينفرده ايضا عريفه : وكان ذرع مسافة الخندق المضروب على قرطبة أيام قتال البرابرة من جهاتها الثلاث اذا أغنى النهر الأعظم عن مدا الحفير عليها من الجهة القبلية سبعة وأربعين ألف ذراع . يجب لها ستة عشر ميلا غير سدس ميل » (58).

ان المعلومات الدقيقة التي يقدمها المؤلف في مثل هذا النص تبرز مدى وعيه بالجانب العمراني كعنصر أساسي في دراسة التاريخ والاستدلال على ازدهار الدول أو تدهورها. هذا . بالإضافة الى كون قرطبة تظهر لنا . من خلال هذا النص . كأعظم مدينة وجدت بأوروبا بالقياس الى غيرها من المدن الأوروبية المعاصرة.

ولا يقل وعي ابن الخطيب بأهمية الاقتصاد كمظهر أساسي في حياة الدولة عن وعيه بقيمة العمران . فهو يحرص على افادتنا بمدخل الدولة في نفس العصر :

« مبلغ الجباية اخ أيام المنصور أربعة الاف الف دينار سوى رسوم المواريت بقرطبة . وكور الاندلس كانت تجري على الأمانة . وسوى مال السيبي والمغانم على اتساعه في هذه . وسوى ما يتصل به السلطان من المصادرات وذلك مما لا يرجع الى قانون . قال : وكانوا يعتدون بها أربع بيوت تأخذ النفقات السلطانية منها على المشاهدة بالريادة والنقصان . ما بين الشهر والشهر مائتي ألف دينار الى مائة وخمسين ألفا الى أن يدخل شهر يونيه العجمي فيتضاعف فيه الانفاق من اجل الاستعداد لغزو الصائفة . فينتهي منها الى خمسمائة ألف دينار وأكثر منها . وما فضل من المال بعد جميع النفقات أحرزه السلطان

في بيت ماله، مع غير ذلك من ضروب استفاداته » (59).

فإذا انتقل ابن الخطيب الى الحديث عن غرناطة في كتابه « الإحاطة » يحاول ان يقدم لنا معلومات اقتصادية معززة، بقدر الامكان، بتدقيقات احصائية، فيحدثنا عن: بساتين غرناطة وجناتها، ويذكر ان منها ما يغل الف دينار ذهبي في السنة، وان الدولة تملك منها نحو المائت (60). ثم يذكر ما في جنب غرناطة من القرى فيصورها هكذا: « وفي هذه القرى الجميل الضخمة من الرجال، والفحول من الحيوان الحارث لاثار الارض وعلاج الفلاحة، وفي كثير منها الارضى والمساجد.. ويتخلل هذا المنافع الغبيط الذي هو لباب الفلاحة، وغير هذه المدرسة الطبية، سائر القرى التي بأيدي الرعية، مجاورة لعند الحدود، وبنات لهذه الامهات، منها ما انبسط وتمدد، فاشترك فيه الالوف من الخلق ومنها ما انفرد بمالك واثنين فصاعدا، وهو قليل، وتنيف اسمائها على ثلاثمائة قرية » (61).

هذا نرى يفيدنا عن الفلاحة والعمران بمملكة غرناطة، مشيرا في ثنايا التحليل الى ان الملكية الصغيرة غالبية على الكبيرة في الارض الزراعية، وبامكاننا ان نزيد في ايراد الامثلة والنصوص، لكننا نعتقد ان فيما قدمناه كفاية لابرار مدى ادراك ابن الخطيب، ولو عن طريق الملح والحسد، لكثافة الواقع التاريخي وما يفترضه من عمق وارتباطات مع علوم انسانية أخرى مجاورة كالجغرافية والاقتصاد والاجتماع الخ (62).

وهذه، في الواقع، اتجاهات لم تصل الى درجة النضج والاختمار الا في عصرنا الحاضر، بعد التطورات والمكاسب التي حققها علم التاريخ في منساره الطويل والخصب، وانما ابن الخطيب رائد من الرواد الذين قادهم الحسد الصحيح، في بعض الاحيان، الى تلمس ابعاد الواقع التاريخي وعلى أي، فان كتبه تفردت، في الغالب، بامدادنا بمعلومات قيمة ونادرة عن المجتمعات التي تعرف عليها وارش لها، فهو، في هذه الناحية، استاذ للحسن الوزان الذي سيأتي بعده بقرن ونصف.

59 - نفس المصدر ص 114

60 - الإحاطة 1 / 121

61 - نفس المصدر 1 / 131

62 - يقرأ الفصل الخاص بهذا الموضوع في كتاب « تدريس التاريخ » لهنري جونسون

والمعنون « الربط والادماج والتكامل » ص 489 - 509.

الأحداث بين التأويل والنظرية الشمولية :

من الطبيعي أن يفقد هذا التوسع في تصور التاريخ إلى محاولة تجاوز الأحداث. وعدم الاكتفاء بسردها حسب الترتيب الزمني كوقائع مادية. والمؤرخ يجد نفسه سائرا في هذا النهج تلقائيا بمقدار إيمانه بالعقل والشعور بالحاجة إلى الجواب عن تساؤلاته. وابن الخطيب. برغم تعدد نزعاته ونزواته. رجل عقل. كما اشرنا إلى ذلك. من قبل. وهذا على الأقل بالنسبة للكثير من معاصريه وعصره الذي كان عصر غيبيات وشعوثة. فهو. كما يتراءى لنا من خلال العديد من الصفحات التي كتبها. يفهم على أن معتمده كمؤرخ لا تنتهي عند جمع الأخبار وسردها. بل انها تقتضي منه أن يجلب فكره في الأحداث ويربط بينها ويضيف عليها كل ما يمكن من المعقولية حتى يبرز معناها ويفسر غوامضها. ومن ثم يبرز لنا مضمونه في تأويل الأحداث والتعليق عليها. وجراته في بعض الأحيان على صياغة نظرية عامة يحاول أن يفسر بها منعطفات خطيرا أو جانبا أساسيا في التاريخ.

يعتبر « لانجلوا » و « سنيوبوس » هاتين العمليتين التي لا يتم البناء التاريخي إلا بها هي « النصف الثاني من علم المنهاج » (63) ويريان أن المؤرخ حينما يشروع في عمله لابد وأن يواجه الأحداث التي يدرسها بكثير من التطلع والفضول وأن يلقي على نفسه عدة أسئلة. بل أن « الوقائع الملاحظة » توحى إليه بالأسئلة وتلزمه بالتدقيق فيها وتحديدها. وبعبارة أخرى. هنالك حوار بين المؤرخ والأحداث. أو. بالأحرى. بين المؤرخ والوثائق والنصوص التي تتعرض للأحداث.

وخلافا لما نجده عند كثير من مؤرخينا الأقدمين. فإن ابن الخطيب لا يتهرب من مثل هذا الحوار الذي يتطلب اجتهدا فكريا ومقدرة خاصة على التحليل ولا أجد هنا مندوحة عن إيراد صفحة لا تخلو من طول من كتاب « اعمال الاعلام » يتحدث فيها المؤلف عن الطريقة التي وقع بها تنصيب « هشام المؤيد » بتدبير الحاجب « المصحفي » : يتساءل ابن الخطيب عن موقف « الناس » غداة وفاة الحكم سنة 366هـ/ 976. فيقول :

« وكان الناس يومئذ. لا يك وبك وفي كل زمان. اربع : فصنف هم الدنيا التي ينالها بسبب الولد هبه بالغ أو مراهقا أو طفلا في العهد أو جنينا في المشيمة. وهم صنائع الحكم وخدامه وعماله وفتيانته ورجالهم وكل في علاقة به. ممن يحسب نفسه أجنبيا عن

خليفة غيره. ان لم يعد عدوا، تطرف الظن الى ماله ونفسه. وهذا الصنف بحر زاهر. وللحصى والقطر مكاثر. وينضاف اليه كل ذي علاقة قديمة سالفه او حديثة، ناشئة تنتسب الى النائب عنه. وهو مستكثر من الاولياء لضرورة ما تحمله والاستظهار على ما دخل فيه. وهم، أيضا، يحدثان وهول لا يثنى ثان.

« وصنف مرتفع من الديوان، مشهور العناية والمكان، او مجهول الشأن، راض بحظه من الزمان، لا يتشوف الى المزيد ولا يحذر من النقصان، قد تساووت في الدول احواله، وسكنت الى الرزق والمفروض اماله، فان تعين الطفل او الكهل لم تلحقه بآزاء هذا مزية، ولا فقد لاجل هذا حالة سنية، فهو هادن ساكن، والى فئة العافية راكم.

« وصنف يؤمل امرا، ويشب ان قدر جمرا، ويرجو من القرابة الراجحة زيذا وعمرا، ومستحق ياسف لما خرج عن يده، او يعتقد الظلم فيمن عدل عنه الى محل ولده، مستوحش ببخس حقه، وجحد سبقه، ولا يعلم حال الدنيا فيمن ادعى الاستحقاق، وفرض الوفاق، وان هذا قياس فضح الاول والاخر، والغائب والحاضر، وقطع الاعناق وسحت الأرزاق، ولا يعلم ان الحظوظ قد كتبت، والامور قد ابرمت.. وهذا الصنف المنازع المنافس بين ان يصمت فيموت بدائد، او يجهر بالمنازعة فينتهي الى قدر الله وقضائه، وكان في ذلك أضعف الاصناف لاستحكام الصيغة الحكمية التي لا تبالى بمن تقاليم، ولا تظن غير الحكم أو الناصر كان آدم، فلم تسعهم يومئذ الا المجاملة، وجرت على الرضى المعاملة، واسمع الدعاء والاطراء، واعمل السكون والاراء.

« وصنف من اهل الدنيا والاخرة فلدوا اهل الحل والعقد، والقبول والرد اجتهدهم، وسألوا الله توفيقهم وسدادهم.. واعتبروا بين رأس الامة المسلمة في امهات البلدان، من الفتيان والغلمان، الطوشية والخصيان، والاعجام التي تخاطب بالترجمان، والصبيبة والنسوان، وهم أشرف اوطاننا، واعز سلطاننا... وراوا ان الله سد ثلهم بين يحكم التلغيف ويلتمس التوفيق وحسن المناب ويحكم السنن والكتاب، فحندوا الله على حسن الكفاية واصطناع المنة، واقامة رسم الكتاب والسنن، فاعتبطوا واربتطوا ونشطوا وانبسطوا.. وهم جمهور الناس من الفقهاء والعلماء والخاصة والدعماء، فلم تسمع عن احد منهم مجرة اعلاها، ولافتيا سوغت الخلاف لمن سألها، ولم يستجيزوا ذريعة تؤدى الى سفك الدماء، وتغيير النعماء، وشمات الاعداء، فصانوا اديانهم، وعرفوا زمانهم، واقتصروا على رسول الله في الإرشاد، والغام السداد.

وصنف غاربه لانه لا الاقيين يخفف احد. أو يديك باليسر عسود. وانما هؤلاء فؤوس اسواق وحمقى ملغم من خلاف ففتح اللد على الجنيح في عند النايه المساميد العاريد ابواب النعم والمنوح. وجلا صور الفتوح. والنصر المنوح. شملت احكامه الشمسيه. وشخص الخلف وافيد كوافيد الوليد. وتملا العافيد التي غبطهم فيها اكل الارض بنا رحبت حسه وثلاثين سنة. مدة الكفالة العابريه. وتغلب على الامر رجال. زعموا ان لغه في السداد مجال...

وصنف عند الاخره. بعيد من تعريخ على شيء من الدنيا. لا يتكلم في ملك هذا ولا يتكلم معه. ولا يفتح بابا. انما هو مشغول بريد خاتمة. وهذا جيل قليل وانما ذكر مراعات للنفسيم. ولا تخلو الاقطار منهم. فعم بركات اللد بين عباد واولياد منهم (64).

هذا نثر نموذجي من بين نصوص اخرى اُكتفى بالاشارة العابرة اليها. مثله :

- الفصل الذي يتحدث فيه المؤلف عن الطريقة التي اتبعها المنتصرون بين ابي عامر في الاستيلاء على الحكم. اذ يقدم لنا تحليلا واضحا ومشجعا عن هذا النوع. فسلما معد كيف استعمل ذلك الحاحب الداهية الرجال المنافسين له بعضهم ندا على بعض. حتى تخلص من الجميع في حلقات متتابعة. وهكذا حرض المصحفي على الصقلية فاستراح منهم، ثم أثار غالبا على المصحفي وقضى على هذا الأخير. ثم توج خطته بالتخلص من غالب، في خاتمة المطاف وصفاله الجو وأمسك بعنان الدولة في يده واستبد بالحكم (65).

- الصفحات التي خصصها لثورة عمر ابن حفصون والتي تطرح فيها قضايا كالتساؤلات المتعلقة بهماند القنيد : هل نحن بازاء ثورة مسيحيين منبذ عند الحكام المسلمين ؟ أم هل يعني الامر رد فعل قومي لا علاقه له بالدين ؟ أم هل هي ثورة مسلمين مولدين على دولة تعاملهم بشيء من التحيز ؟ ان القراء المتعنت للنتج تبين. على أي حال. اشكالية الاحداث (66).

- الفصل الخاص بالمعتمد بيزن لنا. من جملته. المتناقضات التي كان يعيش بينها هذا الأمير. بصفتة خاصة. وملوك الطوائف. بصفتة خاصة. فعم يمارسون سياست الشعراء الذين

64 - أعمال الاعلام (نشر ليفي بروفنسال) ص 51 - 56

65 - أعمال الاعلام (نشر. بروفنسال) ص 67 - 97

66 - نفس المصدر ص 34 - 39

لا مطمع لهم في اكتساب القوة بالتغلب على عوامل الفرقة والانقسام والسير نحو التكتل والتضامن. بل هم يفضلون، تبعاً لحظّة انتهازية، الالتجاء بارة إلى ملوك المغرب لتبصرتهم على ملوك إسبانيا المسيحية، وطورا الاستجداد بمؤلاء لمحاربة السراطين (67).

- الفقرات التي يختصّها بالحديث عن ابن مردنيش والتي نرى فيها تحركات هذا الجندي الطموح ونمو قوته بالتدريج مع ما يصحب ذلك من تصوير شخصيته وصيغتها بالاصباغ المحلية مما يبرز انه عين المؤرخ ان مسلمي الاندلس كانت لهم خصوصيتهم التي تميزهم عن المغاربة وتربطهم ربطاً وثيقاً بأرضهم (68).

هاتذ امتلأ قدمتها بصورة مختصرة، معتمدا على مراجعة القارئ للنصوص لا بين ان لابن الخطيب طريقة شخصية في معالجة الاحداث وتقدّمها، طريقة يندرج فيها التناول بالتنظير مع ابراز الاشكالية التاريخية بالنسبة لكل حالة، ونعود الان الى النص المتعلق بالوضعيّة الناشئة عن وفاة الحكم، فأول انطباع نخرج به من تصفح تلك السطور، هو اننا بازاء صفحة ممتعة يحلّ فيها مؤلفنا موقف الرأي العام بالاندلس في انتظار صعود خليفة جديد الى الحكم.

ولا باس من تلخيص ماورد في هذا النص قصد تركيز الافكار مع توضيحها، فهو عند تعرضه لصعود هشام المؤيد يصنف الناس الى فئات مختلفة، فهناك اناس داخليون في البلاط لاهم لاهم الا المبادرة باعلان بيعتهم، وهناك طائفة الموظفين المتوسطين الذين لا ينتظرون أي تغيير في حالهم، كيفما كانت شخصية الأمير الصاعد الى العرش، وهناك طائفة السياسيين والطموحين الى المناصب العليا الذين يتساءلون باستمرار لماذا تولى فلان هذا المنصب، ولماذا ارتقى فلان من هاتذ المنزلة الى هاتذ المنزلة، مستندي في تساؤلهم على فكرة الاهلية والاستحقاق، ولا يتمالك ابن الخطيب عن السخرية بهم وتصفية موقفهم، وهناك طائفة اخرى من الناس الذين يؤثرون السلامة والعافية على كل شيء، وهناك طائفة الاوباش والانتهازيين الذين ينتظرون مثل تلك الظروف لحبك دسائسهم ومؤامراتهم وهناك اخيرا فئة صغيرة من رجال الله الذين عرفهم الذين والتفكير في الآخرة عن اي النفقات الى السياسة وإلى عالم الدنيا.

ووفقاً كعند من ابن الخطيب تعني اند كان. في بعض الفصول على الأقل. يتمحور موضوع التاريخ قريباً مما نتصوره اليوم كعلم يدرس الاحداث في اطار المجتمع لا في اطار السيرة الفردية. وهذا اتجاه سليم من الناحية العلمية لاننا نعرف اليوم. الخطر الذي يكمن وراء تصور التاريخ كسلسلة من التراحم الفردي أي كمجموعة من الاعمال والمنجزات العظيمة وفعت في غياب الشعوب والمجتمعات وانضم الفصل في تحصيلها على نخبة من الابطال والاعضاء والعباقرة الخ.. ومثل هذا التصور يعني ان شخصاً معيناً يصبح هو سبب التطورات الحسنة او السيئة التي حدثت في جماعة بشرية في فترة معينة من الزمان. فالسيرة التاريخية تركز كلها. بصورة مبدئية. في الفرد. والحقيقة ان هنالك عوامل اقتصادية واجتماعية وثقافية عامة وحارحية " مثل مؤثرات وماثر تفوق ما احرزوا عظماء معينون " (69). هذا ان ابن الخطيب لم يغفل في تراجمه الكثيرة من الوقوع في اوله البطولة والعظمة. ولكن هذا لا يسد في حالة التحوّل الفكري من استنكاد الخط المنهاري السليم. وهذا تباين سنحدث عنه فيما بعد.

بل ان المؤلف لم يقف في هاتئ الصفحة عند الظواهر الاجتماعية البسيطة المتجسدة في عناصر مادية ملموسة. فقد سار مع اكثر الظواهر تعقيداً وتشعباً وهي التي تدخل في ما يسمى « علم النفس الاجتماعي ». فيقوم بتحليل لقطاعات الرأي العام المختلفة عند انتقال الحكم من امير راحل الى امير جديد. والاهتمام بالرأي العام من الأمور الحديثة. بل المعاصرة. في التاريخ البشري. فهو مرتبط بنمو الديموقراطية والصحافة والاشهار وما الى ذلك من وسائل الاتصال بالجمهور. يبقى. من ذلك. تساؤل قائم بالنسبة للمؤرخ : الم يكن هنالك أي نوع من نوع الرأي - في المجتمعات الغابرة ؟ يجيبنا ابن الخطيب : نعم. ويقدم لنا التحليل الذي اوردناه انفا. والذي يستجيب بصورة دقيقة لمفهوم الرأي العام. طبقاً لما تصورته دراسة حديثة : « في جماعة كبيرة وغير مصنفة، تلتقي المواقف والآراء وتمتد بصورة متنوعة. فمن الواجب توضيح تلك الالتفات وتصوير تأثيراتها العائدة على التطور الاجتماعي » (70). وهذا ما قام به مؤرخنا حيث ابرز لنا اختلاف الآراء والمواقف حسب الفئات الاجتماعية. ممهداً بذلك للحديث عن التطورات التي ستقع اثر صعود هشام المؤيد الى العرش المرواني بالاندلس. بل ان ابن الخطيب يحاول ان يخرج

69 - هيوغ اتكن : دراسة التاريخ وعلاقتها بالعلوم الاجتماعية بيروت 1963 : ص 181

P. Mon Corps : Psychologie des Mouvements Sociaux - 70

Collection «que suis-je» p. 44

لما بنظرية ثابتة عن الرأي العام في المجتمع وهذا واضح من بداية النص حيث يقول : «وكان الناس يومئذ لا يكلف وفي كل زمان ..» فمما يتجه هنا الى فكرة هي التي كانت سببا في نشأة علم الاجتماع. وهي ان هناك عوامل او قوانين ثابتة تفسر كل الظواهر وكل التحولات التي تحدث في المجتمع. هل هو على حق ام على صواب فيما ذهب اليه ؟ ليس هذا هو النعم بالنسبة اليها. الان. وانما الذي يعنينا هو الموقف المنهجي. قد نقول انه يجازف هنا بفرضية او نظرية. ولكن مثل هذه المجازفة مفيضة. على أي حال. كما تسلم بذلك الدراسات الحديثة « فاستخدام النظرية هو الذي يجيز لنا ان نأمل في أن تكون نتائج البحث في التاريخ. كما هو شأنها في العلوم الاخرى. حصيلة متراكمة مطربة في النسب والزيادة » (71).

من دون شك ان ابن الخطيب استفاد كثيرا من تكوينه وتجربته الشخصية لادراك ما ادرك من توسع في الرؤيا وتصور للمشاكل التاريخية مع ما يرتبط بها من تحويرات داخل المنهج. فهو يربط الماضي بالحاضر اثناء مباشرته للاعمال كرجل دولة. مواجهها للاحداث وملاحظا لتطورها يوما بعد يوم بالاضافة الى كونه رجلا مولعا بالدراسات السياسية المحضة كما تدل على ذلك بعض الاثار التي بقيت لنا منه في هذا الصدد. وهاته ملاحظة نخرج عليها هامنا بسرعة لاننا سنقف عندها وفقا أطول فيما بعد.

صياغة التاريخ

نصل. في خاتمة المطاف. دون ان نكون قد استنفدنا البحث في عدد من النقاط الفرعية. الى مسألة الصياغة الكتابية أو الأسلوب. ومن حقنا ان نتساءل هل الأسلوب عنصر من عناصر المنهج في التاريخ وهذا يطرح امامنا مشكلة العلاقة بين اللغة والعلم. بوجه عام. فالتاريخ. ككل علم. يسعى الى الحقيقة. نسبية كانت أم مطلقة. فهل من الممكن ايجاد لغة قادرة على ان تبلغ الحقيقة دون زيادة أو نقصان. ودون أن يتسرب اليها أي عنصر ذاتي ؟

اذا نظرنا الى علوم كالرياضيات أو الطبيعيات. فاننا نجدها تفرض على اللغة المستعملة نوعا من التعبير الدقيق والواضح الذي اذا انحرفت عنه قيد انملة. فان ذلك يفتضح في الحين. يضاف الى ذلك انه لا يوجد أي سبيل للعنصر الذاتي كي يدخل الى لغتها. ولكن. هل الحقيقة التاريخية هي من جنس الحقيقة الرياضية أو الطبيعية ؟ برغم

المحاولات التي ظهرت في القرن الماضي. فإن الحقيقة الانسانية احتفظت بخصوصيتها الى اليوم. وهذا يظهر بالمقارنة بين العلوم الانسانية. من جهة. والرياضيات وعلوم الطبيعة، من جهة اخرى (72).

نمما يكن. فنحن نشعر من التجربة اليومية العادية أن الحقائق البشرية محتاجة الى تصوير. الى بعث واحياء. والا فانها تفقد الكثير من معناها اذا اقتصر على كتابتها بأسلوب تقريرى بارد (73). لنذكر مثلا. الصحفي الذي يقوم بتحقيق في أي موضوع من المواضيع. فانه محتاج الى كل بلاغته وبراعته اللغوية لكي يبلغ ما يريد الى القراء، ونستطيع ان نقول نفس الشيء عن المؤرخ. انه محتاج. أيضا، الى كل ملكته التعبيرية لاعطاء الوزن الكافي لتحليلاته واستنتاجاته.

وليس المراد هنا بالبلاغة ذلك الاسلوب الذي يطغى عليه التصنع والتقعر، ولكن الاسلوب الذي يخلف الحوار الطبيعي والبسيط مع القارئ أي ذلك الاسلوب الذي يجعلك تلمس الاحداث في حرارتها ابان وقوعها مع ما يعقبها من صدى وأثر بعد مرور الزمان عليها. اسلوب كاسلوب الصحفي. من بعض الوجوه، ولكنه لا يتحدث عن الوقنيات التي ما زالت لم تختمر وتنتضج. بل عن الأأسر الذاهب الذي سكنت عواصفه ولم يبق الا صداها وذكرها.

معنى كل هذا أن أسلوب المؤرخ من أشد الأساليب تعقيدا. فهو مطالب أن يبلغ الوقائع بكل امانة وموضوعية، وان يحافظ لها في نفس الوقت على طابعها البشري ومضمونها الحياتي مع ما يرتبط بذلك من جدلية وتحول مستمرين يجعل حقيقة اليوم هي أكذوبة الغد. هنا كبا لطبع مخاطر الاسلوب ومغامراته التي لا بد للمؤرخ من أن يكون واعيا بها. فاللغة في يده اداة يستطيع أن يبلغ بها الحقيقة كما هي. كما يستطيع أن يسخرها في تجميل تلك الحقيقة أو تشويهها، انسياقا مع النزعة الخيالية أو الروائية التي لا تخلو منها نفس الانسان، اذا لم نقل انسياقا مع هواه الشخصي أو تحيزه السياسي. ومثل هاته المخاطر كثيرا ما تعرضت لها كتب التاريخ التي كتبت في القرون المنصرمة. ولم يظهر تخرج طائفة من علماء التاريخ في ميدان اللغة والصياغة الا منذ أواسط القرن الماضي (74).

72 - « لانجلو » و « سنيوبوس » المدخل الى الدراسات التاريخية ص 232 - 237

73 - هنالك طريقة اخرى لاحياء التاريخ بالوسائل المادية والملموسة تحدث عنها « جونسون

» في كتابه المعرب « تدريس التاريخ » ص 276 - 302.

74 - المتدرج السابق ص 237

وقد حاول بعض المؤرخين والمنهجين الكبار أن يحددوا أو - بالأحرى - أن يصوروا، على وجه التقريب، اللغة الصالحة للتاريخ. وهذا ما فعله، مثلا، « لا نجلو » و « سنيوبوس » في كتابهما القيم « المدخل الى الدراسات التاريخية » الذي، برغم تقادم عهده، نسياء، يبرز بوضوح اشكالية البحث التاريخي. فقد تعرض الكتاب في فصل خاص لمشكل اللغة عند المؤرخ بعنوان « تشييد الصيغ العامة ». ولم يستطع، في النهاية أن يفك كل التناقضات التي تتعرض لها كتابة التاريخ :

أ - فالمؤرخ يتردد بين الایجاز والاطناب. لانه موزع الفكر بين الصور المجملة والوقائع المفصلة. مما يجعله مضطرا الى طريقة الانتقاء.

ب - وهو متقلب بين الوصف المادي الملون للاحداث وبين الخروج باستنتاجات عامة، تهدف في بعض الاحيان، الى ان تكون قوانين عامة للتاريخ.

ج - وهو متردد بين الظواهر الكبرى والوقائع الوحيدة التي لا تتكرر، على نفس الصورة، والتي لا بد من اعتبار فاعليتها الخاصة في التطور العام.

كل هذا يدفع بالمؤلفين الى الزام المؤرخ باختيار لغة ثابتة : « فللوصول الى وقائع قارة كالوقائع الاجتماعية، لا بد من لغة ثابتة دقيقة. فانها اداة لا غنى عنها، ولا يكون المؤرخ كاملا من غير لغة جيدة » (75).

فهل يستطيع كل المؤرخين أن يتفقوا فيما بينهم على « لغة ثابتة » من هذا النوع ؟ اليس من طبيعة البحث التاريخي البحث عن مفاهيم جديدة وتصورات جديدة، سيما عند تناول الظواهر التي تنسم بشيء من الديمومة والاستقرار ؟

الواقع أن اقامة الحدود بين اسلوب التاريخ واسلوب الادب مشكل قائم، وكما لاحظ تقرير احدى الجمعيات لاساتنة التاريخ بأمريكا : « التاريخ هو سجل اعمال الانسان، والادب هو سجل افكار الانسان وعواطفه، فكيف يمكن فهم أي من هذين السجلين دون الآخر ؟ » (76).

ومهما يكن، ففي انتظار ايجاد لغة دقيقة صالحة للعلوم الانسانية، على اختلافها، لا يسعنا الا أن نلاحظ ونسجل هذا الاستمرار بين التاريخ والادب، ان لم يكن في المادة، ففي الشكل، على الاقل.

لم يكن هذا الاستطراد عن أسلوب التاريخ. بوجه عام، خروجاً عن الموضوع لأن ابن الخطيب يجمع في شخصه وفي أسلوبه هذا التكامل بين الأدب والتاريخ. مما قد يفتح مجالاً لانتقادات واعتراضات من لدن بعض الباحثين المعاصرين. فنجد، مثلاً، كلا من الاستاذين محمد عبد الله عنان وأحمد مختار العبادي يعترف بقيمة ابن الخطيب كمؤرخ ويتهمة في نفس الوقت، من خلال كتابته وأسلوبه، بالتحامل والتحيز عند تعرضه للأحداث المعاصرة.

وفي اعتقادي أنه ليس من الصعب الدفاع عن ابن الخطيب انطلاقاً من طريقتة في الكتابة. فقد كان في استطاعة أن يتصنع أسلوباً هادئاً رصيناً ويخدعنا بلهجة «الموضوعية» المصطنعة، كما يفعل كثير من الكتاب حتى في عصرنا هذا حينما يتحدثون بلسان «التجرد» عن أحداث وأشياء تمسهم من قريب، لكنه أثر أن ينساق مع شعوره الطبيعي، فاحتفظ في شهادته بحرارة الوجدان. واطن أنه من اللازم أن نميز بين ابن الخطيب الشاهد وابن الخطيب المؤرخ حتى نعامل كلاهما على حدة. فإذا تحدثنا عن الشاهد، نستطيع أن نقول أنه يقدم شهادته بصورة تلقائية وذاتية. وذلك أفيد للمؤرخ، لأن هذا الأخير يدخل من أول وهلة على أساس يغلب عليه الوضوح ويقل فيه سوء التفاهم واللبس. فيعامل الشاهد كشاهد ويعتبر فيه جهتي الخصم والحكم. ثم أننا إذا بحثنا جيداً عن الجانب الذي يبرز فيه ابن الخطيب بعض الانسياق مع الذاتية، فسنجد أنه لا يمس بعنف المادة التاريخية، وإنما ينحصر في المستوى السطحي للعلاقات الإنسانية والشخصية، الشيء الذي يظل في منزلة هامشية بالنسبة للتاريخ الحقيقي. ولنا أمثلة عن ذلك في التناقضات التي وقع فيها حين تحدث عن بعض الأشخاص الذين كانوا أصدقاء له ثم صاروا خصوماً أو في كلامه عن بعض المدن المغربية.

يبقى بعد ذلك أن ابن الخطيب مصور بارع للأشخاص وهنا أحيل القارئ على بعض النماذج التي اختارها المقري وساقها في نفح الطيب (77). وانظر إليه، مثلاً، كيف يقدم لنا أحد علماء العربية، محمد بن هاني السبتي :

« علم تشير إليه الأكف، ويعمل إلى لقائه الحافر والخف رفع للعربية ببلده راية لا تتأخر وموج منها لجة تزرخ، فانفسح مجال درسه واثمرت أنواع غرسه، فركض ما شاء ومرح، ودون وشرح، إلى شمائل يملك الظرف زمانها، ودعابة راشته الحلاوة سهامها » (78).

تصوير الشخصية واضح وحي من هاته الاسجاع التي ألم فيها المؤلف بالجوانب العلمية والخلقية والاجتماعية. متصرفا بمهارة فنية في وسائل البلاغة العربية. وانظر اليه، ايضا، كيف يصور أحد الوزراء المغاربة في البلاط المريني، أحمد بن علي الملياني المراكشي :

« أي اضطراب في وقار. وتجهم تحته انس العقار، اتخذته ملك المغرب صاحب علامته، وتوجه تاج كرامته » (79).

بكلمات قليلة ولكنها معبرة، استطاع أن يرسم لنا صورة حية عن هذا الوزير في لقائه مع الناس وهيئته، وربما قيل أن هذا الأسلوب لا يخلو من تكلف وصنعة لما فيه من سجع ومحسنات. وبرغم كل ذلك، فإن ابن الخطيب أحسن من تصرف في هذا الأسلوب وعرف كيف يجعل منه أداة حية للتعبير فالسجع عنده ليس رصفا للجميل المترادفة، ولا وسيلة لا تخلم المعني واثقاله بكثرة الألفاظ بل اننا نشعر بحركة ودينا مية بالانتقال من فقرة الى فقرة، بحيث أن الفواصل فواصل لفظية ومعنوية معا. يضاف الى كل ذلك الجهاز التصويري المحكم الذي يستعمله ابن الخطيب، والذي كثيرا ما يوجز به كلاما طويلا في لمحة خاطفة. فها هو يصور الحظ الحسن الذي صادفه أحد الأدباء :

« ورد على الحضرة الاندلسية والدنيا شابة، وريح القبول هابة، فاجتلى محاسن أوطانها، وكتب عن سلطانها، ثم كر الى أوطانه وعطف، واسرع للحاق كالبارق اذا خطف. وتوفي عن سن عالية، وبرود من العمر غالية » (80).

تصوير لحياة كاملة في سطور قليلة تنبز فيها الخيوط التي شدت بين الأيام والسنوات وسط التعاريج والتقلبات !

والحاصل اننا اذا أردنا أن نتذوق ابن الخطيب وأن ننصفه في نفس الوقت، فلا يصح لنا أن نلتقي به ونناقشه انطلاقا من موقف مبدئي معاد للسجع، وان نطبق عليه المقاييس التي نستعملها في عصرنا عند تناول النصوص النثرية. بل يجب أن نراعي الذوق الذي كان سائدا في عصره والجمالية العامة التي كانت غالبة آنذاك على مجتمع الأدباء والكتاب. وفي هذا الاطار ستتجلى لنا براعته وعبقريته وسنقتنع انه ربما كان في المرتبة الاولى بين الكتاب الذين استعملوا السجع في الادب العربي عموما.

استنتاج أول

هل يعني هذا التحليل الذي قدمنا أن ابن الخطيب كان نموذجيا كمؤرخ وكصاحب منهاج لا بالنسبة لنا. ولكن بالنسبة لمن عاصره أو سبقه من المؤرخين العرب ؟
 لم يكن ذلك هو هدفنا من هذا البحث. وإنما الذي أردنا أن نبرزه هو أن ابن الخطيب أحد مؤرخينا القدامى الذين استطاعوا بحدسهم وذكائهم أن يسبقوا عصرهم ويتصوروا ما هو موضوع التاريخ وما هو المنهاج التاريخي الصحيح ونستطيع أن نقول أنه من هاته الناحية. كان في طليعة أولئك المؤرخين. ومما في كتابته كثيرا من الثغرات التي نصادفها عندهم. لا يبرز في ذلك. على ما يتراءى لي إلا معاصره ابن خلدون.

وما دمنا نتحدث عن الجوانب الايجابية عند ابن الخطيب. فلنقل أن آثاره تعد اليوم مصدرا نفيسا لا يعوز من بعض النواحي. بالنسبة لتاريخ المغرب في أيامه. كما أنها مصدر اضافي. واحيانا فريد من نوعه عن بقية تاريخ الاندلس. وهي. الى جانب ذلك. تعبير قوي عن الشعور القومي الاندلسي في عهد تدهور الدولة العربية باسبانيا. ثم لا ننسى قيمتها كمذكرات. وكشهادات حية. بالاضافة الى قيمتها الادبية التي لا يمكن فصلها عن التاريخ. وأخيرا وليس باخر. يجب ان نذكر تأثيره العميق على الكتابة بالمغرب الأقصى. اذ أصبح. عن طريق المقرئ وغيره ممن اهتموا باثارة. استاذنا وقُدوة للكتاب المغاربة. امثال الفشتالي وابن القاضي واليفرني وابن زاكور واكنسوس الخ..

يبقى. مع ذلك. تساؤل مهم : هل استطاع ابن الخطيب ان يكون وفيا في كتابته التاريخية. بصورة مستمرة. لرؤياه المنهاجية ؟ ولنجب. دون تطويل. ان وفاءه محصور في صفحات وفصول استطاع ان يبذل فيها مجهودا خاصا ويوفر لها كل الوسائل. في حين ان هنالك صفحات وفصولا أخرى لم يكن فيها مجددا ولم يختلف فيها عما نجده عند غيره من المؤرخين العرب المتوسطين. ماذا يعني هذا ؟ عدة اشياء :

1- من السهل تصور المنهاج والطريق الى الحقيقة. ولكن ليس من السهل تطبيقه. وهذا يتجلى بصورة خاصة. في التاريخ. ولا يختلف ابن الخطيب عن ابن خلدون في هذا الامر. فمن المعلوم أن ابن خلدون استطاع ان يقدم لنا نظرية لامعة عن المنهاج التاريخي. لكنه حين جاء الى كتابة التاريخ ذاته عجز عن تطبيق المبادئ النظرية التي سطرها ورجع الى الاسلوب التقليدي في الكثير من صفحاته.

2- تطبيق المنهاج يقتضي توفير المادة وتحقيق كل الشروط. وهذا لا يتأتى دائما بسهولة ويكفي أن نشير إلى أن البحث عن المصادر والوثائق في معالجة قضية واحدة قد يتطلب أجيالا.

3- يبقى بعد هذا وذاك أن تطبيق المنهاج بامانة يتطلب كثيرا من الشجاعة الأدبية فيما يخص التاريخ. فالمنهاج هو الطريف إلى الحقيقة. وتطبيق منهاج جديد يعني تغيير الرؤيا التاريخية التي ألفها الناس وأصبحت تكون جزءا من عقيدتهم الراسخة الراسخة عن أنفسهم. وما أظن أن ابن الخطيب كان مستعدا للدخول في صراعات من هذا النوع مع معاصريه من أجل الحقيقة.

لكن تقييما نهائيا لابن الخطيب كمؤرخ وكصاحب منهاج يتطلب الجواب على تساؤلات أخرى : ما هي علاقته بمعاصريه من رجال الفكر والمؤرخين ودرجة تأثيره بهم ؟ هل هنالك مدرسة تاريخية اندلسية مغربية ينتمي إليها ابن الخطيب ؟ هل هنالك تيار فكري عام معاصر كان ساريا بين المؤرخين في المغرب العربي ؟ هل كان من الممكن السير إلى أبعد مما سار إليه ابن الخطيب من ناحية المنهاج ؟

هذه أهم التساؤلات التي وصلنا إليها بعد هذا التحليل. ولربما حاولنا الجواب عليها في بحث قريب.

سعيد علوش

الظاهرة التخيلية والتاريخية في الرواية

بالمغرب العربي

هذا النموذج تركيبى وتكويني في منطلقه، وهو يهدف بهذا الى رسم حدود وعي روائي بالمغرب العربي، أكثر مما يحلل عناصره التى تتطلب عملا جماعيا، ورؤية عضوية، بعيدا عن الاحكام القيمية. التى يصعب التخلص منها خضوعا لعلمانية تحتاج بدورها لنوع من إعادة النظر في مفهومها من وجهة معرفية.

الحديث الروائي والحديث التاريخي

أ - حوافر الشكل التاريخي :

ليست الكتابة الروائية عند الروائيين عملية تتم دون خطورة، وهاته الخطورة تأتيها من جهة التاريخ، الذي تتصرف فيه كمادة، ومن جهة الرواية ذاتها، والتي تتخيل المادة التاريخية. وما تصنعه الرواية هنا هو تعصير الماضي، وليس أي ماض كان، ولكنه الماضي الذي يمتد من 1830 إلى 1962 (من الاحتلال إلى الاستقلال)، أي على امتداد فترة تعانق الصراعات العالمية الكبرى.

الماضي إذن، وكما بيناه يمتد على فضاء تاريخي لقرن وربع القرن. انها الفترة الأكثر اهتزازا، والتي شاهدت صراعات ذات حدة، على مستوى الانسان والحضارات. وبالنسبة للرواية، فقد كان ظهورها على المسرح الأدبي بدون عقدة، وهذا النوع يستثمر المادة التاريخية لحسابه، مستغلا التخيل الفني لاعطاء دفقة جديدة للابداع. ولا يدعي الروائي بهذا احتلال مكانة المؤرخ، كما لا ينهب الأخير التخيل الروائي. والحدود هذه تحتلها - متابعة وظيفة الواحد في الآخر.

- ايمكننا بعد هذا التساؤل عن كيف وقع اختيار الروائي على التاريخي ؟

- وهذا الاختيار الا يعد أيديولوجيا ؟

- والتاريخي الا يكون فضا ؟

- لماذا نخطر بالفن الروائي ان داخل تاريخ معين ؟

- يجيب الروائي بأنه منبهر بالتاريخي المتحرك لهاته الفترة.

- ايكفي الانبهار وحده لخلق عمل فني ؟

- والتاريخي، الا يلحق بعقدة الماضوية عند العرب ؟

- ما الذي يعنيه بالنسبة للروائي ؟ وكيف يتعامل معه ؟ لماذا ؟ ولاية غاية ؟

- أخيرا هذا التحديث للماضي خلال الاستقلال، اليس احياء للميت الذي لا يمكنه

الحراك، ولا الاحتجاج، ولا التدخل ؟

ولا تجد الاسئلة المطروحة هنا اجوبتها الا انطلاقا من نظرة تكاملية لمجموع العلاقات

بين الحقل الروائي والحقل التاريخي.

ب - الحدود بين التاريخي والتخيلي :

فيما يخص التاريخي علينا ادراك المعطيات التالية :

1 - تاريخ المغرب العربي. هو بذاته في حركة، يبحث عن نفسه، ويتكون بايقاع أرتب من الروائي.

2 - التاريخي يعيش أزمة المؤسسات والمجتمع لانه :

أ - الشفوي والارشيف.

ب - المزيف أو الرسمي.

ج - عمل في ثلاثة ارباعه مكتوب من طرف المستعمر

د - عمل في حالة ولادة.

3 - هذا التاريخ يحمل داخله كل مخاطر التاريخي من أجل التاريخي، وليس لفلسفة هذا التاريخي.

- الى أي عنصر من العناصر الثلاثة يرجع الروائي ؟

لا شيء يجعلنا نجزم بأن الروائي لن يرجع الى عنصر رابع مفترض من قبله. لسبب بسيط هو أن لديه الاختيار الكامل، ولانه يحمل شهادة على العصر الذي عاشه، أو المحكي له. وكيفما كانت أسباب الروائي، فهذا لا يحول دوننا ورغبته في اعادة خلق التاريخي أو استغلاله كلباس للعصر، انه يقوم بعملية نموذجية في كتابة محدنة، موجدا علاقة قوية بين المادتين.

- بالتالي يهل يمكن وضع الحدود بينهما ؟

من البديهي أن يكون التاريخي بالنسبة للروائي مادة طينية، تأخذ كل الأشكال التي يمنحها تخيل الكاتب اياها. والتاريخي من هنا لايقوم الا بالخضوع للكتابة التخيلية مما يفتح مواجهة بين الواقعي والتخيلي بالرواية، والأمر ان يتعلق بمهنية الروائي. حيث تتواجه المعرفة التاريخية والمعرفة الروائية، مما يضعنا أمام اشكالية حديثين :

1 - الحديث التاريخي للمؤرخ الذي يريد نفسه موضوعيا، لانه يخوض في مادة جموعية.

2 - الحديث التخيلي الذي يجد نفسه مبدعا للمعنى، في اتكائه على ذاتية تنزع به لاستكمال الحقيقي بالتاريخي.

وغالبا ما يطرأ نسيان أحد الحديثين لنفسه داخل الآخر، لتتأزج على نوع من الموضوعية العلمية أو وجهة نظر شاهد معزول.

ولا تتضح حدود كلتا المادتين الا انطلاقا من معرفة موجههما المتمثل في الآخر (المستعمر) وذلك بما يفرضه من حضور داخل كل الميادين كموضوع تأمل في سلطة الهيمنة على فكر المغرب العربي.

ج - أسباب الموضوعية التاريخية :

ان ما يدفع الروائي بالمغرب العربي الى البحث داخل الماضي لهو تعرفه فيه على نفسه : (انه يقوم بفرز بين ما يمكن أن يفهم، وما يمكن أن ينسى، للحصول على تمثيل الوضع خلال الحاضر) (1) لان (التاريخ هو التمييز.. الذي علينا تذكره لكي لا ننسى أنفسنا، انه يضع داخله الشعب الذي يمتد من الماضي الى الحاضر) (2). وهدف التاريخي بهذا هو اعطاء هوية للذي يحيا بوسطه. هروبا من النسيان والغياب الذي رسمه الآخر (المستعمر) على جسده.

ان وعي (التوجيهات التي تعطى للتاريخ من طرف كل الشعوب، انطلاقا من الاطروحات الى المخطوطات ليتحدد في مهمة تربوية وتنشيطية) (3). كراسمال يوظف بالرموز الكتابية. ويريد الحديث بهذا الخلف من الواقع، بينما تأتي الممارسة التاريخية كألة تاريخية سحرية تفتح سبل الحرية. كنتيجة لفلسفة التاريخ التي لا تحكم على المغلوبين أبديا. وهنا يتحول (التاريخ الى مكان للرقابة.. اذ ليس الحديث التاريخي مجرد قطعة عملة زائفة تفقد قيمتها.. بل من الخطأ انلافها) (4) اذ (يتنازع التاريخ طرفان : فمن جهة يدفع الى الممارسة، أي الى الحقيقة، وهو حديث مغلف من جهة أخرى) (5) وذلك من أجل تأويل حر، وإعادة فتح احاديث أخرى (لا تدل على الواقع، ولكنها تدل لله، غير منقطعة عن ترداد : لقد وقع. دون أن يكون هذا الجزم شيئا اخر غير دلالة هذا السرد

1 - ميشال دوسيرتو : كتابة التاريخ - ط. غاليمار / 1975 / ص 10

2 - السابق ص 11

3 - السابق ص 15

4/5 - السابق ص 62

6 - السابق ص 29

7 - السابق ص 55

التاريخي (6). (وكل هاته الاحاديث تتمفصل فوق واقع مفقود، مع ادخال دخيرة جديدة داخل نص مغلق كواقع فارت اللغة (7).

ان الحديث التاريخي من هنا. يواجه الواقع الذي مضى بواقع حاضر. مغزيا تطور حديثته انطلاقا من اعادته تكوين الواقع بمادة رمزية كتابية.

واذا كان يسمح للحديث التاريخي بالمواجهة المباشرة لاحداث الواقع. في اتكاء على الارشيفات والتسجيلات والاحصائيات. كموضوعية علمية. تنطلق من مناهج ومسلمات مسبقة. دون اساءة للتخيل الشخصي للمؤرخ. فانه لا يسمح للحديث الروائي القيام بالاختيارات والممارسات السابقة بالحديث التاريخي.

اذ لا يتقاسم الحديث الروائي نفس الاهتمامات للحديث التاريخي. بل تتم نزوعات استدعاءاته للتخيلي والفني. من اجل احتواء واقعي المجتمع وتاريخية المؤرخ. حيث تسجل كتابات الروائي عوالمه تحت منظورات فنية واسعة. من هذا يكون الحديث الروائي تخيليا في ثلاثة ارباعه. بينما ينحصر التاريخي في ربع واحد.. اذ ان (التاريخ معرفة، والرواية تحليل، وهما بهذا يسلكان سبيلين متعارضين. حيث يزعم الواحد على أنه يجمع المضمون بالنصر. ولكن لانقاذ ايجابيته من النسيان. عليه أن ينسى خضوعه لواجب انتاج.... خيال أدبي موجد لخداع الموت، واخفاء الغياب الفعلي للوجود التي يتكلم عنها. انه يصنع كما لو كان متحمسا للبناء من الحقيقي. وسد الثغوب لخداع المفقود من الحاضر. اذ يسمح له في النهاية كمختصر بهدف مسح علاقته بالزمن كحديث). (8) وهكذا يختلف الحديث داخل عملية ممارسة الكتابة التي (تلاعب دور شعيرة الدفن أو التعزيم على الموت، بادخالها بالحديث. كما تبرز لها وظيفة رمزية اخرى عندما تسمح لمجتمع ما بالتموضع، واهبة اياه ما ضيا داخل اللغة، وتفتح بالتالي فضاء اخر: ان تسجيل الماضي.. هو اراحة مكان للموت، ولكنه اعادته لتوزيع فضاء الممكنات في نفس الوقت. مع تحديد ما يمكن ان يصنع. انطلاقا من استعمال السرد الذي يقبر الموتى كوسيلة لايجاد مكانة للاحياء) (9).

وهكذا فالروائي يثير الخيال. ويخلق وهم الصورة اللسنية. متلفيا التعاطف. حاثا على السفر في مجالات يحددها فضاء اوراف وكلمات. ويظهر الحديث الروائي بهذا كعكاس للحديث التاريخي. ينازعه الموضوعية في كل نقاط الالتقاء.

وإذا كانت الذاتية هي الدائرة الوهمية للحديث الروائي، فمن غير الممكن أن يمارس عملياته خارجها. وشكل هذا الحديث هو ما يمنحه الفضاء التخيلي والمعطيات الانسانية التي تتلون باختيارات ومفاهيم اللحظة التاريخية.

أما بالنسبة لمخزون الحديث التاريخي بالمغرب العربي فيتزود من الأحداث التي هزت معمارية المجتمع، جاعلة إياها أمام قدرها، وفي هاته الظروف التاريخية يصبح الروائي حامل اسماء ابطال الحرية، والصراع الاجتماعي، والوعي الوطني، وتبرير الاختيارات، مما يبرز الحديث الروائي رازحا تحت مسؤولية اللحظة التاريخية.

كل هاته الاطروحات تدفعنا الى اقتراح ثلاثة مستويات من الوعي كأهم ما شكل مكونات ، ومسيرة الرواية بالمغرب العربي :

1 - الوعي الواقع الذي لا يرى في التاريخ غير تكديسات للاحداث

2 - الوعي الخاطئ الذي يحبس نفسه داخل مضيق القيم الفاسدة

3 - الوعي الممكن كرؤية حياتية للمستقبل.

وتحت هاته التفرعات، ستندرج معالجة الحديث الروائي في رسمه لصورة الآخر مستعمرا كصورة تحضر كل مستويات الوعي الروائي.

أولا : الوعي الواقع

1 - صورة المستعمر :

أ - العنف التاريخي :

لقد رسمت صورة الآخر مستعمرا، من طرف انا الروائيين، بطريقة تعارض تلك التي انتهجها الروائي الاستعماري في تصويره لانا المغرب العربي. وفي نفس الوقت فان الانا لم ينس صورته التي تبرز تحت الاول : اصلاحي. والثاني مقاوم.

وفيما يتعلق بصورة الآخر تقترن صورته بداهة بفكرة التوسع والاستغلال وبالمهمة التحضيرية، وكذا بالمفهوم الذي يحمله عن العالم.

وترسم الصورتان على مستوى الوعي الواقع، في حين نجد الحديث بين الاثنين مشروطا بخضوعه لعلاقة القوى التي تربطهما. من هنا تبعد الايديولوجية السائدة للآخر صوت الانا، حيث يحتفظ الآخر بالكلمة . على حين يأتي الانا اليوم ليرسم صورة الآخر بنثياب الأمس- بنية الانسجام الى حاضره.

ومن اميز ما يمثل هذا المستوي من الوعي عند روائي المغرب العربي . رواية (الشجرة) . وباخذ بطلها على عاتقه مهمة اخبار الوسط عن صورة الآخر مستعمرا : (تظنين فرنسا في تونس وحدها.. هذه الرقعة الصغيرة الحقيبة من عالم واسع تحكم فيد فرنسا كما يطيب لها ان تحكم. الفرنسيين في كل مكان.. عمر وا الدنيا بالمبائي والكنائس هم في الجزائر وفي المغرب وفي السنغال.. هم في بر الشام. وفي بلاد الاصفهان.. هم في بلاد الصين وفي بلاد الأمريكان.. كأن لهم مئات السنين في هذه البلاد. يسرون كما تسير عقارب الساعة.. يعمرن الصحاري والجبال...) (10).

ويضعنا الروائي بواسطة بطله أمام الحدث التاريخي. المتعلق بتدشين مصالح الآخر حيث المنشآت : (عمارات / كنائس / موانئ) . والتي تمثل مؤسسات ترتبط بثلاث سلط : سلطة الاقتصاد / الرسائل / الادارة السياسية الجديدة.

اما الفكرة التي يكشف عنها الحديث الروائي فهي مظاهر التوسع التي تحقق النقاء الحديث الروائي بالحديث التاريخي في سيطرة الرأسمالية على منابعه.

وتقطع المادية الجدلية الطريق هنا أمام كل صدف، أو تفسيرات للغزو كمنغامة تحدث خارج التاريخ. لقد صدم (جان كنياج) في تخطيطه لخريطة العالم اواخر القرن 19 هذا التوسع الاستعماري كظاهرة اساسية. وباعت جوهرى للسياسة الاوربية. اذ انطلقا من 1878. وبعد مؤتمر برلين بالذات تتسلك القذائف الاستعمارية السياسية. انه عصر الامبريالية المقتنعة « جماعة الاراضي. اذ تنقاد الدول الكبرى وراء غزو العالم المتأخر. وتنطلق الرسائل في كل الاتجاهات .. في البحث عن الاراضي الخصبة. وكذا الصحاري. اخلال ربع قرن يخيل لنا اننا امام مسابقة كبرى لمن يقوم بتوسيع اللون الاحمر أو الأزرق او الاصفر على خريطة الاراضي المجهولة والتي كنا نعلمها بالابيض على أطلس الجغرافية القديمة. والنتيجة هي سقوط قارات بأكلمها تحت تبعية القوى الاوربية الكبرى. خلال عشرين سنة (11).

وكان ما شجع الحركة. وسائل النقل / العقلانية / الانتاج الصناعي / النمو الديموغرافي. وبالإضافة الى هاته العناصر تنضاف الروح الداروينية. التي تستغل

اطروحات البيولوجيين في الصراع من أجل الحياة لاعطائها صبغة التوسع الاستعماري. تلك هي لهجة (ما شيردي لا يونج) سنة 1886 في كتابه (النخب الاجتماعية)، الذي يبغي من ورائه تأكيد نظريته في أن (الأهم تولد، وتحيا وتموت كالأحياء) (1). ويأتي بعده (نوفيكوف) معززا فكرة (المجتمعات التي كانت تمثل تنظيمات تنطبق عليها قوانين البيولوجية) (12) وفي سنة 1900 وجدت الداروينية شكلها الأخير مع الأمريكي (بيرسون) في تأكيده على أن (انتصار الشعوب المتحضرة يسجل مكسبا انسانيا) (13). والاطروحة الداروينية بالشكل الاستعماري، سجلت بالمانيا تأسيس (جامعة موجهة لتربية الشعوب في مادة الاستعمار، وقد وصل عدد افرادها 10.000 سنة 1885) (14). أما بفرنسا فتأخذ الظاهر الاستعمارية شكلها القانوني (خلال خريف 1890، بتكوين جمعية افريقيا الفرنسية، ومع دخول 1891 تم تكوين الغرفة.. ثم تلاها بمجلس الشيوخ جماعة الفريق الاستعماري. هذا الفريق الذي يشجع فيما بعد بـ 94 ممثل نيابي منتخبين من احزاب الاغلبية، واليسار، واليمين المعتدل.

وكان الداعي المحبوب ورئيس الفريق الاستعماري هو (اتيان) نائب وهران. (كامبيتي)، وكاتب عام للدولة بالمستعمرات. وفي حملاته من أجل المستعمرات كان (اتيان) يعتمد حجج (قيري) الاقتصادية. بالاضافة الى الحمية الوطنية، التي تحركه في تصريحاته، والتي منها مثلا : ان تكوين الامبراطورية الاستعمارية لهو مجد الجمهورية الثالثة الذي لايزول (15). ويمكن التركيز على (دزرائلي) و (ج. قيري) كمنشطين للتيار الاستعماري باوربا. وعقيدة الأخير (كما تتضح من خطابه الطويل لسنة 1885 تفسر بالظروف، ومزاج الرجل، ووطنيته للورين، في اهانتها سنة 1871 ثم باقتطاع اللزاس والورين. هاته العقيدة التي تركز على مفاهيم اقتصادية، لكنها مدفوعة قبل كل شيء باسباب اقتصادية (16).

12 - السابق ص 7

13 - السابق ص 8

14 - السابق ص 16

15 - السابق ص 21

16 - السابق ص 41

يضيء الحديث السوسولوجي والسيكولوجي المرحلة التاريخية التي يعصرها الحديث الروائي خلال تجربته التخيلية. والملاحظة التي نكونها عن الأخير في تجربته مع الوعي الواقع، هي في ذلك الميل الى التصويرية الوصفية أكثر منه الى التخيلية. وان كانت الملاحظة لا تخلو من دلالة مساعدة على التعرف على أي فضاء تاريخي نحن بصدده. والذي يتحدث من عمقه بطل رواية (الشجرة)، حاملا ابعاد أخرى في صورة المستعمر، المتضخمة أمام أنا المستعمر مشيئة له، جاعلة اياه أمام عالم يتجاوزه. إذ كان (على) بطل الرواية يتردد على الثكنة فاتحافاه أمام القوى العظيمة التي جمعتها فرنسا ببنزرت. واشكالية البطل في انبهاره الغير محدود والا مشروط تجاه قوة تفوق ادراكه، ولا يجد لها تفسيراً، وهي سذاجة الانسان المنسلخ عن منطق الاشياء والمغامرة، مما يحلك اعتماد السرد بالحديث الروائي الذي يهب لانقاذ البطل، مجمدا البطل داخل التاريخي كمؤشر للغمى / العدد / الهيمنة / النظام الجديد/. ويخص العد القوة المادية، بينما يستغل العلم كايديولوجية للوصول الى هدف السيطرة في تشكيلها كنوع من قدرية بالنسبة لعلي : (وتردد علي يجول في الثكنة، ويفتح فمه معجباً من هذه القوة التي تجمعها دولة فرنسا ببنزرت. وتبني لها البناءات العالية، وتنفقها النفقات الباهضة.. خرب الله ديارهم ما أكثر ما لهم.. أكثر من النمل.. لا يصل البصر ان يقف على عددهم، ولا عدد عرباتهم. ودباباتهم ومدافعهم، يمشون في صفوف منتظمة بخطى موقعة كأنهم رجل واحد اذا صاح قائدهم وضربوا بالقدم ضربة واحدة، تكاد تشق الأرض) (17).

ويعلن الحديث الروائي بهذا عن النظام الديكارتى، المهيم على القوة التي تمشي في خطوط مستقيمة. وبخطى موقعة، حيث يبرز الآخر مستعمرًا كممثل لبلد ديكارت بالأرض الافريقية. والحق يقال بأن الرقابة تظهر كتهجين للسيادة القائمة.

(ويوضح الالتجاء الى هندسة مثالية، هندسة مبالغ فيها، المزاج المرضي الذي تأخذ رغبة الوصف هنا، ولدينا قبل هذا المزاج الايديولوجي حيث يسجل قلق رؤية الطبيعة وهي تؤدي. خضوعها للهندسة والروح الحاملة لها.. ونميل في هاته الحركة الراديكالية الى اعطاء هذا الانزلاق الى الايديولوجية الامبريالية. كما هي صفة الايديولوجية المرضية. وتسمّر الاولى على توسع الجماعة الاستعمارية بالوسط الافريقي،

وخلال مرحلة تصاعد الاستعمار، في حين تسجل الأخرى انحطاط النظام الاستعماري. وخاصة صعوبة قبولها، ومظاهر هاته الأيديولوجية المرضية لاتغيب عن فترة التفهقر (18).

(ان ضابط س. ا. س لكركة، ليقع بالدرجة الأخيرة التي يسميها (منسكوفيسكي) الهندسة المرضية ويعبر عنها في ذوق سيزوفريندي للتقابل والتخطيط، والمنطق الأكثر صورية في التمثلات كما في الاحتمالات. انه يقول مثلا : انا لوران، احب الخطوط المستقيمة. والناس هنا تختلط عليهم الخطوط المستقيمة.

وتظهر سلطويته بكل لميادين. اذ لايرفض أن يقيم كل المنازل على خط واحد ومنظم. انه يقيم في مربعات كل الاشجار، ويقطعها عند كل سبعة امتار على حدود الطريق. وتأخذ الهندسة المرضية دلالتها الأيديولوجية في نشاط المستعمر الدقيق...) (19). ويحتد هذا التوجد الى القوة العلمية عند الوطنيات الاوربية في دفاعها عن مصالح المستعمرات مما يتسبب في اشعال نار حرب عالمية. ويكشف بطل رواية الشجرة عن هاته الوضعية بوعيه البسيط : (وقد سمع من الفرنسيين معد في السفينة، أن دولتهم أحست بالخطر فجددت معاهدتها، وعززت جيوشها بالسلاح وأي سلاح...) (20).

(وعصفت ريح الحرب تضم قوتها الى قوة الطبيعة. وأهتم الفرنسيين بجمعون لها العسكر من جميع البقاع. ليفقوا في وجد عدوهم كان الالمان قد اتفقت في هذه المرة مع الطالبان ليحتك الدنيا قاطبة. مادام هنتر الجبار اعد عدته ليطوف العالم بحزام من نار) (21). وتحالف الانجليز والامريكان والروس والفرنسيين نتج عنه حشد للجيش بالجزائر الغربية، في حين تتسلل جيوش المستعمرات لتلتحق بهم. كاستغلال بشري. مضاف الى طريقة تجنيد هؤلاء، اذ يبحث عنهم. ويساقون بقوة الى الجبهة : (اخذت السيارة العسكرية تقترب من البيت. كثيرة الضجيج، وما هي الا لحظات قليلة حتى وصلت وتوقفت قرب الباب.. علي أن أتشجع، فقط انا لا أستطيع الوشاية بولدي، وانا نفسي

18 - جاك لينهارد : سياسة الكتابة / ط : منتصف الليل / ص 52

19 - سياسة الكتابة ص 54/55

20 - الشجرة ص 129

21 - السابق ص 130

الذي أرشدته الى المكان الذي يختفي فيه الآن، انكذب نحن نعرف أين هو ابنك.. فهو اما أن يكون قد ثار وتمرد وصعد الى الجبل، واما أن يكون اختفى هنا في بعض الاركان (22).

ويأخذ الجنود في البحث عنه. فجأة يقفون أمام البئر، فيأخذ الخوف بتلابيب الاب الذي يسارع اليهم صائحا (لا تطلقوا الرصاص !... لا تطلقوا الرصاص ! سيخرج من البئر بسرعة ، سيخرج) (23).

وتتحدد دلالة السرعة/ المحركات/ العدد بديكارتية المستعمرين، في فرضها كوسائل ما فوق الطبيعة بالمغرب العربي.

وتلتحق رواية (ما لا تذوره الرياح) برواية (الشجرة)، إذ أن (علي) بطل الثانية يجد نفسه داخل صفوف البشير، كجنديين بالجيش الفرنسي. ومأساوية الروايتين تركز على التشييء الكامل للبطلين الجنديين، داخل الجيش الاستعماري. الذي يلتحق بد الاول بدافع الحاجة والآخر بدافع الانبهار أمام مظاهر التقدم التي واجهت سذاجته خلال اقامته بفرنسا مؤدية به الى التخلي عن اسم (البشير) واستبداله بـ (جاك) كتطويق للهوية والقضية اثر صدمة سيكولوجية واجهته.

بينما يحاول (علي)، وخلال كل رجوع لزيارة القرية، مخاطبة الناس الجالسين أمام الحوانيت مستعملا بعض الكلمات التي تعلمها بالجندي الفرنسية. كاشعار للآخرين بأن (علي) تعلم أو تميز عنهم.

والحالة الاولى والثانية ليستا غريبتين عن طبيعة الاحتكاك الحاديين حضارتين. ولقاء غير متوازن بين قوى وضعيف على مستوى الجهاز التنفيدي للايديولوجية المهيمنة، والتي تبرز كقوة غير طبيعية. وقد فتنت صورة الآخر مستعمرا الناس في بداياتها، لكن الصدمة لم تكن الاحالة نفسية مؤقتة، تبهر الانا الوطني. إذ لا يلبث أن يسترجع وعيه. لان (البشير) لا يرتاح لـ (جاك) بينما علي يغادر الجندي ويرجع كالبشير الى قريته نهائيا.

ب - التجميع البدائي :

مع الاحوال السابقة، أخذ الصراع بين الانا الوطني، والآخر المستعمر شكله الحاد. بمجرد ما كشف الآخر عن نيته التوسعية، وتكديسه البدائي للارض : (مستغلا في ذلك القوانين التي تخولها له هيمنته، أو ملتجئا الى الحيل المختلفة، للتحايل على القوانين القائمة حيث شاءت الصدفة أن يكون مجاور الأرض ذلك الفرنسي، الذي أخذها عن طريق ادارة الاحياس بوسائل ماهرة في المكر والاحتيايل، يطلق عليها كلمة تعويض، وبهاته الوسيلة انتقلت خير الأراضي التونسية من يد العرب الى المستعمرين، تؤيدهم في ذلك دولتهم الحامية لهم، بل والمشجعة على استقرارهم بكل الطرق) (25).

وعلاقة القوى هي في صالح الآخر لانه : المعضد / المحمي / المالك / والمتصرف تحت قناع المالك لوسائل الانتاج الناجحة. في حين يجعل الانا هاته الامتيازات مما يجعل من الآخر حاملا لمشعل التفتح بالرغم من أنه لا يغير حياة المالك الا ليجعل منه خماسا والخماس ليجعل منه عاملا يوميا. اذا المالك يصبح عاملا عند الآخر، وليس له الحق في مد رأسه بين الأسلاك التي قسمت ارضه : (فبينما كان المرحوم والدك بطل براسه من سياج البستان، رآه المعمر فظن به الظنون، وصوب اليه مسدسه الذي لا يفارقه، واصابه في رأسه) (26).

ان الآخر لا يخاف من مغامرة قتل انسان لا تعمل القوانين لصالحه، لانه لا يمثل الثقل اللازم ، والمطلوب من طرف طبقة كشرط للمحافظة على الحقوق. على أساس أن القوانين صنعها الآخر، فهذا الآخر هو اذن من يقرر العدل كتركيز لهيمنته على الانا وما يملكه. ان الآخر المتصرف . وليس على الانا الا قبول سلطته، كما أن عليه أن لا يحتج ما دام الآخر لا يكتفي بقتل المشكوك في نيته (الأب)، ولكنه يتابع اسرته لمحو النية السيئة نحو تعديده، فيتحرك جهاز سلطته (وأدى الجند رمة بشيخ التراب، ليتعرفوا على المصاب، وما أن عرفوه، حتى فوجئت ضحى ذلك اليوم باقتحام منزلنا من الجندمة والشيخ . وفتشوا المنزل تفتيشا فظيحا دون أن يعثروا على شيء. وانا منذ مشة، يكاد يغمى علي من الخوف والرعب) (27).

24 - (ملا تذوره الرياح ص 26

25 - محسن بن غياث (التحني / ط : الشركة التونسية للتوزيع / تونس / 1972 / ص 27

26 - محمد العروسي المطوي (حليمة) / ش. ق. ش. ن. / تونس / ص 55

27 - حليمة ص 55

والعدل في صالح الآخر، انه يخجل، ويقتل، ويهيم، وعلاقات القوى تظهر كلما وقع احتكاك بينه وبين الأنا.

- ماذا يريد حديث الوعي الواقع تبياناه بشحناته المتعددة ؟

- أهو تعضيد للوطنية ؟

- أهو تعضيد لأيدولوجية الطبقة السائدة، بتسويد صورة الآخر، لتبويض الجماعة الاجتماعية السائدة حاليا ؟

ان الروائي كمتقف، ليأخذ على عاتقه مسؤولية الدعاية لوعي وطني بالمعنى السائد بالوسط البورجوازي أو النخبوي الذي يقاسم الآخر المصالح.

- اليس من المخرج للروائي أن يعبر عن رأي غير كوسيط ؟ وهاته وضعية تاريخية تتجاوزها كقرد من طبقة أخرى. ويعبر عن طبقة سائدة، كوسيط ومتحدث مقبول بين الآخر والطبقات الأخرى. (ويحدد غرامشي في هذا المضمار. وبدون شك الحمولة الحقيقية، عندما يقلب تاريخ الأفكار. ويستعصي عليه تاريخ المثقفين العضويين هاته الجماعة الخاصة، التي يحل العلاقة بين وضعيتهم الاجتماعية والأحاديث التي يتفوهون بها) (28).

وروائيونا في حدود النظرية الغرمشية يخلقون حديثا لا كاملا كاملا، بحجج ليست لهم، املين في بعض امتيازات الأوساط التي تكون موضوعا لهم، والحق هو أن القطيعة داخلهم وبينهم وبين الجموع متفشية، وواضحة في كل احاديثهم. ويستثمر الناطق باسم النخبة ماضي ما قبل الاستقلال، كموضوع محبب يزدهر بشكل خارق للعادة ولكن في فترة الاستقلال.

ج - مفهوم الآخر

ونفس الحديث الروائي الذي أثار مشكلة الأرض، يثير مشكلا آخر. يرتبط في جوهره بالعلاقة بين العمال ورب المعمل عشية اكتشاف مناجم الفوسفات (29).

ويسجل تشغيل العمال التونسيين لاستغلال مناجم ولادة الحركة العمالية كنتيجة ضرورية للعلاقات الجديدة بين الانا العمالي والآخر المستغل أي بين مشغلين ومشغلين.

28 - كتابة التاريخ ص 39

29 - كان اكتشاف مناجم الفوسفات سنة 1885 بناحية قفصة على يد شركة فوسفات قفصة

بتمويل من فرع بنك الاتحاد الباريزي (العروي : تاريخ المغرب / ج2 / 1975/ ماسبيرو/ ص 108

ويبرز اللقاء صورة الآخر كباحث عن الغنى. إلا أن ما يهمنا أكثر هو كيف سجله وعي الروائي بتونس خلال روايته (الدكلة في عراجينها) (30).

ويأخذ الحديث بين الآخر مستعمرا دلالة ذات أهمية في هذا المجال : (كان الفرنسيان في مكتب فاخر. من مكاتب ديوان الشركة يتحاوران. قال لأكاز - اياك والعرب انك حديث العهد بالبلاد، انا افريقي وقفت عند حقيقتهم. اما انت فممن يسمونهم « فرنقاوي » طيب القلب، لكنك غر، انهم كذابون سراقون، خداعون، مغالطون، لامعقول لديهم الا القوة، لا يخضعون الا لها يعبدونها، يسجدون لها، انك ان استجبت.. لادنى مطالبهم يأخذون ذلك على أنه ضعف منك، فلا يلبثون أن يطالبوا بغيره وغيره، ويتسع الخرق، اجابه بواسيه لكن مطالبهم معقولة عارض الآخر - الرفض ولو للمبدأ، لا تشعرهم انك تسمع منهم، اننا بالنسبة اليهم قوة من قوى الطبيعة، ليس لهم ان يتساءلو عما نفعل، فان خيرا فليغتنموا شاكرين، وان شرا فليتحملوه صابرين، ليس الا هذه سياسة مثلى) (31).

وبإمكان الحديث الروائي أن يأخذ مجرى آخر. إذ لا ننسى أنه مكتوب بوعي روائي من المغرب العربي في استهداف لرسم صورة الآخر. وليس المتحدث هو الذي يصنع اقواله، ولكنه انا الكاتب، وعلى ذلك فالأمر يتعلق بما يفكره الانا في الآخر. وهذا التصوير لا يمكن الا ان يتسم بنوع من التشويه ازاء الآخر. وكاريكاتوريته انتقامية، لتحقيق نقاط على الكتاب الاستعماريين كرد فعل متأخر.

لن يكون هذا هو الهدف الأساسي للتيار الوطني الروائي في مواجهة صورة الآخر ذات الوشائج الوطنية بسلوكولوجية الانا. هذا الانا المغتتم اللحظة التاريخية للاستقلال والتي تجعل منه طرفا على قدم المساواة من حديث الآخر كماض مادي. وحاضر معنوي على المستوى السلوكولوجي أنه شر ضروري. ووعي شقي عند الروائي الذي يجد معناه مرتبطا بالتاريخ والهوية المهترئة وبموقف الآخر منه. إذ لا ننسى على أنه يصبو في الواقع الى مساواته.

ويستعد الآخر بالتالي من أجل انتزاع الرشد التاريخي منه. مع عقلنة للعلاقات به. من هنا يملك الآخر دورا تاريخيا وبيكولوجيا بتخيل رواية (الدكلة في عراجينها). وهي الرواية التي تذكرنا بحياة عمال القرن 19 بروايات زولا. مع اختلاف العاملين.

30 - البشير خريف (الدكلة في عراجينها) / ط : ش.ت.ن / 1969 / تونس

وبالرواية عكس لمنظور المشغلين. ورؤية العمال في بيعهم لعملهم مقابل ثمن المستغل.

د - مهمة المحضر

ويقدم لنا الآخر كمحضر للجعل من الانا مشايها له (.. ان الفرنسيين سيعملون على محاربة التأخر والجمود. ويجعلون من الجزائر بلدا مثل فرنسا.. ماذا تقول انت ؟ الا توافق على أن بلادك ما زالت متأخرة. وان فرنسا لقادرة على دفعها نحو التقدم (32).

تلك هي عقلية الآخر كعسكري . يحاول اقناع الانا المجند داخل الجيش الفرنسي بالمهمة التحضيرية، مغيرة البنيات القديمة في مستقبل قريب. الا أن ما يغيب عن هاته العقلية هو أن الآخر والانا لا ينسى الواحد منهما في أي لحظة اختلافه عن الآخر. ويلاحظ على صورة الواحد انها لا ترسم الا في علاقاتها بالآخر. وهذا يعزي على أن بكل احاديث الشكل التاريخي. لا يوجد فضاء يرسم الانا في غيبة عن الآخر :

(كانوا جميعا يلحظون هذا الفرق الواضح بين الاستاذ اليازغي، والاستاذ فرانسوا كان الاول يتحدث عن أشياء لم تكن مفهومة في أغلب الاحيان، وكان الثاني يتحدث عن أشياء يفهمونها ولو أنه يتحدث اليهم عنها بلغة غير لغتهم. كان الاول يلقي دروسه في وقار واصطناع ظاهرين، ولا يكلف نفسه أن ينظر الى هؤلاء الذين يتحدث اليهم، وكان الثاني يقف وسط القسم، يقفز من ركن الى ركن. فتقفز معه العقول الصغيرة بجادلها في تيقظ ويدفعها الى الفهم في غير أمر ولا استعلاء. كانت الدروس الاولى تودي باحترام الكبار وتقديس العلم ولكنها تبعث على السأم والملل وكانت دروس الثاني تودي بالبساطة، ولكنها تؤكد الحياة (33).

ويتساءل بعض الأبطال : لكن فرانسوا ليس من شعبنا ؟ لكنه يقدم لنا نموذجا حيا. (أهو ذكي ؟ أهو غني ؟) (أهو أعلم ؟) (وأنا .. ؟ هل سأكون فرانسوا أم سأكون اليازغي ؟) (34). في هذا الحديث الروائي المأساوي، يصيب القلق البطل أمام أنه،

32 - مالا تذوره الرياح ص 26

33 - عبد الكريم غلاب (دفنا الماضي) ص 120

34 - السابق ص 132

ويوهمننا الروائي على أن مأساته تتمثل في جهله العلمي والبيداغوجي، وتمزقه بين التعليم التقليدي، والمناهج العصرية.

والمقارنة - المستحيلة - التي يقترحها الحديث الروائي خداعة، لأن السارد يكاد يكون مقتنعا بمزايا العالم الآخر (كقوي/ ذكي/ عالم). الى هنا يتوقف الروائي في طرح اشكالية انا العالم الثالث، لكنه لا يلبث أن يفاجئنا عندما يخنف هاته المأساوية المثارة عن طريق بطله (وانا.. هك سأكون فرانسوا أم سأكون اليازغي ؟)

ان الان لا يمكنه أن يصير فرانسوا ولا أن يستمر في نموذج اليازغي. بل تظهر ضرورة نموذج ثالث .

5 - الظالم :

كانت امكانية النموذج الثالث - الاختيار الجموعي - هي المقاومة بالمغرب العربي. اذ كان العنف الثوري الواعي وحده القادر على قلب ميزان القوى، وتأكيد الهوية الصحيحة. (ازداد ضغط الشعب على قوى الاستعمار الغاشمة، وعمت انحاء البلاد المظاهرات والاحتجاجات، واعمال التخريب والمقاومة فجن جنون الاستعمار، وركب رأسه وظن أن القمع وبث الرعب والارهاب والتنكيل. ستوقف المقاومة وترهب المقاومين فكانت اعماله الفظيعة، وجرائمه الوحشية، خاصة في الوطن القبلي. عندما جاءت فرق اللفيف الاجنبي فعاثت فسادا، فهدمت البيوت وقتلت الاطفال والنساء وأتلفت المؤن.. والطعام. : فآي تازركة.. في بني خيار.. في قرية.. في المعمورة.. في الصمعة.. في قليبة.. في حمام الغزار.. في وادي الخطاف (35).

وصورة الآخر بالحديث الروائي سودت بكل الالوان القاتمة. انه مجرم/ وحشي/ فظيع/ مفسد/ محطم/ قاتل/ مجوع. مما يدفع للاحتجاج : (وصلت المظاهرة أمام « الاقامة العامة ». اخرج العلم ونشره مرفرفا فوق المتظاهرين. فانهاك الرصد من البوليس والجيش الفرنسي على المتظاهرين ((36)). ورمز الراية بالحديث الروائي سيادة يرفضها الآخر. ولكي يضع حدا لها فهو يحتل الفضاءات الممكنة. ومداخل ومخارج هاته الفضاءات، وهذا التخجيل لا يضع سوى زيادة احتداد الوضع، وقلق البطل يبين ذلك : (وجد بطحاء « الكاردينا لا فيرجي » مكتظة بالقوات العسكرية والشرطة، كما تبدو على بعد، ووراء باب البحر بعض الدبابات التي وجهت فوهات مدافعها صوب منافذ المدينة. أما الشرطة

فكانت تفتش كل من يريد عبور البطحاء. في اتجاه الحي الأوربي من العاصمة (37). ومن فضاء الأرض كما من فضاء السماء تأخذ محاربة الثوار من طرف الجند حدثها : (لم تعد الطائرات تكفي بما تقذفنا به من رصاص، فعمدت بالقنابل تلقيها علينا.. فقد امتلأت الأرض بالعشرات من السيارات المضرة والعربات التي تحمل الكثير من الجنود... نيران ترتفع من مدافع في الأرض وأخرى تنصب من طائرات في السماء (38). ان المواجهة لم تعد بين كاهن/ أمام/ وبين مستعمر/ خماس أو مدرس/ مدرس، انها تكتسي صبغة صراع بين جهاز قمعي/ ومقاومين وطنيين. من هنا يكشف الآخر عن وجهه العسكري دون تردد أمام كل حاجز، إذ أن الضابط الذي يقوم بغاراته في النهار. يرفه عن نفسه بمفهي المساء (وكان لم يكن هذا الرجل الوديع الذي يلعب الورق، هو الذي أمر بإعدامهم رميا بالرصاص، هكذا دون محاكمة. ودون أي احساس انساني. كما لا يستغرب أن يكون أحد الضباط الآخرين الذين يشاركانه اللعب، هو الذي أمر بتدمير تلك القرية الصغيرة بالمدافع، حيث بلغه أن أهلها قاموا بمظاهرات، وقتلوا جنديين، واحرقوا مركز الجندرية، وجرحوا ثلاثة منهم فدمروا القرية بمن فيها من الأطفال الأبرياء والنساء العزل والشيخوخة العجزة) (39). والحديث الروائي ينازع المؤرخ ادواره، كما يلتصق بالوعي الواقعي، حيث الآخر العمجي. والانا المقاوم على طرفي نقيض. إذ لم تعد المقاومة غير رد فعل الأنا.

والآخر واحد في كل من دول المغرب العربي : (التكنة تضج بحركة مضطربة وحركات السيارات تدور وتتوقف، والدبابات المصفحة تتقدم وتتأخر والجنود يتسابقون بين العربات والدبابات، وبين قاعات النوم، ومخازن العتاد، والضباط وضباط الصف يتصايحون بأوامر مختلفة. السرعة. السرعة. القنابل اليدوية، مزيدا من الأخيرة، انزع الغطاء عن الدبابات يا خنزير. تفقد البنزين يا ابن الكلبة) (40). ونشاط التكنات يعطي فكرة عن نشاط الجهاز القمعي بالخارج (في السيارة العسكرية المكشوفة تناول سماعة جهاز

37 - محمد المختار جنات (طريق الرشد) ش.ت.و /1970/تونس ص 31

38 - السابق ص 53

39 - التحدي ص 108/109

40 - الطاهر وطا/ (الاز) / ط : ش.و.ت/ لجزائر /1974/ ص 115

اللاسلكي وراح يزار. والوالو، الى كل الوحدات، الى كل الدوريات، جمعوا كل السكان، كلهم بدون استثناء. الرجال والنساء والاطفال في الملعب البلدي. فتشوا جميعا عن قدور بن الربيع البركاني، وعن اللاز ولد مريانة احتاطوا، فانهما مسلحان، الساعة الآن السادسة.. أريد كل السكان في الملعب بعد ساعة (41).

والآخر بالجزائر أكثر ثقة بنفسه، وأكثر سلطوية، اذ قوى احتلال قرن وربع من شوكتة وتجريب اسلحته، واعطاء مشاهد يبقى الانا امامها منبها (بمجرد أن توسطت الشمس كبد السماء، وتعتت فاضحة عورتها للكون.. حتى ارتفعت في الجو دوي الطائرات المقاتلة، وامتلأ الفضاء صدى وتخلخلا... فخرج بعض سكان القرية المتناثرة البيوت من أكواخهم ورفعوا أبصارهم.. أخذت الطائرات تطلق القنابل على القرية بكميات كبيرة.. وما هي الا مدة قصيرة حتى سكن كل شيء (42).

وبالمغرب يتخذ الآخر صفة واضحة في علاقة السلطة الاقتصادية والسلطة التنفيذية (كان الجنرال حاكم المدينة يدرع مكتبه الواسع في خطوات عريضة ثابتة يهتز لها جسمه الضخم وكركشه المكورة، تعلو وجهه حمرة لامعة، وتتطاير من عينيه الزرقاوين شرارات لاهتة، يزوي بين حاجبيه وهو ينظر الى مدعوية في كثير من التعالي كان يرتدي بذلته العسكرية، تتربع صدره أو سمتها وشرائطها.. نظر الى مدعوييه مصطنعا الغضب، وانشأ يقول انا لا أقبل أن تتركوا هؤلاء الطعام يقومون بالاضراب. اسمعتم؟.. واحتدت اعصاب مسيوروز احد مديري المعامل.. يا جنرالي اذا كنتم تسمحون لعمالنا أن يقوموا بالاضراب، فيعرقلون السير في معاملنا، فسيتعلم منهم هؤلاء الاهلون، ليقوموا أيضا بالاضراب (43).

والنقابات بدورها لم يكن مسموحا بها لغير الآخر الاوربي، ولم يكن للمحليين حق دخولها أو تقرير الاضراب : (كانت المدينة محاصرة، وكان جيش الاحتلال يقبع في كل ركن من كل حي، وصدرت كلمة الأمر. - اطلقوا النار على كل جماعة... على كل شخص يهتف (44). وصورة الآخر ليست صورة غدراء، بل اتخذ الصراع مظاهر شتى في وعي الروائي المؤرخ

41 - السابق ص 132

42 - م.التذره الرياح ص 143 / 144 / 145

43 - عبد الكريم غلاب (المعلم علي) ط : المكتب التجاري /بيروت / ص 326 / 327

44 - السابق ص 327

- أخيرا وبعد هذا الوصف لصورة الآخر من طرف وعي الانا : ايمننا تلخيص رؤية هذا الشكل من الحديث الروائي ؟
- أهى الحقيقة أم الحماس الذي حفزهم ؟ أو ان الحديث الروائي ينزع الى مطابقة الواقع ؟

ان أي نزوع لهو نحو الامكانية الاولى. بينما تبقى الثانية مستبعدة جدا، لان الحديث الروائي بالمغرب العربي ميال الى الاحتفاظ بذاكرته التاريخية أكثر من اللازم ويستهدف وعي هذا الحديث الحقيقة بالطبع غير أنه يسقط ضحية حماسه ورؤيته بعيدة عن أن تعانق مجموع المشاكل المطروحة، وحتى وهو يعانقها، الا أن ذلك يتم عن طريق الجزئيات، مع التضحية بالروائي.

والتجربة بالتالي هي تجربة ثقافية، خاضها المثقف ولم يخضها الفنان، مادمننا نحب الآخر، ونعجب بالاول.

يبقى من المستفيد من هاته الوضعية الروائية الابدولوجية ؟
الجواب بالطبع مرتبط بما تمثله الكتابة الروائية كممارسة لسلطة الرمز الفني، داخل مجموع الحقول الابداعية الثقافية بالمغرب العربي.

ومن حقنا أن نتساءل عن نصيب الروائية، بالظواهرات التاريخية التي ارتبط بها الانتاج الابداعي الروائي، حيث يزاحم الحدث التاريخي العوامل التخيلية، متدخلا لتوجيه مؤشراتنا بنية انتزاع محاكاة للواقع بواقع كلامي ومقالي، تتخلف فيه الادوات اللغوية والفنية عن الواقع المستهدف، في الحين الذي قد لا تنقل الا جثته. بل وتمررها عبر قنوات مظلمة، موظفة اياها من أجل تميز وامتياز داخل المعمار الاجتماعي العام.

ان المجال الفني ليتخلف عن المجال التاريخي وبالتالي عن الوعي الواقع الذي يكون الميدان الخصب الذي اختارته هاته الكتابات الراضة تحت مفاعيل حرارية خاصة. وتلك اخطاء تعترض مهنة الروائي بالمغرب العربي عندما يبحث في وسائل التعبير الجديدة عن هويته وانا الآخر.

وأخيرا يجب الاعتراف على أن مرحلة الوعي الواقع كمستوى من الوعي الفني لم تعط النتائج التي توخاها منها الخاضون فيها.

2 صورة المستعمر

أ - شبه الحديث الديني :

ليس الحديث التاريخي عند الروائيين بالحديث الساذج الى هذا الحد، بل هو محمل بكثير من اشباه الحديث الدينية، وتحمل لغات مختلفة، لجماعات اجتماعية، والنخبوية منها خاصة، أي تلك التي تشعر بنوع من مسؤولية تحريك الطبقات الاجتماعية الدنيا من أجل تعزيز مصالحها مع الآخر (المستعمر) صيانة لآنا المستعمر.

وإذا كانت النخبة في حاجة الى تعضيد قانوني لتعزيز متطلباتها في مواجهة أطماع الخر في مصالحها. فهي تلتجئ حتما الى الحديث الديني في الواقع، وشبه الحديث الديني في واقع الروائيين، الذي ينقل الواقع دون ايديولوجيته، أو ينقلهما معا بنوع من التغطية أو بدون وعي للجذور المنتجة له.

وممارسة الكتابة في شبه الحديث الديني الروائي لما يدعو الى التأمل في هاته البنية الروائية.

وباستثمار النخب الوطنية بالمغرب العربي للايديولوجية الدينية (السلفية) لحاجتها الى اداة جاهزة ومحاربة، فقد مكنت هاته الايديولوجية النخبة ومن يدور حولها من نعت الآخر بالكافر والكفار داعية الى محابتهم.

ومصطلح الكافر يكون المعطى والمكون قبلا، اذ ليس على المقاومة الا ترد يده كشعار تنظيمي لكسب عطف الجموع. وشبه الحديث الديني الروائي مكون انطلقا من محاكاة اللغة التقليدية للدين، ونادارا ما هو سخري عندما يستهدف ابعاد أخرى غير الوعي التاريخي، وهو أقل دقة وأكثر وصفية. ووعي شبه الحديث الديني التخيلي هزيل. لا ينقل ديناميكية الحركات التحررية، ولكن أحداثها الميتة.

هاته الملاحظات وأخرى تسقط شبه الحديث التخيلي في معاودة انتاج سيء لمظاهر خارجية لواقع أكثر حياة من واقع الروائيين. بتركه جانبا فلسفة التاريخ.

- أيمكننا تفصيل بنية شبه الحديث الديني بتاريخ الفكر الوطني، وبالرواية التاريخية ؟ نجد هذا البناء برواية (الشجرة) : (وتحركت شعرة الاسلام بالقلوب ، وأصبح الاهالي يحلمون أن تتزحزح الحماية اذا نصر الله اعداء الفرنسيين، أو بعث من يزحزحها من

أمة المسلمين في المشرق. وما أكثر ما يبعث الله ما لا يعلمه أحد إذ تنقلب الدنيا من شأن إلى آخر كلما شاء الله أن تنقلب (45).

ويحبس الشعور التبشيري شبه الحديث في اشكالية ضيقة - أو غياب القائد - (والرعية لا تستطيع.. هم من أمة محمد فكيف يستطيعون حكم الكافرين.. قوم كافرون يستبدون على المسلمين.. يحاربون الدين، يعلمون الصغار لغتهم ودينهم وتاريخهم حتى يشبوا على ما تعلموه من الباطل.. لا يعيش معهم الا من وافقهم في الضلال) (46). ودون سبق انذار بأن شبه الحديث هذا تخيلي روائي، يمكن أن يشته في لغته التي تنهل من أفكار سلف (الشهاب/ السعادة/ الزهراء) (46) (47) (48) ببداية القرن العشرين، ومن المدهش أن تكون نية شبه الحديث هي في وصف الحالة الثقافية في جماعة اجتماعية، إذ يختلط السارد والبطل والحدث ساقطين في تقليدا شكله بدل موضوعه، لاعطاء صورة عن الوعي التاريخي.

وتسقط بهذا الكتابة ضحية تجريبها للغة الاصلاحيين : ابن باديس (49) / والثعالبي (50) وعلال الفاسي (51).

وتقودنا البنيات الحديثة الى مرحلة جامدة بالتاريخ، الشيء الذي يصنع من شبه الحديث الديني وسيلة لممارسة التاريخي دون الابهامي الروائي.

وحتى ونحن نتحدث عن نهاية الحماية، فلا تتم نهايتها الا باشتراك شعور ديني، يجمع الحركة بالايديولوجية كاستثمار يلعب دور تأويل الأحداث بالاطا لا بالصراعات الطبقيّة المادية، وتغلب مصالح الانا دور الوظيفة الدينية داخل الوظيفة الاجتماعية، إذ تفسر المفارقة للحدث المادي عن الروحي التجريد المحض عليه كنوع من معرفة مجردة وخالصة.

45 : الشجرة ص : 48

46 - مجلة ناطقة بلسان الاصلاحيين الجزائريين من 1925 الى 1939

47 - جريدة الاصلاحيين المغاربة حوالي 1905

48 - جريدة الاصلاحيين التونسيين من 1890 الى 1896

49 - ابن باديس (1889 - 1940)

50 - الثعالبي عبد العزيز (1840 - ؟)

51 - علال الفاسي (1910 - 1974)

والروائي عندما يصبح ناطقا باسم الاصلاحيين سنة 1972، معصرا مركب الماضوية، يؤكد على هذه الخاصية عندما ينتقل بين مقالات الجرائد : (لا يكاد يخرج من السياسة واحداها في تونس، حتى ينغمس في اخبار الدنيا كلها، ينتقل من المانيا الى فرنسا الى بلد العجم وبر الشام ويخرج من الهند وعجائب المعتقدات، ليرسب في مصر حول حركة الاصلاح وزعمائها الذين تردد اسماءهم افاق العالم وزعيمهم الشيخ محمد عبده... هذا الرجل العظيم الذي زعزع الدنيا بأرائه في مقاومة الجمود الذي يزرع تحتها العالم الاسلامي، لابد أن تلد هذه الحركة ورجالها جيلا غير هذا الجيل، وليس لنا في تونس مثل هؤلاء الذين يبددون الاوهام... كالشيخ الثعالبي ...) (52).

ونشعر اننا هنا في خضم التيار السلفي الاصلاحى الذي ينادى به عبده والثعالبي، ليس من قبيل المجانية أن يصطنع الروائي هاته المجانية حتى ولو كانت روايته تاريخية. وشبه الحديث الديني الروائي سيء في تاريخه سيء في تخيله. وتنقصه الجمالية الروائية، والوضوح التاريخي.

وما دام حديث التغطية لا يترك المجال لحديث التحليل والتعريف، فان شبه الحديث الذي تمارسه رواية (الشجرة) على الخصوص وغيرها عموما - لن يفسر الازمة ولكنه لا يفعل غير تبيان الوجود المتخاذل لانا.

أما الكلمة التنظيمية للحديث الديني ولشبه الحديث التخيلي عند التونسيين والمغاربة فتتطرق من ترداد (اللطيف) كنشيد التظاهرات في التعبير عن الاستياء بالمساجد والشوارع.

كما تبرز تعبيرات أخرى متعددة : (رحمان يارحمان هذا عبدك، واليوم يارحمان قاصد فضلك، وتعلو الاصوات، وترتفع ارتفاعا خانقا يصم الأذان. ويعصر الافئدة، فيه نبرة من الحزن، وصرخة انتقام وفيه زهرة اقتلعتها أيد اثيمة. وظهر الموكب الرهيب يتخطى الطريق وكان النعش يتهادى عاليا في الفضاء على أكف الشباب فيتمايل يمذا ويسرمة

فيتصايح البعض خشية سقوط الجثة، وعندما بلغ الجامع وتسلف الدرج بعد مشقة ارتمي جسمه وسط الموكب ودخل معهم صحن المسجد. وكان النعش ملفوفاً في علم احمر قان تتوسطه نجمة وهلال وسط قمر ابيض ناصع. وكانت اطراف العلم ترتعش عند تمايل النعش فتبدو للعين كأنها رجة دماء حية مضطربة.

وبعد الصلاة على الشهيد استطاع أن يزاحم الشباب، وما أن لمسه حتى أحس ذلك التلبد ينقلب الى سيل عات من الاحاسيس المرفهة (53).

ويستثمر الحديث الروائي ادوات الوعي الاجتماعي الديني من أجل وعي حداثي يكون اللطيف والرحمة والراية رمزه، وليس الشهيد الا توظيفاً للحدث الاجتماعي داخل زمن معين لكسب تواصل سبق أن مهد له تاريخياً، مما يحصر وظيفة الحديث الروائي في الاثارة. وبالطبع ليست الجنازة الا الجثة المغتالة، والشهيد يستغل كرمز كفاح بمجرد ما يقفل عليه.. مسخراً لحاجة داخلية وعميقة لاحداث ضجة على الآخر، والجثة لم تعد فرحات حشاد / فلان / أو فلان، انه الشهيد في سبيل الله دينياً والمستثمر تخيلياً.

وهذا الاسلوب وسيلة لابرار المشكل الاستعماري في عبارات دينية جاهزة تحتوي القضية الوطنية، تلك هي الايديولوجية الوطنية، وذاك هو المظهر الخارجي للواقع، وكذا فان الابطال تجد ملاجئها بالامكنة الدينية والذي ستصبح امكنة مختارة للنقابيين والحركة السياسية. واختيار الامكنة المحرمة على الآخر هو اختيار لقدسية القضية، ولا مكنة يستلهمها الحديث الروائي، واجداً بها احداثه كابطاله. قد يكون الأمر مجرد صدفة، الا انها صدفة مؤكدة (... نبعث في خاطره فكرة ؟ لماذا لا يؤم المسجد الليلة ويساعد على الدعوة للاضراب) (54).

(...ووسط هذا السكون اشرفت المآذن بالنداء الس الصلاة، كانوا يعرفون أن المساجد ستعص بالجموع الليلة لتقرر النقابة رأيها في حوادث اليوم، واذا كان الرئيس على فرماش (55) قد غاب فلن يغير من سير الأمور شيئاً) (56).

53 - التحدي ص 12/11

54 - محمد الصالح الجابري (يوم من أيام زمرا) ط : ش. ت. ت / 1968 / تونس / ص 136

55 - على قرماش وفرحات حشاد من المع النقابيين التونسيين

56 - (يوم من أيام زمرا) ص 135

- والسؤال الذي نطرحه هنا يأتي كالتالي : الا يوجد محرك آخر لمصالح الجماعات الا داخل الحالات الروحية التصوفية ؟ اذ تكاد تقنعنا حديثية الروائي بمقاومة صليبية.

- الا يمكننا بعد سنوات الجمر، ان نحصل على نظرة مادية جدلية في رؤية العالم وتعرية الاطروحات الدينية ؟ بدل اعادة التركيبات النخبوية ذات الوعي الارذواجي، الليبرالي في مخاطبة الغرب والسلفي مع الرعايا.

- أنحن في حاجة ليزكرنا الروائي بدوره بنوع من الوعي السلفي كآيات تفلت من التأويل والمعارضة ؟ علينا أن نعرف من هم هؤلاء الكتاب الذين يعيدون منظومتهم الغنائية ؟

لقد لاحظنا تبعية الحديث الروائي للحديث الديني ضمناً أو مباشرة مما يؤكد غياب وعي تاريخي، وافتقاد رؤية الابعاد عند الروائي : (ودخل بيت الصلاة، واذا هي تعج بالطلبة وبجموع .. غفيرة من اخلاط الناس، وقد تحلقوا في جلوسهم فوق الاحصره حول المحراب) وألقى نظرة على المتصدين في الاجتماع، فرأى من بينهم بعض النساء، واشرب الحاضرون فجأة باعناقهم نحو خطيب أخذه حماس الموقف، فاندفع يلهب الاحاسيس الثائرة، ويدعو الى المظاهرة ضد الاستعمار العاشم احتجاجاً على اعتقال الزعيم الذي انتزع قبل الفجر من فراشه، وسيف به الى مكان مجهول، تحت حراسة مشددة من جند اللفياف الاجنبي (57).

كما توظف شعارات (الله أكبر - تحيا تونس - يسقط الاستعمار - يحيا بورقيبة، نموت وبخيا الوطن، يحيا الوطن) (58). والشعارات المتتالية في افقية، لا تصنع سوى تركية الوعي المتوقف، وامجاد ذكريات الانتصار بالاستقلال المحصل.

والشعارات التنظيمية هي بنودس كما بالمغرب : (وقرأ الناس اللطيف (59) فقرأ معهم وانغمروا في جو ديني غريب لم يألفه في صلواته، ولم يردده في دعواته عقب كل صلاة، فقد كانت هذه الاستغاثة الجماهيرية العميقة تعبر عن يأس قاتل، ملأ نفسه رغبة

57 - طريق الرشده ص 90

58 - السابق ص 106

59 - بالرغم من الحصانة المنيعه للمخزن. قرأ اللطيف وهو صلاة لا نقرأ الا في حالة الخطر وقد قرأت في عدة مساجد / جورج سبيلمان/ من الحماية الى الاستقلال / ط بلون / 1967 / باريز / ص

وخشية وتطلعا الى الله، فنسي كل شيء ، واندفع مع الجماهير يتلو متمثلا الخطر المحقق بالاسلام (60). وتعالج الاشكالية الروحية عند الروائيين بطريقة منسجمة مع الوعي الواقع. اذ لم يعدل القضاء الجغرافي من طبيعة شبه الحديث بالمغرب العربي، بل توجه نحو محاكاة للحديث الديني، الشيء الذي يصنع انتصار الروحي وهزيمة التخليلي، بل أكثر من هذا يميل شبه الحديث الديني الى تركية للتاريخي في غيبة عن فلسفته.

والاسلوب العتيق للحاكي هو الاداة المفضلة للحديث الروائي: (طلع صباح قابض على الناس بما لم تطلع به اصباحهم من قبل ! اهترت المدينة وهي تتحدث عن الفتنة بالرجال الذين اختطفوا من ديارهم ليجلدوا في (دار البغداي) فأولئك هم الذين كانوا يحركون الجماهير لتتجمع في القرويين فتقرأ اللطيف ، وتبتهل الى الله أن لايفرق بيننا وبين أخواننا البربر) (61) أن سرد المعاش يظهر كبرنامج أساسي وحيد في الاداء بشهادة روائية على فترة تاريخية. والابطال يمتلكون حوافز روحية، توقظ حسهم الى وجود الحيلة في الروح (واقشعر جسم عبد الرحمان وكأنه لم يسمع من قبل مؤذنا ينادي: الله أكبر، الله أكبر) (62).

وعبد الرحمان يمثل جيل الكاتب، الذي ينضج فجأة، ويتجاوز الجيل السابق، حيث يستيقظ كمسير. كيف ؟ لماذا ؟ احقيقي أمره ؟ حرب المقاومة وحدها تؤكد أو تنفي افعاله. كلما توضحه الرواية هو أن عبد الرحمان المتخيل يبقى خياليا عندما يرتعد أمام الطقوس، ونفس الشيء بالنسبة لعبد العزيز الذي يبرز بدوره كمسير بالرواية الثانية، اذ نصادفه منصرفا الى القرآن يتلو آياته من أجل الهام وطني. ويملك البطلان وجها واحدا، اذ يوازي التاريخي عندهما الروائي، وهما يعانقان التاريخ كخلود يعتقد أنه كما يعتقد أن في ذاتهما.

60 - دفنا الماضي ص 145

61 - السابق ص : 147

62 - السابق : ص. 209

انهما في غاية الاقتناع من تمثيلهما للواقعي التاريخي، ولا يعيشان ماضيهما لوحدهما لكنهما يفرضانه على الآخرين، الشيء الذي يمنحهما قيمة اضافية، تمكن ايدئولوجيتهما في نفوس الآخرين. كفكرة لكل عصر تعكس مجموع الوعي المجتمعي، وهما بطلا مذكرات، يلتدان بما ترويه عنهما، مما يوجب الاعتراف بالدور التاريخي المبرر الوحيد لواقعهم التمثيلي في خلق وهم اسطوري.

كما أننا نعثر على ابطال واقعيين بتاريخ المقاومة، وهي فكرة لا يؤاخذ عليها لولا نية السارد السيئة، والجهل بمهنة الروائي، مما يقطع الطريق امام هذا النمط من الابطال، وقتلهم مرة ثانية (تناول المصحف، وقرأ ماتيسر من القرآن الكريم، كيما يحصن نفسه أكثر، ويسعف على انجاز مهمة لم يستشر فيها أحد.... ولم يأخذ برأي من الآراء... حتى الخلية التي كان يسيرها في حي العكاري) (63). والضمير يحمل على علاك بن عبد اللد.

ويصبح الثوري بالحديث الروائي شعبيا وأسطوريا بعد موته، وكما هو عليه بالواقع، من هنا تستثمر النخبة بطولته لا لتحيته وتحيه طبقته، ولكن لاستغلاله كورقة رابحة بالصراع المجتمعي، الذي تجاوزها.

ويسحق الروائي بالتالي نيته الحسنة، وسقوطه في شراك اعارة صوته في ادوار يجهل كلياً خفاياها.

ب - حديث المقاومة :

يتكئ الحديث التخيلي للمقاومة على ذاكرة مهمومة، تحتفظ بشحن تنبثق على المستوى الابداعي، لتحديد علاقة الانا مع الآخرين، وهاته العلاقة تدخل في اطار حاد، تطرح فيه المواجهة كشرط لتنحية اشكال تقاعس الانا عن مواجهة القوى المادية.

ويجد المسود نفسه مضطرا لاستعمال العنف الثوري : (ولمع سواد رشاشتي زميلية تحت الانوار القوية.. وضغط بدراعه على رشاشته المعلقة بكثفه هو الآخر. انها ثلاثة فوهات صامتة ولكنها بعد لحظات ستظل ترعد وترمز وتنفد الحمم كالبركان، ستتكلم طويلا، ويصمت كل شيء) (64).

(لكن سيلا آخر من الرصاص مزق صدره. ووضع يده على مسدسه. ولكنه سقط ورأسه على المنضدة بين الأوراق) (65)

63 - أحمد بكري السباعي/ المخاض / ط : البيضاء/ 1972/ ص 74

64 - (التحدي) ص 104

65 - (التحدي) ص 112

انه نفس حديث الروائي الذي انتج شبه الحديث الديني في مستوى آخر وتركيب لغوي آخر هو ما يكون حديث المقاومة الذي يبين حبا خاصا من (حسن) في دغدغة الرشاشة ذات اللون الاعم، اذ وحدها الرشاشة تأخذ الكلمة في وقت يصمت فيه الكل ان افراد المقاومة يصارعون من أجل الحف في الكلمة (الأمر الذي لا يمكن أن ينفى دور العنف الثوري بالتاريخ، لان مصالح طبقة كثيرا ما تتأكد بواسطة العنف الأكثر حدة) (66)

مستوى آخر من اللغة هو ما يلقينا البطل داخله. والحديث المادي يأتي كمعارض للحديث الروحي اذ تقابل قنوات الرشاشة/ اللطيف والأذان، او تظهر فضاءات أخرى تلهم حديث (وناس) الروائي (كان نشاطنا منوعا، فمن كمائن للسيارات والجنود، الى تدمير واقتلاع خطوط واعمدة الهاتف الى نسف الجسور، والسكك الحديدية) (67). وتوالت هجمتنا تعقبها الانتصارات، حتى صرنا نترود باغلب اسلحتنا ومؤننا من اعدائنا نفتكها جهرة ونأخذها غصبا) (68).

ويتساءل (ناطان وانسطون) حول هذا العنف، وهذا التنظيم: (ايكون من قبيل الصدف أن تتسع حركة الفلاقة (69). التونسيين، في نفس الوقت الذي يتضخم فيه الارهاب المغربي وحيث سرأ. تأخذ في تهيئة انتفاضة (1 نونبر 1954 بالجزائر) (70).

وتساؤل وانسطون ليس استفهاميا، ولكنه تأكيد لارادة الطبقات المسودة التي تعرض حياتها للخطر برواية (وناس) ملاقية الجنود النظامية، انها سيكولوجية الثورة تلك التي يرسمها الحديث الروائي ملتحما بالتاريخ.

ويحمل الروائي نفسه ايقاظ ذاكرتنا الضعيفة بالقرية كما بالمدينة عندما يحتد الصراع بين الاحياء (.. المعركة الكبرى وقعت بين الاوربيين والاهالي، وبعد أن سيق

66 - جورج لوكاش (التاريخ والوعي الطبقي) ط : منتصف الليل / 1960

67 - (بنسالم محمد الحبيب) : (وناس) ص 114

68 - السابق ص 130

69 - الفلاقة : الثوار

70 - ناطان وانسطون : الحركة الثورية العربية/ ط : ماسبيرو / 1970 / ص 15

الربيعي الى السجن، وصل الخبر وشاع معه بالاحياء انهم انتقموا من الربيعي، وحاولوا التمثيل به، وانتظمت الصفوف بالليل وهاجم الناس.. الحي كله وامطروه بالحجارة (71).

وتعد تجربة القوة او الوعي الاجتماعي على مستوى الحديث الروائي، ويتبين من بناء الأخير على أنه ينلون بابعاد فنية ولغوية محدودة. وللاسف فان الروائي ينسى الروائية، ويسقط في الشهادات التاريخية، ناسيا الفن ساقطا في فن التقليد بسبب غياب مفهوم واضح للعالم.

ويروج الانا الروائي بذلك لايديولوجية سائدة عندما يحبس نفسه بالماضي، متوهما بذلك تحقيق موضوعية وعي وطني.

والمقابلة التي اجريناها مع الروائي محمد العروسي المطوي ومحمد الصالح الجابري، لا تتضمن سوى النية الحسنة. التي لا تكفي ابدا في حل اشكالية هذا اللون الروائي. انها حقيقة أقوى تلك التي تطفو على ارادتهما. وبهذا فمن الصعب تحليل الشكل التاريخي الروائي بالمغرب العربي دونما استحضار للوعي الطبقي والتاريخي الذي يضع مفهوم الروائيين في مواجهة تاريخ تطور الافكار.

واذا كانت المقاومة لها آدابها، فانها تحتل مكانة عند (محمد المختار جنات) : (الحزب يأمرنا بالانسلب من نهاجمه من جنود الاستعمار. اتعرف لماذا ؟ لكي لا تشوه سمعة الحركة الوطنية اذ ما هو القصد من الثورة يا السي ميلود ؟ أهو سلب الفرنسي ؟ أم ترويعه لافهامه انه لا أمن له في وطننا ما دام يعيش فيه ليستعبدنا) (73).

لهاته الآداب كرس جنات جل اعماله الروائية في خدمة الحزب كواجهة للنخبة السائدة.

أما عند غلاب فنجد على أن (الدار البيضاء احق بأن تنتزع العمل الايجابي. فاس قفص محدود الآفاق. والدار البيضاء عصب الحساسية لخصمنا العدو. في الدار البيضاء ماله وشركاته ورجاله وهي باب الهزيمة التي فتحها لنفسه) (74).

71 - يوم من أيام زمرا ص 107

72 - حليمة ص 100

73 - محمد المختار جنات (العودة) ص 300

74 - دفنا الماضي ص 331

وفي نفس المدينة تشتعل المقاومة (شاب في الخامسة عشر، استوقفه شرطي، ولم يحس الناس الا بالشرطي يخرب بين يديه صريعا.. رجل حمل قنبلة تركها في السوق المركزي (75). فقنبلت السوق على من فيه.. شاب وضع قنبلة في قطار.. امرأة هاجمت سرية من الجيش واكتشف بعد ذلك انها رجل في ثياب امرأة (76)). وهذا يعمق ذلك الارتباط بين المقاومة والمدينة لتوافر الشروط، ووعي الاناباتساع ملكية الآخر واستغلالاته ويمكن القول على أنه الى جانب هاته الطبقة التي تقع خلف رأس المال، ولدت بروليتاريا مقاومة منظمة داخلها كل الافراد من كل الاعمار. وهندسة حديث المقاومة تأخذ انسجامها أكثر داخل الرواية الجزائرية، وهو ما تكشفه رواية (الاز) في معماريتها الفنية، وهي نفس معمارية الثورة الجزائرية، عندما يقسم (زايدان) أو (الاز) المهمات النضالية لـ :

1 - شل الآخر بالمدن

2 - عقاب المتعاونين

3 - زعزعة علاقات الآخر

4 - تحطيم اشكال الاستغلال بالقرية.

(جمع زيدان وحدته على بعد بضعة مئات من الامتار من كوخ سي الفرحي ثم قسمها الى أربع فرق صغيرة، ثلاث تتكون كل واحدة منها من سبعة جنود. الاولى تذهب الى الناحية الشمالية لتحطيم المركز الكهربائي وخزان الماء والجسر رقم

17

الثانية تتولى تنفيذ حكم الذبح في الخونة العشرة وفي الدواوير الثلاثة بالناحية الوسطى.

اما الثالثة فتقوم في الناحية الغربية بعملية قطع الاعمدة الهاتفية، وزرع الالغام على المسالك الجبلية واحراق ضيعة المعمر شيخ بلدية القرية.

تبقى الرابعة والمتكونة من عشرين جنديا، فانه يقودها بنفسه لشن هجوم في

75 - ويقع عادة باحياء الاوربي

76 - دفنا الماضي ص 345

الناحية الشرقية على المركز العسكري بمحطة القطار حتى تتمكن قافلة السلاح القادمة من الحدود من المرور دون أن يتفطن اليها العدو... (77).

ان زيدان (78) أو النظام الثاني يولد ببداية 1954 بالجزائر، ليعارض نظام الآخر، انه لا يواجهه بل يشوش عليه، ويدفعه الى التصحيح.

وهندسة الروائي (وطار) لم تأت لنقل التاريخ، ولكن لتكشف عن خلفياته الفكرية. وتعصير نظام تحرير الثورة يستهدف البحث عن الانسجام داخل الحاضر الجزائري في صراعاته كما يبين ذلك (وطار) في احدى المقالات (كيف تقول بالصراع الطبقي بينما ينكر الرئيس ذلك؟ أنه يقول كرئيس وانا كاديب) (79). موضحا بذلك موقفه من الشكل التاريخي الذي اختاره كتعبير: (تعاملنا تعامل جدي مع التاريخ ومعايشته كمواطنين يشعرون بأنهم جزء من كل) 79. وبالطبع فتبرير اختيار الشكل التاريخي ليس واضحا في جميع الحالات، لان عملهم يسرد الاحداث التي وقعت، دونما تلافي مخاطرة الوقوع في شراكها. والكتابة تلتحم بالوقائع بدون شروط، ويحكم عليها بأن تبقى في مرتبة أقل من الواقعي والثوري الذي يكون موضوعها. ومن المفيد الاعادة الى الازهان أن غياب الوعي التاريخي هو ما يسبب في عطب مهنة الروائي.

وروائي المغرب العربي يظهر على حلبة الابداع الروائي، ولكن طالما يتبين بأن حماسه يغرق ارادة فعله بالرواية. ما دامت اشكالية الكتابة تلتصق باشكالية الثقافة بالمجتمع، ولا يعارض الوعي الواقع بأي وعي.

77 - (الآز) ص 100

78 - ينفذ حكم الاعدام في حق زيدان بالرواية بسبب رفضه الانسلاخ عن الحزب الشيوعي. لان لجبهة التحرير موقفا تاريخيا منه. والواقع هو أن اسهامات الحزب كانت متواضعة على عكس ما ضمه الكاتب.

79 - لقاء مع الروائي بالجزائر 75/3/17

ثانيا : الوعي الخاطئي

الوعي الفاسد هو المستوى الثاني المكون لحقل حديث الشكل التاريخي، و (الماذا) هو ما سيكون المستوى الثالث الممثل للوعي الممكن.
واذا كان (الماذا ؟) يكشف هشاشة حديث الوعي الفاسد، فهو يتوزع الى عناصر تسأل ببنية حديثه :

- ما هي وظيفة هذا الحديث داخل بنية معيدة ؟
- ما هي الدلالات التي ينتهي اليها ؟ مع العلم أنه يجب أن لا تفوتنا الاشارة الى الحديث السابق - الخاص بالوعي الواقع - كحديث بين اثنين :

1 - حديث المستعمر : القوة/ التوسع/ الاضطهاد.

2 - حديث المستعمر : السلفية/ المقاومة.

ان المتحدثين يعيشان الوعي الواقع، دون معاينة للوعي التاريخي داخله.
ماذا نعني بالوعي التاريخي ؟ نريد تسجيل عنصر غياب الرؤية، والمتفهمة بالحديث الروائي التاريخي في وعيه الفاسد. مادام الروائي يرجع الى ايديولوجية فرعية.
- أكون تحدث التاريخ هو التكلم بموضوعية ؟
من هنا يتموضع الصراع الخارجي بين تكلم التاريخ، واردة تكلمه، اما الصراع الداخلي فيتموضع في نقل دور الكلام التاريخي الى حاضر معين، لنختصر هاته العمليات الى جذورها الاولى :

- ارادة تكلم التاريخ هي ارادة فرض اختيارات (فرض الانا الذاتي على الموضوعي)
- كيف نتكلم التاريخ، هو في كيف نفرض الاختيارات (الانا الذاتي على الموضوعي)
- وتبحث البنيات بالتالي عن الدور الذي تعلن عنه - تغيير علاقات القوى - لان الحديث عن التاريخ بصيغة روائية هو اندماج بالموضوعي.
- والمتقف بذلك حبيس هذا النزوع الى التأثير، وخلق سلطة للرمز على الجمهور القارئ و (الكيف) تمارس مهنة الروائي ويتكلم التاريخ، تقتضي معالجة بنيات ثلاث يعتمدها الروائي :

1 - الرؤية.

2 - نظام التعصير.

3 - الجمالية الروائية

1 - الرؤية :

وتجهد نفسها عند روائي الشكل التاريخي في أن تظهر عصرية، وهذا معقول في حد ذاته. إلا أن عمل الحديث الروائي في انكبابه على الماضي كموضوع، يطرح إشكالية المفهوم المنطلق منه (وبالطبع فإن الخطر بالنسبة للتاريخ، هو ذاك المفهوم المباشر بين الايديولوجية والابداع الفني، إذ يقود هذا المفهوم من جهة الى عدم تقدير قيمة الكتاب في اعمالهم التي تعبر عن ايديولوجية، هي حجة الناقد الوحيدة، ومن هنا جاء التقدير الغير نقدي لـ (بيرون وفكتور هيجو وزولا) من طرف المؤرخين الأدبيين الذين يجدون ينابيع رئيسية هنا. ومن جهة أخرى وعلى هذا الأساس تظهر مفارقة بين الفن ومفهوم العالم.

تلك المفارقة التي تقود كثيرا الى تفرقة داخل الوحدة المعلن عنها من طرف الواحد والآخر.

وكثيرا ما تبرز وجهة نظر خاصة عندما يتعلق الأمر بكاتب يحمل ايديولوجية رجعية، وعندما يتعاطى الى نقد حاد لهذا المفهوم، مصرحا - بدون اعتبار للترابط - على أن لغز الكاتب انتج عملا فنيا كبيرا. هذا الازدواج.. يظهر لدينا في شكل مجزأ، إذ يرى بعض المنظرين على أن الكاتب ليس عليه إلا أن يأخذ مفهوما جاهزا للحمل - عن العالم - وبهذا سيكون القارئ سعيدا بالاعتراف - داخل التعبير الفني بما هو كائن، وفي كلتا الحالتين تتولد أشكال خاصة للحياة، ولا نعتزف حقيقة إلا بالكتاب الذين يحملون مفهوما تقديميا للعالم، ونغني العالم الرأسمالي بايديولوجية ديموقراطية أو ليبرالية. وحينما يعرف كاتب بهذا النزوع فإنه من الأهمية والتعقيد الدخول في هاته الإشكالية، إذ نناقشه في المعنى الذي يلائمنا. وهكذا تضمحل التناقضات الملاحظة من طرف ماركس وانجلز (80).

وتحتل العلاقة المباشرة بين المبدع والايديولوجية أهمية قصوى لأنها تحدد الاختيار الايديولوجي لروائي المغرب العربي في مواجهة الشكل التاريخي، هذا الاختيار الذي

نتججه الاجوبة عن اسئلة طرحناها على الروائيين بالمغرب العربي (دونما تمييز جغرافي وثقافي أو جيلي)، والتي نتعرض لها في اطار ممارسة الكتابة.

ويأتي محمد المختار جنات على رأس المتعاطين للشكل التاريخي من مستوى الوعي الفاسد. لهذا نتعرض لمفهومه عن الكتابة كما وضعه في تحديد لاختيار الشكل التاريخي : (في أي بلد عربي أن الثورية عبارة عن رد فعل تلقائي، لا تكمن وراءه أية ايديولوجية تعري الكاتب بأن يقيم لها عواميد من الاوهام المتنافيزيقية، داخل ادب يضيق به الرمز ويتسع له صدر يقيم السريالية، وما ينشده واقعنا الادبي هو تركيز التجربة، لا على صعيد الافتراضات والخيالات المبهمة، بل تركيزها في ميدان فسيح تصطرع فيه النزاعات النفسية.. ألم أكن سأوقف لو أنذني بنيت تجربتي بحجارات من قلاع تاريخنا وابراج معتقداتنا وتقاليدنا، الا تهز مشاعرنا سيوف الهالين، وسيط مخازنية (محمد الصادق باي) ودماء شهداء 9 أبريل، انها مقالع ضخمة تنتصب أمام تجاربنا الأدبية، متحدية بناء كل السود يعترم السياسيون اقامتها في وجه سيول الدماء والدموع، وعلى خلفية هذه النظرة من التقييم، نجحت في بناء تجربتي فوق صعيد الرؤية الفنية، اذ أنها أوضحت سر ميلي الجارف لممارسة هذا اللون من الكتابة السالمة الى حدما من السوداوية أو مرض « » البارانونيا « كما حلالك أن تسمى بلاء ادماننا على الكتابة » (81).

ورؤية جنات من هنا للعالم بسيطة وساذجة يطبعها :

- 1 - تعميم الاحكام
 - 2 - طغيان الاحكام الخاطئة والمسبقة
 - 3 - نظرية أدبية متنافيزيقية، لاحدود لها لا في الزمان ولا في الفضاء.
 - 4 - اهتمام سيكولوجي واحد هو ما يسيطر عليها.
 - 5 - بعده الوحيد يتجه نحو الماضوية.
 - 6 - اعتقاده هو مبرره الوحيد لكل الاعتبارات
 - 7 - مقياس النجاح تحدده اعماق الكاتب لا العالم الخارجي.
- ومثال التعميم الذي يمكن ملاحظته هو في ما جاء عن تلقائية الثورة بالعالم العربي، والسباق لهذه الاطروحة، ليس له ما يبرره غير محاولة خلق الانسجام داخل القيم الفاسدة، والتي لا علاقة لها بالثوري، لا داخل تونس ولا خارجها.

والادراك الثاني ديماغوجي، يقطع الثورة عن جذورها الايديولوجية (الثورة عبارة عن رد فعل تلقائي لا تكمن من ورائه أية ايديولوجية). من يمكنه نكران أو افراغ الثورة الفرنسية أو الروسية من محتواهما الايديولوجي ؟ اذ الايديولوجية لا تمثل الا (وهما ميتافيزيقيا) دون أهمية، ولكنه يسقط ضحية ايديولوجية وهو ينفىها، بالإضافة الى التأكيد الاعمى واللهجة السلطوية لحديث الروائي وهو يحدد العالم دونما اعطائه شكلا.

ويبدأ حديثه بصيغة الجمع (واقعنا/ تجربتنا/ تاريخنا/ تقاليدنا) لينتهي بصيغة المفرد لا كتتويج حديثي (أنا/ أبني/ نجحت) ؟ وهذا التعبير المفاجئ للضمير، وذلك بتعويض (النحن) بـ (الأنا) يوقع السارد أو الكاتب في خطأ، لا يعرف بعده فيما اذا كان يمثل (الانا) أو (النحن) متسائلا (ألم أكن ساووق/ نجحت في بناء تجربتي)، وهو لا ينطلق من التاريخ بل من (قلاعه)، الشيء الذي يجعل منه مقاولا غريبا، وسطحيا في معادلاته (البناء بالاحجار) + (البناء بالصلد) + (البناء بسيوف الهلاليين) + (البناء بالسوط) + (البناء بالدم) = (البناء بالموضوعي).

ان الاخفاق والهزيمة لا تلهمان جنات، اذ ما يلهمه هو الانتصار والانبهار، باكيا على الماضي محتقر الحاضر.

والوعي الفاسد يصاحب الحديث الروائي في رحلته اذ يخيل لنا على أن الروائي يقضي حياته في كتابة (الشهادات) بهذين مر. وأرضه لاتدور الا لانتاج احداث معزولة عن خالقها لان مفهومه عن التاريخ ليس الاتجميعيا وتصفيقا للاحداث.

والمثال الصارخ عن تكديس الأحداث يتم عند أحد ابطاله (والآن باستطاعتي أن أذكر أهم ما سجلته في روزنامتي من أحداث نجمت بعد اطلاق سراحي ضمن تبادل الاسرى، وكان مجوبا على النحو التالي :

- المشاركة في عدة جلسات عقدها والي بنزرت لضبط ترتيب انسحاب الجيش الفرنسي عن شوارع بنزرت.

- توجيه الحكومة التونسية مذكرة للحكومة الفرنسية بتاريخ 12 أكتوبر 1961 تطلب فيها الاعتراف بالجلاء العاجل.

- اجتماع الديوان السياسي لدرس تطورات الوضع.

- توجيه الحكومة التونسية مذكرة أخرى لضبط روز نامه الجلاء في أوائل نوفمبر

الموالي..

- افتتاح المحادثات التمهيدية في نهاية عام 1961 للتفاوض في روما على أساس الجلاء التام عن بنزرت.
- عقد الجانبين التونسي والفرنسي في أوائل ديسمبر لثلاث جلسات تفاوضية.
- توقف المحادثات.
- استئناف المحادثات في آخر شهر ديسمبر (نفسه) استجابة لتوصيات الائتلاف الأفريقية الآسيوية الداعية الى تفاوض الحكومتين على أساس الجلاء الناجز.
- موت عام 1961 وحلول 1962.
- افتتاح المفاوضات بباريز في منتصف يناير (82)

وطبيعة الأحاديث كما يتبين لنا تجميعية. تزامنية، إذ لا يدع الكاتب شيئاً يفلت منه إلا من الجمالية الروائية التي تعوضها الذاكرة. والتسجيلية طاغية على الحديث الروائي. ونستاءل فيما إذا كان هذا التكريس لا يقتل العمل الأدبي ينفي جوهريه الروائي، إذ لا يظهر زمن الحكاية إلا ليغرق في زمن التسجيل حيث (الزمن التسجيلي كالزمن الفيزيائي يحتوي على صيغة مزدوجة بالذات والموضوعية. إذ ندرك بكل أشكال الثقافة الانسانية وبكل العصور، بطريقة أو بأخرى مجهوداً لموضوعة الزمن التسجيلي، أنه شرط ضروري لحياة المجتمعات، وحياة الافراد بالمجتمعات. والزمن المجتمعي هو ذاك المتعلق باليومية وتعرف كل المجتمعات الانسانية تقسيماً للزمن التسجيلي المؤسس على الظواهر الطبيعية تتابع الليل والنهار....) (83)

(ويمكن أن يتخيل الينا بأن من الطبيعي في بنية الزمن التسجيلي تمييزه للتوقيت والتوقف) (84)

وما نؤاخذ به جنات أو الزمن التسجيلي عنده هو أنه يقع داخل دائرة توقيت يومية غريبة عن الزمن المعاش، ولا يمكن أن ينطبق عليه حتى في موضوعيته، انه يفترض مقاييس وتقسيمات للأحداث، لكن هاته لا تنطبق على المعطيات الخاصة بالتجربة الانسانية للزمن.

82 - محمد المختار جنات : نوافذ الزمن / ط : ش.ت.ت / تونس / 1974 / ص 50/51

83 - ايميل بنقنست : مشاكل دراسة اللغة العامة / ط 2 / -البيمار / 1974 / ص 71

84 - السابق ص 73

(وبالنسبة للزمن التسجيلي، أينما من الزمن اللغوي ؟... علينا من جديد اقامة تمييزات وتفريف الأشياء المختلفة، وبخاصة اذا توصلنا الى تسميتها باسماء مغايرة. شيء آخر يحدث موضوعه بالزمن التسجيلي، ويقحم بزمن اللغة، اذ تبرز الأخيرة التجربة الانسانية للزمن، وهنا يتميز الزمن اللغوي.. بالنسبة للزمن التسجيلي والزمن الفيزيائي وما يتفرد به الزمن اللسني هو أنه يرتبط عضويا بمهارة الكلمة ويتحدد وينتظم كوظيفة للحديث (85).

والكلمة التي يريد جنات ممارستها في نظام الكتابة هي كلمة نخبة خاصة، يسجل لها مما يقوده الى وصف زمن ميت، وممارستهم سلطة الرمز.

انه يتناسى اناه ممارسا لعبة (الغن) ك : (شمول/ تاريخ/ قوة اجتماعية) ويهرب بهذا زمنه التسجيلي من زمن الرواية لانه و (زيادة على استعمال الزمن النحوي، علينا أن نحصل الزمن الروائي أكثر من أي شيء آخر... ويتعلق الأمر باستخدام الفن للهروب من (زمن الساعة) والزمن الاجتماعي للوصول الى ما وراء تعدد الانوات وتلاحقها أي الى الأنا العميقة...) (86).

وما يصنعه جنات هو العكس، اذ يفتح للزمن التسجيلي على حساب الزمن الروائي، مما يضعف من جمالية الروائية، بحساب زمن واحد يتحرك في موازاة التسجيل الاجتماعي الخارجي. فهو لا يعارضه ولا يقاطعه، بل ينقله، وفي نقله تبعية غير مشروطة فهو لا يصله بل يلاحقه معمقا القطيعة بين الزمنين.

2 - نظام التعصير أو التحديث :

يقدم لنا الحديث الروائي في مستواه الفاسد، منزوع الثقة في قدرته التحديثية، مؤكدا على وظيفته بشكل مهترى، اذ يردد الروايات الشعبية بقواعد تسجيلية سابقة (قال الراوي) ونصادف هذا الشكل برواية (يامو) كمثال صارخ ينتهي بضبط الحوادث ، ضائعا في تبرير الجريئات، وربما لخلق ايهام خاص (ولهذا فان الفقيه السيد موسى يعتبر حركة المقاومة المسلحة الحديثة ليست تاريخيا هي سنة 1952، وانما تاريخها يرجع الى قبل هاته السنة، أي الى اليوم الذي سعد فيه الحنصالي الى مرصده هناك في ناحية

85 - رولان بورنوف وريال ويلي (عالم الرواية) ط : الجامعية الفرنسية / 1972 / ص 129

86 - كريستان ميدس ب : جيار جينيت (الوجه 3) / ط : سوي / 1972 / ص 77

بني ملال ليأخذ زمام المبادرة والتحكم في تسيير عملياته، ومعجزة سبق بها ما جرى في القيتام.. وتكون الأزمة احاديث الفقيه وتعليقاته هي قوله، انه الايمان (87).

ونظام التعصير يركز على استدعاء الذكريات، ومقابلتها بالأحداث، وبالتالي محاولة النظر الى الخلف وذلك بالتحديق في مرآة حاضر هو افقر من أي ماض.

وسذاجة الرواة - الروائيين - هي بدون سابق، انها تنحت التماثيل بدون اشكال، مسيئة للنحت والمنحوت.

3 - الجمالية الروائية :

ويبحث عن الجمالية في موازنة البناء، اذ تبرز داخله، ولا تفترق عنه، وسير النظرية الماركسية هاته الاشكالية في الحاح (لوكاش) على استقلال الفن، اذ منظور الفنان ليس هو منظور السياسي اليومي، وأدب كهذا هو حارس للمظهر الثقافي لرجل الغد.

كما يرى غرامشي على أن الكاتب والسياسي ليسا على موجة واحدة، اذ يربي الفن كفن لا كفن تربية.

وعليه فان جمالية الحديث الروائي بالمغرب العربي لهي حبيسة وعي واقع وآخر فاسد اذ يجد الحديث نفسه داخل دائرة الايديولوجية السائدة التي يلعب فيها السياسي والنخبة الدور الأساسي في التكيف، وهو يماشي هذا الوعي ولا يخالفه لا لكونه خاضعا لرقابة، ولكن لقصور في الرؤية والوعي التاريخي.

وانسياق الروائي وراء التيار التاريخي له ما يبرره في عالم القيم وبتاريخ تكون الأفكار بالمغرب العربي. ونفس الشيء يقال فيما يخص التيار الأوطوبيوغرافي الذي لم نتعرض اليه خلال هذا العرض.

ثالثا : الوعي الممكن

1 - الحديث السخري :

بإمكان الحديث السخري (السخرية عند لوكاش) وحده قفز الحواجز الباشلاريه، ومواجهة اشكالية الرواية ومعانقة وعي ممكن كما حدده كولدمان. ان الحديث الممكن بالمغرب العربي هو الذي ينطلق من هذا المفهوم من أجل وعي تاريخي للموضوع وجمالية ومنطقية في البناء الروائي. ويجري الحديث السخري داخل حاضر لا تفصله عن الماضي والمستقبل أية قطيعة. وهو بهذا يعانق فلسفة التاريخ كمغامرة انسانية ناضجة، لا تسقط في لعبة الماضوية ولكنها تنزع باستمرار نحو آفاق مستقبلية.

2 - بنية تفاعلية : الزلزال

ان الوعي التاريخي ليطفو كمستوى فريد (للسخرية كوسيلة للبناء)، وهاته السخرية التي نجدها عند (المنظرين الاوائل للرواية، يعني الجماليين في نبذ لايات الرومانسيين الذين اطلقوا كلمة سخرية على الحركة التي تنصرف فيها الذاتية على نفسها، وتتحطم كأساس شكلي للنوع الروائي وهي تعني أن الشخص الطبيعي هو مبدع يتوزع بين ذاتين، الاولى كداخل يواجه القوة المركبة والغريبة عنه، وتجدها نفسها في عالم غريب للحكاة.. والآخر يواجه في قارعة النهار المزاج التجريدي، وبالتالي فهو محدد بالنسبة للعاملين، الواحد والآخر أجنبي فيه عن الشخص والموضوع ...) (88)

نستخلص عنصريين أساسيين دور قانون للسخرية ودلالاتها الحديثة، وتبرز السخرية عند (وطار) (كصراع بين عقليتين متناقضتين، عقلية القرون الوسطى التعميمية التجريبية، وعقلية القرن الواحد والعشرين التكنولوجية) (89).

وفي التعبير عن هذا الصراع تتحقق ممارسة حديثة خاصة، الشيء الذي يضع بطل (الزلزال) في مواجهة اشكالية الواقع، ويدفع به الى رؤية واضحة في السخرية من الحديث التقليدي (قرأنا العلم الشريف، وجالسنا العلماء، وكافحنا مع الشيخ ابن باديس) ويكون الاصلاح الزراعي والثورة الفلاحية موضوع رواية (الزلزال) حيث يلعب البطل (عبد المجيد بو الارواح) دور مريد ابن باديس المصلح الجزائري.

88 - جورج لوكاش : نظرية الرواية/ ط : دانويل / 1971/ ص 10

89 - الطاهر وطار (الزلزال) - المقدمة - / ط : ش. و. ن. ت / 1974 / ص 5

والفضاء الروائي يمتد على طول مدينة القسطنطينية مسجلا العلاقات المضاعفة بين الاصلانيين بالأمس والوضعية الحالية للثورة الفلاحية.

والتغيير لا يفسر من وجهة (بوالارواح) الا بنظرة رجعية، تقف ضد التأميم وتحديد الأرض، وهي المشكلة التي تمسسه كممثل لطبقة الاتراك القديمة. ويقدم الينا (بو الارواح) كثيولوجي يعرف المذاهب الاربعة، ويطبق الكتاب حرفيا. ورواية (الزلازل) هي سيرة ذاتية (لبوالارواح) ، ومأساوية الأخير هي في التغيير الذي لحق القسطنطينية منذ الاستقلال، وخاصة بمحاولة تطبيق الإصلاح الزراعي الذي استهدف مصالحه، ودوره الاجتماعي. لانه موظف ومالك أرض. مما لا يمنع من احتلال وظائف أخرى (انك في الحكومة ياشيخ. لعن لله حكومة الكفار) (90).

(وبو الارواح) يأتي كممثل لطبقة تركية تحتصر اذ (النخبة المغربية لم تتجدد بالمعنى الحقيقي ولكن الطبقة الجديدة لا تحتل مكانة القديمة، كما هو في تونس مثلا، وفي الجزائر ومصر) 91. وتختفي طبقة (بوالارواح) وراء العقيدة كحق وحيد، وفضاء تتطرق منه لنقد الطبقات الأخرى كلما مثلت الخطر على مصالحها. لكن حرب التحرير عزلتها، الشيء الذي يثير ذكريات البطل الذي يرى مدينته يجتاحها زلازل الطبقات الصاعدة (اليوم شيخ الجامع الكبير خطب عن الزلازل، أیه هذا الشيخ متأخر، قسطنطينية زلزلت وانتهى الأمر- ماذا تقول؟ قسطنطينية الحقيقية انتهت، أقول زلزلت زلزالها.. الزلازل يحدث مرة واحدة يا السي بو الأرواح، لكن هناك من يحس به قبل حدوثه، وهناك من يحس به أثناء حدوثه، وهناك من يحس به بعد حدوثه بزمان يطول أو يقصر...) (92).

والزلازل رمز للثورة التي يعلنها الحديث الروائي كوعي ممكن. وديموقراطية لا توجد ولكنها في طريق الولادة.

وخطبة أمام المسجد اعتراف بخيبة هاته الطبقة التركية بالقسطنطينية وهذا الاعتراف هو الحد بين الواقع والايديولوجية عند الطبقة التركية. وبهذا لا يأتي الزلازل ككارثة طبيعية ولكنه تغير في علاقات القوى الاجتماعية.

ان حقيقي البارحة يصبح خطأ اليوم، لان الزلازل كان مستحيلا، وهو هزة استشعرت على ثلاثة مستويات من الوعي الاجتماعي.

90 - الزلازل. ص 26

91 - عبد الله العروي (استجواب بمجلة انفاس)

92 - الزلازل ص 28

- اذ هناك من استشعر العزة قبل أوانها : الثوار
- وهناك من استشعر العزة خلال حلولها : الاستعمار
- وهناك من استشعر العزة بعد ذلك : الرجعية التركية.
- ولعلها مراحل الثورة الجزائرية وكل الثورات. ويبرز بو الأرواح بالمستوى الثالث، وهو لا يقرر الانسحاب ولا الاشتراك في النظام الجديد، وعلى العكس فهو يتحارب، ويبحث عن وسائل تحويل القانون لصالحه (نعم، قرب اذنك، المسألة سر، ولا يعلم بها الا القليل النادر اسمع، سيسطون على ارزاق الناس.
- على ارزاق الناس ؟
- هناك مشروع الحادي خطير يهيئ في الخفاء.
- تقول ؟
- نعم ينزعون الأرض من اصحابها.
- ينزعون الأرض من اصحابها ؟
- استمع الى يؤمنونها .
- وما ذا يفعلون بها ؟
- مثل ما فعلو بالأراضي التي خلفها الفرنسيون، تصور الحقد، الحسد... كل اناء بما فيه يرشح
- ولكن قلت ، جئت تسبقهم.
- نعم المسألة بيننا، ولا بأس أن تخبر بها أصحاب الأرض، الكبار والصغار... اقتسم في الورق الأرض على الورثاء، حتى اذا ما جاؤوا لانتزاعها لم يجدوا بين يدي الشيء الكثير.
- لكنك بالشيخ عبد المجيد بو الأرواح متأخر جدا.
- هذه المسألة حلها الحاذقون منذ سنوات عديدة، الأمر واضح منذ بدأ الحديث عن الاشتراكية.
- نحن في العاصمة كنا نظن، اننا أكثر اطلاعا (93).

ويظهر الحديث الروائي الاقلية الصاعدة والأكثر اطلاعا، الشيء الذي يقوي من ازرها، ويضعها في معزل عن الأغلبية كآخر من يعلم.

والاغلبية في الواقع ليس عليها غير تطبيق مشاريع الاقلية، والطبقة التركية القديمة مرغمة بذلك على المرور الى صف الأغلبية، ويمثل هذا السقوط خسارة بالنسبة لمصالحها التي تميزها عن القوى الجديدة كبورجوازية صاعدة، ووليدة حرب التحرير (منذ الاستقلال تكونت بسرعة طبقة اجتماعية جديدة الى جانب البورجوازية البيروقراطية التي تتكون داخل الأجهزة الادارية للدولة والاقتصاد، ويرجع الفضل في ذلك الى احساس القوة التي تمنحه اياها ممارسة السلطة) (94).

ولا يفوت هذا المعنى (الزلال) لكنه يسقط في نوع من الفوضوية. ويحرك سيرة بو الارواح حنق ضد اشتراكية الاقلية، وتهجماته على هاته الاقلية، تستهدف تناقضات الجزائر المسلمة. ومنه يوجه انتقاداته اليها، اذ لا يرى في القوانين المفروضة باسم الاسلام الانفاق هاته النخبة (.. الشعب يشرب، والشعب يبيع، والشعب لا يرى ما نعا والمسؤولون يتملقونه بالتظاهر بالدفاع عن اخلاقه وعن دينه، ليفعلوا ما يشاؤون فالكمية المشروبة (من الخمر) ستظل تشرب الى يوم القيامة) (95) وواقع البطل يستحضر الماضي والعقائدي - مظهرها على الأقل - ليضرب نقيضه في مظهره وما تفضحه طبقة مضمحلة هو ايدولوجية تتقوى مع المصالح الجديدة بقسطنطينة وقد لعبت في التغيير هجرات الفلاحين وقدماء المحاربين الباحثين عن الجزاء.

لهذا تشار ذاكرة بو الارواح وتستعيد رائحة الأماكن بالمدينة، أي في عهد تميزها (ايه نزل باريز، النزل الكبير، المقاهي العظمى الثلاث المشرفة على الساحة، هنا كان الملتقى : الموظفون المسلمون، كبار الفلاحين، والمعمرين، الاعوان والباشوات، كبار اصحاب الأعمال كاللجارج، هنا كان الدخول ممنوعا على الرعاع، كانت العيبة وحدها تمنع الاهالي من الولوج) (96). والرعا هي اقصى حقد بو الارواح في نعت العامة. وطبقة الاتراك

94- جبرار شاليوط/ وجوليتيت منسيس / الجزائر المستقلة/ ط. ماييرو / 1972 / ص 69

95- الزلال - ص : 92

96- السابق - ص : 136

بالجزائر أو بتونس في تقهقرها لا تملك غير حقدها، لكن وحيما يتصاعد على العكس عند بطل كبو الارواح الذي لا ينسي عن محاكمة الايديولوجية الجديدة بايديولوجية سلفية (استغفر الله، استغفر الله، الاستقلال استقلال، والانتصار انتصار، والاشتراكية والشيوعية شيء آخر.

سيبعث الله لدينه من يستعيد عزته وقوته في النفوس لا في الجزائر فقط، وانما في ديار الاسلام كلها. فحيثما حل المرؤ الآن بالمغرب أو بتونس أو بمصر أو بالشام، وجد مظاهر الالحاد والزندقة (97).

والحديث الروائي السخري يؤكد على التناقضات التي تحملها هاته العقلية، المتعاونة في عهدها مع الاستعمار، والمتصرفة في ايها منا بايديولوجية استنكارية، كل هذا يحدث في موازاة تفجير حقد فقد المصالح المادية، مما يبين ضعف الحجج الاخلاقية والمثالية.

ويكشف الروائي عن الوعي الاجتماعي بروح نقدية، الا ان المآخذ الذي يوجه اليه يكمن في طريقة رؤية الانقلاب على طبقة الاتراك، اذ يواجهها بالجمهير الغير منظمة، والتي تنزل للشوارع لرفع شعارات لا تفعل أكثر من اعطاء هوية دون تحديد للصراع : (نحن من سيدي مسيد، نحن من مزبلة بولفرايس. نحن من السويقة، نحن من سوق العاصر، من باردو، من جنان تشينا، نحن ابناء الشهداء،عليكم اللعنة انزلوا الى اسفل سافلين (يقول بو الارواح)، لم ينزلوا، ظلوا يقهقهون) (98).

وما يخلفه الحديث الروائي من انطباع للوهلة الاولى هو ذاك الانفتاح على الاتجاهات، اذ لا يملك حقلا أساسيا، بل يدع نفسه فريسة أوهام متضاربة لحد التناقض والفوضى، لكنه يتمكن من خلق وعي ممكن وهو يمارس الحديث السخري مع تنويع في الأحاديث.

3 - الحضارة الخائنة : الغربية

يمارس العروبي برواية الغربية تجربة تعبيرية متميزة، تطبعها شاعرية خاصة، ونعمة حزينه تنزع الى خلق حس مأساوي حاد (اسمعي يامارية، علمونا وأكدوا لنا أننا رأس الدنيا، وقطب المدار، كل شيء ينبع منا وينحدر اليها) (99).
ويفضح الحديث الروائي الوعي الشقي بحضارة متعطلة، لا تتوقف عن عنادها في التعليم والتأكيد، وبالطبع بالحديث يكشف عن اماكن الأشعة والخطأ لكنه لا يملئ الحقيقة كما لاحظنا مع مستويات الوعي بالواقع والوعي الفاسد.
ان المغربي ضحية لتقليدية تدعي العراقة، وليست في الحقيقة غير اقبال لضمير يتوق الى التحرر.

والحق ان الحديث الروائي الممارس بالرواية سيستثمر دائرة اختصاص الكاتب التاريخية وهو ما يعلن عنه (ادريس) بالرواية (فلسفتي اذن هي تحليل الاصوات) (100).

وموضوع الرواية يرتبط بالدائرة الحضارية المغلقة والتي (دارت بسرعة مدهشة وقسوة مذهلة على الذين خلفوا وتركوا الآثار دارة الى الأبد ؟ الذين سدوا أبواب التاريخ في وجه شعوب وقبائل. انكسرت الموجة على الشاطئ وتراجعت، والظالم فوق الرغوة حسير مدصور. ابكي يا ظالم. انك صادق البكاء، في قفص من النحاس بحكم لا سامع ولا رفيق، شعوب في قارة نائية، دخلهم الرعب عند رؤيتك فصرخوا ونفروا وما وجدوا العون ولا ادركوا العطف، طاردهم نار ذات جناحين بين السماء والامع والبحر العميق فنهبوا ومزقوا ثم في يوم النسيان نبدوا.

بعد الدول الزاهرة والنظم المتقنة بانوا ذبلا فوق مضاربهم. يتفرجون على مسرحية لا دور لهم فيها، ولبنوا متفرجين، والشعارات الجديدة تلمع بجوارهم، وتهز الأرض هزا... (101). ان الشقاء بالتاريخ اذ لا يتحرر الانسان الا بتحرر التاريخ. كدائرة وضع تنظيراتها كل من ابن خلدون وسينجر في قوانين لا تفقد دلالاتها بالنسبة لدائرة الروائي.

ومراجع الحديث الروائي تحتضن ماضي القوم الذين مثلتهم افعال : (خلفوا/ قتلوا/ تركوا/) هاته الافعال التي تلقي بنا داخل الحواجز الاجتماعي والنفسية العميقة في

99 - عبد الله العروبي : الغربية/ ط : دار النشر المغربية/ البيضاء / 1971 / ص 21

100 - الغربية . ص 107

101 - السابق . ص 25

تاريخ الهزيمة والمأساوية، والحديث الروائي لا يرجع بنا الى تاريخ الامجاد المغربية، ولكنه يحاصر ظلمات هذا التاريخ المليء بالمأساوي (هي الأمور كما تقع... لا يمكن العناد والشعب متأخر جدا... ماذا تريدون أن نفعل ؟ لا يمكن أن نتحكم في الزمن، بل نحن عبيد الزمن...

انا في الماضي كنت اطالب بالتعمق في البحث والعلاج، واعتبار هذه الفترة مرحلة انتقال، الآن المشكلة مشكلة حضارة، لا مشكلة سيادة أو قيادة، لكن الحضارة لا تؤخذ كما يؤخذ هذا الكأس... لابد من وقت ووقت طويل، لماذا اذن التشاؤم، ولماذا هذا العناد ؟ ومن غيركم طالب بالسيادة قبل كل شيء ؟ الآن انتم اسيا، فماذا تبغون من وراء ذلك، كنتم تدعون انكم مع الجم... الغفير وان اخطأ، وهذا الجم الغفير اليوم مع ولاة الأمور، لماذا انقلبتم اليوم تفضلون الانعزال. الم تقولوا أن الانعزال يردها قاسيا لا يطاف ؟ ألم تقولوا لي ماذا تنفع الشهادة يوم تكون في القبر رميما ؟ اني الآن مع الجمع الغفير اقتبس منه نورا ونارا، مع الذين يوجهونه بتؤدة الى عتية المستقبل. مارية ارجعي ولا تبقي هنا تنتظرين الى القافلة تعبر الوادي ، ان الشهادة عبء ثقيل (102).

يتبين لنا

يتبين لنا من خلال احاديث الغربة بأنها ذات بناء رباعي الابعاد، تنطلق من معطيات ذات صوت ذاتي، ليمتزج بتساؤلات ذات صوت موضوعي، مما يميز بناء حديثته بنوع من التنويع في المستويات، التي تنتقل من تسجيل يمتد على فضاء تاريخي، ينهل من أهمية الأحداث كمحاور رئيسية للنسيج الروائي. وهو ما يمنح معمارية البناء الروائي عند العروي تميزا خاصا بالنسبة للنماذج المتعددة في كتابات الشكل التاريخي.

ان البناء الرباعي الابعاد بالغربة ليأتي كالتالي : (جدول (1) / (2) / (3) / (4)

(5) /

الجدول (1)

الصوت الذاتي	الصوت الموضوعي	التساؤلات	
كنت اطلب اني الآن مع الجم الغفير اقتبس منه نورا	لا يمكن ان نتحكم في الزمن نحن عبيد الزمن الآن انتم اسباد كنتم تدعون	ماذا تريدون ان انفعل لماذا اذن التساؤم من غيركم طالب بالسيادة ماذا تبغون من وراء ذلك لماذا انقلبتم الم تقولوا ماذا تنفع الشهادة	هي الأمور كما تقع المشكلة مشكلة حضارة الجم الغفير اليوم مع ولادة الأمور الشهادة عبء ثقيل القافلة تعبر الوادي الشعب متأخر لا بد من وقت

الجدول (2)

الصوت الذاتي	
النداء	كنت اطلب
الهوية	اني الآن
الاستمرارية	اقتبس منه نورا أو نارا

الجدول (3)

التساؤلات	
تساؤل الانا	ماذا تريدون
تساؤل الاستنكار	لماذا انقلبتم
تساؤل الاستنكار	من غيركم
تساؤل الاستنكار	الم تقولوا

الجـ _____ دول 4

الصوت الموضوعي	
تأكيد الارادة	نتحكم
تأكيد الوجود	لماذا التشاؤم
تأكيد السلطة	انتم اسياد
التشكيك	كنتم تدعون

الجـ _____ دول 5

المعطيات	الواقع	الحقيقة	الادراك	الوهم الوهم	الالتهام الالتهام
الشعب متأخر 20	X				X
لماذا هذا العناد					
هذه الفترة مرحلة انتقالية			X		
المشكلة مشكلة حضارة		X			
الحضارة لاتؤخذ كما يؤخذ الكأس		X			
لا بد من وقت			X		
الجم الغفير اليوم مع ولاة الامور				X	
الجم الغفير مع الذين يوجهونه				+	
القافلة تعبر الوادي			+		
الشهادة عبء ثقيل					+

وتأخذ مكانة (الصوت الذاتي) دور التبرير (الجدول 2) بينما يظهر أكثر انتقادية با (الصوت الموضوعي) كمسؤول عن وضعية اجتماعية في تحركها المتعثر. ويتخذ الحديث السخري الممارس بالرواية بأبعاد أربعة، لا تقتسم الفضاء الروائي بتعادل لأن (المعطيات) التي تكون نقاط الانطلاق لا تسمح بمساحة أكبر للعناصر الأخرى داخل الحديث الروائي، ومن البديهي أن لا يعطينا توزيع فضاء الحديث إلا بعض نقاط توضيحية.

و (معطيات) الحديث الروائي محملة ببديهيات المبدع في محاولة لاقتناعنا ببدايتها كمنطلقات، وهي بهذا تحتل أكبر فضاء حديث الغربية. أما با (التساؤلات) فيعالج الانا الارادات معبرا باستنفادات انكارية، يعززها تحكم للتاريخ كخلفية أساسية لهذا الحديث الروائي الذي يلح الجديد عليه (انظر الى هاته المدينة ماذا جد فيها منذ خمس سنوات) (103)، والجدة هنا نوع من البحث عن الحقيقي أو المأساوي في أعين أبطال الغربية، كوجوه متعددة لعملة واحدة، مع التأكيد على صوت ادريس كامل مستقبل يحقق فرد لمجموع، الشيء الذي يعكس سقوط الصوت الجموعي داخل تذبذب الصوت الفردي وهذا سقوط يلعب فيه المثقف دورا أساسيا.

4 - الصراع الطبقي : العدوان

تضع قصة (العدوان) لعز الدين المدني علامتها على ثلاثة أبعاد :

1 - بعد عرضي : الماضي المركب لطبقة الأتراك.

2 - بعد طولي : الماضي البسيط لانتهيار هاته الطبقة.

3 - بعد ارتفاعي : حاضر صراع بين طبقتين.

وتقوم الأبعاد الثلاثة بوظيفتها في تداخل بالحديث الروائي للعدوان. ولا تفوتنا الإشارة لاسلوب الكتابة الخاص والمتميز والجديد على القارئ العربي. إذ الحديث الروائي يخوض في تجريبية شكلية تتأكد كذلك على مستوى التنظير النقدي عند الكاتب (104).

ونهج الكتابة يذكرنا في كل لحظاته السيكلولوجية والثقافية بأعمال كتاب الرواية الجديدة.

والاصالة التي يبحث عنها عز الدين المدني اصالة نصية أولا وهوية تونسية ثانيا، وهو ما حصله خلال تجربته الطويلة مع الكتابة. انه ينزع نحو المستقبل، وهدف واحد يشده الى الأمام هو اصالة لا تنقل لا الغرب ولا الشرق.

وبالنسبة لابعاده النصية الثلاثة. نجد على أن الروائي يستثمر الماضي المركب والممتد على امتداد أسماء شوارع العاصمة كأسماء تركية تاريخية، مغضوب عليها قبل الحرب، ومعاقبة مع الاستقلال كمتعاونة مع الآخر على حساب الأنا الوطني. وهذا الحديث يكشف عن الوجود الفعلي لهاته الطبقة الحاضر، الى جانب الطبقة الجديدة التي تقلقها متاحف الطبقة القديمة، مما يدفعها الى اعلان عداء على الماضي المركب لهاته الطبقة.

واحساس النخبة الجديدة بضعفها في العراق يدفع الى اعتمادها على جهاز قانوني وثقافي فاضحة الاصول الأجنبية لطبقة الاتراك (الاتراك كرد على باشا) (سركس ابوك) (ابوك اصله تركي) (أمي تركية) (القائد دريدا اصله تركي) (105). (جدي سليمان القانوني) (جده اسمه عصمان) (جد جده اسمه سنان).

ويقصد الحديث الروائي الحاضر التركي بكل ابعاده (القائد دريغا) (عائلة محترمة الاقدار الاجتماعية) (اسرة ماجدة لها شرف أثيل) (تدخل البيت كانك تدخل المتحف دار العجائب والغرائب) (اثاثه مازال من طراز لوي كانز) وأخيرا (سيف سلطان الأكراد في البيت قطعة اثرية) وهو رمز سلطتها القديم.

ورمز المتحف هو ما يقلق الطبقة الجديدة التي سامحت المقترفات المادية، لكنها لم تعفر المقترفات الاخلاقية، والادانة هنا لانزاع السلطة، اذ يقدم لنا التركي كقائد ومتعاون مع الآخر، مادام القائد (يتمتع بنفس السلطة، اداري، وحاكم بامر من طرف السلطة الفرنسية لو داعته، اذ كان له التصرف المطلق في حرية الافراد. وهذا التمييز جرى به العمل بتونس حتى 1934) (106).

وتعتمد علاقات القوى الجديدة على ضعف تاريخي ازاء القضايا المصرية، بالاضافة الى الاخطاء القضائية، اذ يقع الحديث في مواقف وطنية فالتركي (يقبل يمين الباي،

105 - عز الدين المدني (العدوان) جريدة العمل (الملحق الثقافي) 1968/1969

106 - تاريخ المغرب العربي . ص 115

المقيم الكاتب العام وعضو في مجلس البهيم وسيدي فلان وسيدي فلتان) (يعطي الجعالة) (يفتخر يقول نايه تركي منيش عربي) (الأسرة المحترمة البورجوازية المضمحلة المتدهورة في اسفل سافلين).

ويكون الحديث الروائي باعتماد تفككه، وعدم منطقية ترابطه صك اتهام في حقل (جلال) ابن اسرة القائد، فهو وحده من سيحاكم طبقته، ملوحا بالاتهام لوالده رمز السلطة القديمة

- (يا والدي اني اشفتك عليك)
- (كنت تعارض التاريخ فكسرك)
- (لم تعرف كيف تغوص فيه)
- (وتقول وتصرخ فيف لا فرانس)
- (وأخيرا تنشدون المارسييز)
- (نطارذ تبعث بالصبا يحية الى جبل السعيمين)
- (توجه اللصوص وقاطعي الطرقات في اثر المقاومين)
- (تقف للأجانب)
- (تقول يا سيدي كولون، يا سيدي فلان، ياسيدي المقيم، يا سيدي الكاتب العام)

- (كل الأجانب اسياك)
- (ألم تأمر الشواش كلهم أن يتجنسوا)
- ويحتل ضمير المخاطب حيزا فضائيا بالعدوان، من أجل أن يلقي بنا في تاريخ هاته (النخبة التركية التي وعلى رأسها الباي لم يكن لها عداا للسياسة الفرنسية، على العكس من النخبة ذات الأصل التونسي التي تنزع نحو الانجليز والسلطان العثماني) (107).
- والصراع قديم، اذ ليس جديدا بل يضرب في تناقض المصالح تاريخيا (اذا المملوك كان مبعضا أكثر فأكثر، مما جعل النخبة التقليدية بالمدن تتقرب عاطفيا وسياسيا من الجموع القروية نتيجة مزاحمة الأجنبي الأوربي المؤثر على الترك، الشيء الذي جعل الناس لا يرون في الدولة غير تنظيم للنهب في خدمة الأجنبي) (108).

ويضيف العروبي انه (لا يمكن التفاوضي عن توضيح الأسباب الموضوعية التي دفعت التونسيين الى أن لا يدافعوا حتى الموت عن دولة لم تعد دولتهم، بتعدد اغتصابات الاقتصاد والقانون) (109)....

وتناقض المصالح هذا يقلب علاقات القوى لصالح النخبة الجديد خلال الاستقلال بتدعيم من حرب التحرير التي ستجعل من (أحمد) و (خاله) بالرواية المستفيدين من الانقلاب، خالقين مصالح جديدة، مع تعضيد من الوضعية الجديدة، إلا أن هذا الصعود لم يكن عاديا.

(من أين لك هذا ؟) (هل سرقت بنكا ؟).

واللغة الحديثة تعالج صعود الطبقة الجديدة على أساس انها لا تحترم حتى المراتب التي تقنن لنا، بل تقفز الحواجز بكل الوسائل تحت عطاء قانوني للمؤسسات (شركة التأمين عصابة اللصوص) (يأخذ مالك ولايرد لك إلا الثلث إلا الخمس).

وتتمتع الطبقة الجديدة باعانه النظام الجديد الذي تموله ايدولوجية المثقفين والبيروقراطية التي توزع عليها امتيازات وظيفية.

والحديث الروائي يتموضع داخل الوعي الممكن وانقدي (أحمد الوصولي يريد أن يكون بوجوازا كاعنياء الحرب) والحرب هنا هي حرب التحرير (الكذب ما دام الناس يكذبون) (الناس حول الطاولات كذب ورياء)، انه نظام التنافس الحر في قفز الحواجز بمجتمع ليبرالي.

والتنافس الحر يحث الافراد على التناسط لمواجهة وضعية جديدة حيث يغطي القانون في رأي الروائي كل هشاشة النظام الجديد. ان الاخلاص يصبح فرديا، والبحث فرديا، وحتى الأمل فهو فردي.

والحديث الروائي مثور، إلا أن ما ينقصه هو الوضوح، إذ يتجه الى الفوضوية أكثر منه الى ثورية منظرية. وتضع الفوضوية المظهر القانوني للنظام الجديد محل تساؤل (هراء بهتان. القانون الجنائي الفصل كيت وكيت، حاكم التحقيق لماذا فعلت كذا وكذا جواب لانني فعلته كذا وكذا لاتنكر لا أنكر لا تكذب لا أكذب).

والقاضي هو المستجوب والآخر هو المجيب، ولم يحدث العكس ابدا بتاريخ الطبقات التي تمتلك الكلمة وإذا ما حدث أن واجه القاضي معارضا لسلطته - السلطة السائدة - فإنه لا يتورع من اسكاته (اذ أن هاته السلطة ليست ملك القاضي كفرد، ولكن كممثل للطبقة الحاكمة، وتحليل الدور الذي يلعبه القاضي بكلمته يستمر مع تحليل المكانة الواقعية التي يحتلها بجهاز الدولة مجتمع الطبقات، والحدث الأساسي لتغير العلاقات بالتساوي ليس غير حدث علاقات القوى بالتاريخ المقنع) (110).

والوعي الممكن بالحديث الروائي للعدوان يقوم اصلا على التقاء بالوعي التاريخي، الذي يؤكد عليه الروائي لان حجج القاضي هيأت له (التبرير البورجوازي ثم الاخلاقي) أي (الحجج الدامغة التي لا تدمغ احدا الا البسطاء).

وطرح هذا التساؤل الكبير هو طرح لمستويات الكتابة الروائية في علاقاتها بالتخييلي والتاريخي.

اخير نخلص الى أن الحديث الروائي - بالمغرب العربي - في شكله التاريخي ينزع نحو مستويات وعي مستقل الواحد منها عن الآخر، غارقا في وهم التخييلي معتقد انه الممارس الوحيد لسلطة الرمز الادبي.

ان محاكاة الواقع بغرض انتزاع الموضوعية منه كانت هي هدف اغلب الكتاب. مع خصوصيات كل واحد بالطبع.

والملاحظة البارزة هي أن الروائي يتخلى عن مقتضيات فنية من اجل رغبة حميمة وحماس للقول.

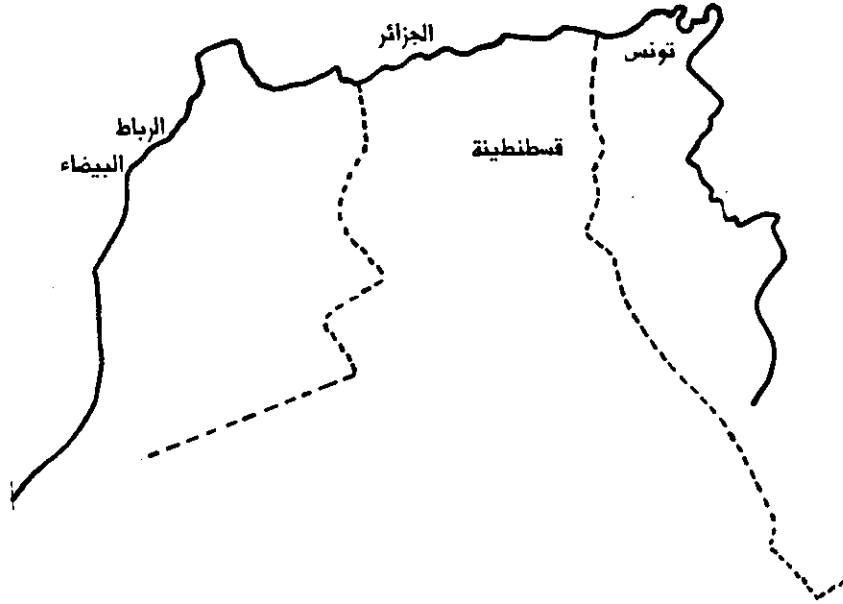
وكان من غير عن ايدولوجية منسجمة مع وضعه الاجتماعي والنفسي. كما وجد من اعار صوته لايدولوجيات السائدة بوعي مر أو بغياب هذا الأخير.

والنتيجة هي أن تقدم هذا النوع على يد المستوى الاول : الوعي الواقع كان أهم منه بالنسبة للمستوى الثاني : الوعي الفاسد.

الا أن الوعي الاول والثاني لم يحققا الا تبعية غير مشروطة للبنيات الثقافية والمادية الموجودة، بل لم يجهدا نفسيهما في تحصيل مغامرة أدبية جادة.

اما المستوى الثالث من الوعي : الوعي الممكن، فقد كان مأساويا في مجموعه، معانقا
للازمة الحضارية والصراعات الاجتماعية نتيجة تسلحه بوعي تاريخي ورؤية حياتية واضحة.
والتيار التاريخي بالحديث الروائي في مجمله كان استجابة أكيدة للواقع المادي
والجغرافي بل وللحظة التاريخية، لولا وقوفه عند حدود ضيقة.
اما التيار الاوتوبيوغرافي فلم نتعرض له، ولا نقول بأنه أغنى من الاول ولكنه
يعكس وعيا شقيا تختلف احاديثه الروائية تبعا للتجارب المتنوعة للكتاب ولرؤاهم.
وأخيرا من الممكن القول على أن النوع الروائي بالمغرب العربي قد ادى الوظيفة
التعبيرية المحدودة التي استثمر من أجلها

جغرافية الروائيين بالمغرب العربي

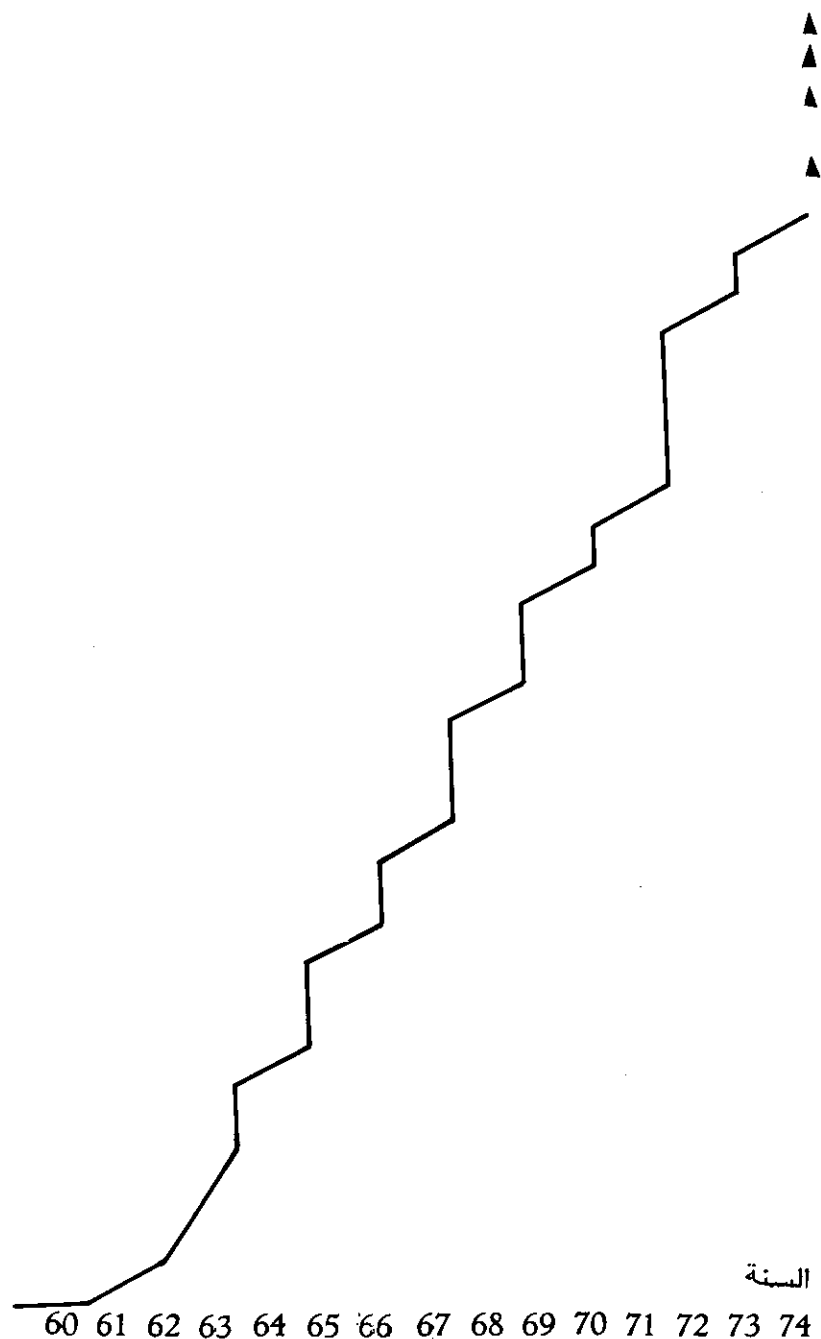


المدن	العدد
تونس	14
الجزائر	3
الرباط	8
الجزائر	3
قسنطينة	1
المجموع	29

الانتاج الروائي لحدود سنة 1974

العدد

40
39
38
37
36
35
34
33
32
31
30
29
28
27
26
25
24
23
22
21
20
19
18
17
16
15
14
13
12
11
10
9
8
7
6
5
4
3
2
1



انتاج السير وانتاج التاريخ لحدود 1974

العدد

22

21

20

19

18

17

16

15

14

13

12

11

10

9

8

7

6

5

4

3

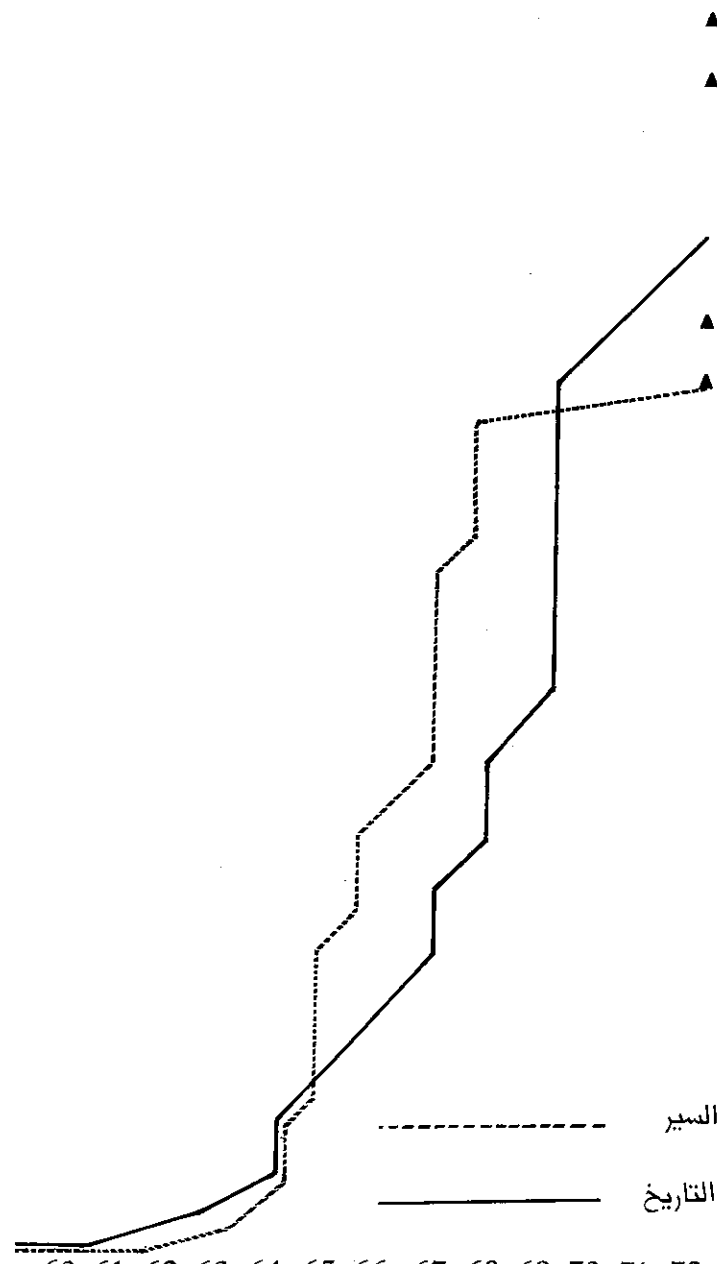
2

1

60 61 62 63 64 65 66 67 68 69 70 71 72 73 74
السنة

انتاج السير

انتاج التاريخ



الطابع الاجتماعي لمجموع الروائيين

المستوى الدراسي				الطبقة الاجتماعية			
الوضعية	دراسات عليا	بكالوريا	دون بكالوريا	كبرى	متوسطة	صغرى	المعنة
	+					+	استاذ
	+					+	معلم
(9) اساتذة الثانوي		+			+	+	موظف
		+			+		موظف
					+		صحفي
(4) اساتذة العالي			+		+		مدير
	+			+			استاذ (ع)
		+				+	استاذ
(7) موظفون برتب	+				+		موظف (ع)
			+			+	ممثل
	+				+		موظف (ع)
(10) موظفون بدون	+					+	استاذ
	+			+			موظف (ع)
		+				+	صحفي
			+			+	معلم
	+					+	موظف (ع)
		+				+	موظف (ع)
	+					+	موظف

المستوى الدراسي			الطبقة الاجتماعية		
دراسات عليا	بكالوريا	دون بكالوريا	متوسطة	صغرى	المهنة
+			+		استاذ (ع)
	+			+	موظف
	+			+	استاذ
+				+	موظف
+				+	استاذ (ع)
+				+	استاذ
	+			+	استاذ
+	+			+	مدير (ع)
	+			+	موظف
	+		+		موظف (ع)
+				+	استاذ

ببليوغرافية الرواية لحدود 1974

الرواية	القطر	الروائي
انها الحياة	المغرب	اسماعيل البوعنادي
الانسان الصغير	تونس	عز الدين المدني
اكسير الحياة	المغرب	محمد عزيز الحيايني
المرأة والوردة	المغرب	محمد زفزاف
ارجوان (خيوط الشك)	الجزائر	الطاهر وطار
(العودة) (طريق الرشيد)	تونس	محمد المختار جنت
بوقة الحياة	المغرب	أحمد بكري السباعي
بوجود مات	تونس	رشاد محمد الحمزاوي
التوت المر	تونس	محمد العروسي المطوي
التحدي	تونس	محسن بنضيف
جيل الظلم	المغرب	محمد عزيز الحيايني
حاجز الثلج	المغرب	سعيد علوش
حليمة	تونس	محمد العروسي المطوي
دفنا الماضي	المغرب	عبد الكريم غلاب
ريح الجنوب	الجزائر	عبد الحميد بن هدوفه
الزلال	الجزائر	الطاهر وطار
سبعة أبواب	المغرب	عبد الكريم غلاب
الشجرة	تونس	محي الدين بنخليفة
الطموح	الجزائر	عرعار محمد العالي
العدوان	تونس	عز الدين المدني
غدا يتبدل الأرض	المغرب	فاطمة الراوي
العربة	المغرب	عبد الله العروي
في الطفولة	المغرب	عبد المجيد بنجلون
المخاض	المغرب	أحمد بكري السباعي
امطار الرحمة	المغرب	عبد الرحمان المبريني
المنبت	تونس	عبد المجيد بنعطية
المعلم على	المغرب	عبد الكريم غلاب
ملا تذرره الرياح	الجزائر	محمد عرعار العالي
المنعرج	تونس	مصطفى الفارسي
نهاية الأمس	الجزائر	عبد الحميد بن هدوفه
نوافذ الزمن	تونس	محمد المختار جنت
النار والاختيار	المغرب	خناتة بنونة
ومن الضحايا	تونس	محمد العروسي المطوي
ونصيبي من الأفق	تونس	عبد القادر بن الشيخ
وناس	تونس	بنسالم محمد الحبيب
يوم من أيام زمرا	تونس	محمد الصالح الجابري

ببليوغرافية المصادر والمراجع الواردة بالعرض

- محي الدين بن خليفة : الشجرة. ط. المطبعة العصرية. تونس 1972
- محمد عرار العالي : مالا تذوروه الرياح : الشركة الوطنية للنشر والتوزيع / الجزائر / 1972
- محسن بن ضياف : التحدي : الشركة التونسية للتوزيع / تونس / 1972
- محمد العروسي المطوي : حليلة : الشركة التونسية / تونس.
- البشير خريف : الدكلة في عراجينها : الشركة التونسية للنشر / تونس 1969
- عبد الكريم غلاب : دفنا الماضي
- محمد المختار جنات : طريق الرش : الشركة التونسية للنشر / تونس / 1970
- محمد المختار جنات : العودة الرش : الشركة التونسية للنشر / تونس / 1970
- الطاهر وطار : اللاز : الشركة الوطنية للنشر والتوزيع و الجزائر / 1974
- عبد الكريم غلاب : المعلم علي / المكتب التجاري بيروت
- عبد الكريم غلاب : المعلم علي / المكتب التجاري بيروت
- محمد الصالح الجابري : يوم من أيام زمرا / الشركة التونسية للنشر / تونس 1968
- أحمد بكري السباعي : المخاض / البيضاء 1972
- بنسالة محمد الحبيب (وناس)
- محمد المختار جنات : خيوط الشك / الشركة التونسية للتوزيع / تونس 1972
- محمد المختار جنات : نوافذ الزمن / الشركة التونسية للتوزيع / تونس 1974
- أحمد زياد : بامو / ط : دار الكتاب / البيضاء / 1974
- الطاهر وطار : الزلزال : الشركة الوطنية للنشر والتوزيع
- عبد الله العروي : الغربية : ط : دار النشر المغربية / البيضاء / 1971
- عز الدين المدني : العدوان / ملحق العمل الثقافي / 69/68 تونس

- Michel de Certeau : «l'écriture et l'histoire» Paris/Ed. Gallimard/1975
- Jean Ganiage : «l'expansion coloniale et les rivalités internationales de 1971 à 1914» / Dactylographée
- Jacques Kehhardt : «La politique du roman» / Paris/Ed. Minuit/1973
- Abdellah Laroui : «L'histoire du Maghreb» / Ed. Maspéro/T. II/1975
- Abdellah Laroui : «L'idéologie arabe contemporaine» Paris/Ed. Maspéro/1967
- Georges Lukacs : «Histoire et conscience de classe» / Paris/Ed. Minuit/196
- Nathan Weinstock : «Le mouvement révolutionnaire arabe» / Paris/Ed. Maspéro/1970
- Georges Lukacs : «Ecrits de Moscou» / Paris/Ed. Sociales/1974
- Benveniste Emile : «problèmes de linguistiques générale» Paris/Ed. Gallimard/T. II/1974
- Rouland Bourneuf et Real Ouellet : «L'univers du roman» / Paris/Ed. P.U.F./1972
- Gérard Genette : «Figure III» / Paris/Ed. Seuil/1972
- Georges Lukacs : la théorie du roman/Paris/Ed. Gonthier-et Denoel/1971
- Gérard Chaliaud et Juliette Mercès : «L'Algérie indépendante» Paris/Ed. Maspéro/1972
- Ebel et Fiala - «présupposition et théorie de discours» - Revue européenne des sciences sociales/ GenEve/T. XII/N° 32/1974

فاطمة المرنيسي

تطور العائلة المغربية المعاصرة

انهيار قدرة الأب وبروز الدولة كبديل له.

ليس هناك إلى حد الآن بحوث ميدانية متوفرة هدفها وصف تطور العائلة المغربية المعاصرة وتقييم اتجاهات هذا التطور وتحديد سماته. هذا في الوقت الذي كثر فيه الحديث عن هذه المؤسسة وازداد الاهتمام بها وذلك لسبب المشاكل التي تتراكم داخلها. ولكن رغم عدم وجود بحث ميداني شامل يتناول تطور العائلة هناك معلومات شتى مبعثرة في وثائق إحصائية رسمية متعددة. هذا مقال أول من سلسلة من الدراسات تحاول جمع هذه المعلومات وتقديمها في إطار تحليلي هدفه توضيح اتجاهات تطور العائلة المغربية وانعكاسات هذا التطور في قطاعات استراتيجية بالنسبة للتنمية كقطاع التعليم والتشغيل. سنعطي في هذا العدد الطرف الأول من الفهرس بما فيه العنصر الأول من الفصل الثالث « التغذية » ثم سنتطرق في مقالات الأعداد الآتية إلى الباقي.

تصميم

المقدمة :

– صيرورة التصنيع والمواقف ازاء العائلة كمؤسسة اجتماعية

1- الموقف الرسمي للدولة المغربية ازاء العائلة : نموذج « المدونة » المثالي.

2- بعض المعتقدات والتصورات السائدة حول مؤسسة العائلة بالمغرب.

الفصل الاول :

بعض السمات الجغرافية والديموغرافية للعائلة المغربية المعاصرة

1- حجم العائلة

2- تزايد السكان

3- توزيع السكان حسب المناطق.

الفصل الثاني :

بعض السمات الاقتصادية لأرباب العائلات المغربية الحركية المكانية

والاقتصادية، الهجرة والبطالة.

1- البطالة

2- الهجرة

الفصل الثالث :

تقلص دور العائلة الاقتصادي : انهيار القدرة الشرائية لرب العائلة كظاهرة

طباقية :

1- التغذية

2- السكنى

الفصل الرابع :

بروز الدولة كمنافس للعائلة في وظائفها التعليمية الصحية :

1- التعليم

2- الصحة

خاتمة .

المقدمة :

- صيرورة التصنيع والمواقف ازاء العائلة كمؤسسة اجتماعية :

سياحة الاب المطلقة فيما يخص المصير المادي والثقافي للطفل والزوجة تعد من سمات العائلة الما قبل الرأسمالية. وهي عائلة بطيركية البنية متسعة الحجم خاضعة لسلطة موحدة ومركزة، هي السلطة الابوية المسؤولة عن تنظيم العمل الانتاجي الذي هو هدفها الاول.

واتخذت البلدان التي نهجت طريق التصنيع مواقف مختلفة ازاء العائلة حسب الظروف التاريخية التي كانت تعيشها.

وفي فترة التصنيع يمكن تقسيم البلدان الى نوعين، مجموعة محافظة على العائلة كمؤسسة، الا وهي البلدان التي عرفت تصنيعا بطيئا وكان اول من تصنع من المجتمعات : أوروبا الرأسمالية. ومجموعة معادية لهذه المؤسسة، وهي البلدان التي قررت التصنيع السريع على النمط الاشتراكي.

كان للبلدان التي عاشت التصنيع على النمط البطيء، ولاسيما فرنسا وألمانيا وأنجلترا، موقف مناصر للعائلة ومحافظ على كيانها وبنيتها البطيركية ومدعم لنفوذها. ان البلدان التي عاشت التصنيع السريع في القرن العشرين كروسيا والصين طرحت مشكلة العائلة وواجهته كمشكل أساسي أولوي حيث اتخذت القيادات الثورية في كل من هذين البلدين قرارات واختيارات ايدولوجية واضحة معادية للعائلة وأصدرت قوانين عائلية مطابقة لهذه الاختيارات، ويمكن تلخيصها فيمايلي :

1 - طرحت هذه البلدان مبدأ التناقض بين أهداف العائلة التقليدية وأهداف الدولة الاشتراكية العصرية المصنعة.

2 - أخذت قرارا في هذا الشأن وذلك لصالح الدولة حيث قررت أن لها الأسبقية في الشؤون العائلية.

3 - عاملت القيادات الثورية الروسية والصينية العائلة التقليدية كعدو لأهداف التصنيع الاشتراكي وقررت محاربة نفوذها كسياسة وطنية.

4 - من الوسائل التي استعملتها القيادات الروسية والصينية للقضاء على نفوذ

العائلة أفراد الدولة بحق السهر على تربية الطفل الاولى في تشغيل اليد العاملة النسوية التي أصبح تشغيلها خارج العائلة ضروريا.

1) الموقف الرسمي للدولة المغربية ازاء العائلة : نموذج المدونة المثالي

فما هو يا ترى موقف القيادة الوطنية المغربية من مؤسسة العائلة ؟
يظهر من خلال بعض النصوص ولا سيما النصوص القانونية أن موقف المسؤولين المغاربة من العائلة موقف مدافع عن كيانها، حريص على تثبيت نفوذها، وصارم في تعزيز أصالتها. ورمز الأصالة هو سيادة الأب المادية التي تتجلى في فصول المدونة وهذه الفصول تجعل من السلطة الأبوية أساس العائلة المغربية الحديثة :

1 - السيادة على الزوجة وركيزتها القدرة الاقتصادية أي النفقة

(في الكتاب الاول من الباب الاول في الفصل الاول) :
« الزواج ميثاق ترابط وتماسك شرعي بين رجل وامرأة على وجه البقاء غايته الاحسان والعفاف مع تكثير سواد الأمة بإنشاء أسرة تحت رعاية الزوج... الخ »
(الكتاب الثاني، الباب الخامس في الفصل 115) :
« نفقة كل انسان في ماله الا الزوجة فنفقتها على زوجها »
(الفصل 118) : « تشمل نفقة الزوجة السكنى والطعام والكسوة والتمريض بالقدر المعروف وما يعتبر من الضروريات في العرف والعادة ».

2- السيادة على الابناء وركيزتها القدرة الاقتصادية أي النفقة :

(الكتاب الثالث - الفصل 126) :
- يجب على الأب الانفاق على أولاده الصغار والعاجزين عن الكسب.
- « تستمر النفقة على الأنثى الى أن تجب نفقتها على الزوج، وتستمر على الذكر حتى يبلغ عاقلا قادرا على الكسب ».
- « ما لم يكن طالبا يتابع دراسته فتستمر نفقته حتى ينهيها أو يبلغ الواحدة والعشرين من عمره ».

- الفصل 127 « يجب للأولاد والأبوين النفقة وما يتبعها من المؤونة والكسوة والسكنى والتعليم للأولاد على قدر حال المنفق وعوائد المجتمع الذي يعيشون فيه ».

سنرى فيما بعد أن هناك هوة بين العائلة المثالية التي يفرضها القانون المغربي والعائلة الموجودة في الواقع. هناك هوة بين العائلة النموذجية التي تدعمها المدونة وهي العائلة التي يرأسها أب قادر اقتصاديا على سد حاجيات زوجته وأبنائه والعائلة الواقعية التي تتميز بعجز الأب المادي وانهيار سلطته ونفوذه وتقلص دوره.

إذا ما اتخذنا نموذج القانون العائلي كنموذج للعائلة المثالية المغربية، سنرى أن الواقع كما يظهر من خلال الإحصائيات والاتجاهات الاقتصادية للبلاد يرسم ~~خطوطا~~ ^{خطوطا} لعائلة حديثة منحرفة تتميز بانعدام وجود السمة الأساسية التي هي ركيزة ~~العائلة~~ ^{العائلة} للمسئمة النموذجية، القدرة الأبوية. ونتيجة لهذا فإن هذه العائلة الواقعية تظهر بالنسبة للنموذج القانوني كعائلة مشوهة البنية، فوضوية العلاقات، متفككة الأطراف. منعدمة التأثير، عاجزة عن القيام بوظائفها. فالدولة هي التي أصبحت تقوم ببعض تلك الوظائف. وتظهر هذه التناقضات بوضوح إذا تأملنا بعض المعتقدات والتصورات السائدة في شأن العائلة ومنها المعتقدات الأربع الآتية :

- 1 - الطفل المغربي طفل توفر له العائلة التغذية والسكنى ولا يطالب بأي عمل مقابل ذلك ولا يكون مطالباً إلا بالاندماج في الحياة الدراسية. وذلك في مؤسسات مجانية ممولة من طرف الدولة.
- 2 - المرأة المغربية امرأة لا تعمل خارج المنزل يضمن لها زوجها التغذية والسكنى واللباس مقابل القيام بالأعمال المنزلية والسهر على تربية الأطفال.
- 3 - الأب المغربي أب قادر على كسب عيشه وكسب مال كاف لمواجهة حاجيات أبنائه وزوجته. فالدخل الوحيد هو دخل الأب، وهو كاف لمواجهة حاجيات عدد كبير من الأفراد.
- 4 - العائلة القروية عائلة تقليدية لم يمسهما التطور لأنها نائية عن القطاع العصري وتأثيراته.

- من الصور الراسخة في ذهن والتي يرددونها الناس بكثرة، أن العائلة القروية عائلة مازالت متمسكة بتقاليدها وبعوائلها. هذه من أهم الخرافات التي تحول بين إدراك واقع العائلة القروية في المغرب والشعور بخطورة تفككها. كما سنرى فيما بعد.

ان العائلة القروية هي التي تعيش التطور الفوضوي بحدّة تفوق ما تعيشه المدينة وذلك لأن تفكك البنية العائلية في البادية لا يعالجه أحداث مؤسسات اجتماعية جديدة كما هو الشأن في المدن. وبرهنت الاحصائيات الوطنية على أن التجهيز الاجتماعي في البوادي (المدارس - الصحة، منافذ العمل، المؤسسات التكوينية والثقافية) متأخر جدا بالنسبة للإنجازات الحضرية وذلك رغم أن سكان البادية أكثر من سكان الحضر .

مثلا الحركية المكانية من سمات العائلة القروية حيث تهيمش القطاع الفلاحي يهدد منتجيه ويجعلهم يسعون لتغيير عملهم باستمرار. حيث اقدمية العمل الفلاحي لاتضمن الاستقرار والترفيه.

- ازدياد السكان في هذا القطاع القليل المردود يجبر جل العائلات على تصدير أبنائهم للمدن لضمان عيشهم وتشغيلهم، الشيء الذي هو غير موجود في المدن.

- تدهور القدرة الاقتصادية للأب يظهر بحدّة في القطاع القروي حيث يعكس التهميش المتزايد للمنتجين فيه وهناك علاقة مباشرة بين تدهور قدرة الأب وتطور العلاقات العائلية. فبالعكس مما يقال فان العائلة القروية هي قابلة للانحراف بالنسبة للعائلة النموذجية التي تصفها المدونة.

هذه التصورات أصبحت خرافية لأنها لاتطابق واقع جل العائلات المغربية وذلك لأن جل الآباء أصبحوا غير قادرين على الحصول على أجر كاف لضمان عيشهم وعيش أبنائهم وزوجاتهم فالطفل والزوجة أصبحا مرغمين على كسب عيشهما وذلك في الوقت الذي لاتعترف فيه الدولة، بذلك ولم تقم بأخذ القرارات اللازمة لضمان انخراطهما في الحياة الاقتصادية.

الفصل الاول :

بعض السمات الجغرافية والديموغرافية للعائلة المغربية المعاصرة :

أعطت احصائيات 1971 تقريبا لعدد العائلات المغربية وهو 2.800.000، و 60% منهم يعيش في المناطق القروية (1).

1 - تقليص حجم العائلة :

الحجم المتوسط للعائلة الحديثة هو 5,5، وهناك فرق في الحجم بين الحضر والمناطق القروية. فالمتوسط الوطني لحجم العائلة في الحضر لا يزيد على 5 أشخاص بينما يصل الى 6 أشخاص في المناطق القروية.

معنى هذا أن العائلات المتسعة الحجم مازالت موجودة في البادية نسبيا. وقد تقلص عددها في الحضر حيث النمط الأكثر تكرارا هو نمط العائلة الصغيرة الحجم :

التوزيع المتصاعد (بالنسبة المئوية %) للعائلات حسب أعداد الأفراد في العائلة (1)

عدد الافراد	مجموع المغرب	الحضري	القروي
1	10,7	16,8	6,7
2	21,1	28,6	16,2
3	31,6	39,8	26,3
4	42,4	50,3	37,3
5	53,8	60,6	49,7
6	64,8	69,9	61,5
7	75,0	78,5	72,8
8 فما فوق	100,0	100,0	100,0

- 40% من العائلات الحضرية لا يزيد عدد افرادها على 3 أشخاص بينما نسبة هذه العائلات في المناطق القروية لا تزيد على 26%.

- ما يقرب من 30 % من عائلات المناطق القروية يزيد حجمها على 7 أشخاص بينما لا تزيد نسبة هذا الحجم في الحضر على 20%.

2 - تزايد السكان :

ان معدل تزايد السكان في المغرب يقرب من 3% ، الشيء الذي يجعل سكان المغرب قادرين على مضاعفة عددهم في ظرف 23 سنة، وان عدد سكان المغرب سيصل،

(1) « احصائيات 1971 - الجزء الرابع - سلسلة « س »

حسب طريقة الإسقاط، الى 36 مليون في آخر هذا القرن. (تضاعف سكان روسيا تتطلب 75 سنة، وسكان أمريكا 100 سنة).

3 - توزيع السكان حسب المناطق :

تمركز السكان في عدد قليل من المدن : يتسم المغرب بعدم التوازن فيما يخص توزيع السكان على التراب الوطني. فهناك مناطق لا تزيد كثافة سكانها على 40 نسمة في الكيلو متر المربع، بينما تفوق كثافة بعض المناطق الأخرى 100 نسمة وحتى 1000 والمعدل الوطني يقدر بـ 9، 38 (1).

- أقل من 40 نسمة في كلم 2 :

اقليم بنزيت :	16,8 نسمة في الكيلومتر المربع
اقليم ورزازات :	10,3 نسمة في الكيلو متر المربع
اقليم خنيفرة :	25,0 نسمة في الكيلو متر المربع
اقليم أزال :	36,7 نسمة في الكيلو متر المربع
اقليم تازة :	39,2 نسمة في الكيلومتر المربع
اقليم وجدة :	33,6 نسمة في الكيلومتر المربع

- أكثر من 100 نسمة في الكيلومتر المربع :

القنيطرة :	123,6 نسمة في الكيلومتر المربع
طنجة :	284,7 نسمة في الكيلومتر المربع
تطوان :	103,8 نسمة في الكيلومتر المربع
عمالة البيضاء :	140,9 نسمة في الكيلومتر المربع
عمالة الرباط / سلا :	377,8 نسمة في الكيلومتر المربع
الجديدة :	109,9 نسمة في الكيلومتر المربع
فاس :	113,8 نسمة في الكيلومتر المربع

- هذا التفاوت الديموغرافي يعكس التفاوت الاقتصادي بين الاقاليم فهناك أقاليم تتمركز فيها وحدات الانتاج العصرية وبالتالي منافذ العمل، وأقاليم أخرى تعيش أزمة تشغيل مستمرة تدفع سكانها الى الهجرة داخل البلاد أو خارجها، وتتعاكس هذه الحركية

الجغرافية في بنية العائلة، وتعطيها إحدى سماتها الأساسية : عدم الاستقرار، أي الحركة المكانية والاقتصادية.

الفصل الثاني :

بعض السمات الاقتصادية للعائلة، الهجرة والبطالة :

البحث عن العمل ومغادرة السكان للقطاع الاولى (الفلاحة) سعيا للاتحاق بقطاعات أخرى (الخدمات والصناعة) يفرض على العائلة المغربية حركية اقتصادية وجغرافية حادة تجعلها تنقسم بعدم الاستقرار. وتعطى احصائيات الهجرة (الداخلية والخارجية) والبطالة (الشاملة والجزئية) انطباعات عن مدى هذه الحركة.

1- البطالة :

قدرت احصائيات 1971 فئة السكان النشيطين بأربعة ملايين، وقدرت نسبة البطالة الشاملة بـ 9% تقريبا (350.000) ونسبة البطالة الجزئية بـ 30% من المجموع (1.194.000).

معنى هذا أن ما يقرب من 39% من السكان القادرين على العمل يعانون بشكل أو بآخر من البطالة.

وتظهر حدة البطالة إذا قارناها بعدد السكان العاملين في القطاعات المختلفة (1)

توزيع السكان النشيطين حسب القطاعات (1971)		
النسبة	العدد	القطاع
56,4	1.987.900	1- الفلاحة
11,4	593.200	2- الصناعة - المناجم والصناعة التقليدية
19,6	895.200	3- التجارة والخدمات
12,6	504.200	4- القطاع الغير المحدد (بما فيه من عاطلين)
	3.980.500	المجموع

فإذا قارنا العاطلين بالعاملين، يظهر أن عدد العاطلين يساوي 60% من السكان العاملين في القطاع الثاني (الصناعة).
وكخلاصة يمكن القول أن نحو 40% من السكان القادرين على العمل يعانون بشكل أو بآخر من عدم الاستقرار الاقتصادي واختلال قدرتهم الانتاجية.
- أنواع البطالة بالمقارنة مع اليد النشيطة (وهي 3.980.500) :

النسبة	العدد	المنصف
9%	350.000	- العاطلين
30%	1.194.000	- البطالة المقنعة (أقل من 6 أشهر عمل في السنة)
3,8%	154.200	- غير المحددين
42,6%	1.698.200	المجموع

أن جل السكان الناشطين المعترف بهم حسب التعاريف الرسمية هم رجال (عدد النساء لا يتعدى 600.000 أي 15 %)، بمعنى أن أزمة التشغيل هي قبل كل شيء أزمة الآباء الذين على عاتقهم تمويل العائلات. ولنمط البطالة المغربية سمات خاصة. الأولى لها ارتباط بالسن والثانية بالجغرافية.

فئة السن التي تسجل أقصى معدل للبطالة هي فئة الشباب التي يتراوح سنها بين 15 و 19 سنة إذا يرتفع هذا المعدل إلى 33,7% من الشباب النشيط. ومعنى هذا أن ما يقرب من الثلث من الشباب الذين يسعون في العمل في سن مبكرة لا يجدونه. فيصبحون، رغم رغبتهم في الاندماج في الحياة الانتاجية، عالة على آبائهم.

توزيع السكان النشيطين حسب السن والجنس في سنة 1971

الجنسان

مجموع المغرب

النشاط	السكان النشيطون		مجموع السكان	السن
	العاطلون	المشغلون		
	%	%		
3.8	—	7.3	6 997 117	— 15 سنة
38.3	33.7	12.0	1 449 887	19 — 15
47.7	22.2	11.6	1 044 782	24 — 20
48.4	9.2	11.2	803 917	29 — 25
48.2	7.1	10.9	879 478	34 — 30
52.4	6.6	11.1	808 534	39 — 35
52.6	6.0	10.1	737 091	44 — 40
57.5	4.2	7.5	494 741	49 — 45
56.7	4.9	7.5	508 209	54 — 50
62.2	2.5	4.1	252 570	59 — 55
33.8	1.8	3.3	370 240	64 — 60
19.3	1.8	3.4	707 240	65 فما فوق
26.3	100.0	100.0	15153806	المجموع

أما السمة الأخيرة لنمط البطالة المغربية التي سنتطرق إليها فلها تأثير عميق على البنية العائلية، فالآباء الذين يعانون من البطالة هم آباء ازدادوا في البادية وزحفوا إلى المدينة في فترة ما من حياتهم.

توزيع أرباب العائلات العاطلين حسب مسقط الرأس

مسقط الرأس	أرباب العائلات العاطلون	%
في عين المكان	15 480	27,4
القروي	33 860	60,0
الحضري	5 310	9,4
3 المدن الكبيرة	2 470	4,4
3 المدن الصغيرة	2 840	5,0
الاجنبي	560	1,1
الغير المصرح به	1 180	2,1
المجموع		100,0

2- الهجرة :

أثبتت إحصائيات 1971 أن 60% من العائلات المغربية يعيش في البادية والباقي في المدينة وأن هناك 90.000 شخص يزحفون كل سنة من البادية الى المدينة من أجل العثور على عمل في غالب الأحيان.

زيادة على الهجرة الداخلية هناك هجرة أخرى من البادية الى الخارج. وحسب تقييم المكتب الاوروبي التعاون والتنمية الاقتصادية

زيادة على الهجرة الداخلية هناك هجرة أخرى من البادية الى الخارج. وحسب تقييم المكتب للتعاون والتنمية الاقتصادية الاوروبي O.C.D.E فان عدد المهاجرين المغربية الى أوروبا يبلغ 405.000 نسمة. (1)

ان تعدد المهاجرين داخل الحدود الوطنية خلال تخطيط خماسي واحد يعادل 76% من السكان النشيطين في القطاع الثاني (الصناعة) و 11% من مجموع السكان النشيطين (3.980.500).

(1) OECD : Nigration and transfer of technology casse stydy. Algéria, Tunisia.
Marocco and France January 1975 - p. 18

أما عدد المهاجرين الذين يعملون في البلدان الأوروبية فيعدلون 60% من السكان النشيطين في القطاع الثاني و 10% من مجموع السكان النشيطين.

جدول الهجرة

450.000	الهجرة الداخلية خلال تخطيط خماسي : (5 90.000)
405.000	الهجرة الى الخارج
855.000	- المجموع :

وتعطى بحوث المكتب الاوروبي للتعاون معلومات عن المهاجرين، منها معلومات حول السن والعائلة. ولقد قدرت هذه البحوث عدد العمال المهاجرين الذين يتراوح سنهم ما بين 19 و 45 سنة بـ 95% وهو سن الزواج والأبوة. وأثبتت كذلك أنه ليس هناك سوى 7% من العمال الذين هاجروا مع عائلتهم بكاملها. أما الباقي فقد هاجر دون عائلته (1).

خلاصة :

ان للهجرة والبطالة تأثيرا عميقا في العائلة المغربية وفي وظائفها وعلى العلاقات داخلها. فللهجرة تأثير جذري في شخصية الطفل الذي يتربع في عائلة لا أبا لها. فغياب الأب يلقي بالطفل عرضا لنفوذ الشارع والحي حيث لا توجد سلطة يمكنها أن تعرض الأب الغائب في تأطير الطفل والشاب.

أما البطالة بكل أنواعها واضطراب القدرة الانتاجية، وانعدام القدرة الشرائية بصفة عامة فلها انعكاسات سلبية شتى في البنية الاقتصادية والاجتماعية والنفسية للعائلة، وسنرى البعض منها فيما بعد. وتتسم هذه الانعكاسات بطابع طبقي واضح، لأن العائلة المنحرفة بالنسبة للعائلة التي تحدها المدونة، هي قبل كل شيء العائلة الفقيرة.

الفصل الثالث :

تقلص دور العائلة الاقتصادي : انهيار القدرة الشرائية للأب المغربي كظاهرة طبقية تبرهن تحليلات علماء الاقتصاد على أن من نتائج الاستقلال تقديع التركيب

الطبيقي داخل المجتمع المغربي وتعزيز الفروق بين شرائحه (1).

ان المغرب المستقل مغرب مقسم الى طبقات تختلف قدرة استهلاك عائلاتها اختلافا جذري المدى حيث يمكن القول بأن هناك ثلاثة أنواع من الآباء في المغرب (2)
1- النوع الاول من الآباء وهم قادرون على سد حاجيات عائلاتهم بما فيها الضروريات والكماليات وينتمون الى 10,54% من العائلات المغربية التي تتمتع بقدرة استهلاكية مرتفعة تساوي 37,59% من الاستهلاك الوطني الشامل.

2 - النوع الثاني من الآباء وهم قادرون على سد حاجيات عائلاتهم لانهم ينتمون الى الفئة المتوسطة من العائلات وتكون هذه الفئة 17، 39% من العائلات، ولها قدرة استهلاكية تفوق 55,66%.

3- النوع الثالث من الآباء وهم الأكثرية فعددتهم يساوي 50,29% من العائلات المغربية. وقدرة هذه العائلات الاستهلاكية منعدمة جدا لأن مجموع ما يستهلكونه يساوي 18,07% من الاستهلاك العائلي الشامل .

ويحتوي النوع الاول والثاني على العائلات المندمجة في القطاع العصري للنتاج بينما تحتشد في النوع الثالث العائلات التي ينهمك أربابها في الأنشطة التقليدية كالزراعة والصناعة التقليدية.

يعطي البحث عن استهلاك العائلات (1971) تقسيما للشرائح المهنية حسب قدرتهم الاستهلاكية وفي طليعتها الأثر العليا :

1 - استهلاك الأثر العليا الشهري يساوي	5,15 من المعدل الوطني
2 - مستخدمو المكاتب	2,41 من المعدل الوطني
3 - المهن الحرة	1,91 من المعدل الوطني
4 - عمال الصناعة والمناجم	1,26 من " " "
5 - الباعة	1,25 من " " "
6 - عمال النقل والخدمات	4,14 من " " "
7 - المستغلون الزراعيون	0,86 من " " "
8 - الغير النشيطين	0,84 من " " "
9 - الصناعة التقليدية	0,67 من " " "
10 - الغير المرتبين	0,61 من " " "
11 - عمال القطاع الفلاحي	0,56 من " " "

(1) - Samir Amin - le Maghreb Moderne - Ed. Minuit p. 211

(2) - La consommation et les dépenses des Menages - 1970-1971.

وينعكس تفاوت القدرة الاستهلاكية على قدرة الأب على القيام بواجباته القانونية كتوفير سكني وتغذية مناسبة، والسهر على التكوين والصحة لأفراد العائلة. وسنتطرق لكل من هذه الجوانب فيما يلي وسنرى أن هناك بروزا - لاشك فيه - للدولة ونفوذها في كل منها .

التغذية : انعدام قدرة العائلات على توفير غذاء كاف ومتواز لأفرادها

قامت وزارة الصحة ببحث على الصعيد الوطني حول تغذية الطفل المغربي الذي لا يتعدى عمره 4 سنوات وذلك في مارس - أبريل 1971 (1). ولقد أثبت هذا البحث أن :

41,58% من الأطفال الذين يتراوح سنهم ما بين 0- 4 سنة يعانون من سوء التغذية والمجتمع مطالب بحمايتهم والسهر على صحتهم وجلهم في المناطق القروية. 4,66% يعانون من نوع خطير من سوء التغذية والمجتمع مطالب بمعالجتهم داخل المستشفيات : الحضري 2,36% القروي 5,56%

والفئة التي تعاني أكثر من سوء التغذية هي الفئة التي يتراوح سنها ما بين 10 و 27 شهرا (وهو سن الفطام عادة)

أثبت البحث كذلك أن لسوء التغذية هذا طابعا طبقييا واضحا حيث لايتجلى سوء التغذية في أطفال الأحياء العصرية الأنيفة Strate Moderne Luxe والأحياء العصرية المتوسطة Strate Modern moyen من جهة وسوء التغذية ولو أنه موجود في الأحياء التقليدية والقصديرية إلا أنه لا يصل الى الحدة الموجودة في المناطق الريفية (2).

وهناك تفاوت داخل المناطق القروية حسب الأقاليم ، إذ أن سوء التغذية يستفحل في بعضها بصفة مفرطة.

كاقليم أكادير	40%	في الحاضرة، 52%	في البادية
واقليم تازة	37%	في الحاضرة، 54%	في البادية
واقليم وارزازات	49%	في الحاضرة، 62%	في البادية
واقليم قصر السوق	38%	في الحاضرة، 54%	في البادية

وعناصر مشكلة فقر التغذية في السنوات الاولى من حياة الطفل متعددة منها عوامل جغرافية (المناخ) واقتصادية (الاكتفاء الذاتي وتهemis العائلة الريفية بالنسبة للسوق النقدية) والعوائد فيما يخص التربية.

معدل سوء التغذية حسب الأقاليم والأوساط

معتدل = 80% الى 61% من الوزن العادي

سبيء = أقل من 61% من الوزن العادي

الأقاليم	الوسط الحضري		الوسط القروي		مجموع المغرب	
	معتدل	سبيء	معتدل	سبيء	معتدل	سبيء
أكادير	40	—	52	0	51	5
الحسيمة	25	—	42	8	42	8
بني ملال	36	1	46	7	44	6
الجديدة	28	—	29	3	29	3
فاس	23	7	49	7	41	7
قصر السوق	38	2	54	5	52	5
مراكش	35	3	51	7	48	6
مكناس	35	2	38	4	37	3
الناظور	4	—	24	—	22	—
ورزازات	49	2	62	13	62	13
وجدة	29	1	46	4	43	3
القنيطرة	35	3	38	4	37	4
طنجة	25	1	18	—	24	—
تازة	37	3	54	5	53	5
تطوان	32	5	39	4	37	4
الدار البيضاء	33	1			33	1
الرباط	33	1			33	1
أسفي	37	2	43	3	42	3
خريبكة	32	2	30	3	45	3
سطات	34	—	31	4	27	4
المجموع	33	2	44	3	41	4

- الوضعية فيما يخص التغذية حسب بحث محلي (1) :

قام المعهد الوطني للبيطرة ببحث حول التغذية في 23 دوار من مناطق « عبدة » والشياطمة في شتنبر 1973 وذلك من خلال استمارة اجابت عنها 112 عائلة أي (7,4 نفس بالعائلة ما يعادل 824 شخص).

وكانت نتائج هذا البحث كمايلي :

- تتميز التغذية في تلك المنطقة بعدم توازن تركيبي حسب المقاييس الغذائية العلمية. وتتميز هذه التغذية بمبالغة في استهلاك الحبوب.

- ونقصان في استهلاك المواد البروتينية.

- يمكن ربط هذا النقصان الغذائي وهذا الخلل التركيبي بسوء التغذية التي تصيب الأطفال في صغر سنهم وكذلك بارتفاع نسبة وفيات الأطفال قبل سن الخامسة.

- أظهر هذا البحث أن هناك فروق واضحة داخل العائلات القروية فيما يخص نسبة الوفيات في سن الطفولة حسب الوضعية الاقتصادية للعائلة (2).

ان الاستهلاك الذاتي حسب بارون وحمودي من العراقيل التي تتسبب في الخلل الغذائي لانه يجبر الفلاح وعائلته على الاكثار من استهلاك الحبوب لتعويض النقصان البروتيني وذلك بسبب ضعف القدرة الشرائية للعائلة التي لاتمكنها من اقتناء مواد غذائية زيادة عما تنتجه، ونرى اذن أن الاكتفاء الذاتي الذي كان رمز قوة العائلة وصولتها، أصبح الآن رمز تقلص قدرتها.

- بروز الدولة كمؤسسة تسهر على تغذية الطفل الصغير :

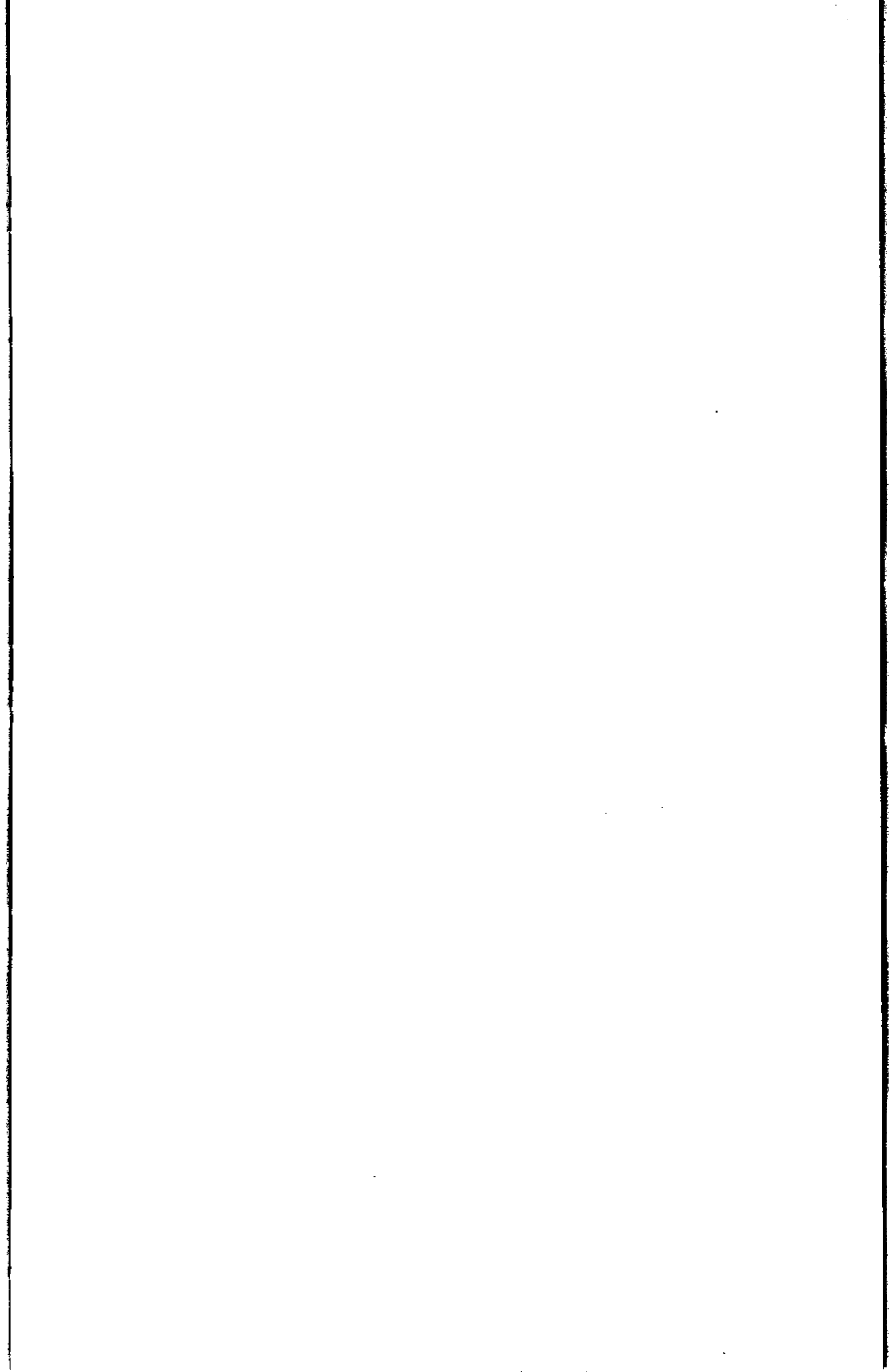
ان تغذية الأطفال من المشاكل التي أشارت انتباه المسؤولين منذ السنوات الاولى للاستقلال حيث قامت الدولة ببحوث في هذا الميدان.

ان لسوء تغذية الطفل تأثيرا عميقا على البرامج الصحية حيث تعرقل انجازاتها وتهدم نتائجها (الوقاية، العلاج).

وهناك محاولات عديدة تقوم بها وزارات مختلفة تهدف الى حل مشكلة سوء التغذية وذلك بوسائل شتى منها الضبط الصحي ومراقبة الوليد منذ ازدياده، وتعليم الأم وتدريبها ، والاعانة المادية المباشرة... الخ. وحسب الاحصائيات الرسمية، هناك العديد من الاطفال والامهات المندمجين بوجه أو باخر في هذه البرامج. ويتجلى في هذه المبادرات الاتجاه الجديد لتطور العائلة : ألا وهو تقلصها وبروز الدولة كبديل لها. **(يتبع)**

(1) Alimentation et Nutrition dans les chiadmas par P. Baron et A. Hammoudi

(2) BESM. N° 128-129 P. 99- 116



معالم من التاريخ الاجتماعي للمغرب على عهد بنى مرين

الوضع السياسي والحياة العامة

لمحة جغرافية (1)

المغرب بلد المتناقضات سواء على الصعيد الجغرافي أو الاجتماعي حيث يخضع لمؤثرات الطبيعة المتباينة التي تكيف حياة سكانه الذين ظلوا الى عهد قريب جدا في كثير من المناطق يلازمون موقفا سلبيا أمام هذه المؤثرات القاهرة. ولقد كان المغرب ولا يزال ملتقى للحضارات الوافدة التي تتفاعل مع حضارته الأصلية محتفظا والحالة هذه بشخصيته الجغرافية والاجتماعية وبأساط يديه الى الروافد الخارجية التي تغذي حاجته الى النمو والتطور.

وعلى تراب هذه البلاد ذات التكوين المتباين استقر الفينيقيون تجارا ومعمرين، فاستقبلهم السكان الوطنيون أحسن استقبال وتعاملوا معهم وتأثروا بتقاليدهم وأعرافهم. وهكذا ظلك الشاطئ الريفي عدة قرون، أهم مسلك للحضارات الوافدة على الرغم من وعورة تضاريس هذه المنطقة، ولكن موقعها الاستراتيجي عند مدخل البحر الأبيض المتوسط غربا وقربها من التراب الاوروبي كان له أثر فعال في استفادة المغرب من استغلال هذا الطريق البحري الذي طالما كان صلة وصل بين الشرق والغرب، ولاسيما مضيق بحر الزقاق الذي سماه العرب أيضا بمضيق جبل طارق، والذي لعب في تاريخ المغرب والتاريخ الدولي أدوارا بارزة لاسيما في الميدان العسكري وميدان المقاومة الوطنية بالنسبة لكل من المغرب واسبانيا.

أما الشاطئ الأطلسي فيتميز بامكانياته الطبيعية التي تسمح بإنشاء الموانئ التجارية؛ وقد كان عبر العصور أقل تعرضا للخطر الخارجي من الساحل الشمالي على الرغم من الهجمات الاسبانية والاحتلال البرتغالي الذي لقي مصرعه بفضل المقاومة المستميتة للشعب المغربي. وهكذا فعلى مقربة من رمال هذا الشاطئ ترقدرفات عشرات من شهداء هذه المقاومة التاريخية، وحيث تنتصب كذلك عشرات الأضرحة التي تأوي رفات الصوفية والمناضلين الأشداء الذين كانوا في زمن ما يحمسون السكان ويقودونهم الى الجهاد والتضحية في سبيل «الوطن» والدين.

وبفضل طابع المناطق الجبلية من حيث تضاريسها ومناخها ووضعيتها الجغرافية يسود نوع من الحياة لم يكد يلحقه تغيير يذكر عبر آلاف السنين، سواء من حيث العقلية الانسانية أو الحياة الاجتماعية والاقتصادية أو من حيث التفتح على الحضارات بصفة عامة فالتغيير لم يلحق الجوهر قط، وامكانيات التفتح الطبيعية ستبقى على كل حال أقل من امكانيات مناطق أخرى لا تقسو فيها الطبيعة ولا يتعذر الاتصال الانساني والاقتصادي

على أن المغرب محظوظ أكثر من جارتيه الجزائر وتونس في ميادين حيوية وضرورية للازدهار الاقتصادي، فهو أثرى منهما ماء وأخصب أرضاً وأوفر موانئ صيد وتجارة. وهو يطل على البحر المتوسط والمحيط الأطلسي، ثم هو اذا عزل تاريخيا عن المنطقتين، فهو في هذا الاطار أكثر استمرارا : وبفضل موقعه على الأخص، تمكن من توجيه تاريخ اسبانيا الاسلامية من بدايته، كما احتفظ بأكبر قدر من تراثها. وصمد بقوة للتدخل العثماني ثم كان خضوعه لاحتلال الفرنسي أقصر مدة مما كان في كل من الجزائر وتونس.

ومع كل ذلك، لا يجمل أن ننسى على الخصوص الدور الكبير الذي قامت به تونس منذ العصر القديم في تاريخ المغرب الكبير، ولا مساهمة الشعب الجزائري في تقوية دعائم هذا التاريخ عبر العصور

والمغرب جغرافيا وتاريخيا، بلد مغربي وعربي وأفريقي. فهو عربي بلغته وبانصهار جزء كبير من سكانه في بوتقه العروبة : مغربي بانتمائه الجغرافي والمجتمعي تربطه بالمغربين الأوسط والأدنى رابطة تشابه التفكير والعقلية التي يطبعها طابع الجد والواقعية والنظر البعيد الى الأشياء، بالقياس الى مجتمعات أخرى أقل من ذلك حظا. وهو افريقي يتأثر الى حد كبير بالمناخ الافريقي ويتعامل مع المجتمعات الافريقية منذ فجر التاريخ ويشعر بتكتله معها عن طريق العقيدة والتبادل الاقتصادي والثقافي.

لكن هذا البلد مع كل ذلك، لم يقفل أبوابه قط على العالم الخارجي خلافا للفكرة السائدة ظلما، والتي روجها غير ما مرة دعاة الاحتلال الأجنبي فما رفض المغرب ابدا، أن يستفيد من وضعيته الجغرافية التي تخوله الحق وتضطره أيضا الى التعامل مع العالم الأوربي والعربي عموما : لكن لا ذنب له اذا قاوم الاحتلال الروماني على طوله لانه كان احتلالا لاستغلال الأرض وسكانها دون أن يحقق مردودا يذكر لأصحاب البلاد.

ومرت بضعة قرون بعد الفتح الاسلامي لم يكن المغرب خلالها يتوفر على أسطول تجاري يساهم في تحقيق التبادل والتعاون مع بلدان الغرب. حتى اذا كان العصر المرابطي لم تتحقق هذه المبادرة من المغرب فحسب، بل فتح هذا البلد موانئه لبواخر الجمهوريات الايطالية ثم بواخر الموانئ الفرنسية، كما أن اعدادا كبيرة من مرتزقة الجيوش المسيحية عملت منذ هذا العصر في سلك العسكرية المغربية، وسمح الموحدون لهؤلاء بإنشاء كنيسة خاصة بمراكش. وقبل أن ينصرم القرن الخامس عشر كان المغرب يستقبل المبعوثين الدبلوماسيين والسواح الأجانب ورجال الدين المسيحيين بكثرة. ولم يمنع الاحتلال البرتغالي للشواطئ المغربية من استغلال فترات السلم في الاتصال الانساني والتعامل الاقتصادي. وخلال هذه الفترة وبعدها بقرون كان هناك عدد كبير من المغاربة يقومون بعمليات تجارية بأوروبا أو يبادلونها منتجات بلادهم ينقلونها ببواخر وطنية أو أوروبية.

لمحة تاريخية عن دولة بني مرين (2).

يعزو صاحب « الذخيرة السنية » بني مرين الى قيس بن مضر التي انتسب اليها من قبل عبد المومن الموحي محاولا بذلك على ما يظهر، تبرير حقه في الخلافة فهل يكون صاحب الذخيرة قد أراد لبني مرين ماأراه عبد المومن لنفسه ؟

غير أن جل المؤرخين يضعون بني مرين في المجموعة الزناتية. ونقل ابن خلدون نظريات غيره بشأنهم ثم صنفهم ضمن العنصر الكنعاني الذي أدخل فيه زناتة (3). وهذه كما يذكر، تتكون من طبقتين رئيسيتين، احدهما مغراوة وبنويفرن، والثانية تشمل عدة قبائل منها : بنومرين وبنو عبد الواد وبنو توجين.

أما لفظ مرين فهو اسم لجدهم الذي انتموا اليه فليل بنومرين أو المرينيون. وهم أيضا فروع، منهم بنو مزاب، وبنو زنطار، وبنو نعمان، الخ (4).

وكان بنو مرين في عهد الموحدين يستقرون بالمغرب الأوسط من تلمسان الى مزاب؛ ولما كان عبد المومن منشغلا بفتح المغرب الأوسط، حاول عبثا اخضاع بني مرين حتى استعان عليهم ببني عبد الواد فشردهم الى صحراء المغرب الشرقية وحوض ملوية يعيشون رحلا ومربي مواش. وقد تطورت العداوة القديمة والقبلية بين بني عبد الواد وبني مرين الى حرب عسكرية تكاد لا تنقطع بعد أن كون كل من الفريقين دولة على انقاض دولة الموحدين المنهارة. وساهم جدهم محيو بن ابي بكر في معركة الأرك التي استشهد فيها أيام المنصور الموحدي ؛ ومحيو هذا هو الجد المباشر لأسرة الدولة المرينية.

وأهم العوامل التي ساعدت على قيام هذه الدولة :

1 - العامل الاقتصادي (حياة الترحل وجذب الأراضي التي استقروا بها في الصحراء الشرقية).

2 - العامل السياسي : (ضعف الموحدين)

3 - العامل القبلي : (تكتل الزناتيين ضد الموحدين، متناسين من أجل ذلك، والى حين، خصوماتهم القبلية)

أما مراحل تاريخ الدولة المرينية فهذا مجملها :

المرحلة الاولى : نشأة الدولة وقرار نفوذها على مجموع المغرب الأقصى : 592 - 673 (1195 - 1274).

أول من أشهر الحرب ضد الموحدين من بني مرين هو أميرهم عبد الحق بن محيو الذي خلف والده سنة 1195/592. وقد حصل على انتصار ايجابي على جيش الناصر الموحدي ثم زحف حتى صواحي تازا. وتابع خلفه عثمان بن عبد الحق (614 - 1216/638) اخضاع مجموعة من القبائل الزناتية الى جانب عرب رياح.

وفي عهد أبي معرف (638 - 642 / 1240 - 1244) تكبد بنومرين هزيمة ساحقة أمام الموحدين بمكناس. ولما تولى أخوه أبو يحيى (642 - 656 / 1244 - 1257) استولى على فاس ومكناس وحارب يغمراسن أمير بني عبد الواد الذي ساند المرتضي الموحدي بعد أن بدأ نفوذ المرينيين بتقوى شمال المغرب. واثناء هذه الأحداث توفي بفاس أبوبكر الملقب بأبي يحيى فدفن بباب الفتوح. وحينئذ، رشح أخوه يعقوب بن عبد الحق (656 - 685 / 1257 - 1285) لخلافته وهو أول من بسط من أمراء بني مرين نفوذه على مجموع التراب المغربي. وهكذا هزم يغمراسن الذي اضطر إلى التقهقر إلى تلمسان بعد أن هدد فاس. وفي نفس سنة توليته أيضاً، طرد الأسبان من سلا وكان بها جماعة من رعاياهم وتجارهم ففتكوا بأهلها غدرا بعد أن تجمعوا لصلاة الجمعة وساعدتهم قوات إسبانية من الخارج، وكان تدخل أبي يوسف يعقوب سريعاً بمجرد أن بلغه نبأ الهجوم الأسباني وهو بتازا. وتمكن سنة 668/1269 من الاستيلاء على مراكش وسحق جيوش أبي ديبوس الموحدي الذي بمقتله في نفس السنة انتهى أمر الموحدين

وكانت آخر الفتوح المرينية بالمغرب سنة 673/1274 التي هاجم فيها أبو يوسف سبتة التي قذفها بالبارود وكان ذلك أول ما استعمل بالمغرب (5).

المرحلة الثانية : عصر القوة والازدهار (674 - 758 / 1275 - 1358)

على اثر تدخلات متوالية من ابن الأحمر، وبعد أن انهى يعقوب المنصور افتتاح المغرب تولى مجابهة الزحف المسيحي على الأندلس الإسلامية. ومن أجل ذلك جاز إلى الأندلس جواراته الأربعة المشهورة التي كللت بمعاهدة عدم اعتداء بينه وبين ألفونسو العاشر ثم مع دون سانجه Sancho ابن الفونسو هذا

ولما توفي أبو يوسف يعقوب سنة 685/1286 خلفه نجله يوسف أبو يعقوب الذي لقب بالناصر، وكان عليه أن يجابه الثورات التي نشبت في عدة جهات : حتى إذا تم له القضاء عليها شرع في حصار تلمسان 689/1289 ، غير أنه لم يحصل منها على طائل فعادوا تطويقها سنة 698/1298 وقرر هذه المرة أن يصمد أطول وقت ممكن لحصارها وبني

من أجل ذلك مديونة حقيقية حولها تتوفر على كل المرافق الضرورية سنة 1301/702 وهي المنصورة التي لاتزال بعض أطلالها قائمة. واستمر الحصار الى 1301/702 حيث اغتيل الملك المريدي على يد خصيائه. أما تدخلات أبي يعقوب يوسف في اسبانيا فقد باءت كلها بالفشل.

وفي سنة 1304 م استولى محمد بن الأحمر الملقب بالمخلوع على سبتة التي عرفت عبر تاريخها الطويل ظروفًا استثنائية خاصة (6).

أما ابوثابت 1307 - 1308 فإن حكمه القصير العهد عاقه عن تحقيق منجزات تستحق الذكر، بينما تولى أخوه أبو الربيع بعده مسؤولية استعادة سبتة سنة 1310/710

وعرف المغرب في عهد سعيد أبي عثمان 1310م - 1331 لأول مرة سلما حقيقيا استمر طيلة حكمه ولم يعكر صفو هذا السلم الا اضطرابات عابرة بسبب ثورة ابنه أبي علي الذي كان يطمح في وقت مبكر الى الملك وهو ولي للعهد، وهذا يذكرنا بثورة أبي عنان فيما بعد، وهو الذي تنكر بشكل بغيض لوالده.

وتقوى الجيش الوطني على يد أبي سعيد عثمان الذي جهز اسطولا عسكريا لهذا الغرض. وانشأ مجموعة من المدارس بفاس كمدرسة العطارين ومدرسة فاس الجديد

وفي سنة 1331م خلفه نجله أبو الحسن وهو أول من عمل بصورة جدية من بني مرين على إعادة توحيد المغرب الكبير، وكان يرى أن تحقيق هذه الغاية يتطلب القضاء على سلطان بني حفص وبني عبد الواد وكلاهما أضعف من أن يحقق الوحدة المنشودة

ولما كانت سنة 1331م وضع حدا لثورة أخيه أبي علي فاعتقله ثم اعدمه بعد شهرين فلائل، وبعد ثلاث سنوات افتتح تلمسان بينما تكبد جيشه هزيمة نكراء حاسمة في طريق 1341م. وانما توقف الفتح المسيحي الشامل لاسبانيا بسبب موت الفونسو سنة 1350.

وقد اقتضى تدخل أبي الحسن في تونس، اللجوء الى القوة العسكرية لاختضاع

القبائل العربية التي رفض رجالها الانضمام الى سلك الجيش النظامي الذي يتقاضى أجرا محدودا في الوقت الذي جردت فيه هذه القبائل من امتيازاتها التي أنعم عليها بها الملوك الحفصيون مرغمين (8). وهكذا كان رد الفعل منها في منتهى القوة ضد التدخل المريني من أساسه حتى لقد شاع نعي أبي الحسن في افريقية وبلغ الى مسامع نحل أبي عنان الذي لم ينتظر مدة تمكنه من تقصي الأخبار الصحيحة وهكذا أعلن نفسه ملكا بينما رجع والده مصعوقا لهول المفاجأة التي لم يكن يتوقعها من ولده. وبعد محاولات لاسترداد ملكه بالقوة بدا أنه لم يوقف هذه المرة أيضا بعد أن فقد معظم جيشه وغرق أسطوله في عرض البحر المتوسط قبل عودته الى المغرب.

ومهما كان من نتائج أعمال أبي الحسن فقد تجاوز نشاطه العسكري والمدني كل ما قام به اسلافه من بني مرين. وقد بلغت قطع أسطوله الستائة مالم تبلغه اساطيل المغرب فيما قبل ولا من بعد، من حيث العدد، وشاد مدارس كثيرة عبر الشمال الافريقي لاسيما بالمغرب، كما بنى المارستانات والقناطر ومختلف المباني العمومية وساهم بوفير حظ في النهضة الثقافية لبلاده.

وعندما أصبح أبو عنان ملكا غير منازع منذ سنة 1348/1752 عمل على استرجاع المغرب الأوسط في السنة الموالية، ثم زحف نحو تونس، لكن مؤامرات قواده عاقته عن متابعة حملاته بافريقية فعاد الى المغرب الأوسط ثم الى فاس حيث تخلص منه وزيره الخائن عمر الفودودي بخنقه سنة 1358/759، ثم سادت بعد أبي عنان موضة الخنق في الأسرة المالكة على يد بعض الوزراء الذين يميلون الى توسيع سلطاتهم.

وباغتياك أبي عنان تنتهي الفترة المجيدة من حياة الدولة المرينية. وقد كان هذا الملك الشاب هو أيضا مغرما بالتشييد والبناء والعمل على تطوير حركة التعليم وهو من الملوك القلائل الذين تفرغوا كليا أو كادوا للنشاط المدني من غير أن يهملوا تقوية جهازهم العسكري.

جل ملوك هذه المرحلة خلعوا أو اغتيلوا، وكانت مرحلة مؤامرات ونزاع حقيقي على السلطة بين الملوك ووزرائهم وكان الاولون في الغالب ضحايا لهؤلاء. على أن أبا فارس تمكن من اعادة شيء من الهيبة الى السلطة المرينية باسترجاع الجزيرة الخضراء واعادة اقرار النفوذ المريني على المغرب الأوسط الذي كان قد خضع لبني عبد الواد بعد مقتل أبي عنان. لكن هذه اليقظة السياسية العابرة كانت بمثابة استفاقة المحتضر من غيبوبته لحظة قبل أن يصرعه الموت الى الأبد. فسرعان ما أطل على المغرب عهد طويل من التدهور الشامل، واستولى البرتغال سنة 1415/818 على سبتة فلم يقيم السلطان في هذه الفترة بأي جهد يذكر لاستعادتها (9). وقد شمل الخراب كل مبادئها الاسلامية على يد البرتغال.. غير أن الصوفي المجاهد عبد الرحمن الجزولي قاد حملات شعبية لاستعادتها وناضل البرتغال مدة أربع سنوات من غير طائل (10). لأن استعادتها لم تكن ممكنة من غير غزوها من البحر ايضا. كذلك حاول الوزير الوطاسي ابو زكرياء أن يسترجعها سنة 1426 ثم تابع الوطاسيون محاولاتهم بعده (11).

ولما تولى عبد الحق بن أبي سعيد (1420 - 1465) عين وزرائه من بين الشخصيات اليهودية الوافدة من الأندلس، بعد أن خضع لهيمنة وزرائه الوطاسيين مدة أربعين سنة، وهكذا عجل بسقوط دولته بمقتله ومقتل وزرائه اليهود سنة 1465 م وتكونت حكومة محلية بفاس على يد أحد الشرفاء الأدارسة، وقد دامت مدة سبع سنوات قبل أن يستولي الوطاسيون على السلطة

الحكومة الوطاسية (876 - 1465/961 - 1559)

يشكل الوطاسيون على الصعيد السياسي استمرارا للدولة المرينية، فقد انضموا الى بني مرين منذ أن أكتسح المغرب عبد المومن الموحيدي. وظل الوطاسيون في خدمة المرينيين الى سقوط دولة هؤلاء. ولم يدخل الوطاسيون أي تغيير سياسي أو ديني على نظام الحكم المريني، ومن ثم فقد كانوا استمرارا للدولة المرينية اذا لم يكونوا ينتمون اليها على الرغم من أن مؤلف الذخيرة السنية ينسبهم الى لمتونة (12).

ويتميز العهد الوطاسي بحدثين هامين :

- 1 - استيلاء البرتغال على عدد كبير من المراكز (13) :
- القصر الصغير (قصر الجواز أو قصر مصمودة سابقا) ، سنة 1458 م
- أنفا 1468
- أصيلا 1471
- أكادير 1505
- آسفي 1508
- أزموور 1513
- البريجة (الجديدة) 1514
- المهديّة 1515

2 - اتساع نفوذ الامارات ذات الاستغلال الذاتي :

- امارّة مرينية بدبدو
- بنو المنظري بتطوان
- بنو راشد بالشاون
- هنتاتة بمراكش

وكان أنشط الملوك الوطاسيين الخمسة لمقاومة الاحتلال البرتغالي والحركات الانفصالية : محمد الشيخ (1471 - 1505) وابنه وخلفه أبو عبد الله البرتغالي (505 - 1524) غير أن الأحداث تجاوزتهما أيضا، فقد عرقل ظهور السعديين بعد سنوات من تولية البرتغالي كل تحركات الوطاسيين من أجل اقرار سيادة الدولة على الجهات النائرة أو المحتلة، وهكذا تعين على الوطاسيين أن يجابهوا دولة السعديين الناشئة التي هزمت جيوشهم ومحقت في النهاية دولتهم.

وقد شهدت العلاقات بين المغرب والمشرق طيلة العهد المريني نشاطا وتوسعا شمل الجانبين الدبلوماسي والفكري فضلا عن الميدان الاقتصادي. وكلف إخضاع المغرب الأوسط جهدا عسكريا كبيرا للدولة المرينية، بينما ظل المغرب الأقصى خاضعا في مجموعه للدولة المركزية : الى حين ظهور الامارات المستقلة ذاتيا في العصر الوطاسي. والحق أن

عهد الامارات المستقلة ذاتيا دشنه بنو هنتاة الذين حكموا مراكش وناحياتها بهذه الصورة من أيام أبي عنان كمكافأة لهم على اجارة (حماية) أبي الحسن المريضي. وقد أصبحت هذه الامارة تتمتع باستقلال يكاد يكون تاما بعده الى أن قضى عليها السعديون

واذا كان بنو مرين قد تمكنوا من افتتاح المغرب الأوسط بفضل قوتهم البحرية خاصة فانهم وقفوا عاجزين أمام الزحف المسيحي على الأندلس. غير أنهم شجعوا المقاومة الشعبية التي قادها الصوفية منذ أوائل القرن التاسع / الخامس عشر م. وهكذا حل نفوذ الصوفية تدريجيا محل سلطة الفقهاء خلال العصر المريني نفسه والذي مثل شطره الاول حتى أيام بني عنان أوج ازدهار الفقه المالكي والدراسات المرتبطة به.

أما العناصر المجتمعية الرئيسية التي عرفها المغرب المريني والوطاسي فتتكون من البربر والعرب الوافدين أصلا من الأندلس وقبائل العرب التي تم ترحيلها من افريقية في أواخر القرن السادس / 12م. وإلى أواخر القرن الرابع عشر م ظل المصامدة يكونون العنصر الأكبر الذي يشغل أوسع مساحة من المغرب. (14) فقد كانوا يمتدون على منطقة الريف الغربي ومجموع سواحل الأطلسي ومناطق أخرى من الأطلس.

ومن بين القبائل المصمودية الكبرى سكسيوة التي كانت تغار على استقلالها الذاتي وترفض أداء الجباية الى السلطة المرينية ما لم يتم اخضاعها بالقوة (15)

وكانت جد ميو تشغل ناحية الجنوب الشرقي لسكسيوة التي تشرف على سهل سوس. وكانت هنتاة تقطن مراكش وناحياتها الى شرقي أمزميز، أما أهم العناصر المصمودية على سهول الأطلسي فهي حاحا ودكالة.

وكانت زناة ممثلة بشكل أقل من تمثيل المصامدة، غير أن مكناسة تكون عنصرا أساسيا في الحروب الاسلامية بالأندلس، بينما يستقر معظم بني مرين جنوب شرقي تازا (16). وفي الصحراء الشرقية يتجمع قسم من مغراوة وبني يفرن. وإذا كان بنو مرين قد تسللوا في البداية الى المغرب الشرقي فقد تدفقت جموعهم على السهول الأطلسية في القرن 13 م (17).

وتعد زناكة أهم العناصر الصنهاجية عددا بالمغرب، فقد كانت جموعهم تمتد من جنوبي تازا الى ناحية بني ملال، كما انتشر بعضهم في جهات أخرى كالريف وناحية أزموور ومشارف تادلا وبين وادي سبو وغمارة (18).

وبالنسبة للعنصر الأندلسي فإن التنقلات الشخصية والعائلية لسكان الأندلس الى المغرب والعكس بالعكس، لم تنقطع قط منذ الفتح الأندلسي، أما الهجرات الرئيسية الجماعية فأهمها ما كان في عصر الأندلس بما فيها هجرة الربضييين الذين حل منهم بالمغرب عدد كبير، وتعد أكبر هجرة جماعية الى المغرب تلك التي حدثت خلال حوالي عشرين سنة منذ سقوط غرناطة سنة 1492. وإذا كانوا فيما قبل يتوافدون على فاس بالدرجة الاولى فانهم توزعوا هذه المرة بين سلا والرباط وتطوان ومراكز أخرى (19). وانضم اليهود المهاجرون الى اخوانهم المقيمين بالمغرب منذ العصر القديم. وكانت أفواجهم الاولى قد قدمت الى المغرب في العهد البيزنطي ثم التحقت بهم أفواج ضخمة خلال القرن الاول للميلاد كما سلف، ثم تلاحت وفودهم خلال العصر الروماني وبعد الفتح الاسلامي. ومنذ القرن الرابع عشر م تقاطروا على المغرب فرارا من البطش الاسباني كما هاجروا مع المسلمين بعد سقوط غرناطة، ثم حلت عائلات أخرى منهم في القرن 16 م (20).

الحياة بالمدن

كانت المدن الكبرى تتمتع بامتيازات لم تكن تحظى بها القرى والمدن الصغرى كما لا يزال الأمر حتى الآن في سائر بقاع العالم؛ فهي قبل كل شيء تمثل مراكز للأقاليم أي عواصم اقليمية. وكانت الأقاليم شاسعة تتكون من نواح قد تختلف فيما بينها أهمية اقتصادية. ويقدم الينا مؤلف الذخيرة السنية (21). توزيعا للأقاليم الادارية في عهد المنصور المريني هو :

1 - اقليم مراكش الذي كان قبل الوطاسيين يشمل سوس أيضا

2 - اقليم سلا، ويمتد جنوبا الى تامسنا (الشاوية)

3 - اقليم مكناس

4 - اقليم فاس

5 - اقليم تازا

6 - اقليم سجلماسة

7 - اقليم درعة

8 - اقليم دكالة

ويستقر العامل بمركز الاقليم حيث يتولى مهام ادارية صرفة، وأحيانا عسكرية أيضا (22). اذا برهن عن كفاءة لذلك أو كان يرتبط برباط قرابة للعائلة المالكة (23).

وقد حدث تغيير ملموس في توزيع الأقاليم أيام الحكم الوطاسي. غير أن نفوذ الوطاسيين لم يتجاوز نهر أم الربيع جنوبا. وكانت العمالات في هذه الفترة هي (24).

1 - اقليم فاس، ويمتد غربا الى سلا، ويشمل زرهون والمعمورة وسلا ومدنا أخرى

2 - تامسنا وكانت تحتوي على حوالي أربعين مدينة (25).

3 - أزغار (ناحية الغرب الحالية) وأهم مدنها القصر الكبير

4 - الهبط وتشمل جزءا من شمال الغرب مع غمارة. ومن مدنها طنجة وتطوان وأصيلا

والبصرة.

5 - الريف، وأهم مدنه باديس وترعة.

6 - الحوز، وهو المنطقة الجنوبية لفاس، وكذا جنوب تامسنا. ويدخل في الحوز

مدينة تازا أيضا.

7 - كارت، وتمثل الاقليم الشرقي وأهم مدنه تازوطا ووجدة.

ويكون المغرب الأوسط بدوره عمالة ذات استقلال ذاتي نسبي، بل يمثل نيابة يتولاها أحد أمراء الأسرة المالكة وتحت امرته عمال يخضعون مباشرة لسلطته (26). ولكل من جبل طارق والجزيرة الخضراء عامل.

ويعين العمال من الأسرة الحاكمة وغيرها كأوربة وزناطة وبني وطاس (27). وان كان كثير منهم في بداية الحكم المريني من أمراء الدولة لاسيما في المراكز الرئيسية التي تهددها ثورات محلية

ويتولى الاشراف على الشؤون البلدية في المراكز الحضرية مسؤول يدعى المشرف ويعينه السلطان نفسه، وهو مسؤول أيضا عن أملاك الدولة في البوادي التابعة للأقليم (29). وقد يحمل لقب عامل القصة أو صاحب القصة. ومما يلفت النظر في أهمية هذا

المنصب أن صاحبه هو الذي يتولى ربط الاتصال بين العامل والادارة المركزية (30).

وهكذا كان الموظفون الرئيسيون في الاقليم هم :

- العامل الذي كان يجمع أحيانا بين السلطات الادارية والعسكرية والمالية

- المشرف

- القاضي

- صاحب الشرطة الذي كان يجمع بين مهمات وكيان الدولة وعميد الشرطة الاقليمي

وابتداء من القرن العاشر / السادس عشر اتسعت اختصاصات الولاة على حساب سلطات القضاة الذين تخلوا عن مسؤولياتهم في الميدان الجنائي وفي قسم كبير من الاختصاصات المدنية للعامل ومن يمثلونهم (31). وكان العمال يقومون بتحصيل مبالغ كبيرة من المحكوم عليهم بدعائر

ولأول مرة استعمل لقب القائد في العصر الوطاسي بمعنى اداري محدد نسبيا، فهو يعني الوالي اما من درجة عامل أو من يقوم مقامه في المراكز التابعة للاقليم، كما استعمل لقب الباشا نقلا عن الأتراك، وصاحبه يجمع مسؤوليات كبرى ادارية وعسكرية ومالية وقضائية أي أن الباشا بمثابة الحاكم العام في جهات معينة، ولكن هذا المدلول لم يتضح في الواقع الا منذ العهد السعدي (32).

وقد أخذ التأثير التركي في الادارة المخزنية يتقوى شيئا فشيئا منذ العهد الوطاسي.

ويستقر صاحب شرطة في كل مركز حضري، ولكن اختصت فاس بأربعة أصحاب شرطة يتولون مهمة السهر على الأمن لاسيما بالليل (33). وقد أصبحوا خاضعين للعامل بعد أن كانوا في العهود الماضية يعملون بإشراف القاضي.

ولكل حي (أو حومة) مسؤول يدعى بالمقدم وهو صلة الوصل بين العامل والسكان، وله اختصاصات متنوعة، فهو يتولى استخلاص الرسوم والضرائب الاستثنائية ويسهر على الأمن في عين المكان ويراقب دور البغاء التي كانت تمارس نشاطا سريا بترخيص من السلطة، ويتدخل في النزاعات الثانوية بين السكان ويرافق العامل في مواكب العيد (34). أما مهمة الحراسة المباشرة للأحياء والدكاكين فيتولاها عسس يؤجرهم سكان الأحياء وأرباب المتاجر (35). والسجون مصممة على شكل منازل، وتستقبل زبائنها بأمر العامل أو المحتسب أو مزوار (نقيب) الشرفاء (36). ولم يكن هناك سجل اعتقال. وقد كان الحبس

يمكن أن يمتد شهورا من غير محاكمة (37). لكن السجناء يسمح لهم بالتزود بالمواد الغذائية من عائلاتهم أو شراء.. والطعام الوحيد الذي يقدمه السجن عن طريق وقف خاص هو الخبز اليومي (38).

ويتكون سكان فاس من عنصرين رئيسيين : البربر والأندلسيون أصلا. وقد ذكر مؤلف معاصر (39). عائلات كثيرة بعضها انقرض منذ زمان. وكانت هناك عدة أزقة تحمل أسماء الأسر القاطنة بها (40). ومن العائلات ذات الأصل البربري : بنو عزانة وبنو والي، وبنو مصودة وبنو غازي وبنو مليل الخ..

ومن بين الأسر الأندلسية : بنو رضوان، بنو عتيق، بنو لبابة، بنو بكار الخ.. ويبدو أن العنصر البربري ظل يكون أكثرية سكان فاس الى مرحلة متأخرة من العهد المريني ؛ وهكذا فعلى الرغم من استعرا ب العديد من الأسر البربرية لغة وطريقة حياة، ومنها أسر من بني يفرن ومغراوة وأوربة والمصامدة والمرابطين والمرينيين فقد ظلت الأسر العربية أصلا، أقل عددا (41). وبدا أن التأثير البربري لا يزال قويا بفاس ولكنه دون قوته بمراكش. وكان الأمر قريبا من ذلك في السكندى أيضا، فقد كانت منازل مراكش الموحدية أفخم من دور فاس (42). وقصور مراكش كانت تشمل عدة دور وبساتين وحمامات واصطبلات. وكل وسائل العيش موفرة في عين المكان، حتى المدارس موجودة داخل هذه المباني الفخمة (43). ولم يكن الأمر كذلك في فاس المرينية، وإن كان الطابع الأندلسي الأصيل قد وسمها بميسمه في عامة انماط حياتها

وتمتعت مراكش في ظل بني مرين بما يخوله لها مركزها الحضاري من امتيازات اقتصادية وإدارية تفرضها طبيعة ماضيها وموقعها الاستراتيجي. فقد ظل عمالها يعينون من بين أمراء الأسرة المالكة الى أيام أبي عنان حيث استرجعت هنتاة هيمنتها على المنطقة كانعما من أبي عنان على أمرائها الذين أووالده أبا الحسن فيما قبل.

وكان لمراكش أيضا قصبته التي ترجع الى العصر المرابطي ويستقر بها موظفو الإدارة الاقليميون (44). ولكن، ما أن حل القرن السادس عشر، حتى فقدت السلطة الوطاسية كل مراقبة أو سيادة على المنطقة.

ومن بين المراكز التي تضاءلت أهميتها الاجتماعية خاصة، طنجة التي احتلها البرتغال بعد استيلائهم على أصيلا (45). 1471 م. والواقع أن مراكز كثيرة كانت تشكو من انعدام الأمن منذ بدأت الدولة المرينية في الأفول ثم بعد استفحال الخطر الأجنبي،

وهكذا أتيح للقبائل العربية أن تقوم مقام السلطة المركزية وأن تخلق لهذه من المتاعب ما كانت عاجزة عن وضع حد له في عدة جهات، فأميز الواقعة في منطقة هنتاتة كان عليها أن تؤدي الضرائب لكل من أمراء هنتاتة بمراكش وللقبائل العربية التي تهدد أمن السكان في البوادي. وخلت عدة مراكز قروية من سكانها في هذه المنطقة (46)، وتخربت جل القصور والمباني الموحدية بمراكش في العهد الوطاسي حتى عد الحسن الوزان ما تخرّب منها بنحو تسعة أعشار (47).

وكانت الفلاحة موردا أساسيا لعامة السكان الا فئة قليلة تعتمد على موارد أخرى كالصناعة التقليدية والتجارة والوظائف. فالسكان يعملون في الحقول نهارا ويعودون الى المدينة مساء (48). ومع وجود بنايات أساسية للزراعة من حيث التربة وقرب الأرض من المدينة وجودة المناخ الزراعي فان عدة مناطق لم تكن تجد اليد الماهرة لخدمتها، حتى ان ليون الافريقي انتقد سكان آسفي ووصفهم بعدم الذكاء (!) وبنقص التربية (!) وأكد مرمول حكمه هذا (50).

ولمراقبة مواد الاستهلاك بالمدن، كان المحتسب الذي يعمل بإشراف القاضي يقوم بجولات دورية في الأسواق، حيث يتمتع باستقلال نسبي يحدد من لجوئه الى رئيسه بالنظر لما تقتضيه شؤون الأسواق من سرعة في البت والتدبير (53).

وكانت الادارة العامة للحسبة تسند غالبا الى شخصيات ذات كفاءة. وممن تولوا هذه المسؤولية أبو فارس عبد العزيز الملزوزي (54). لكن المحتسب في العهد الوطاسي تضاعلت أهميته الاجتماعية والادارية. وقد وصف الحسن الوزان الذي عاش مدة طويلة بفاس محتسبا وهو يزاول مهمته خلال بعض جولاته فقال :

« يسير في موكب هذا الموظف اثنا عشر راميا حيث ينتقل كثيرا داخل المدينة على فرسه لفحص الخبز ومراقبة الموازين وما يعرضه الجزارون من مواد استهلاك. فاذا وزن الخبز ووحده ناقصا قطعه قطعاً وصفع بائعه على قفاه صفعة بيده فتنتفخ قفاه وتكاد تزهق من الصفعة روده ».

اما عن تدني منصب المحتسب في العهد الوطاسي فيدل عليه أن السلطان الوطاسي كما يقول الحسن الوزان (55). « يسنده لمن يطلبه. ومن قبل كان لايسند الا للقادرين ومن لهم حسن صيت. أما الآن فالملوك يمنحونه للأमीين والأشخاص العاديين ».

ولعبت الأوقاف دوراها ما في الحياة الحضرية، وهي توجد في كل مدينة. وقد تميز العهد المريني بأن الملوك تسابقوا هم أيضا وبصورة لم تكن من قبل معهودة الى المبرات

الوقفية (56) التي تعددت شكلا وقيمة. وبفضل مواردها ضمن حسن سير المستشفيات والمدارس والجوامع والزوايا (57). وينبغي أن نفهم هنا أن الزوايا كانت تعني دور الاستقبال والضيافة بالنسبة للغرباء بعد أن كانت موقوفة زمنا على الموظفين السامين المتنقلين بين المدن لمهام إدارية، غير أن موارد الأوقاف ستحول عن مخصصاتها عندما تعجز الميزانية العادية عن تحمل نفقات الدولة. وهكذا فإن الحروب التي خاضها أبو سعيد الثاني ضد بعض أعدائه بالداخل جعلته يستعمل موارد الأوقاف (58).

وخصصت جك الأوقاف في فاس للجوامع والزوايا والبقاع المقدسة التي كانت تستقبل سنويا وفدا رسميا عن المغرب وسائر البلاد التي لها أوقاف بالأماكن المقدسة (59). وهذه البعثة هي وفد الحجيج كما كان يدعى، ومهمته أيضا أن يسهل مقام الحجاج المغربية بالديار المقدسة وأن يباشر اتصالات دبلوماسية مع ملوك المشرق ويعمل على حل المشكلات الخاصة بالأوقاف المغربية

وفي عهد بني مرين كان يعين ناظر للأوقاف في كل مدينة تتوفر مع منطقتها الادارية على أوقاف كافية لتعيين ناظر يتولى أمرها. ويعمل الناظر شراف القاضي، ولكن ما أن تكاثرت الأوقاف واتسع دخلها كما اتسع تبعا لذلك نشاط النظار حتى صاروا مستقلين عمليا عن سلطة القاضي، ويساعدهم في أعمالهم عدول وقابضون (جباة) (60).

ومع وجود طبقة بوجوازية في المدن تمتلك مزارع وموارد متنوعة فإنها كانت تساهم بكبير حظ في إثراء الأوقاف بمزيد من المبرات الوقفية، وذلك بدافع الروح الدينية التي تجعل المومن ينظر الى الثواب الأخروي أكثر مما يهمه أن يفقد شيئا من موارده، نعم لقد كانت توجد بالمدين طبقتان : احدهما من الصناع وذوي الحرّ ف المتواضعة التي لا تدر موردا كافيا، والثانية يكونها كبار الموظفين والفقهاء الذين حظوا بعطف الملوك، وكذا عدد من التجار وكبار الملاكين. ولكن في جميع الأحوال كان هناك تقارب عاطفي بين الفئات قد يصير تكافلا حقيقيا في أيام الشدة. أما تنظيم هذا التكافل على الصعيد المركزي فقد شهد أحسن حقبة له على يد الملوك المتلاحين كأبي يوسف يعقوب وأبي الحسن المريضي

البوادي

إذا كانت المدن تتضرر من الاضطرابات السياسية الداخلية فإن البوادي تتضرر أكثر على الصعيد الاقتصادي بسبب انعدام الأمن والاستقرار السياسي.

وأغلب التجمعات السكنية في البوادي تتكون من خيام أو « نوايك » كما أن فيها ما هو مبني بطريقة أو بأخرى. والمدشر، أي مجموعة المساكن المصنوعة خياما أو نواويل يكون نواة للقرية (61). التي لها صور أخرى حسب المناطق والبيئات الاجتماعية كما سيأتي. وفي هذه الخلية الصغيرة تجتمع فخذة أو فرع من قبيلة، وتكون مجموعة من المداشر أو الفخدات قبيلة قد تشغل مساحة من الأرض واسعة. وهكذا فإن القبيلة تمثل وحدة اجتماعية حقيقية تشخص الانسجام الأسروي في صورته الكبرى وتشابه العادات والتقاليد ونوع النشاط الذي تزاوله الوحدة في معاشها.

وهناك تجمعات سكنية كثيرة في المناطق الجبلية والمحدية لها تتوفر على مساكن مبنية وهي تكون قرى مجهزة بكل المرافق الضرورية وهذه القرى يحيط بها سور من الطوب يساعد على حمايتها (62). ويحتوي كل منها على بضع مئات من السكان وقد يصل عددهم إلى بضعة آلاف يشتغلون بالزراعة ويتوفرون على مخازن لخبز انتاجهم وأورد كل من ليون الأفريقي (الحسن الوزان) ومرمول عدد سكان كثير من القرى المغربية (63).

وكانت المباني التي تدعى بأكادير (كاف مثلثة) مكملة للتحصينات الدفاعية الخاصة بالقرى. وهي ذات أهمية خاصة في المراكز المنعزلة والمعرضة للخطر وللقرى استقلال إداري قد يختلف شكلا من جهة إلى أخرى، ويطبع تسيير القرية على العموم طابع ديموقراطي حيث لا تزال السلطة المركزية رقابة مباشرة تذكر فكل قرية تحكم نفسها بنفسها طبقا لأعرافها المتفقة مع الشريعة الإسلامية، وهذا في حالة عدم وجود قضاء محلي. ويتجلى ارتباط السكان بالسلطة المركزية في أيفائهم بالتزاماتهم الضريبية لها. ولكن، كثيرا ما يتعين استعمال القوة العسكرية لاختضاع مناطق معيزة ترفض أداء استحقاقاتها المالية. وفي عصر انحلال السلطة كانت عدة مراكز لا تزود الخريزة بشيء. وهكذا نشأت أشكال للجمهوريات الصغرى في هذه المراكز المتمردة أو غير الراضية عن الوضع الوطاسي كما في جزولة مثلا (64). وبوجه عام فإن رؤساء هذه الجمهوريات أو الجماعات المحلية ينتخبون لمدة محدودة. والرئيس يحمل لقب أمغار أو شيخ. وسلطاته

في آن واحد، عسكرية ادارية قضائية. والجماعة التي تتعاون معه في التسيير تنتخب أيضا. ويتولى الشيخ على الخصوص مهمة فض النزاعات ذات الطابع العقاري والاقتصادي. وتتشابه القبائل العربية والبربرية في اعتمادها على التسيير الجماعي. ويتعين على الشيخ أن يقوم بمهمة الاتصال بالسلطة المركزية حيث يكون لسان حال القبيلة في ظروف اعترافها بالحكومة القائمة (65). وبصفته هذه يتولى أيضا باسم الحكومة جمع الضرائب (زكوات، اعشار، الخ..) وتجنيد عدد معين من شباب القبيلة لصالح الدولة (66). وهو اذا لم يكن يتولى الجباية مباشرة فإنه يتعاون مع الجابي الذي يمثل السلطة العمومية. ويتقاضى الشيخ والقبيلة من الدولة اقطاعا كتعويض عن الايفاء بالتزاماتهم تجاه الدولة. وكثيرا ما يحدث أن تغتصب القبيلة أرضا فيعترف المخزن لها بهذه الأرض كقطاع لأن الدولة تكون في هذه الحال عاجزة عن اقرار نفوذها على القبيلة المعتدية (67). ويوضح جورج مارسى صفات ومؤهلات الشيخ بقوله (68) :

« اذا جمع الى السلطة الشخصية التي يخوله اياها سنه، الفصاحة وجودة الرأي والمكانة التي يحلها فيها اولياؤه وزبناؤه العديدون، واذا اشتهر بكرمه وحسن ضيافته وكان ذا مال يجود به على الناس، وكان مع ذلك يحظى رسميا بحماية السلطان القائم فإنه يحصل على تأييد قبيلته ».

واذا كان السكان في المدن لايزالون في اغليبيتهم من البربر، وسيظلون كذلك لفترة طويلة من الحكم السعدي، فبالاولى عامة المناطق القروية. على أن وجودهم في المدن خاصة سمح بوجود حركة تلقيح حضارية متبادلة عبر القرون مع مختلف العناصر الطارئة، ولاسيما مع العنصر الأندلسي الذي ظل محدود العدد حتى نهاية العصر المريضي والى ما قبل حلول العنصر الموريسكي الذي تخلف بالأندلس لزم ما تحت الحماية الاسبانية.

وكانت أول موجة كبرى من الأندلسيين المهاجرين هي التي قدمت في أيام ادريس الثاني سنة 818/212 على اثر ثورة الربض في عهد الحكم الثاني وعددهم ثمانية آلاف عائلة وقدمت موجة أخرى أقل عددا، من القيروان بعد هذه، وذلك سنة 826/220. واستقرت بعودة القرويين بفاس وهم أي مهاجرو القيروان كانوا أندلسيين أصلا (69). وقد سكنت عائلات أندلسية كثيرة بعدد من المراكز القروية والمدن الصغيرة وبينهم أسر يهودية اختارت المقام في أماكن مختلفة من المغرب فضلا عن التي هاجرت الى بلاد أخرى.

وهكذا كان العنصر الأندلسي موجودا بمغيلة، وهي قرية كبيرة جنوبي فاس، وبتكاوست جنوب سوس، وفي تارودانت وناحية سلا وجهات عديدة أخرى. وقد شهد العصر الوطاسي مزيدا من الافواج الوافدة من الأندلس تفرقت بدورها في أنحاء المغرب، ولكنها مع الهجرة الموريسكية في العصر السعدي، اختارت على الخصوص سكنى المدن أو انشاء مراكز جديدة كما هو الشأن في مدينة الشاون وقصة الرباط المجددة الخ..

وأهم العناصر السكانية التي أحدثت تغييرا عميقا في الأوضاع الاجتماعية والقبلية بالبوادي في هذا العصر هم عرب بني هلال. وهم من نسل معد بن اسمعيل ؛ سكنوا في القديم منطقة نجد، وكان لهم صنم أكبر باليمن يعبدونه، واسمه (خلعة) (بفتح الثلاثة). وعلى اثر افتتاح الرسول (ص) لمكة قاموا بمهاجمتها مع ثقيف، لكن تم اخضاعهم فورا. وفي القرن الرابع الهجري قام العزيز الفاطمي بترحيلهم الى صعيد مصر ثم استدعاهم المستنصر بعد حوالي قرن ونصف لاكتساح تونس (70). حيث قاموا بدورهم هذا في ظروف اقتصادية واجتماعية صعبة، وكان لتصرفاتهم نتائج بالغة الخطورة على الشمال الافريقي عامة. وقد رحل المنصور الموحي قسما كبيرا منهم الى المغربيين، الأوسط والأقصى، ومن القبائل التي رافقت بني هلال، بنو معقل، وكانوا في العصر المريني يستقرون بسوس ودرعة وتافيلالت، وكانت سويد توجد على مراكز الحدود الشرقية الحالية حيث تخضع للسلطة المرينية. وفي سهول الأطلسي تستقر قبيلة رياح التي كانت تقاوم السلطة المركزية في بعض الأحيان (71). فقد كانت في عهد الموحيين تنزل بالهبط وقاومت معهم بني مرين عند ظهورهم حيث قتل الأمير عبد الحق بن منحيو وولده في بعض معاركهم. وبعد قرن تقريبا أعلن أبو ثابت حربا ضروسا على رياح، افنى فيها معظمهم ؛ ومن تبقى منهم انصهر في المجتمع البربري.

ومن العرب المرحلين الخلط وجشم وسفيان الذين كانوا في العهد المريني ينزلون بتامسنا التي تمتد فيما بين سلا وحوز مراكش (72).

ونزل بنو معقل بناحية ملوية وصحراء تافيلالت، حيث تكاثر عددهم في عصر بني مرين. ومنهم ذوو عبيد الله الذين نزلوا فيما بين تلمسان وتاوريرت ؛ وذو منصور الذين كانوا يقيمون فيما بين تاوريرت ودرعة، ثم ذوو حسان، وقد احتلوا منطقة شاسعة تشمل درعة وأجزاء من سوس وشفقيط (موريطانيا) (73). وقد ساهم بنو معقل في تعريب الجنوب والصحراء المغربية بشكل شامل تقريبا.

وقد ظل هؤلاء البدو العرب يعيشون على تربية المواشي في غالبيتهم وينتقلون مع ذلك للنجعة. حيث يتجمعون في مداشر كما سبق، إذ يسهل عليهم فك خيامهم لنصبها حيث يطيّب لهم المقام.

أما القرية المغربية التي يتجمع بها أو يقصدها سكان المزارع المجاورة، فتتوفر عادة على ساحة عامة يجتمع فيها السكان، وجامع للصلاة قد يكون متواضعا أو متقن البناء حسب الظروف. وكانت بعض القرى المجاورة للمدن الشاطئية المحتلة على ساحل الأطلسي تقيم في أيام السلم علاقات عادية وأحيانا ودية مع عسكر الاحتلال البرتغالي وتبيعه منتجاتها (74). وعلى أية حال فإن القرية تشهد نشاطا كبيرا في فترات السلم. وقد تخصص اقليم سوس بزراعة قصب السكر وصناعته قبل زمن طويل حيث يذكر البكري أن إيغلي كانت تتوفر على صناعة السكر كما توجد مزارعه بضواحيها (75). وإيغلي من بناء أحد الأمراء الأدارسة في القرن الرابع / العاشر. وإذا، فهناك احتمال قوي بأن زراعة قصب السكر دخلت من مصر على الأرجح، عن طريق الأدارسة.

وكانت مراكش في العهد المريني تتميز بوجود عدد كبير من مصانع السكر بها، وقد قدرت بأربعين معملا للتصفية (76).

وكان سهل سوس، كما هو الآن على وجه التقريب، ينتج البواكير وزيت الأركان واللوز والتمر والشعير، (77) ويستقبل تجار مراكش وفاس والسودان، وهم يتزودون منه بمقادير كبرى من السكر (78).

وتنتج منحدرات جبال كدميوة الزيتون والشعير، بينما تسود مناطق جزولة الحياة الرعوية التي كانت تغل على السكان ثروات هامة (79). وفي هسكورة ينتج الزيت بكميات ضخمة، وكذا الجلود التي يتم دبحها وإعدادها في عين المكان، وهي حينئذ أهم مورد للسكان (80).

كذلك تعيش تادلا على تربية المواشي والنشاط الزراعي. وقد كانت تكثر بها الكروم والفواكه، أما الحبوب الزراعية فعلى قلة. وتصنع بها برانس يقع عليها طلب شديد من سكان الأقاليم وحتى من التجار الأجانب (81).

ولتأمننا أيضا، حظ كبير من زراعة الكروم والفواكه. أما بسيط سايس فينتج مقادير عظيمة من القمح والفواكه (82).

ويعيش سكان المناطق الشمالية في بؤس شامل، وقد وصف مسافر برتغالي ناحية القصر الكبير (83). فأكد هذه الصفة بالنسبة لهؤلاء السكان كما ذكر انهم يرتدون ثيابا رثة، وأن أهم مواردهم من تربية الماشية. وهم شجعان، لكن الطمع والخداع من طباعهم كما يزعم، وسكناهم نواويل من القش والتبن. ويقرهم ياوي الى حظيرة منزلهم. وهم يتناولون قليلا من السمك، ويستعملون الزبدة في طبخهم عوض الزيت التي لاوجود لها عندهم.

وقد شهد المغرب فترة حقيقية من الأمن خلال حكم أبي الحسن المريني على الرغم من بعض الثورات العابرة التي لم تخلف نتيجة تذكر. وكان يسهر على الأمن في البوادي شرطة من السكان المحليين الذين يتعين عليهم أن يضمنوا حماية المسافرين وتزويدهم بالمؤن. ويتم تأجير هؤلاء الحراس باقطاعهم أرضا يستغلونها (84). وكان المغرب يتوفر على فائض كانت المخازن الجماعية تتولى ادخاره للسنين العجاف. وقد يتم تصدير كميات الى الخارج. وهكذا ففي سنة 1302 م أجريت اتصالات بين ممثل عن مملكة أراغون وأبي يعقوب يوسف لتصدير القمح الى هذه المملكة (85).

وبالإضافة الى المنتجات الزراعية كانت عدة مناطق تتوفر على معادن أساسية كالديد والنحاس والفضة، ومن بين المناطق المعدنية : تامسنا وجزولة وسوس. وكان استغلالها يتم في الغالب على يد السكان المحليين فيدر عليهم ربحا جيدا (86).

أما بيع المنتجات فيتم بفضل الأسواق الأسبوعية والدورية وهناك معارض سنوية قد تستغرق شهرا أو عدة أسابيع. وتمثل الأسواق القروية الحالية نموذجا تقريبا للأسواق كما كانت قبل الاحتلال الروماني وعبر العصور المتوالية. فهناك مثلا، سوق ينعقد خارج مكناس كل يوم اثنين يتم فيه بيع الزبدة والصوف والشمع والجلود ويحضره سكان من العرب والبربر (87). وهناك سوق آخر بناحية فاس، وهو من أسواق عديدة (88). ومن أشهر المعارض الإقليمية معرض جزولة الذي يستغرق شهرين، ويتولى حراسته سكان المنطقة. وتنتظم خيام الباعة صفوفًا حسب أنواع بضائعهم التي يعرضونها. بخيامهم. ويتقاطر على هذا المعرض تجار من جهات مختلفة بالبلاد كما يؤمه تجار من أقطار السودان (89).

وكان بنومرين أول دولة اسلامية بالمغرب اهتمت بالبوادي والمراكز الصغرى لا على أساس مردودها فحسب، بل على أساس متطلباتها أيضا. فاضافة الى محاولاتها لتوطيد القبائل الرحل وحملها على مزاوله العمل لزراعي واقامة نقط حراسة، أنشأ يعقوب المنصور المريني لأول مرة شبكة من دور الاستقبال عبر البوادي والمراكز القروية ويحل بها التجار

والمسافرون للراحة والتزود بالمواد الغذائية شراء. وهذا يتيح للبوادي انعاشا اقتصاديا ويربط سكانها بسكان المدن المتنقلين للتجارة والسياحة والعمل الاداري. وسميت هذه الدور بالزوايا. ولم يكن اسم الزوايا معروفا بالمغرب في اطاره الديني. وهكذا أصبحت الدور المذكورة بالتدريج خلوات للمومنين المنقطعين الذين يرون في مواقعها أفضل الأماكن للتأمل والذكر. وكانت دور الاستقبال المذكورة تبني حسب الظروف المكانية، فهي عبارة عن دور بسيطة كدور القرى، أو فنادق من طابق أو طابقين (90). وفي الواقع كان لهذه المراكز نظائر بالشرق الاسلامي كما في تركيا السلجوقية التي نظمت دور الاستقبال تنظيما محكما.

واذا تركنا جانبا هذه المظاهر الايجابية من نشاط المجتمع القروي في فترة ازدهار الحكم المريني فان هناك جوانب سلبية أثارها وجود اعداد كبرى من الجماعات البدوية العربية التي تعيش عيشة الترحل ولا تقبل الخضوع لسلطة مركزية الا بالقوة، وهذا تماما ما حصل أيام الملوك الاقوياء كيعقوب المريني وأبي الحسن، ولكن الأمر سيختلف عن ذلك بعد موت أبي عنان. فقد ساعد عدم الاستقرار السياسي بعده على حدوث انعكاسات خطيرة في الميدان الاجتماعي والاقتصادي كما سيتضح.

والحق أن الشمال الافريقي عرف حياة الترحل قبل دخول بني هلال (91). فان ادخال الجمل الى هذه المنطقة منذ عهد سحيق (أيام الرومان الأوائل على الأقل) ليمتلك استمرارا للحياة الرعوية غير المستقرة في أجزاء معينة من المنطقة.

أما بنو هلال الذين عرفوا بدورهم خلال أحقاب متطاولة، حياة الترحل والتنقل، فانهم ظلوا زمنا غير قصير لا يحسنون استغلال الاقطاعات التي منحوها أيام الموحدين وبني مرين. ثم جاء الاحتلال البرتغالي للشواطئ المغربية التي تتوفر على أجود السهول فحرم هؤلاء العرب من الاستقرار فضلا عما ينشأ من جفاف يكاد يكون دوريا كل سنتين أو ثلاث، وما يحدث من اضطرابات سياسية داخلية يساهم فيها هؤلاء البدو أيضا.

وقد أشار كل من الحسن الوزان ومرمول الى وجود الرحل من قبائل العرب في عدة جهات بعضها انقرض فيه هذا النمط من الحياة قبل زمن طويل كما أن بعضها معروف الآن بجودة تربته ونتاجه الوفير. وهكذا يشير مرمول الى وجود بني سفيان في تافنازرة (92). (باناسا)، وقبائل عربية أخرى في سايس (93) وسفوح الريف (94) وحوض ملوية (95).

غير أنه ينبغي أن لا نستهيئ بدور هؤلاء العرب الايجابي في الميدان السياسي ؛ فقد ساهموا في حركة الجهاد بالأندلس وبالمغرب (ضد البرتغال والاسبان)، وساعدوا الدولة على اخضاع بعض المناطق الثائرة وكان الملوك المرينيون يضمنون ولاعهم بطرق مختلفة :

- 1 - عن طريق الصهر
- 2 - عن طريق التحالف
- 3 - عن طريق الاقطاع الزراعي (96).

وقد عرف بنو مرين كيف يتألفون العرب أو يخضعونهم في الظروف التي كان فيها للملوك سلطة ومبادرة في التدبير ؛ وكثيرا ما كان على زعماء القبائل ووجهائها أن يرهقوا أولادهم لدى السلطة المركزية حتى اذا ما بدت من الزعماء خيانة كان مصير هؤلاء الأولاد الاعدام. ومع ذلك، فيبدو أن بني هلال في افريقية كانوا أقوى منهم في غيرها من أجزاء المغرب الاسلامي ؛ ويعتبر جورج مارسلي أن عرب افريقية الذين عملوا على اسقاط أبي الحسن كانوا بالتالي سببا في اضمحلال الدولة المرينية تدريجيا (97).

وقد كان استقرار بني هلال والقبائل المرافقة لهم في السهول دون الجبال. ومن أجل ذلك تراجعت أعداد كبرى من البربر الى المناطق الجبلية. غير أن بعض السهول كانت قد أفقرت فعلا من سكانها كما هو الشأن في منطقة تامسنا منذ أن تعقبت سيوف المرابطين قبائل برغواطة. واذا أضفنا الى ذلك مناطق المغرب الشرقي والجهات الصحراوية جنوبا، تبين لنا أن قبائل العرب قد نزل قسم كبير منها في جهات خالية أو شبه خالية، ولكن، ما أن بدرت عوامل الضعف في السلطة المرينية حتى عمد العرب الى ارغام سكان البوادي حيثما وانتهم الفرصة على أداء الأتاوات والضرائب جورا وفي غيبة عن تدخل السلطة، وهكذا كانت ركازة وكدميوة من القبائل التي تؤدي الرسوم لبني هلال. بل ان كدميوة تركت البسائط خوفا من تسلط القبائل المغربية وأخذت تشغل المنحدرات وتؤدي ثلث دخلها سنويا. وألزم سكان بعض القرى الواقعة على أم الربيع في الطريق الممتدة بين فاس وتادلا بحراسة المنتجات التي يجمعها بنو هلال، وباستخلاص رسوم معينة من المسافرين المارين بالمكان. وكان بنو باسيل مجرد اقطاع لهؤلاء، يؤدون اليهم مجموع دخل أرضهم. وعرف بنو تودة بثروتهم (بناحية فاس)، ولكنهم أصبحوا بدورهم في خدمة الأعراب (98).

وعلى اثر اكتساح الجيوش المرابطية لتامسنا ظلت هذه المنطقة مهجورة لمدة مائة وثلاثين عاما. وذكر الحسن الوزان أنها كانت تشمل قبل هذه الفترة أربعين مدينة وحوالي ثلاثمائة قرية (99).

وساهم بنومرين بدورهم في تخريب عدد من القرى والمراكز الصغرى والمتوسطة. وهكذا خرب أحد أمرائهم في عهد أبي سعيد قرية فنزارة في الطريق الواقعة بين سلا وفاس. وفي عهد هذا العاهل أيضا ثم تخريب قرية خميس مدغرة وقرية بني باسيل وكلاهما بضواحي فاس. ودمرت تاويرت الواقعة على أبواب الصحراء الشرقية في طريق تازا - وجدة خلال حروب بني مريم ضد بني عبد الواد (100). وشهدت بعض المنشآت الموحدية بالرباط خرابها على يد بني مريم أيضا (101).

وفي الواقع ساهمت دول أو حركات قائمة فيما قبل العرب بزمن طويل في تحطيم المراكز والقرى، فقد كانت الحروب لا ترحم انسانا ولا مسكنا أو مدينة أو قرية أو زراعا. وكان مما حطمه الفاطميون مثلا، حصن أمركو بناحية فاس وقرية بني تودة وكلاهما أعيد بناؤه، كما خربوا قرية تنزرت وهي من بناء الرومان بناحية فاس، والمزمة من موانئ بحر الروم (البحر المتوسط) (102).

وختتم البرتغال أو كادو، سلسلة الاعمال التدميرية التي شهدتها بوادي المغرب وممنه خلال عصور متوالية. وكان من المراكز المخربة مادم في حروبهم مع بني مريم أو مع السكان المحليين، كما هاجر هؤلاء العديد من مراكزهم السكنية التي افقرت بعدهم أوسويت خرائبها بسطح الأرض حتى غدت كأن لم تغن بالأمس. ومن أكثر الجهات تضررا، دكالة وناحية آسفي وتامسنا. ومن المدن والقرى التي خربت بها أو هجرت : مائة بير، والمدينة والغربية، وبو الاعوان وأنفا والمنصورة (وهي غير المنصورية) (103).

على أن قبائل العرب كان لها بالمقابل دور نشيط في التجارة مع الأجانب الذين كانت تحتك بهم في السهول الأطلسية، كما أنها زرعت مساحات شاسعة من الصحراء نخلا يدر مزيدا من الدخل على السكان (104).

ويتجلى تأثير هؤلاء العرب خاصة في عملية التعريب الشاملة لعدد من المناطق كدكالة والهبط وأزغار (الغرب). كما أسهموا بكبير حظ في بعث حركة التعليم العربي ونشرها على نطاق واسع في مراكز السهول الأطلسية وغيرها.

المرأة والحياة العائلية

يقول لوتورنو بصدد الحياة الاجتماعية بفاس : (105) « لا يمكن أن نتحدث عن حياة عائلية متسabee، فقد كان لكل وسط اجتماعي حياته الخاصة وداخل كل بيئة اجتماعية، تختلف التقاليد الخاصة من أسرة إلى أخرى... »
ويصدق هذا الرأي على نمط الحياة الاجتماعية في عامة مدن المغرب وقراء، فالمؤثرات تختلف ؛ ففيها ما هو منقول عن بيئات بعيدة، أو متوارث أو خاضع لتأثير أسر مهاجرة.

وللمرأة بفاس دور رئيسي في المسؤولية العائلية. فهي منذ القديم تسهر على شؤون بيتها وتعليم أبنائها، وزوجها يتجر أو يعمل، وهو لا يكاد يتصل بأبنائه إلا مساء وفي وقت متأخر. ومع ذلك فاتصاله بأبنائه وبناته حتى حول المائدة قليل، لكن الأبناء مع أهمهم أوثق صلة ولهم بها ألفة أكثر (106).

ويستأثر الزوج بشراء حاجات المنزل اليومية أو يكلف بها من يثق به من الخدم. ويعيش في نفس المنزل، العزاب والمتزوجون من الأبناء. وتعيش الأسر ذات الدخل المحدود في غرف متجاورة بنفس المنزل، حيث تشغل الأسرة بكل أفرادها غرفة واحدة تعد في آن واحد قاعة استقبال وقاعة أكل وحجرة نوم.

ويرى لوتورنو أن المرأة الفاسية على الرغم من ذكائها فإن عقليتها تختلف عن عقلية الرجل، لأن عقائد من رواسب الجاهلية وبعض المعتقدات المستوردة من إفريقيا السوداء عن طريق « العبيد » ، وكذا صنوفا معينة من الأطعمة اليهودية ؛ كل ذلك امتزج بتقديس الأولياء وبعض الطقوس الخارجة عن الإسلام. ويستنتج لوتورنو مع هذا أن العجائز والشبان، والأغنياء والفقراء كانت لهم عن العالم تصورات متشابهة، وللقوى غير المنظورة تأثير مستمر في هذه المعتقدات.

إن تفكير المرأة الفاسية لم يكن من مستوى عال في العصر الذي نحن بصددده، ولكن الوصف القاتم الذي يقدمه لوتورنو عنها يجرّد حضارة المجتمع الفاسي من مميزاتها الأساسية التي تتمثل بالذات في ذكاء الأنثى فيه وقدرتها على مسايرة التطور وإسهامها في عدة جوانب من الحضارة الفكرية والفنية، وهذا بالطبع إلى جوانب عوامل أخرى لها دورها في تأصيل هذا المجتمع وتطوره. وعلى أية حال، فوضع المرأة المغربية في العصر

الوسيط وبعده بقليل ينبغي أن يقارن بوضع زميلاتها في جهات أخرى في نفس الفترة ليتبين أن المرأة الفاسية على الأقل لم تكن بمثل هذا التفكير الجاهلي الذي لم يمثّل له أستاذنا المرحوم وترك عنه صورة غامضة.

وكان من مظاهر الحياة العائلية منذ زمن طويل تعدد الزوجات الذي كان شائعاً في جهات كثيرة، ولكنه قليل في أخرى كما في سوس مثلاً حيث يلعب النظام الأبوي في الأسرة دوراً بارزاً. فمع الأب يعيش أولاده وأحفاده. وأصغر وحدة أسرية تدعى بـ « اخص » (107). أما تعدد الزوجات فيما رسه الفقهاء خاصة. ويتزوج البنات من العمال القادمين من خارج القرية لمزاولة العمل الزراعي (108). وللمرأة السوسية حرمتها كربة بيت. وهي تتعاون مع الرجل وتتحمّل معه أعباء الحياة بأمانة وإخلاص.

وتتمتع الريفية بحرية واسعة تتجاوز حرية زميلاتها السوسية، فمنذ قديم وحتى الآن يمكنها أن تدخل إلى السوق بائعة فضلاً عن كونها مستهلكة (109). ويبدو أن للاحتكاك بالعناصر الأجنبية لاسيما الوافدة منها من أوروبا له أثره في هذا الاستقلال لدى المرأة الريفية. ويروي مصدر برتغالي (110). معاصر لبني وطاس تفاصيل غريبة عن نساء بني حسن اللواتي كن يرتدين زي الغاليسيات، وهو زي يعود إلى العصر القوطي كما يذكر هذا المصدر. وفي كل سنة يحتفلن بذكرى القديس يوحنا باتيستا، فيغتسلن في البحر ويرقصن بلباسهم الغاليسي في أزقة تطوان. وإلى ذلك فهن لا يشتركن في الحرب ضد برتغال سبتة.

وكان للطوارق، وهي نسبة محرفة على ما يظهر، إلى ترغّة نظام أمومي يجعل للولد البكر خلافة أمه، ثم يليه ابن خالته ثم أخته الكبرى (111)

أما عن الصفات المادية للمرأة، وسلوكها العام فقد ترك لنا كل من الحسن الوزان ومرمول وصفاً دقيقاً لها في أنحاء مختلفة من المغرب. فقد كان نساء المدينة (دمنات) كما وصفهن الوزان (112) ذوات بياض وجمال فائق، وأكد أنهن يتحبن إلى الرجال بسهولة. ولنساء حاحا نفس الصفات مع ظرف ورقة ولكن أزواجهن ذوو غيرة (113). وشمل وصف الوزان ومرمول للمرأة لباسها وحليها وشواغلها اليومية. فنساء هواره الزناتيات يتحلين بالذهب والفضة (114) ؛ ونساء آيت عياض يعنن بلباسهن ويتحلين بالأساور والخواتم وغيرها من الحلي (115).

ويجعل نساء أيدا وعاقل بحاحا، خواتم من فضة في أصابعهن وأساور فضية في أرجلهن، والانات من الأسر الفقيرة يتحلين بحلي من النحاس والحديد (116)

والمرأة في أفزة (بفتح فسكون، من مدن تادلا المندثرة)، وفي مراكز أخرى تشتغل بغزل الصوف الذي ليس لها من عمل مربح سواه، ومنه تصنع أكسية وبرانس تحظي باقبال كبير (117).

وبينهما تعيش الأنثى في دأدس في وضع شاق، تحمل قرب الماء وتحتطب من الغابة لقضاء حاجات المنزل اليومية (118) فان أختها المكناسية تقوم بنسج القطن والصوف المنسوب الى بلدها، ويدها صناع في ذلك (119).

والمرأة العربية تلعب دورا اجتماعيا وسياسيا جديرا بالذكر، فلها مكانتها الاولى في البيت على الرغم من ظاهرة تعدد الزوجات في المجتمع العربي. واذا كان الزوج ينتمي لغير بيئتها القبلية حظي بحماية قبيلتها. (120) وتتولى مع هذا دور الوسيط في الحروب القبلية، والتحدث الى المنتصر نيابة عن الفريق المغلوب، فتقنع الطرف الآخر بذلاقة لسانها وبحق الأطفال في الحياة، وتلجأ عند الضرورة الى سلاحها الغريزي وهو بكأؤها لتستدر الرحمة والعطف (/ /).

وكذلك من المرأة الزناتية والعربية تساهم في الحرب لاثارة غيرة الرجال حتى يدافعوا الى النصر أو الموت عن حريمهم المعرض للسبي والاهانة (122).

وبعض النساء لعبن دورا سياسيا على الصعيد الوطني أو المحلي. فبعد اقضاء محمد الجوطي العمراني عن الحكم بفاس سنة 1464/869، تولت امرأة وطاسية تدعى زهور، بتعاون مع القائد الشجيري قيادة شؤون العاصمة الى حين قدم محمد الشيخ الوطاسي

وقد أعلنت عدة مراكز استقلالها في العهد الوطاسي، ومن بينها شفشاون (أو الشاون) التي أسسها بنو راشد سنة 1474/879 وحكموها الى قيام الدولة السعدية وتطوان التي أعيد بناؤها سنة 889هـ على يد بني المنظري الذين تولوا الحكم بها وهم من مهاجري الأندلس. ومن حكام هذه الأسرة أبو عبد الله المنظري الذي تزوج بابنة أمير شفشاون، واسمها عائشة، ولكنها اشتهرت بلقبها وهو السيدة الحرة (أو الست الحرة). وقد تعاونت الأسرتان على الحرب ضد البرتغال، كما ساعدت السيدة الحرة زوجها على ادارة تطوان، ثم خلفته في حكمها سنة 1528/935، ولكن بعد زواجها من جديد سنة 1562/948 استعاد بنو المنظري حكم تطوان وأصبح مصير الست الحرة غامضا. ويفترض

الأستاذ محمد داود أن سياستها تجاه البرتغال صارت مرنة ومركزة على المهادنة والمسالمة منذ أن تولت الحكم بصورة منفردة (123). واعتمد محمد المهدي الشيخ السعدي على العريفة بنت خجو التي كانت تخدم البلاط الوطاسي فيما سبق، لتتولي تنظيم الحياة الداخلية للقصر السعدي (124). وبصورة عامة، نجد المرأة في عصر بني مرين وسائر عصور التاريخ المغربي تشغل يعمل ما، ومصيرها يرتبط في جل الأحوال بمصير الرجل . وهو ينتظر منها في الحياة الزوجية أن تكون له مشيرا نصوحا وأن تخفف عنه بعض أعباء الحياة، كما تنتظر منه أن يكون وفيها حاميا لكرامتها قائما بالتزاماته الضرورية نحوها. وإذا كانت تتمتع في جهات كثيرة بحرية واسعة فانها بفضل قوة شخصيتها ونشاطها الدؤوب تسهم بنصيب عظيم في انعاش مجتمعتها اقتصاديا واجتماعيا.

اللباس

كان لبعض الفئات الاجتماعية زي رسمي خاص. فالسلطان والأشياخ والجند زي مشترك يشتمل كلباس للرأس على عمامة طويلة قليلة العرض وفوق العمامة منديل ينزل الى الكتفين. ويحمل كل منهم سيفا. ويتمنطق السلطان وكبار الشخصيات بحزام ذهب أو فضة أيام الحرب أو أثناء الاستعراضات العسكرية التي يحضرها السلطان الذي يرتدي برنسا أبيض كما يرتديه الفقهاء. وذوو النباهة. والفقهاء يرتدون كساء يتميزون به عن غيرهم وأسفله دراعتان وهما أشبه بجبة عريضة مشقوقة من أمام (126). ويتمم القضاة والكتاب وكذا الفقهاء أحيانا بعمامة خضراء ولا يحملون سيفاً قط (127).

ويعود اتخاذ البياض في الزي الرسمي الى عصر بني أمية بالأندلس (128)، فقد نبذوا السواد برأي زرياب، لأنه شعار الدولة العباسية والأسرة العلوية. ومن المعلوم أن المرابطين الذين استصدروا الاعتراف بدولتهم من الخلفاء العباسيين اتخذوا بدورهم السواد أو الزرق في ثيابهم، وهذا هو السر في انتشار هذين اللونين في الزي الصحراوي عبر المغرب الكبير حتى الآن. وتسرب البياض في أزياء الرجال من الأندلس الى المغرب منذ العهد المرابطي أيضا، ثم استأثر هذا اللون لتزكيته رسميا من أيام الموحدين.

ويؤكد مؤلف معاصر لبني مرين (129). أن البربر في هذا العهد كانوا يرتدون كساء من صوف وجبة من الأرجوان وعلى رأسهم طاقية خشنة وهم يحملون خنجرا يستعملونه سلاحا وزينة. وكانت هناك اختلافات محلية في الأزياء أو في طريقة ارتدائها فرجال حاحا

مثلا يتعممون بعمامة ولكن يحسرون عن أعلى رؤوسهم ولا يلبس الطاقية الا مثقفوهم وشيوخهم. وقليل منهم يلبس قميصا (130).

أما سكان جزولة فيلبسون قميص صوف قصير لا أكمام. له ويحملون خنجرا معقوقا وطرفاه حادان (131). بينما يرتدي سكان هسكورة ومراكش نوبا من الملف مزخرفا بالألوان حتى القدمين، وأسفله قميص وسراويل من ثوب أبيض، وعلى رؤوسهم طاقية تحف بها عمامة قصيرة، ويستعمل رؤسائهم ووجهاؤهم الحرير من مختلف الألوان (132). أما عامة الشعب فيرتدون لباسا مشابها بأثمان أقل.

ويصف مرمول وهو مثل الوزان معاصر وقريب من العهد الوطاسي لباس نساء هذه النواحي (جزولة) فيذكر أنهم يتحلين بأساور من ذهب أو فضة ويتقلدن قلادات من الأحجار الكريمة، وثيابهن من حرير أو من خيط رفيع تنزل الى أرجلهن (133). وكان الملف متعارفا في العصر المريني يجلب من اسبانيا حيث كان بنو نصر يصنعونه لباسا للشتاء (134). وقد ظل هذا الثوب متداولاً بكثرة في المغرب الى بداية الاستقلال وكان يجلب في القرون الأخيرة من بريطانيا.

وبين العلماء من لايهتم بارتداء الزي المخصص لنظرائه. وهكذا قارن ابن الحاج العبدري بين لباس علماء مصر ولباس زملائهم المغاربة، فأثبت أن زي هؤلاء قد يكون أكثر تواضعا من لباس تلاميذهم (135).

ويعد العنصر الأندلسي بفاس من أكثر العناصر المجتمعية تجديدا للآزياء وتطويرا للعدات. فقد كان لسكان فاس لباس للشتاء يتكون من قميص ومعطف ضيق له أكمام. وفوقه يلبسون دراعة ثم جبة، وعلى رأسهم طاقية تلفها عمامة تمر من تحت الذقن. ويرتدي علماء وشيوخ فاس معطفا له أكمام عريضة. وعامة السكان يرتدون المعطف والبرنس من غير جبة ولا عمامة. والثياب تختلف ألوانها. وقد دخل الحرير والملف والصوف لباس الرجل والمرأة معا.

وترتدي الفاسية فوق القميص قفطانا مطرز الحاشية. ولم تكن قد عرفت السبئية (غطاء الرأس). فكانت المرأة الفاسية تعطي رأسها بثوب رفيع من الحرير المطرز، وقد عم

التطريز معظم الملابس، ابتداء من البلغة (النعل) أو الشربيك والمناديل والقفاطين. وبينما تغطي السراويل سائر الساقين فالقفطان والقميص لا يتجاوزان منتصفهما

وتضع الفاسية على وجهها لثاما يغطي ماعدا العينين، وفي أذنيها أقراط ذهب مخلاة بالأحجار الكريمة. وهذه الأقراط من كبر الحجم بحيث تشدها المرأة الى أعلى رأسها بخيط من حرير. والأساور من ذهب أو فضة حسب المستوى المادي للمرأة (136).

وقلدت العربيات من بني هلال، البربر في أزيائهم فتمنطقن بالمضامات مثل رجاال المخزن البربر، واستعملن الحناء في رؤوسهن وأظافرهن.

الأوضاع الصحية

لم تكن توجد لدى الدولة مصالح صحية عامة، بل مرستانات بناها بعض الملوك، وعددها الضئيل لا يستجيب لحاجيات السكان. وكانت الأزيال تتراكم عدة أيام في الأزقة قبل أن تزاح وتنقل على ظهور الحمير الى خارج المدن. وإذا كانت الأوبئة قليلة نسبيا في العهد المريني فقد كانت تصيب المدن بصفة خاصة (137).

ومن الأمراض المنتشرة التي أشار اليها الوزان وكانت في الواقع معروفة قبله ثم بعده بوقت طويل : القرع وأمراض الأسنان والمعدة ووجع البطن (138). وكان الإفراط في أكل الجوز والزيتون مما يسبب الجرب (139).

وانتشر مرض الزهري منذ بداية القرن التاسع/ الخامس عشر، ولم يكن معروفا بالشمال الافريقي قبل هذا التاريخ. وقد تسرب الى المغرب عن طريق اليهود المطرودين من اسبانيا وكذا الموريسكيين الذين كانوا يخالطونهم.

وكانت الأزمات العصبية من كل نوع تصيب الأطفال والنساء وتعزى الى الجن. وقد كانت تعالج بالتمائم والحروز.

وكان التسمم بمختلف أشكاله المعهونة آنذاك شائعا وفتاكا أحيانا (140). ومن مسبباته تعريض المواد الغذائية للحشرات والنمل وكلها تتغذى من أجسام قد تكون ميته وخطيرة كبقايا الأفاعي. ولكن السلطة تتدخل لمنع المواد التي ثبت تسممها.

وتتوفر جل المدن على مستشفيات، ولاسيما المدن الكبرى. وقد بنيت المستشفيات المرينية الاولى في عهد أبي يوسف وأبي يعقوب الذي كان من تجهيزاته الصحية بناء مارستان قرب تلمسان (بالمصورة) (141). وبنى أبو عنان بسلا مارستانا كان من قبل

سوقا للزيت بالملاح القديم بباب حساين، ويشتمك على عدة غرف للمرضى العاديين والمجانين والحمقى. وله أطباء وممرضون، ثم تخرب هذا المارستان وعاد الى مهمته السابقة باسم « فندق أسكور » (142).

ووصف ليون الافريقي مستشفيات فاس بأنها كانت كثيرة في عهده (143). وكان منها ما هو بداخل المدينة وما هو بظاهرها. وكان لها قبل أبي سعيد الثاني أوقاف عديدة لتسييرها وصيانتها. ولكن هذا العاهل استولى على مواردها التي أنفقها في حروبه ضد الثوار العديدين. ومن هذه المستشفيات، مارستان سيدي فرج الذي تبقى الى يومنا هذا، وكان يتوفر على ما يحتاج اليه من أطباء وممرضين وقومة وطباخين فضلا عن التجهيزات المستعملة في ذلك العهد، ولكن مرمول وجد مستشفى « سيدي فرج » المعد للغرباء قد أصبح لايزود المرضى بالأدوية ولكن يقدم اليهم الطعام والخدمة العامة (144).

ويخضع صنع الأدوية لطرق بدائية، فالاعمال الكيماوية تسند الى أشخاص لايطبقون أحيانا شروط النظافة (145). وكان الأطباء هم الذين يتولون بأنفسهم صناعة الأدوية التي يحتاجون اليها (146). ولهم دكاكين بسوق العطارين. وبها مستخدمون يتولون بأمر الأطباء الذين ينشغلون بالزيارات الطبية تسليم وصفات العلاج الى المرضى. وهي وصفات مكتوبة (147).

ووصف ليون الافريقي (الحسن الوزان) دكاكين العطارين بأنها كانت غاية في جمال الزخرف والسقوف والخزانات، وقال « أظن أنه لا يوجد في الدنيا كلها سوق للعطارين شبيه بهذا ».

ويطلب من الطبيب أن يكون كتوما لاسرار وحسن النية ذا عطف انساني. ويجب أن يكون ذا معرفة تامة بالبيئة الاجتماعية والجغرافية التي يمارس بها نشاطه، وأن يستخير عن طريقة حياة المريض في طفولته وشبابه. وقد كان بفاس طبيب أشار اليه ابن الحاج في المدخل دون أن يذكر اسمه (148). يشخص المرض بعد تحليل بول المريض ومعرفة سنه وجنسه ومسكنه وما يشكو من آلام. والبول الذي يخضع للتحليل يجب أن يفزره المريض بعد استيقاظه ويوضع في قاروره.

وعامة السكان يستشيرون في الغالب بعض العجائز اللواتي يعرفن بعض الأدوية المستخرجة من النباتات. ومع ذلك فللسحر دور كبير في أنواع مختلفة من العلاج والأمراض، وكما يقول « لوتورنو » فان الحمام العمومي يحدث ونوعا ما، توازنا في الحاجيات الصحية من حيث النظافة ابدنية التي هي واجب ديني يلزم ممارسة بدقة، حسب تعاليم الاسلام (149).

تعليقات :

- 1 - 8 Cèlerier : Mémorial Henri Basset, T. 1, p. 159
- 8 Jean Despois : L'Afrique du Nord, pp. 31-73
- J. Martin et ses compagnons : Géographie du Maroc, pp. 84, èçù
- 2 - معظم المراجع في هذا الباب معاصرة، ومنها :
 - ابن خلدون : كتاب العبر، بيروت، 1959م
 - م. مجهول : الذخيرة السنية
 - روض القرطاس (ترجمة بومبي)
 - ابن الأحمر : روضة النسرین
 - ابن الخطيب : اللحة البدرية
 - وهناك مصادر أخرى تذكر في مكانها
- 3 - ابن خلدون : تاريخ، ص 7، 1 - 8
- 4 - م. مجهول : الذخيرة، ص 16 - 17
- 5 - ابن خلدون : م. ص 388
- 6 - بالنظر لموقع سبتة ومناعتها الطبيعية ظلت هدفا لمطامح المغيرين من الخارج والناشرين بالداخل منذ قرون عديدة، فالبيزنطيون اكتفوا بها وبضواحيها عن احتلال أجزاء أخرى من المغرب .
 وحين قدم الفاتحون العرب كان يحكمها يوليان الغماري الذي يحتمل أن يكون قوطيا. ثم استولى عليها البرغواطيون الى أن استخلصها منهم المرابطون، وعند قيام الموحدين ثار بها عياض مساندا لشريعة دولة المرابطین، وقبل سقوط الدولة الموحدية نشأت بها امارة محلية هي امارة بني العزفي التي استمرت مدة طويلة أيام بني مرين الذين حكموها مدة قرن قبل أن تسقط في يد البرتغال (1415/818).
- 7 - ابن الخطيب : اللحة البدرية، ص 95
- 8 - H. Terrasse, Histoire du Maroc, 2, 59
- 9 - أبو سعيد عثمان (800-823/1398-1429)
- 10 - محمد الانصاري : اختصار الأخبار، هسبريس، مجلد 1931/12. الفاصري : الاستقصاء،

- Castonnet des Fosses, Les Portugais du Maroc. p. 5 .92,4
Robert Ricard : Hespéris Fas. 4/1934
Auguste Cour : La dynastie Marocaine des B. Wattas. p. 47 – 11
- 12 – م. مجهول : الذخيرة السنية، ص 19
- Léon L'Africain : description de l'Afrique, 1,118, Castonnet des Fosses : – 13
Op. Cit : P. 10. J. Caillé : La petite histoire du Maroc, P. 67
- م. مجهول : تاريخ الدولة السعدية التاكدارنية، ص 15. الناصري، م.س، 4، 142.
- Georges Marçais : La Berbérie Musulmane, p. 519 – 14
- O.P. cit. p. 521 – 15
- G. Marçais : Op. Cit p. 527. Terrasse: 7 ص 3-127. – 16
Op. Cit. p. 24
- Marçais, Op. Cit. P. 524 – 17
- Terrasse, Op. Cit : 1,22. Op Cit. 525-526 – 18
- Voir par Ex. Léon L'Africain, Description, pp. 45, 46, 60, 74, 142, 143, 303. – 19
Marmol, l'Afrique, 2,300
- Jean Despois : L'Afrique du Nord pp. 191-192 – 20
- 21 – م. مجهول، الذخيرة، السنية، ص 95
- 22 – الناصري، الاستقصا، 3، 27
- 23 – ابن خلدون، 7، 400
- Léon Description, P. 157 – 24
- Ibid – 25
- 26 – ابن خلدون، م.س، ص 617. ناصري، م.س. ص 184
- 27 – ناصري، ن.م. ص 19 و 59

- 28 - ابن خلدون، 7، 438، ناصري، م.س، ص 69 و 72.
- 29 - م. مجهول، الدخيرة السنوية، ص 82، المنونى مجلة البحث العلمي، 1965/2
- 30 - المنونى، ن.م
- 31 - Léon, Op. Cit. p. 206
- 32 - عبد الرحمن السعدي، تاريخ السودان، ص 223 - 226. الأفرني، نزهة، ص. 139 و 288
- (ترجمة هوداس). الناصري، اسقضا، 67، 5
- 33 - Léon Op. Cit. p. 206
- 34 - Le Tourneau, Fès avant le Protectorat, p. 217
- 35 - Ibid 255
- 36 - كان المزوار عند بني مرين يعني الحاجب أو نقيب الشرفاء
- 37 - Le Tourneau ويلاحظ أن هذا هو وضع السجناء أو ما هو أسوأ منه خلال العصر الوسيط
- 38 - في بلاد أخرى.
- 39 - عاش هذا المؤلف في أواخر القرن 15/9 م. وتوجد نسخة خطية من مؤلفه عن مشاهير أعيان فاس بالخرانة العامة بالرباط برقم د/1394. ونشره الأستاذ عبد القادر زماعة في مجلة البحث العلمي، ع 4، 3، 5 سنة 1964 / 1965 م
- 40 - م. مجهول، مشاهير أعيان فاس، بحث علمي، ع 4، 5، 1964 م، ص 42، 51، 54، 57. الخ.
- 41 - يلاحظ أن المؤلف المذكور يحدد من العائلات البربرية أكثر مما يحدد من الأسر العربية
- 42 - العمري المسالك والممالك. الجزء الخاص بالمغرب (بحث علمي، 1/1964 م ص 139)
- 43 - ن.م ص 145
- 44 - Pierre De Cenival. Eucyclopedie de l'Islam, art. Marrakech
ويعتبر كتاب 1912 Deverdun Marrakech des origines أحسن مؤلف حتى الآن يمكن الرجوع اليه كدراسة جديدة عن مراكش السعدية، فضلا عن اهتمامه بمراحلها التاريخية الأخرى.
- 45 - Léon Description de l'Afrique, p. 263
- 46 - Ibid 98
- 47 - Ibid 165
- 48 - Ibid, 165. Marmol, l'Afrique. 2. Pp 148, 237
- 49 - Léon, op. cit. : pp. 78, 125
- 50 - Léon. Op. Cit : pp 78
- 51 - Léon. Op. Cit p. 252. Marmol. Op. Cit, p. 206
- 52 - Léon. Op. Cit. Pp. 274, 289 Marmol, Op. Cit : pp 251-284

- 53 - ابن القاضي، جذوة الاقتباس، ص 589
- 54 - محمد المنوني : مجلة البحث العلمي، 1964/2 م ص 207
- 55 - يراجع أيضا : ابن خلدون مقدمة (المطبعة البهية)، ص 195، وانظر :
Le Tourneau, Fès avant le Protectorat. P. 213
- 56 - المنوني، م ص ص 255
- 57 - م ص ص 256
- 58 - م ص ص
- 59 - انظر عن وفود الحجيج : ابن خلدون، تاريخ، 7 ص 259، 468، 470. المقري، نفح
الطيب، 6، 138. العبدري، رحلة، م خ ع، ورقة 45. التعريف بابن خلدون (لابن خلدون. ملحق ج 7
من التاريخ) ص 1168. المنوني، مجلة البحث العلمي 1957/1 م
- 60 - Milliot, Démembrement des habous
- 61 - Robert Montagne. Les Berbères et le Makhzen dans dans le sud du Maroc. p. 148
- 62 - Op. cit. p. 38
- 63 - انظر على سبيل المثال : Léon, Description, pp 75. 93, 117. Marmol, l'Afrique.
Pp 15, 17, 22. 40
- 64 - انظر أمثلة أخرى لهذا النظام الجمهوري أو الجماعي في : Leon. Op. Cit, pp 86, 95, 117.
وانظر أيضا : Marmol. Op. Cit. pp 40, 70, 97, 200, 209, 294
- 65 - G. Marçais, Les Arabes en Berbérie, P. 704
- 66 - G. Marçais, La Berbérie Musulmane au Moyen Age, p. 285
- 67 - G. Marçais, Les Arabes en Berbérie, p. 286
- 68 - Op Cit p. 704
- 69 - Le tourneau, Op. Cit. pp 46, 47
- 70 -
- 70 - ابن خلدون، تاريخ Scheliefer (I) Encyclopédie de l'Islam, art, Hilal
- 71 - ابن خلدون، م ص ص 69 - 80. ناصري، استقصا، 2، 151. G. Marçais. Les Arabes...
p. 529
- 72 - ابن خلدون، م ص ص 63 - 68. ناصري، م ص ص 152 - 155 - 537 - 532
Marçais. Op. Cit, pp 532-537
- والخط ليسوا من بني هلال، بل راققوا مع سليم وغيرهم، قبائل بني هلال أثناء ترحيلها في
العهد الموحي.

73- ابن خلدون، ن م ص 118-141، ناصري، س. ص 159-161-581-548

Marçais, Op. Cit. Pp. 548-581

وانظر أيضا : ماء العينين، الجأش الربيط، ص 28-31

74- Marmol Op. Cit. pp. 14, 18 Léon, Op. Cit. p. 75

75- البكري : المسالك والممالك (ترجمة دوسلان) ص 306. وقد أورد تفاصيل دقيقة عن

شجر الأركان

76- القلقشندي، صبح الأعشى (نقلا عن مسالك العمري) 175،5. وهناك دراسة حديثة عن

مصانع السكر القديمة بالمغرب :

P. Berthier, Les Anciennes sucreries du Maroc

وفي مجلة البحث العلمي 1964/1 م تعريب دراسة في نفس الموضوع كتبها هذا الباحث

77- Jaques Caillé, La petite histoire du Maroc, 1. 76

78- Léon, Description, p. 89

79- Ibid, 116

80- Ibid 130

81- Ibid, pp. 141, 153

82- Ibid 169

83- R. Ricard, in Hespéris, A 1936

84- المنوني، البحث العلمي، 1964/2 م ص 212

85- Dufourcq, L. Espagne Catalane, p. 356

86- Léon, Op. Cit, pp. 95, 115, 162

87- Marmol, Op. Cit, P. 154

88- Marmol, Op. Cit, Pp. 213, 155, 293-294

89- Léon, Op. Cit, p. 116

90- Op. Cit, Pp. 84, 124, 131, 242

وانظر عن الكرم البربري R. Montagne, Les Berbères et le Makhzen, p. 245

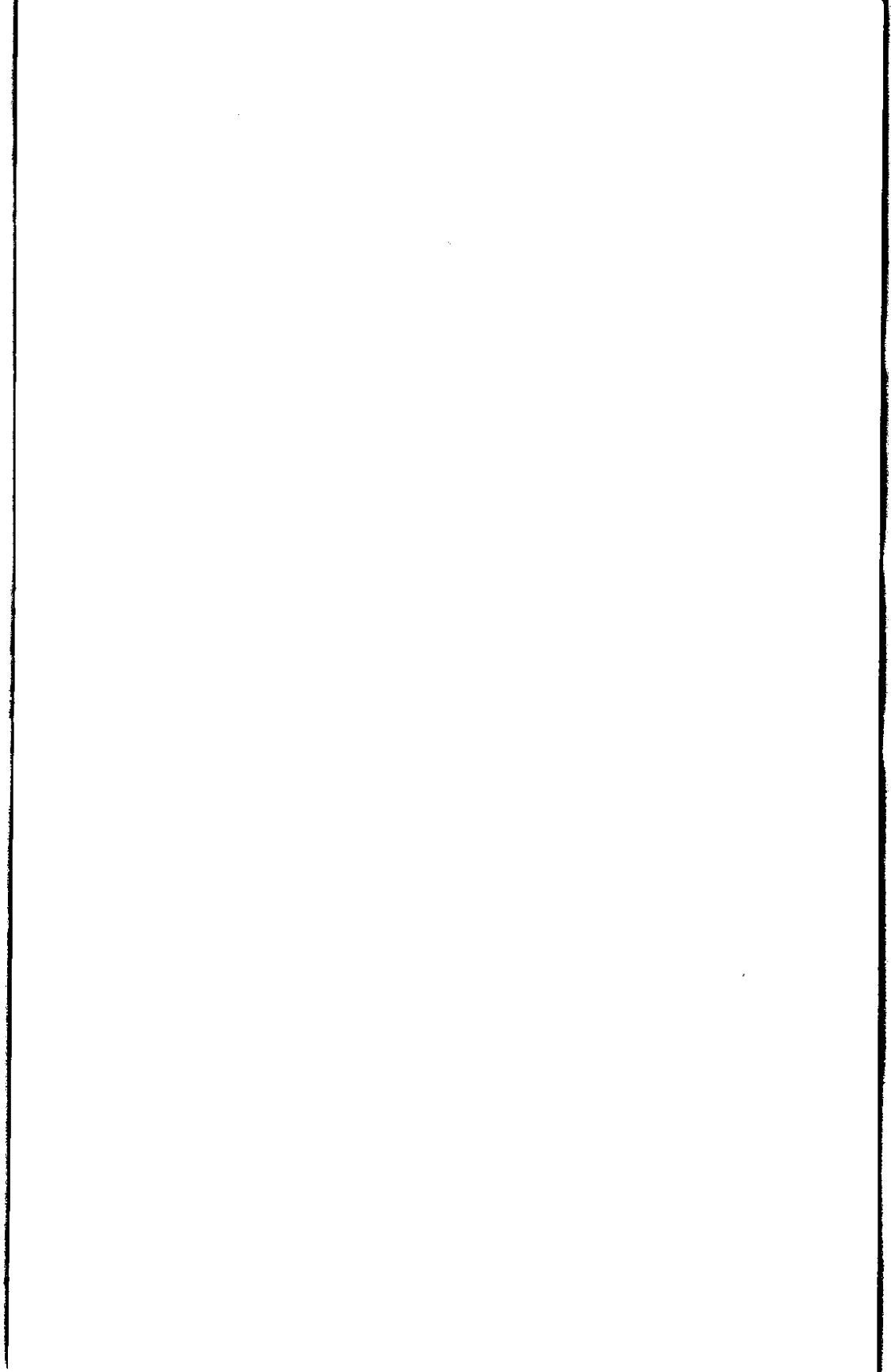
91- G. Marçais, Les Arabes en Berlérie, P. 690

92- Marmol, Op. Cit, p. 149

- Ibid 203 – 93
- Ibid 281 – 94
- Ibid 284 – 95
- G. Marçais, La Berberie Musulmane, p. 238 – 96
- Op. Cit. P. 287 – 97
- Léon. Op. Cit. Pp. 86, 97, 98, 163 Marmol, Op. Cit. pp 118, 156, 212 – 98
- Léon, Op. Cit. P. 171 – 99
- Op. Cit. pp 171 178, 179 Marmol op. Cit. pp. 195 201 – 100
- Léon Op. Cit. P. 165 – 101
- Marmol. Op. Cit. pp. 211, 212, 213, 268 – 102
- Léon, Op. Cit. Pp 121, 124, 160, 161. Marmol op. Cit. p. 110 – 103
- G. Marçais. La Berbérie Musulmane, p. 701. – 104
- Le Tourneau, Fès Avant le Protectorat, p. 544 – 105
- 106 – انظر حول حياة المرأة الفاسية، م. ح. ص 544 – 550
- R. Montagne, Les Berbères... P. 43 – 107
- Ibid – 108
- Ph. Marçais, Mémorial André Basset, p. 76 – 109
- R. Ricard, Hespéris 1937 – 110
- Ph Marçais. Op. Cit p. 131 – 111
- Léon. Description, p. 131 – 112
- Marmol. op. Cit. p. 15 – 113
- Ibid. 315 – 114
- Léon. op. Cit. p. 149 – 115
- Op. Cit. p. 84 – 116
- Op. Cit. p. 147 – 117
- Op. Cit. P. 153 – 118

- 119 - Marmol. Op. Cit. p. 154
- 120 - G. Marçais. La Berbérie musulmane. P. 706
- 121 - هذا وصف قريب مما يذكره جورج مارسى. وهو يمثل واقعا تاريخيا يتكرر كثيرا بعد انتصار قائد أو أمير في معركة
- 122 - م. مجهول، الذخيرة السنية، ص 131، 146، 707-706
- G. Marçais. Op. Cit. Pp 706-707
- 123 - محمد داود، تاريخ تطوان، 1. 119 - 123
- 124 - الأفرني، نزعة الحادي (ترجمة هوداس)، ص 55
- 125 - القلقشندي، صبح الأعشى، 5، 203-204. المنوني، مجلة البحث العلمي، 1964/1 م ص 148
- 126 - القلقشندي، م س ص 204. ابن القاضي، جذوة، ص 449
- 127 - القلقشندي، م. س ص 201، 2. 73، Terrasse. Histoire. du Maroc
- 128 - Pérès La poésie andalouse p. 320
- 129 - عبد الحق البادسي، المنزع اللطيف في أخبار صلحا، الريف. خ.ع. الرباط، ورقة 15
- 130 - Léon, Op. Cit. p. 72 Marmol. Op. Cit. p. 3
- 131 - Léon. Op. Cit. P. 46
- 132 - Marmol. Op. Cit. P. 62
- 133 - Ibid
- 134 - ابن الخطيب، اللوحة البدرية، ص 27
- 135 - ابن الحاج العبدري، المدخل الى علم التصوف، 1، 151. وهذا المؤلف من فاس، هاجر الى مصر واستقر بها وتوفي سنة 737 / 1336
- 136 - انظر عن أزياء سكان فاس : Leon Dexription de l'Afrique pp. 207-208
- Marmol l'Afrique. pp. 191-193 Le Tourneau. Fès Avant le protectorat pp. 500-503
- 137 - Le Tourneau Op. Cit. 247
- 138 - Leon. Op. Cit. 59-61
- 139 - Ibid 60
- 140 - ابن الحاج، م.س. 4، 146

- 141 - ابن خلدون، تاريخ، 7، 458
- 142 - ابن علي الدكالي، الاتحاف الوجيز، م.خ.ع. ورقة 24
- 143 - Leon. Op. Cit. p. 187
- 144 - Marmol Op. Cit. p. 161
- 145 - ابن الحاج، ابن الحاج م.ص.ص 150
- 146 - Leon Op. Cit. P. 200
- 147 - Ibrd
- 148 - يحدد ابن الحاج (مدخل، 4، 140) واجبات الطبيب ويذكر من بينها أنه ينبغي أن لا يسلم الطبيب للمريض وصقة طبية إذا عجز عن تشخيص داءه
- 149 - Le Tourneau Op. Cit. P. 247



المشروع والسياسة والمسرح : حول تطور الآداب في أواخر القرن الثامن عشر *

ان فكرة المشروع في حد ذاتها هي، في الحقيقة تنبثق كمصطلح من العلوم السياسية والتاريخية. ويخصص الفيلسوف السياسي الفرنسي روسو في كتاب « العقد الاجتماعي » فصلا لمناقشة فكرة المشروع (1).

وفكرة المشروع هذه ليست بفكرة جديدة أتى بها روسو في القرن الثامن عشر، بل هي ترجع الى العصر القديم. والمشرعون التاريخيون الذين يستشهد بهم روسوهم : نبي الله موسى وليكبرك ونوما ومحمد (ص). ولم يشتر روسو الى أول مشروع للشعوب السامية حمورابي، القائد الشهير الذي وحد الدولة البابلية، واعطاها قاعدة تشريعية هامة.

ومشروع روسو هو الرجل الذي ينتظر منه أن يحل « المشكل الأساسي » (2) الذي يطرحه الفيلسوف في كتابه الأول من « العقد الاجتماعي ». والهدف الذي يرمي اليه العقد الاجتماعي هو « ايجاد شكل للتجمع من شأنه أن يدافع ويحمي بفضل القوة المشتركة بكاملها شخص وأملاك كل مشارك، بواسطة يتحد كل واحد مع الجميع ولذلك فهو لا يستطيع الا نفسه ويبقى حرا كما كان من قبل » (3).

وبعد هذا نجد روسو يقع في مأزق : حيث أن الأشخاص الذين يريد منهم أن

★ ان هذه المساهمة تشكل جزءا من الفصل السابع من أطروحة الكاتب التي تناولت موضوع « مسرح السياسة - سياسة المسرح » والتي احرز بها على لقب « دكتور في الفلسفة » بميزة حسن جدا من جامعة هايدلبرغ بألمانيا سنة 1978 والتي صدرت أخيرا :

Fawzi Boubia, Theater der Politik - Politik des Theaters :

Louis-Sébastien Mercier und die Dramaturgie des Sturm und

Drang, Lang Verlag, Frankfurt. Bern / Las Vegas 1973

Gesetzgeber, Législateur - (1)

Problème Fondamental - (2)

(3) - وأن كنا لم نمل الى ترجمة ذوقان قرقوط للعقد الاجتماعي (دار القلم بيروت 1973)

فذلك يرجع الى عدم دقتها في هذه الفقرة بالذات : « ايجاد شكل من الاتحاد يدافع ويحمي كل القوة المشتركة شخص كل مشارك وامواله، ومع أن كل فرد يتحد مع الجميع الا أنه لا يستطيع الا نفسه

يجتمعوا في جمهورية ما (4)، لا يسعى كل واحد منهم الا الى تحقيق مصالحه الخاصة، لا لمصلحة الجميع.

وهنا يرجع روسو الى وجهة المشرع : « لاكتشاف افضل قواعد المجتمع التي تتلاءم مع طبيعة الأمم، لا بد من توفر عقل ممتاز يرى جميع اهواء الناس ولا يعاني منها أي هوى، ولا تكون له أية علاقة مع طبيعتنا لكنه يدركها حتى أعماقها، وتكون سعادته مستقلة عنا، ومع ذلك يريد الاهتمام بسعادتنا، وأخيرا أن يستطيع هذا العقل، وهو يراعي مجدا بعيدا لنفسه في تقدم العصور، العمل في قرن ليحصد ثمارة في آخر (5). والمشرع هو الذي ترجع اليه مهمة توعية الافراد بضرورة التجمع واقناعهم بالتعاقد الاجتماعي لتغيير طبعتهم.

وليس الهدف من هذه الدراسة التطرق الى فكرة المشرع من جوانبها ومشاكلها كلها. فمن يريد التوسع في هذا الموضوع عليه أن يراجع ابحاث فيشير (6) وبيركيلان (7) وكانيبيان (8) وبرانت (9) وديراتي (10).

ويبقى حرا كما كان من قبل «، الكتاب الاول، الفصل السادس، ص 48-49. وأما النص الأصلي فهو يقول :

«Trouver une forme d'association qui défende et protège de toute la force commune la personne et les biens de chaque associé, et par laquelle chacun s'unissant à tous n'obéisse pourtant qu'à lui-même et reste aussi libre qu'auparavant».

(4) - ومن المعروف أن روسو يقصد من « الجمهورية » شكل تجمع مبنى على أسس قانونية وجمهورية روسو يمكن أن تكون ملكية إرستوقراطية أو ديموقراطية. ويخصص روسو الملكية للبلدان الكبرى مثل فرنسا في ذلك العهد والإرستوقراطية للبلدان المتوسطة، والديموقراطية في نظره لا يمكن أن تطبق الا على شعب قليل العدد. وهذه النظرية ترجع الى كون روسو ينفى فكرة التمثيل. ففي البلد الصغير يسهل على الشعب التجمع بأسره والتعرف بعضه على بعض والتعبير المباشر على مواقفه. راجع في هذا الشأن الكتاب الثالث.

(5) - نفس المرجع، الكتاب 8، الفصل 7، ص 82

«Pour découvrir les meilleures regles de société qui conviennent aux Nations, il faudroit une intelligence supérieure, qui vit toutes les passions des hommes et qui n'en éprouvat aucune, qui n'eut aucun rapport avec notre nature et qui la connût à fond, dont le bonheur fût indépendant de nous et qui pourtant voulut bien s'occuper du nôtre; enfin qui, dans le progrès des temps se ménageant une gloire éloignée, put travailler dans un siècle et jouir dans un autre».

6

Iring Fetscher, Rousseaux politische Philosophie. Zur Geschichte des demokratischen Freiheitsbegriffs, Frankfurt/Main 1975.

7

Pierre Burgelin, Le social et le politique chez Rousseau. In : Etudes sur le contrat social de Rousseau. Publications de l'université de Dijon 30. Paris 1964, 165-176.

8

Reinhard Brandt, Rousseaux Philosophie der Gesellschaft, Stuttgart 1973

والشيء الوحيد الذي يجب تسجيله هو أن مشعر روسو يقنع الأفراد الأنانيين ويؤسس الدولة الديمقراطية وينسحب. وهو في نفس الوقت لا يعتمد على العنف لتأسيس جمهوريته مثل مشعر الفيلسوف الإيطالي « مكيافيلي »، وأهم من هذا كله فأنه في الجمهورية المكونة، ليست له أية وظيفة تشريعية.



وبعد هذه اللمحة عن فكرة المشعر في فلسفة روسو السياسية الاجتماعية، لننتقل إلى اصداؤها وابعادها في نظرية الآداب وممارستها.

فأول من ادخل صفة المشعر إلى النظرية الأدبية هو الكاتب الفرنسي « لويس سيباستيان ميرسيي » (11) أحد تلامذة روسو، وأول ناشر لمؤلفاته. فميرسيي هو أول كاتب في العصر الحديث يسعى إلى إقامة ربط وثيق بين الآداب والسياسة كما فعل المسرحي الألماني المشهور « بيرتولت بريشت » (12). في النصف الأول من هذا القرن. وإن دل شيء على تسييس ميرسيي للمسرح فأنما تدل عليه بعض عناوين مسرحياته مثل « عربة بائع الخبز » و « المحتاج » و « والفار من الجندية » (13).

فلا يصعب علينا أن نستنتج من خلال هذه العناوين بأن ميرسيي يستدعي على خشبة المسرح أفراداً ينتمون إلى الطبقة الغير المحظوظة في المجتمع، على عكس المسرح المدعو بالكلاسيكي الذي اقتصر فيه « كورناي » و « وراسين » على تمثيل ملوك اليونان والروم، وعمل «موليير» من جهته، على جعل الأشخاص الغير الارستوقراطيين منبعاً

Bernard Gagnebin : Le rôle du législateur dans les conceptions politiques de Rousseau. 277-290 9

Robert Derathé, Le rationalisme de Jean-Jaques Rousseau, Paris 1948. 10

(1914-1741) Louis Sébastien Mercier

(11) - أن صدى ميرسيي في ألمانيا كان عظيماً لا يتصور إلى درجة أن الأديب الألماني «كلينكر» قال فيه : « أن ميرسيي ظل الطريق إلى فرنسا. فحسب كثير من مؤلفاته ومسرحياته القديمة والجديدة - فهو كان في الحقيقة مؤلف الجمهور الألماني... »

Maximilian Klinger, Betrachtungen und Gedanken über verschiedene Gegenstände, Werke, XII, 73

وقال فيه أيضاً باحث أدبي معاصر مشهور : « أن مؤلف ميرسيي حول النظرية المسرحية أصبح حدثاً أدبياً ينتمي لتاريخ الأدب الألماني أكثر من انتماءه للآداب الفرنسي ».

Peter Szondi, Die Theorie des bürgerlichen Trauerspiels, im 18. Jahrhundert, Frankfurt/Main 1973, 167

(12) - Bertolt Brecht (1898-1965)

(13) La Brouette du vinaigrier, L'Indigent, Le Déserteur

للضحك والاستهزاء. فلم يقف ميرسي عند هذا الحد وانما خطا خطوة أكثر من معاصريه، مؤلفي الدراما المنعوتة بالبورجوازية، الذين يعرضون على جمهورهم مسرحيات مستوحاة من عالم الطبقة الثالثة، أي قصص تجار ومحامين وأطباء.

والطابع السياسي لمسرح ميرسي ليس منبثقا عن مؤلفاته الدرامية فحسب وانما هو نتيجة تفكير عميق وتركيز نظري وثيق. في كتابه النقدي المشهور « حول المسرح »، أو المحاولة الجديدة في الفن الدرامي « (14)، الكتاب الذي أثار موجة من ردود الفعل ونال إعجاب الحركة الألمانية « العاصفة والضغط » (15) مما حدا بزعيمها « جوتيه » (16) أن يعهد الى الكاتب « فأكتر » (17) بترجمته.

فميرسي لا يتوقف في طريقه نحو ربط المسرح بالسياسة ومطالبته بتحويل القاعة المسرحية الى محكمة، ينظر داخلها في شأن عدو الأمة تحت رئاسة الأديب، الذي يسند اليه ميرسي دور منصب القاضي الحاكم، وانما يخطو الخطوة الجريئة التالية، التي تتجلى في دعوته للأديب بأن يكون مشرعا واعيا يعمق مسؤوليته.



وميرسي، ان ادخل فكرة المشرع لروسو في النظرية الادبية، فهو لم يأخذها بمضمونها الخاص وانما بمفهوم آخر. وهذا يرجع الى كون « العقد الاجتماعي » صعب الادراك، حيث تعذر فهم هذا الكتاب على جل مشاركي الثورة الفرنسية المرموقين مثل ميرسي نفسه وروبيسبير وسان جيست (17) :

(14) — Louis Sébastien Mercier, du Théâtre, ou Nouvel Essai sur l'Art Dramatique, Amsterdam 1773

وصدر الكتاب بالالمانية في مدينة لايبزيغ سنة 1976 تحت العنوان التالي :

Mercier-Wagner, Neuer Versuch über die Schauspielkunst. Mit einem Anhang aus Goethes Brieftasche.

(15) Sturm und Drang (1767-1886)

(16) Johann Wolfgang von Goethe (1749-1832)

(17) Heinrich Leopold Wagner (1747-1779)

(17) — لمراجعة صدى روسو في الثورة الفرنسية أنظر الى مؤلف فيتشر المذكور اعلاه (الفصل

الخامس) والى كتاب جون ماك دونالد : روسو والثورة الفرنسية لندن 1965

Joan M Dorland, Rousseau and the french revolution London 1965.

- فروسو كان ينبغي امكانية الثورة في دولة مثل فرنسا ادى بها الانحطاط والانحلال الى الدرك الأسفل. فالثورة، حسب روسو، هي من حظ دول قلائل لم يصل بها الركب الى ماكانت فرنسا عليه من الانحلال آنذاك، وهذا يرجع الى تشاؤم روسو التاريخي، الذي يتجلى خاصة في كتابه الاول حول العلوم والفنون.

- وروسو ينبغي امكانية القيام بدولة ديموقراطية في فرنسا لكونها بلدا كبيرا شاسعا يستحيل فيه على المواطنين التعبير المباشر عن ارادتهم ففرنسا، يقول روسو، لاتناسبها الا الملكية وروسو يدعو الى الديموقراطية المباشرة ولايقول بفكرة التمثيل.

- ففي كل هذه النقط يختلف الثوريون الفرنسيون عن آراء مفكرهم الكبير، رغم انهم كانوا كلهم يستشهدون بروسو. ويظهر من خلال الابحاث الأخيرة بأن أنصار الملكية الذين حاربوا خصومهم كذلك بأفكار روسو، أصابوا أكثر من غيرهم في ادراك فلسفته السياسية. وبعد هذا التحليل التمهيدي حول حظوظ نظرية روسو في أواخر قرن النور، يتبين لنا بأن ميرسيي لم يختلف وحده عن أساتذته الكبير، فمشعره أقرب الى مشعر ماكيافيلي منه الى مشعر روسو. فهو لا يكتفي بأخذ السلطة بالقوة وانما علاوة على هذا يقوم بدور تشريعي بعد انشاء الدولة الجمهورية.

وتمشيا مع مطالبه النظرية يأبى ميرسيي الا أن يلعب في مسرحياته دور المشعر النبيل الذي يسعى الى القضاء على التشريع الاجرامي في عصره. فيتعرض في « الهارب » الى القانون المتعلق بالفارين من الجندية الذي كان يقضي بأن يعدم هؤلاء في الحين بمجرد القاء القبض عليهم دون محاكمة.

ويطرح كذلك ميرسيي في مسرحيته « عربة بائع الخل » مشكل عدم الموازنة بين الطبقات. ففي افتتاحيته يطالب ميرسيي بمشعر يقسم الثروات ويمنع الأغنياء من التزوج بعضهم ببعض. ويؤلف ميرسيي مسرحيته هذه على هذا النمط حيث أن القصة تنتهي بزواج « دومنيك » ابن بائع الخل « بدولومير » ابنة أحد أثرياء المدينة بعد تغلبهم على العراقل الاجتماعية التي حالت دون اقترانهما.

واذا كانت مسرحيات ميرسيي ليست في مستوى ابتكاره النظري، ففضله يرجع الى فتح آفاق جديدة للمسرح ذلك أنه أتاح الفرصة لنبغاء مسرح الدراما مثل « هيكو » (18) و

« لينز » (19) و « شلير » (20) لكي يقتبسوا من نظريته ويطورها حتى يصلوا بها الى مقام الفن الرفيع.



فلنتذكر أن ميرسي نال اعجاب الحركة الأدبية الالمانية « العاصفة والضغط » التي كان ينتمي اليها كل من « جوته » و « سيلر » و « لينز » والتي كان مركزها في « شتراسبورغ ». ان هذا الجيل الأدبي الالمانى الصاعد تحرر من القيود الفنية السائدة آنذاك ودعا الى عدم التمسك بها ونادى بتحويل الحرية المطلقة للناطقة العبقري الصاعد.

فهذه الثورة الأدبية الالمانية كما سماها « جوته » نفسه والتي يطلق عليها أيضا اسم « حركة النبغاء » أو « فترة العبقرية » وجدت في نظرية ميرسي تجسيما لمطامحها الأدبية والاجتماعية، خصوصا وأن هذا الأخير أخذ عن « ديدرو » (21) نظريته عن العبقري. ومن الأدباء اللذين تأثروا كثيرا بميرسي الشاعر المسرحي الالمانى الشهير شيلر الذي كتب في تأليفه المبكر العرضين النظريين الدراسيين الهامين « كيف يؤثر المسرح حقيقة في الشعب » (22) « وحول المسرح الالمانى المعاصر » (23)، وألف كذلك مسرحيات يبدو معناها من خلال عناوينها مثل « قطاع الطرق » (24)، « الدسيسة والحب » (25) و « مؤامرة فييسكو في جنوى » (26) و « دون كارلوس » (27).

(19) – Jakob Michael Reinhold Lenz (1792-1751)

(20) – Friedrich Schiller (1905-1759)

(21) – Denis Diderot (1784-1713)

(22) – Was Kann eine gute Schaubuhne auf das Volk Eigentlich Wirken?

(23) – Uber das gegenwartige deutsche Theater

(24) – Die Rauber

(25) – Kabale und Liebe

(26) – Die Verschwörung des Fiesco zu Genua

(27) – Don Carlos

ففي محاضراته الأولى أمام المجتمع الأدبي لأقليم «كوبفالتز» (28) يقول شيلر: «فما دامت العناية الأولى لأي مشعر حكيم هي أن يختار أقوى عامل في التأثير على الجمهور، فإنه لن يقتصر على تجريد أهواء العامة من غلوها، بل أنه سيستعملها كذلك، إن أمكن، بأي وسيلة كانت، كأداة من أجل الوصول إلى أهداف عليا، ساعيا في تحويلها إلى منابع السعادة. ولهذا يختار الأديب المسرح، قبل كل شيء، لأنه يفتح للفكر المتعطش إلى العمل مجالا غير محدود» (29).

ولعل أكبر مشعر عرفه الأدب الألماني هو شخص المركيز «فون بوزا» (30) في مسرحية «دون كارلوس». فبوزا الذي كان يتجنب حاشية فيليب الثاني، ملك إسبانيا، حتى نادى عليه هذا الأخير، يحاول أن يقنع العاهل وابنه دون كارلوس بضرورة إنشاء دولة ذات مشروعية والزام المواطنين بعقد اجتماعي. فمن خلال نقده للأوضاع السائدة يصل «بوزا» جدليا إلى معرفة حقيقة عصره وإلى مبدأ الدولة الفاضلة. ولعل أقوى فصول هذه الدراما التاريخية هو اللقاء الكبير بين فيليب الثاني وفون بوزا، ذلك اللقاء الذي برز هذا الأخير على أثره رمزا للحرية، حيث نادى بحرية التفكير وحرية الضمير والوعي :

(...) تخلو عن هذه العبادة الغير الطبيعية.

التي يؤديها الناس لكم، والتي تفنينا.

أصبحوا لنا نموذجا.

أصبحوا لنا نموذجا للحق على مدى الدهر.

أعطو المثل لمولوك أوروبا.

خط واحد من ريشة هذه اليد

ويصبح العالم مشيدا من جديد.

اعطو حرية التفكير. - (31).

(28) Rede vor der Kurpfälzischen deutschen Gesellschaft

(29) Friedrich Schiller, Was Kann eine gute Schaubühne eigentlich

Wirken. In: Samtliche Werke, herausgegeben von Gerhard

Fricke und Herbert G. Gopfert, München 5, 1975, V, 821

(30) Marquis Von Posa

(31) - شيلر، دون كارلوس، 10/3، نفس المرجع، الجزء 2، ص 126

فكان أمل بوزا الكبير في تحقيق مراميه الديمقراطية هو ولي العهد دون كارلوس، ولكن هذا الأخير وضعت له دسائس من اعداء التطور حيث اتهموه بوجود علاقة له مع زوجة ابيه الشابة التي كانت مخطوبة له فيما قبل - حينئذ ادرك بوزا خطورة الموقف وخاف على تلاشي برنامجه الثوري حيث كانت جيوش التحرير مستعدة للنضال لانتظار الا حضور القائد دون كارلوس، حينئذ حرر « بوزا » رسالة يتهم فيها نفسه بالعلاقة الدنيئة مع الملكة، فيقتل رميا بالرصاص. وقبل أن يلفظ انفاسه الأخيرة استطاع أن يبلغ لدون كارلوس الهدف من مبادرته هذه. واستطاع فيليب الثاني أن يطلع حتى على هذا السر فسلم ابنه لمحكمة التفتيش . (Inquisition)



ويبدو من خلال هذه التحليلات القليلة تشبك وثيق بين الفلسفة والسياسة والآداب. وهذه الظاهرة ليست بشيء جديد يخرج الى الوجود في أواخر القرن الثامن عشر. فالأدب كان دائما متشبكا بالسياسة وبالفلسفة، وذلك منذ العصر القديم. ولئن كانت الابتكارات الأدبية تارة ايجابية للادولوجية وتارة سلبية نحوها، فالجديد في قرن الأنوار هو مدى توغل السياسة في النظرية والممارسة الأدبية. أضف الى هذا النتائج التشكيلة التي انبثقت عن تسييس المرافق الفنية.

فالدrame البورجوازية مثلا ودعت كل القيود الفنية التي فرضها المسرح المسمى بالكلاسيكي، مسرح المجتمع الاقطاعي. فهذا المسرح كان يركز على أساس « البند الطبقي » (31) بحيث أنه كان لايجوز أن يحضى بدور الأبطال في المأساة سوى الأفراد المنتمين الى دائرة الملوك والأمراء والنبلاء. أما أعضاء الطبقة الوسطى، فلم يكن من نصيبهم سوى المسرح الهزلي. ولقد حاول المفكر النظري « باتو » (31 ب) أن يعطي لهذا « البند الطبقي » قاعدة فنية، فتحدث عن المبدأ المسمى « بمستوى السقوط » (31 ت)، الذي يدعي بأن المقام العالي للشخص المسرحي ضروري للمأساة لكي تؤثر في المتفرج

، فكلما علت مرتبة البطل ازدادت شدة مأساته عند سقوطه، فهذه النظرية تجهل أو تتجاهل القيمة المأساوية للصراع الداخلي في الشخص المسرحي، ولعل مصير «

(31) - Standeklausel

(31 ب) - Charles Baiteux, les Beaux arts réduits à un même principe, Paris 1746

(31 ت) - Fallhode

بوزا « وصديقه دون كارلوس مع نبل افكارهما السياسية والاخلاقية، علاوة على حالة « فيليبس « المأساوية حيث كان يتخبط بين ميوله الانسانية ومقتضيات منصبه، زيادة على اسلوب شير العميق المؤثر، من العوامل التي ترجع اليها مكانة مسرحية « دون كارلوس » الكلاسيكية في المسرح العالمي، وحتى شخص « بوزا » ليس خاليا من ملامح سلبية تعقد طبيعته.

ان مشروع « شلير » « بوزا » يتوفر على ملامح ماكيافيلية، انه بارع في فن ابتكار الدسائس وحبك خيوط المؤامرات. فلقد ادت خطواته المبهمة الى سوء تفاهم مشؤوم كان لا مناص منه وأدى الى تلاشي أساس الثقة الذي كان يربطه « بدون كارلوس »، وكان يستهدف من نشاطه هذا الاستيلاء بالقوة على زمام السلطة. ففضل عبقرية « شلير » وفنه المسرحي يرجعان الى كونه يؤمن بتعدد طبائع شخصياته الدرامية ويمارسها في مسرحياته بحيث أن « بوزا » نفسه شعار التجديد والحرية، لا يخلو من عيوب بشرية تجعله يستغل حب صديقه « دون كارلوس » له في مظلومه السياسية وأهدافه السامية. واذا كانت الوسائل التي يستعملها « فون بوزا » تذكرنا كثيرا بمسرح « ماكليافلي »، فان الجمهورية التي كان يسعى اليها تشييدها، والتي يضحى في نهاية الأمر بنفسه من أجلها، هي في الحقيقة على نهج « روسو ». فهي دولة مواطنين أحرار يقررون مصيرهم بأنفسهم. فان دلت مجهودات ميرسي وانهياره في الحركة الأدبية « العاصفة والضغط » الرامية الى اعطاء المسرح وظيفة تربوية وتشريعية على شيء، فانما تدل على رفضهم للنظام الاجتماعي السائد بأسره وبالأخص لمحتواه التشريعي. ولكي يصلوا الى الهدف المنشود الذي هو المهادنة والعناء العام لم يترددوا في اثقال كاهل الأديب بواجبات متعددة تتعدى اطار الفن المسرحي.

والدرامة البورجوازية تحررت كذلك من قيود مسطرة الواحدات الثلاث (32) التي عرفها وعمل بها المسرح المسمى بالكلاسيكي واعتمدت أشكالا خاصة تتناسب وبيئة البورجوازية وطموحها وعقليتها. واذا كانت الانقلابات أو التقلبات المسرحية التي شهدتها المسرح الكلاسيكي تعكس الطابع الغير القار الذي تتسم به الاريسقراطية في وسط العائلة الكبيرة المتعددة، فلقد الغتها النظرية البورجوازية التي كانت لاتعرف الا وسط

(32) - Regel der drei Einheiten, Règle des trois unités

من المعروف أن الواحدات الفنية المعنية هي وحدة المكان ووحدة الزمان ووحدة العمل فالمسرحية الكلاسيكية يجب أن تدور / تلعب في مكان واحد في ظرف لايتعدى 24 ساعة حول عمل رئيسي واحد لاثاني له

العائلة الصغيرة العادية التي تعيش في دفاء الالفة والهدوء، وأقرت مكانها بواسطة الموسوعي العظيم « ديدرو » نظرية اللوحة التي تفتتح وتختتم بها المسرحية.

ففي كتابه « محادثات حول الابن الطبيعي » يقول ديدرو : « ان الحادث الغير المنتظر الذي يقع في العمل والذي يغير فجأة حالة الأشخاص، انقلاب مسرحي. وتنظيم هؤلاء الأشخاص فوق الخشبة تنظيما جد طبيعي وواقعي حتى اذا نقله رسام بوفاء يرضيني تصويره : تلك هي اللوحة » (33).

فعند هذا المظهر يشعر المشاهد البورجوازي بنفسه في اطمئنان وسط ذويه واقربائه بعيدا عن العالم الخارجي الذي كان يسيطر عليه النبلاء. وتفور مشاعره فتنهمر دموعه ويشعر بأنه انسان. ولهذا استشهد « ديورو » و « ميرسيبي » وانصارهما في « العاصفة والضغط » بالوحدة الداخلية التي على عكس المسطرات الثلاث يشعر بها الانسان ولا يقوم بتعدادها وقياسها. ومن المعروف أن نهضة الشعور عند البورجوازية تقابل سطحيتها عند الارستوقراطية.

فان لم يتسع المجال هنا للتحدث عن الابعاد الشكلية كلها التي جاءت نتيجة التهام السياسة بالمسرح فلنكتف بالاشارة الى أن ميرسيبي يطور نظرية اللوحة فلا يريدنا أن تقتصر على الداخل الاليف المؤنس وانما ينادي بلوحات متعددة تتمثل فيها الجوانب الاجتماعية البورجوازية المختلفة. واذا كان « ديدرو » قد اكتفى بالكتابة عن « رب العائلة » (34). « والابن الطبيعي » (35)، فاننا نرى « ميرسيبي » وادباء « العاصفة والضغط » يتعرضون لمواضيع مستمدة من أوضاع الطبقة الناهضة مثل : « الحاكم » (36). بائع الخل و « معلم البلاط » (37)، الا أن هؤلاء الآخرين أخذوا في تطرفهم يهتمون بطبقات اجتماعية أخرى « كالفقير » و « الضعفاء » (38) و « قطاع الطرق » الخ.

(33) — Denis Diderot, œuvres esthétiques, ed. de P. Vernière, Paris 1968, 88

(34) — Le Père de Famille

(35) — Le Fils naturel

(36) — Le Juge (Mercier)

(37) — Der Hofmeister (Lenz)

(38) — L'indigent Die Kleinen (Lenz)

وهذه المظاهر والجوانب يجب أن نربطها بالقواعد الثقافية والاجتماعية التي تغيرت جذريا خلال القرن الثامن عشر حتى تبرز في اطارها الحقيقي.



فتطور وسائل الانتاج الرأسمالية ابرز طبقة جديدة من تجار ومحامين واطباء وموظفين وأساتذة وعلماء وفقهاء وناشرين، وهي طبقة تسعى الى الخروج من اطار النظام الضيق الذي كانت فرضته الاريسوقراطية عليها. ومع أن ألمانيا كانت متأخرة اجتماعيا واقتصاديا نظرا لتقسيمها الى مئات من امارات مستقلة بعضها عن بعض بجماركها ونظمها الخاصة وانعدام سوق مشتركة ومركز اقتصادي وثقافي جامع مثل باريس في فرنسا فاننا نلاحظ فيها مع كل هذا تطورا ملموسا على غرار التطور الفرنسي لكن مع بعض التخلف. فالتغير الاجتماعي في البلدين اتى بتغيير في بنية جمهور القراء فلقد ازدادت نسبة القراء دوما أكثر فأكثر وأصبح أغلبهم ينتمون الى البورجوازية الناهضة وهذا الجيل الجديد من المثقفين احتل ايضا جميع مراكز النشاط الثقافي كالمسارح والمتاحف والكونسرتات. ونفس التطور عرفه جيل الكتاب بحيث ظهر نوع جديد من المؤلفين يسمون بالادباء الاحرار (39) على عكس الكاتب القديم المدعو بشاعر البلاط (40) الذي كان ينتج لقراء قلائك معينين ومعروفين. فالأديب الجديد أصبح حرا لا يحرر حسب ذوق معين وتعليمات سامية ولاكن لسوق الحر ومع ذلك تجب هنا الاشارة الى أن حريته كانت نسبية فقط بحيث أنه أصبح متعلقا بالسوق الأدبية وبذوق الطبقة الثالثة.

فالسؤال الذي يفرض نفسه علينا بعد هذه الخطوط القلائك هو : لماذا تطورت فكرة المشعر والسياسة بهذه الكيفية بالذات في أواخر القرن 18 ففي هذا الظرف احتتم الصدام بين الطبقة البورجوازية الناهضة والطبقة الاريسوقراطية المنحدرة، وشعر فيه الكتاب الجدد بضرورة فتح المجالات الثقافية والفنية والأدبية لايدولوجية البورجوازية في سبيل السيطرة على آخر مرفق حرمت منه، الا وهو زلم الحكم قصد منح الحريات العامة.

فلما اظهرت هذه المبادرة حسب ما تبين أن جوانب أدبية حيوية سواء كانت تنبثق عن البنية أو عن المحتوى يستحيل توضيحها موضوعيا أن لم يكن يرجع الباحث الأدبي الى القواعد الثقافية والاجتماعية، ذلك الاطار الذي يبرز حيوية الانتاج الفني. فان

Die Freien Schriftsteller – (39)

Hofdichter – (40)

اقتصر على درس المؤلفات على صعيد أمة دون الأخرى تعود عليه تفسير حركة الانوار التي كانت أوربية شاملة.



ونظرية المشرع لن تستكمل أن لم نشر الى جانبها الثاني العام وهو فكرة المسرح كمحكمة. فيقول مرسبي في كتابه المذكور « فسيكون المسرح المحكمة العليا يدعي أمامها عدو الأمة ويفضح فيها علانيا » (41).

واذا تصفحنا شيئا ما مؤلفه النقدي نجد لديه توضيحا لعبارة عدو الأمة. فأعداء الأمة حسب ميرسبي هم « ماركيزات وكونتات ودوقات صغار بلغتهم التافهة وابتسامتهم الساخرة وصوتهم المتصنع المترقف » (42) فاذا كان ميرسبي ينادي بمحاكم جديدة تتكلف بمجرمين جدد فهو ينفي في أن واحد العدالة الاجرامية الدابحة السائدة في عصره. ففي المحكمة العلانية تعطى لأول مرة الكلمة للجماهير الغير المحظوظة للشعب «انها حقيقة الواقع، يقول مرسبي، فعلى المدى البعيد يتبين أن أنزه حاكم هو الشعب » (43).

ولتوضيح فكرته للمسرح كمحكمة يأبى ميرسبي الا أن يروي حكاية « اسكاف مدينة ماسينا الفقير الفاضل الذي منحته الطبيعة حيا خارقا للعادة للنظام والعدالة » (43). ان هذا الاسكاف لم يستطع تحمل رؤية سلسلة الجرائم التي عرفها بلده « لقد شاهد فتيات بريئات ينتزهن عشاق اللذة الاغنياء من أحضان أوليائهن ليلقوا بهن في ظلمات الرذيلة والعار وبعد اشباع رغبتهم يتركوهن عرضة للحاجة القاسية ارضاء لشحهم المقيت ويخلهم المخزي.

(41) - ميرسبي، حول المسرح، ص 62.

(42) - نفس المرجع، الفصل السادس.

(43) نفس المرجع، ص 203.

(43) - ميرسبي - فاكنر، ص 82.

كما كان شاهد عيان لكل الاحتكارات الخائفة والسراقات العمومية التي كانت تحرم الرجل العامل من طعامه اليومي وقوت أبنائه» (43 ب) .

فلما رأى أولئك المجرمين يتمتعون بكل حرية دون عقاب فكر في مبادرة فردية. «فأخذ يتجسس على كل مجرم ويجمع الدلائل ويقارن الظروف والشهادات. انه كان يقوم في منزله بدعوى رسمية الواحدة تلو الأخرى » (43 ت) . فان كان المتهم مذنباً قتله رمياً بالرصاص عندما تتاح له الفرصة. والجدير بالإشارة هو أن ميرسيي يلفت أنظارنا الى « أن المقتولين لم يكونوا من الطبقة السفلى والى أن الاسكاف حمل المسؤولية حتى لنائب الملك (43) .

فالمؤلف الدرامي - حسب ميرسيي - يتختم عليه أن يحذو حذو اسكاف مدينة ماسينا ويلعب في آن واحد دور الحاكم والمنفذ.

وفكرة الأديب كقاض والمسرح كمحكمة أخذها « فريد ريش شلير » عن ميرسيي وطبقها في مسرحه بعدما أعطاها قواعد نظرية. فشيلري في المسرح سندا للعدالة الدنيوية.

« ان عدالة الخشبة تبدأ في المكان الذي ينتهي فيه التشريع الدنيوي. فعندما يعمي الذهب العدالة وتنسج هذه متمتعة في خذمة الرذائل، عندما يخرق العظماء الحرمات ويستهنزوا بها، عندما يربط الخوف من الانسان يد السلطة، أنذاك تأخذ خشبة المسرح السيف والميزان وتجر الرذائل أمام كرسي العدالة الرهيب » (44).

فمحاسبة شيلر لعصره تتجلى في الفصل النهائي لمسرحيته « الدسياسة والحب » حيث يظهر فوق الخشبة ميلر مصحوبا بالشعب وبموظفين في المحكمة للتهام الرئيس

(43 ب) - نفس المرجع ، ص 83

(43 ت) - نفس المرجع نفس الصفحة.

(44) - شيلر، تأثير المسرح في الشعب، ص 823

الذي تسبب في موت ابنته فيصيح الجمهور : « هيا بنا ! هيا بنا ! نادوا في الأزقة لفضح جريمة القتل النكراء أيقظوا العدالة من سباتها العميق يا خدام العدالة » (45). وفي مسرحيته هذه يتطرق شيلر الى موضوع الدسياسة من لدن البلاط ضد بنت بريئة تنتسب الى الطبقة الوسطى. وموضوع التضليل واغراء فتيات الوسط البورجوازي على يد المنتمين الى الطبقة الارستوقراطية يسود جل مؤلفات الحركة الأدبية « العاصفة والضغط » كمسرحية شيلر المذكورة ومسرحية لينز « الجنود » (46) والدرامة التي ألفها «فاكنير» بعنوان « قاتلة الطفل » (47).

فلو سألنا عن أسباب هذه الظاهرة الغربية لوجدنا الجواب عنها في مؤلف ميرسيبي النظري حول المسرح والذي درسه دراسة عميقة جل أعضاء « حركة العبقريين » فميرسيبي يخاطب الكاتب ويقول : « تفضل كضيف عند المواطن الفاضل تستقبلك ابنته البريئة المتواضعة مبتسمة (...) هنا تجد لوحة الحياة البروجوازية كما صورها « ريتشارد سون » و « وفيلد ينغ » (...) هنا ترى أولئك الانبياء البزة يظهرهم كخداعين مليحين بغية تضليل ابنته.

فهذه هي اللحظة الحاسمة خذ لوحة ألوانك واعدل (48) انها اللحظة التي يحتدم فيها الصراع الطبقي . انها لحظة المجابهة بين البورجوازية الصاعدة والاريسوقراطية. انها اللحظة التي يتجلى فيها الظلم السافر والتي تنتهك فيها الحرمات المنزلية شرف العائلة المتوسطة. انها اللحظة التي يبدو فيها المواطن كضحية ذلك الشخص الأدبي المظلوم الذي يحرض المؤلف المسرحي بواسطته الجمهور على الانتقام من ذوي السلطة.

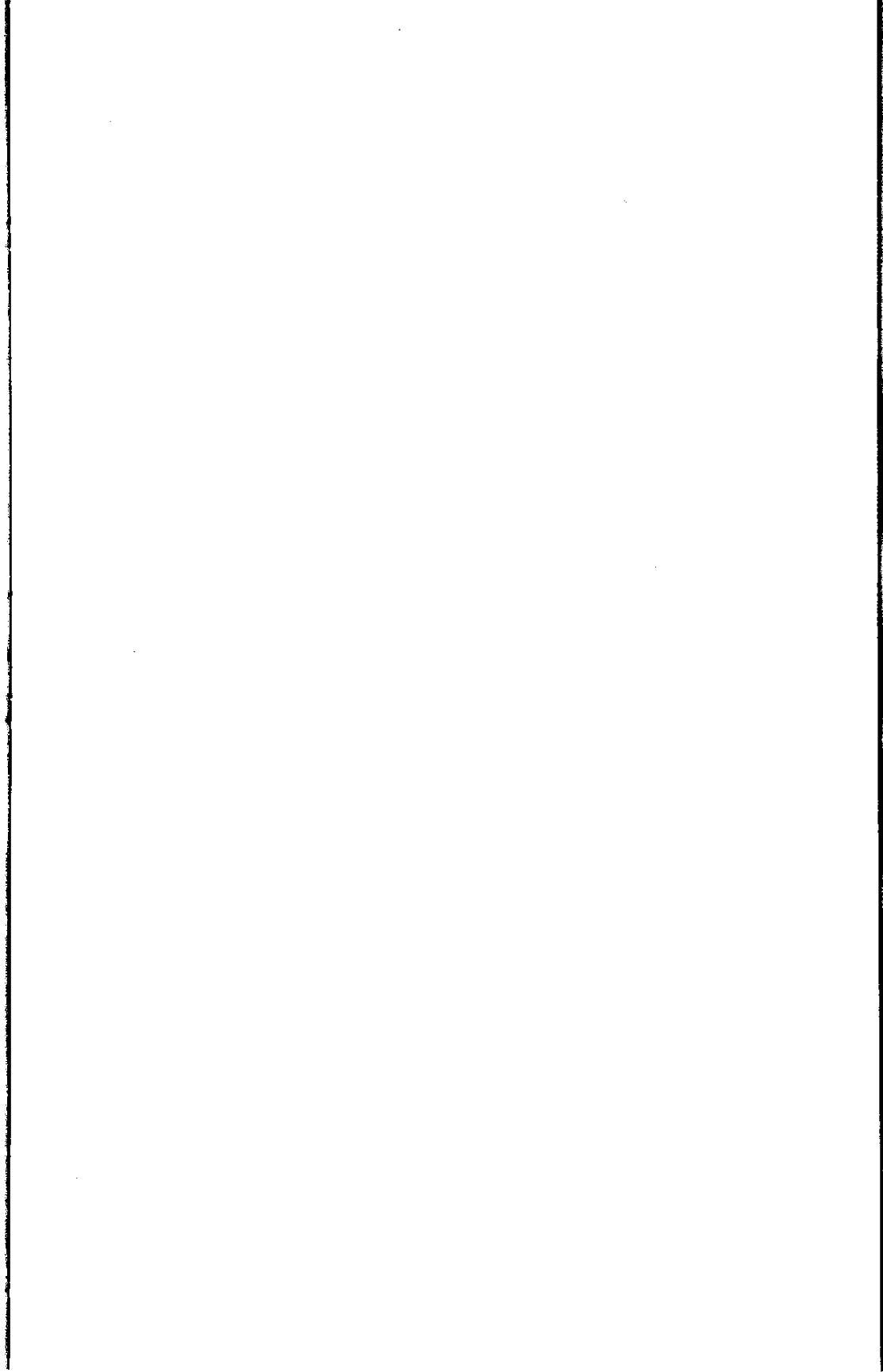
(45) - شيلر، الدسياسة والحب ،

(46) - Lenz, Die Soldaten

(47) - Wagner, Die Kindermörderin

(48) - ميرسيبي - فاكنر، ص 110.

دراسات وعروض بليوغرافية



تقديم رسالة أحمد الادريسي

أصول النحو العربي من خلال كتاب (الاقتراح) للسيوطي في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة

نوقشت بكلية الآداب بالرباط يوم 25 مايو 1977 رسالة تقدم بها لنيل دبلوم الدراسات العليا في الدراسات اللغوية، أحمد الادريسي، تحت إشراف الدكتور تمام حسان، وعنوانها « أصول النحو العربي من خلال كتاب (الاقتراح) للسيوطي، في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة ».

والرسالة مشروع لدراسة أصول النحو العربي دراسة وصفية من خلال كتاب (الاقتراح) للسيوطي، ودراسة تقويمية في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة متمثلة في المنهجين الوصفي والتصنيفي والتوليدي التحويلي ونظرية المقال.

وقد وقعت الدراسة في مقدمة وثمانية فصول وخاتمة.

اشتملت المقدمة على التعريف بالموضوع وبيان دواعي اختياره، والصعوبات التي واجهت الباحث، والمنهج الذي ارتضاه.

وقد خصص الباحث الفصل الأول للتعريف بالسيوطي وحياته العلمية ومذهبه النحوي ومنهجه في تأليف كتاب (الاقتراح في أصول النحو).

وفي الفصل الثاني تناول بالتحليل الأصل الأول من أصول النحو العربي وهو (السماع) مفهوماً وتطوراً، كما تناول موقف النحاة العرب من المادة الموسوعة والعربي المسموع منه وراوي اللغة والباحث النحوي.

وقد أسفرت القراءة الواصفة لهذا الأصل النحوي عن جملة ملاحظات أهمها :

- أن النحاة العرب أجمعوا على حجية القرآن الكريم ، واختلفوا حول حجية الحديث النبوي.

- اعتبروا اللهجات العربية منتمة جميعها الى مستوى لغوي واحد، هو اللغة العربية.

- حددوا فترة الاستشهاد اللغوي في مدى خمسة قرون تقريباً.

- اعتمدوا على الشعر كثيراً في استنباط القواعد اللغوية.

- تأثروا بالأصوليين في المقاييس التي ارتضوها لترجيح مادة لغوية على أخرى.

- اعتبروا السليقة اللغوية مقصورة على المتكلم المستمع العربي الذي عاش في

قبائل معينة وفترة محددة.

- استشهدوا بكثير من الشعر المجهول القائل رغم اجماعهم على عدم حجيته.
- قبلوا الاستشهاد بكلام آئمة اللغة الذين عاشوا بعد فترة الاستشهاد اللغوي.
- قبلوا روايات بعض الرواة المطعون في عدالتهم رغم اشتراطهم عدالة الراوي.
- أباحوا للباحث النحوي أن يلجأ الى التأويل اذا خالفت النصوص المسموعة جادة القواعد.

- وتناول في الفصل الثالث الأصل النحوي الثاني وهو (الاجماع) من منظور (الاقتراح) مفهوما وحجية وأقساما.
- وقد حملت دراسة (الاجماع النحوي) الوصفية الباحث على ملاحظة :
- أن الاجماع يأتي من حيث الحجية في المرتبة الثانية بعد السماع.
- أنه لا خلاف بين النحاة حول حجية الاجماع الصريح على عكس الاجماع السكوتي والاجماع المنحصر في قولين.
- أن معظم ما سماه النحاة اجماعا انما كان اتفاقا على واقع الاستعمال اللغوي، وهو جانب لا يمكن الاختلاف فيه، ولا ينبغي بالتالي تسميته اجتماعا.
- أنهم سمو بعض الخلافات اجماعا كالاجماع المنحصر في قولين.
- أن كثيرا من النحاة خرجوا على الاجماع النحوي كقطرب والجرجاني وابن مضاء.
- أن القول بحجية الاجماع النحوي يعكس تأثر النحاة بالأصوليين الذين قالوا بحجيته في الفقه.

وخصص الفصل الرابع لدراسة (القياس النحوي) ، فعرض لمفهومه وتطوره تمهيدا لتحليل قضاياها المختلفة كما يكشف عنها (الاقتراح)، وهي القياس النحوي وأركانه والمقيس عليه وشروطه، والمقيس ومدى اعتباره من كلام العرب، والحكم النحوي وأقسامه والمسائل الملحقة به، وترجيح القياس في حالة تعارضه مع الأدلة الأخرى. وانتهى من ذلك الى رصد الآثار الاسلامية وغير الاسلامية في هذا الأصل النحوي.

وقد أدت دراسة هذا الأصل الى ملاحظة أن القياس النحوي نوعان :

- قياس استعماله متأثر بالقياس الأصولي، يعتمد توليد صيغة لم تسمع من صيغة مسموعة. وقد توخى النحاة من ورائه تنمية اللغة العربية حتى تواكب التطور الاجتماعي.
- وقياس عقلي متأثر بالقياس الأرسطي، وهو يقوم على الحاق الباحث النحوي ما شاء من الظواهر والأحكام بغيرها استنادا الى ما يراه جامعا بين طرفي عملية القياس وهما المقيس عليه والمقيس.

وفي الفصل الخامس درس الباحث (العلة النحوية) ، فعرض لمفهومها وتطورها تمهيدا لتحليل قضاياها المختلفة كما يعرضها السيوطي في (الاقتراح) وهي مفهوم العلة واقسامها وشروطها ومسالكها والقواعد فيها، والمقاييس التي ينبغي اعتمادها لترجيح علة على أخرى عند تعارضهما، وانتهى من ذلك الى تبيان أصول التعليك النحوي الاسلاميه وغير الاسلاميه.

وقد كشفت الدراسة التحليلية للعلة النحوية عن أنها نوعان :

- علة صورية يعرف بها كلام العرب وضبطه، وفيها يقف التعليك النحوي عندما هو موجود بالفعل من الظواهر اللغوية ومقرر في القواعد النحوية. وهذا النوع من العلة انعكاس للعلة الأصولية.

- علة غائية لا يعرف بها كلام العرب، وانما تبين الحكمة والمقاصد والأغراض، وهي حكمة الله في الصيغ وأوضاع الكلام، وحسد المتكلمين العرب واحساسهم بالخفة والثقل. وهذا النوع من العلة متأثر بالعلة الأرسطية المتمسدة بالضرورة والغائية والعقلية، كما أنه متأثر بالعلة الكلامية، خاصة في خلافات النحاة حول التعليك لبعض الظواهر اللغوية.

وفي الفصل السادس تناول بالدراسة (الاستدلال النحوي) بأقسامه المختلفة، وهي الاستدلال بالاستصحاب وأدلة شتى وهي العكس وبيان العلة وعدم الدليل والأصول وعدم النظرير والاستحسان والاستقراء والدليل المسمى بالباقي، فعرض لقضاياها المختلفة كما تبدو في (الاقتراح)، لينتهي من ذلك الى رصد الآثار الاسلامية وغير الاسلامية في الاستدلال النحوي.

وقد حملت قراءة (الاستدلال النحوي) الوصفة على ملاحظة أن السيوطي يعكس فيه التفكير النحوي في آخر مرحلة من مراحل تطوره، ويعد أن استقرت الأصول النحوية، وأصبحت مهيمنة على تفكير النحاة الذين أضحووا يتحدثون في النحو دون اعتماد على روايات جديدة.

وفي الفصل السابع قدم الباحث عرضا تقريريا بحثا حول النظرة المحدثة الى تأصيل القواعد اللغوية ممثلة في المنهجين الوصفي والتصنيفي والتوليدي التحويلي ونظرية المقال تمهيدا لتقويم أصول النحو العربي في ضوءها، فبدأ أولا بعرض المنهج الوصفي التصنيفي وأهم مدارسها وهي الكلوسيماتية والوظيفية والتوزيعية، ثم انتقل الى عرض المنهج التوليدي التحويلي ونظريته اللغوية وبنية النحو فيه، والتطورات التي حصلت في هذا المنهج من سنة 1957 حتى أوائل السبعينات. ثم عرض لنظرية المقال ومبادئها

العامة.

وقد حملت قراءة المناهج اللغوية الحديثة الباحث على ملاحظة أنه إذا كان التفكير النحوي القديم يمثل الأطروحة، والمنهج الوصفي التصنيفي يمثل نقيضها، فإن المنهج التوليدي التحويلي يمثل التركيب في بداية مسيرته، ضرورة أن التوليديين التحويليين لم يدمجوا في النحو القديم أساليب علم اللغة البنيوي فحسب، بل أدمجوا فيه المناهج الملائمة في المنطق والرياضيات التجريديين.

وفي الفصل الثامن حاول الباحث تقويم أصول النحو العربي كما تبدو في (الاقتراح) للسيوطي في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة، فبدأ أولاً بعرض هذه الأصول على المنهج الوصفي التصنيفي الذي كشف عن أن النحو العربي لم يرق إلى مستوى الكفاية الوصفية لخلطه بين المستويات اللغوية، ومعياريته ومجاورته وصف ظاهر اللغة إلى التأويل والبحث في العلك الغائية وإغراق الدرس اللغوي في قضايا ذهنية صرف. ثم عرض هذه الأصول على المنهج التوليدي التحويلي، فتبين أن النحو العربي كان أقرب إلى الكفاية الوصفية من المنهج الوصفي التصنيفي لأنه جاوز البنيات السطحية إلى محاولة تعيين القواعد التي تثوي وراء بناء الجمل، وإن كانت مجاوزته ذلك إلى إغراق البحث اللغوي في قضايا غيبية جعلته ينأى عن هذه الكفاية. أما الكفاية التفسيرية فلم يتمكن النحو العربي من أن يرقى إليها لعدم صياغته نحواً مطابقاً للبيانات اللغوية الأولية. وقد أنهى الباحث هذا الفصل بعرض أصول النحو العربي على نظرية المقال حيث تبين أن النحو العربي لم يرق إلى مستوى الكفاية الوصفية لعدم مجاوزته وصف المقال إلى المقام الذي تم فيه.

أما النتيجة العلمية التي استخلصها الباحث وصنمها خاتمة البحث فتتلخص في القول بأن دراسة أصول النحو العربي من خلال (الاقتراح) في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة قد كشفت عن أن الفكر النحوي العربي كان ينطوي على قيم علمية إيجابية لم يتح لكثير من اللغويين العرب المعاصرين الذين نقدوه في ضوء المنهج الوصفي التصنيفي أن يتبينوها لوقوعهم تحت تأثير هذا المنهج الذي جاء ثورة لغوية كوبرنيكية بالقياس إلى التفكير اللغوي القديم وضمنه النحو العربي، وأثر السير في الاتجاه المضاد متعامياً عن الجوانب الإيجابية في هذا التفكير.

وتتجلى هذه القيم العلمية الإيجابية التي أمكن الكشف عنها في ضوء المنهج التوليدي التحويلي فيما يلي :

أولا : في السماع :

- تصور النحاة العرب للغة على أنها سليقة وليست نتيجة تعلم واكتساب.
- اعتبار المتكلم المستمع انسانا عربيا مجردا يعيش في احدى القبائل التي حدودها للاستشهاد اللغوي.
- اعتمادهم على المادة المنطوقة التي تعد المصدر الحقيقي للدرس اللغوي لاشتغالها على خواص لغوية لا توجد في اللغة المكتوبة.
- ابحاثهم للباحث النحوي اللجوء الى التأويل للكشف عن القواعد النحوية التي تحتوي وراء بناء الجمل.

ثانيا : في القياس :

- اعتبار النحاة العرب القياس الاستعمالي داخلا في مجال الدرس اللغوي ايمانا منهم بأن النحو ليس الا قياسا ضرورة أن عوامل الالفاظ يسيرة محصورة، والالفاظ غير محصورة.

ثالثا : في العلة :

- مجاوزة النحاة العرب العلة الصورية التي تقف عند حدود ظاهر النصوص وكيفياتها الى محاولة الكشف عن الحدس اللغوي للمتكلم العربي استنادا الى نصه على العلة أو ايمائه اليها واستحسانه.

رابعا : في الاستدلال :

- اعتبار النحاة العرب استصحاب الأصل بمعنى الوقوف عند ظاهر النصوص دليلا ضعيفا لا ينبغي التمسك به ما وجد هناك دليل آخر ايمانا منهم أن البحث اللغوي لا يكمن في اختصار البنية اللغوية الى بنية سطحية، بل في مجاوزة ذلك الى تحديد الفروق بين العميق وغير العميق من عناصر الجملة.
- اعتبارهم الاستحسان أصلا نحويا ايقانا منهم أن مادة البحث اللغوي هي معرفة المتكلم بكيفية انتاج الجمل وفهمها، وقدرته اللغوية.

واذا كان البحث قد كشف عن القيم العلمية الايجابية في التفكير النحوي العربي ورد اليه اعتباره الذي كان أنكره المنهج الوصفي التصنيفي انكارا، فقد تسنى له أيضا أن يرصد كثيرا من الثغر في هذا التفكير يمكن اجمالها فيما يلي :

في مستوى كفاية الملاحظة :

- خلط النحاة العرب في جمع المادة اللغوية بين اللهجات واعتبارها منتمية الى

نسق واحد هو اللغة العربية.

- دراستهم هذه اللهجات في أطوار متعددة من نموها دون أن يفتدوا الى ضرورة الفصل بين مرحلة وأخرى من مراحل تطور اللهجة.
- خلطهم بين الكلام العادي والكلام الفني نثرا وشعرا، واعتبارهم اياهما مستوى لغويا واحدا.

في مستوى الكفاية الوصفية :

- اعتبار النحاة العرب الاجماع أصلا من أصول النحو العربي، مع أن الاجماع موقف ذاتي لا موضوعي.
- اعتبارهم السليقة اللغوية خاصة بالعربي الذي عاش في قبائل محددة وفترة معينة وانكارهم هذه السليقة على غيره، مع أن السليقة اللغوية تعم النوع البشري.
- معيارية القياس والعلة وما يلحق بالقياس من وجوه الاستدلال والتي جعلت أصول النحو العربي نظرية عامة للتشريع اللغوي، مع أن الدرس اللغوي يجب أن يكون وصفا لا أثر للمعيارية فيه.

- اعتماد القياس الذي يركز على أسس ميتافيزيقية غير واقعية.

- طرد الأحكام الكلية من ظواهر لغوية الى أخرى دون المام كاف بالجزئيات .

- مجاوزة العلة النحوية مجرد محاولة الكشف عن الحدس اللغوي للمتكلم الى البحث عن حكمة الله في الصيغ وأوضاع الكلام والخوض في أمور غيبية لا تدخل في امكان الدرب اللغوي. مجاوزة الاستدلال النحوي مجرد تحديد الفروق بين العميق وغير العميق من عناصر الجملة الى اغراق البحث اللغوي في قضايا ذهنية لاتستند الى مقدمات نقلية.

- وقوف النحاة العرب عند تقعيد أبواب المفردات، وعدم مجاوزتهم ذلك الى وصف التركيب اللغوي من جهة أسلوب وصفه وطرق التعبير به، والى توسيع مجال الدرس اللغوي ليشمل المتكلم وسياقه الاجتماعي والتاريخي مما اعتبروه خارج مجالهم.
في مستوى الكفاية التفسيرية :

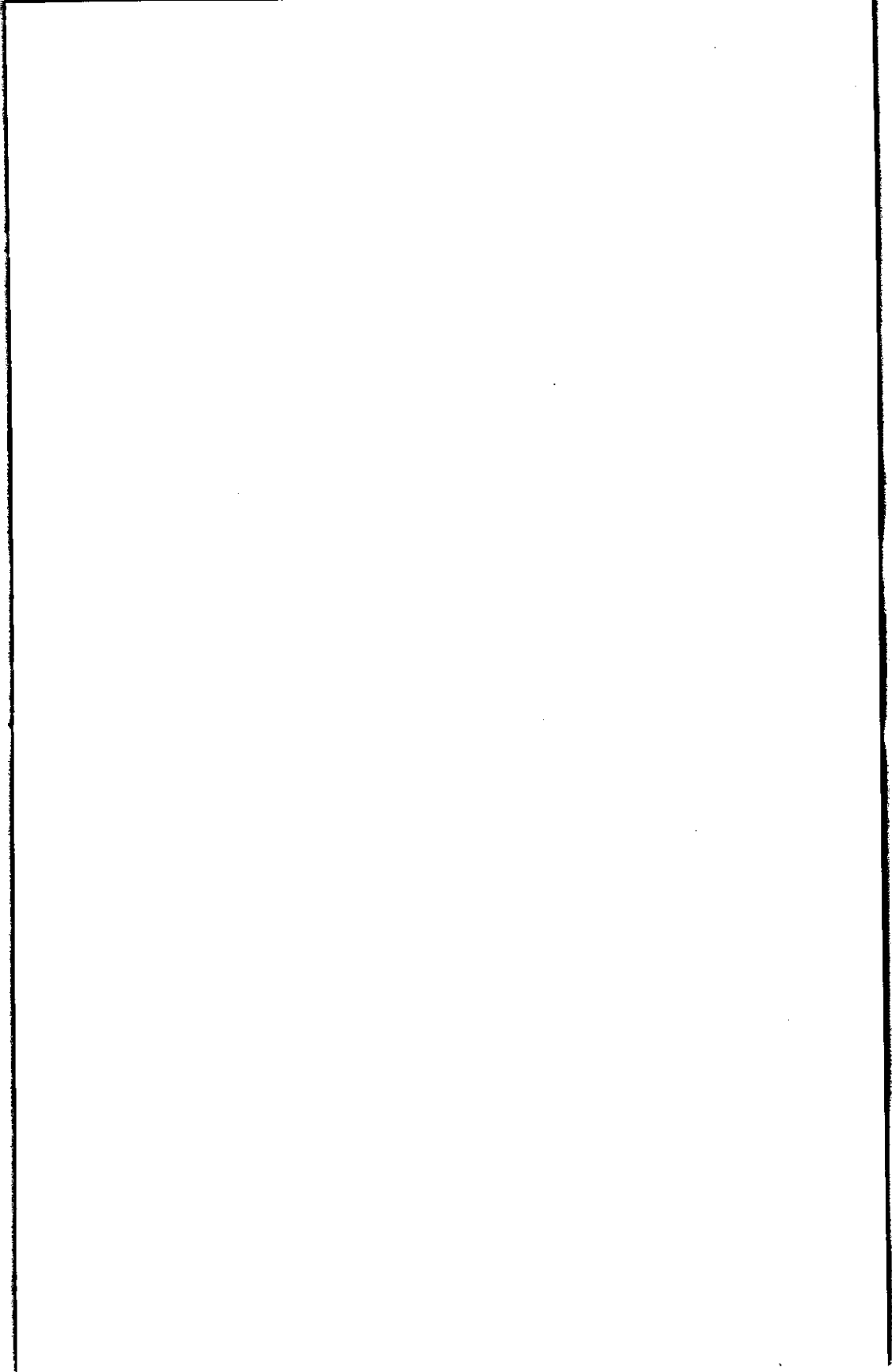
- عدم تمكن النحاة من صياغة نظرية للغة الانسانية تقوى على انتقاء النحو المطابق للبيانات اللغوية الاولى.

وفضلا عن القيم العلمية الايجابية والسلبية التي كشف عنها البحث، فقد أثار الانتباه الى لغوي عربي فذ هو عبد القاهر الجرجاني الذي سبق بنظرية (النظم)

المنهجين الوصفي والتصنيفي والتوليدي التحويلي ونظرية المقال جميعها.

وقد توج الباحث نتائج بحثه باقتراح ايجاد جهاز نظري ومنهجي قمين بوصف اللغة العربية القديمة والمعاصرة بعد تحديد مستويات كل منهما استنادا الى ما أثبتت كفايته الوصفية من أصول النحو العربي ونظرية (النظم) للجرجاني، مع الاستعانة المعقولة بالنظريات الحديثة التي برهنت عن كفايتها الوصفية والتفسيرية. ذلك أن مجاوزة الفكر النحوي العربي لا يمكن أن تتم الا بأدوات هذا الفكر نفسه.

وقد أكد الباحث أن انجاز هذا المشروع الطموح الذي لا يمكن أن يتحقق الا على يد فريق كامل من علماء اللغة المختصين، قد يؤدي الى خسلف نظرية لغوية عربية متميزة كفيلة بدرس اللغة العربية من جهة، ولغات غيرها من جهة أخرى.



كتاب ميكيل مرتين حول الاستعمار الاسباني بالمغرب

ان كتاب ميكل مرتين حول « الاستعمار الاسباني بالمغرب » (1) عبارة عن تحليل نقدي لفترة مهمة من تاريخ العلاقات المغربية الاسبانية. فهذا البحث قيم من حيث المحتوى اذ يملأ فراغا كبيرا ومن حيث الزاوية التي ينظر منها الكاتب الى الأحداث اذ يحل المسألة بنظرية جديدة غير النظرية الاستعمارية المعروفة.

تناول ميكل مرتين بحثه في خمسة فصول رئيسية بالاضافة الى مقدمة وخاتمة :

1 - المقدمة (ص 5 - 9)

2 - التوزيع (ص 11 - 41)

3 - الاحتلال (ص 43 - 102)

4 - نشر السلام I (ص 103 - 143)

5 - نشر السلام II (ص 145 - 205)

6 - الجلاء (207 - 239)

7 - الخاتمة (ص 241 - 260)

ثم بيبليوغرافية مختصرة (ص 261 - 263).

المقدمة : يطرح الكاتب في البداية وجهة نظره بصفة عامة تجاه الاستعمار الاسباني بالمغرب وتجاه موقف اليسار الاسباني ازاء هذا الاستعمار، الشيء الذي يكشف لنا منذ الصفحات الاولى الاتجاه الذي اتخذه هذا البحث. وقبل الدخول في صميم الموضوع، يشرح ميكل مرتين طريقة عمله مبينا بكل تواضع أنه لا يطمح الى سد فراغ تاريخي بل يود فقط اعطاء نظرة اجمالية أو عرض ملاحظات خاصة حول قضية الاستعمار الاسباني بالمغرب لاستنباط الدروس الملائمة منها.

التوزيع : يبدأ البحث منذ ما يسميه الاسبان بـ « حرب افريقيا » (1859 - 1860) ويمتد الى تاريخ عقد الحماية (1912).

ينتقد الكاتب سياسة اسبانيا تجاه المغرب منذ هجومها على هذه البلاد سنة 1859 ويتساءل عدة تساؤلات ليفسر عبث أية خطة استعمارية تقدم عليها بلاد هي نفسها في حاجة الى جميع مجهوداتها وسواعد أبنائها للتخلص من عدة مظاهر التخلف، لذا صار جليا بداية السيطرة الاسبانية على المغرب في أواخر القرن 19 هذه الدولة الاسبانية عاجزة عن تنفيذ سياسة محكمة في هذه المنطقة. واستمرت الامور على نفس الحال بعد ابرام عقد الحماية مع المغرب. حينئذ شعر الشعب الاسباني بالخديعة حيث لم تنك بلاده اجزاء صغيرا من التراب المغربي، أو كما قيل آنذاك : لم يكن من حظ اسبانيا سوى «عظم ضلع» المغرب El hveso de la chuleta فأصبحت فقط «كلبا حارسا» لمصالح الاستعمار البريطاني. ويضيف ميگل مارتين الى هذه الاقوال المرة صوته مصرحا : «هكذا أصبحنا من الدول المستعمرة بصفتنا أقزما مستعمرين» (ص 33).

وينوه ميگل مارتين بموقف الطبقة العاملة الاسبانية في أوائل التدخل الاسباني بالمغرب، فحتى العشرينيات من هذا القرن تمسكت النقابات والأحزاب العمالية بمعارضتها الصارمة ضد الاستعمار ودافعت بشدة عن استقلال المغرب. ويستنتج الكاتب من هذا كله أن العراقيل التي عاقت الاستعمار الاسباني آنذاك تنقسم الى 3 أنواع : الشعور القومي المتين لدى المغاربة، الاحتجاج الصارم من طرف الطبقة العاملة الاسبانية، ثم العجز الاسباني وخصوصا من الناحية العسكرية. والعبرة التي يستخلصها ميگل مارتين في آخر هذا الفصل ملخصة في الجملة التالية : « ليس استعماريًا من يريد، بل من يستطيع ». (ص 40).

الاحتلال : في هذا الفصل، بعد أن أثبت ميگل مارتين أنه لا معنى للاستعمار الاسباني، يشرع في دراسة نشأة المعارضة المغربية في الريف وجباله، مبرزا دور الريسوني ثم يخصص صفحات عديدة لدراسة شخصية عبد الكريم الذي استطاع أن يضم حوله المعارضة المغربية بالشمال وأن يضع الاسبان في مأزق كبير (أنوال - يوليو 1921) كادت انعكاساته أن تكون خطيرة بالنسبة لاسبانيا لولا اغاثة الاستعمار الفرنسي. ويتطرق ميگل مارتين في تحليله الى الأسباب التي جعلت عبد الكريم يوقف تقدم جيشه أمام أبواب مدينة مليلية ولم يدخلها رغم انتصاره الكبير على الجيش الاسباني، إذ كانت المدينة في متناولهم من الواجهة العسكرية وكانت معنوية رجاله مرتفعة جدا. ومن أسباب هذا التوقف يذكر الكاتب أن عبد الكريم قد أخطأ بدون شك في تقديراته لقوى

جيشه أطمع جيش العدو، ثم انه كان يخشى رد الفعل الدولي، اذ لن تسمح له الدول الأوروبية بالدخول الى مليلية.

أما عن الحالة في اسبانيا فيذكر ميكل مرتين أنه لم يكن أي اجماع بالنسبة للقضية المغربية، بل الأمر بالعكس، فقد كانت الاصوات المعارضة تتصاعد من عدة جهات كالصحافة والحزب الشيوعي الاسباني الفتى آنذاك والمنظمة النسوية ومجالس الكورتيس والرأي العام... وكانت تطالب الحكومة بالتخلي عن هذه المغامرة الاستعمارية.

وجاء الاستنكار حتى من طرف الجنرال ابريمودي ريقيرا. لكن رغم اقتناع هذا الأخير بعدم صلاحية هذه السياسة الاستعمارية فانه اضطر الى متابعتها حين أقام دكتاتوريته باسبانيا، نظرا لضغط جيش الاحتلال واحترام التوزيع الاستعماري بافريقيا المتفق عليه مع الدول الأوروبية.

نشر السلام: يشمل هذا الفصل الفترة التي تمتد من 1931 الى 1936 والتي لم تعرف خلالها اسبانيا أي تغيير سياسي أو اجتماعي رغم مساهمة الاحزاب اليسارية في مسؤولية الحكم. فالجمهوريون والاشتراكيون الذين كانوا من قبل ينتقدون بصرامة السياسة الملكية تجاه قضية المغرب والذين كانوا يطالبون باحترام استقلال هذا البلد، سرعان ماغيروا خطتهم وأصبحوا يدافعون عن فكرة متابعة السياسة الاستعمارية : وهكذا لم يقوموا بأي تغيير في شمال المغرب، وأخذوا يقلدون النموذج الاستعماري الفرنسي بجنوب البلاد لمحو الشعور القومي عند المغاربة. فدفعوا كثيرا من اليهود للاستقرار بالمغرب وأخذوا يستعملونهم كسلاح ضد المسلمين ، ثم شرعوا في سياسة التفرقة بين البربر والعرب وكل ذلك لعرقلة وحدة البلاد.

ومما يثير دهشة ميكل مرتين هو أن الرأي العام الاسباني آنذاك - وبالأخص الاحزاب العمالية - لم يبد أية معارضة ضد السياسة الاستعمارية المتبعة، كما كان الشأن من قبل، الا حين طرحت قضية إفني وأخذت اسبانيا تعد جيوشها لمحاربة المغاربة ويستخلص الكاتب من هذه الظاهرة أن معارضة السياسة الاستعمارية كانت دائما خاضعة لمصلحة الساعة ولا تعكس أية اديولوجية معينة. وهكذا، يضيف ميكل مرتين، أنه نشأ انشقاق بين الرأي العام الاسباني والحركة الوطنية المغربية وأن هذه الحالة تفاقشت عندما أرسلت الحكومة الاسبانية وحدات عسكرية مكونة من جنود مغاربة لقمع ثورة الحركة العمالية بآستورياس.

نشر السلام II : (من 1936 الى الحرب العالمية الثانية). عرفت هذه الفترة من تاريخ اسبانيا تقاربا بين الاحزاب والنفقات اليسارية وتأسيس « الجبهة الشعبية ». ولكن، يلاحظ ميكل مارتن، أن الاتفاقيات المبرمة بينهم لاتخصص أية نقطة لمسألة الاستعمار ويتأسف عن كون دعايتهم حول القضية المغربية كانت تنقسم بطابع عنصري، فحوادث أستورياس يقول الكاتب ، لاتبرر مثك هذا الموقف . ومن بين الادلة التي يركز عليها هذا الحكم تصريحات زعيمة الحزب الشيوعي ضولوريس ايباروري (ص 181).

هكذا يبين ميكل مرتين تناقضات الاحزاب اليسارية الاسبانية - وعلى الخصوص الحزب الشيوعي - وعدم الملاءمة بين عقيدتها وعملها ، اذ كانت تدافع عما سمي بـ « الاستعمار الديمقراطي » ، مما أدى الى تقارب كبير بين وجهة نظر اليمين واليسار، فكلاهما يناصر فكرة متابعة السياسة الاستعمارية.

ويستغرب ميكل مرتين لكون حكومة لاركو/كابابيرو/ كانت تصرح من أعلى منصات الكورتيس أن الجنرال افرانكو - قبل تقلده زمام الحكم بالبلاد - كان لايحترم الاتفاقيات الدولية. فالجنرال افرانكو كان قد أبدى اقتناعه بضرورة التقارب من المعارضة المغربية والاستفادة من الحركة الوطنية لتحقيق أهدافه. وهكذا ، يذكر ميكل مرتين أن شمال المغرب كان يستفيد من بعض المظاهر الديمقراطية، حوالي 1938، في حين أن اسبانيا نفسها كانت محرومة منها، الا أن هذه الحالة لم تدم بالمغرب حيث تغيرت الأوضاع كليا لما هزم الجيش الجمهوري.

ويثبت ميكل مرتين أن من أسباب سقوط الجمهورية الثانية عدم حل القضية المغربية، فمواقف السلطات الجمهورية ازاء مستعمراتها بالمغرب، ومواقف « الجبهة الشعبية » جعلت من شمال المغرب قاعدة الانطلاق للرجعيين الاسبان الذين تضايقوا من الحكم الجمهوري في بلادهم، ومن هناك انطلقوا لاطاحة به.

الجلء : يتناول هذا الفصل الفترة التي تمتد من أواخر الحرب الأهلية الاسبانية حتى استقلال المغرب. ويركز الكاتب هذا الفصل خصوصا على السياسات المتنافسة بين فرنسا واسبانيا في المغرب . فرغم تسارع الاحداث (عريضة الاستقلال، نفي جلالة الملك محمد الخامس، تصاعد المقاومة...) ورغم الازمة المادية التي كانت تعيشها اسبانيا آنذاك، لم تكن تفكر في التخلي عن المغرب ، بل كانت واثقة من أن هذا البلد لم يكن مهياً للاحراز على استقلاله. فعملت جهد المستطاع لمتابعة سيطرتها عليه، وحتى بعد

اعتراف فرنسا له بالاستقلال حاولت أن تبذل كل ما في وسعها لايجاد طريقة تمكنها من متابعة « حمايتها ». ولكن الاحداث كانت عكس ذلك.

الخاتمة : بعد الالحاح على وجهة نظره تجاه موقف أحزاب اليسار الاسبانية - وعلى الأخص الحزب الشيوعي - من القضية المغربية، ينتقل الكاتب الى تحليل سير العلاقات المغربية الاسبانية في الحاضر والمتعلقة بقضايا سبتة ومليلية والجزر الجعفرية.. والصحراء. ويعتبر أن امتلاك سبتة ومليلية يكتسي أهمية بالغة بالنسبة للمغرب حيث أن هاتين المدينتين من أهم مدن الشمال. أما باقي المستعمرات الاسبانية في شمال البلاد، فانها لا تكتسي نفس الأهمية، حسب تحليل الكاتب، ويذكر هذا الأخير أنه، لو قام المغرب بضغط قوي على اسبانيا لسلمت له جميع هذه المستعمرات ماعدا سبتة لموقعها الاستراتيجي أمام جبل طارق.

وأهم القضايا المتعلقة بين البلدين في نظر ميكيل مرتين هي قضية الصحراء التي تكون أكبر قاعدة استعمارية لاسبانيا في أرض المغرب نظرا لثورتها المعدنية ولكن رغم هذا يصرح ميكيل مرتين في آخر تحليله انه بحكم الظروف الراهنة يجدر باسبانيا أن تتخلى عن الصحراء مهما كانت مصالحها الاقتصادية هناك.



بعد هذه النظرة الخاطفة على محتوى الكتاب، يحق لنا أن نعود الى دراسة بعض الجوانب منه :

نلاحظ أولا أن البحث يتعلق بفترتين مختلفتين من تاريخ الوجود الاسباني بالمغرب. فالمقدمة والفصول الخمس التي تليها تتطرق الى قضية العلاقات المغربية الاسبانية في الماضي (1848 - 1956)، أما ما يسميه ميكيل مرتين بخاتمة الكتاب ، فهو في الحقيقة يتعلق بجانب آخر من الموضوع حيث يعني فترة تاريخية حديثة (1956 - 1973)، يتطرق اليها ميكيل مرتين على الخصوص من الوجهة السياسية، فلا يمكن اعتبار هذا الفصل الأخير كخاتمة للكتاب أو كملخص شامل لما سبق كما يكون الشأن لكل بحث علمي. والشيء الذي يربط بين الفصول الرئيسية للبحث وخاتمته يتمثل فقط في النظرة السياسية (الماركسية) للأحداث.

وفيما يرجع الى الفصول الرئيسية للكتاب، يبدو جليا أن ميكل مارتن كان يتوفر على معلومات كثيرة ودقيقة حول الأحداث الاسبانية، أما مراجعه بالنسبة للمغرب فانها ناقصة جدا وخالية من الدقة. فكثير من الاسماء العربية تظهر مغيرة الشكل في كتابه. نقرأ مثلا :

Paruena del Sebi

Pas fiestas de Abd-el-Kébir y Molud.

Al El Fassi

أي حوض سيبي، عوضا عن سبو (ص 18)

أي احتفالات عبد الكدير والمولد، عوضا عن العيد الكبير (ص. 132)

أي آل - الفاسي، عوضا عن علال الفاسي (ص. 190)...

وبالاضافة الى هذه الاغلاط المتكررة نجد اغلاطا أخرى أخطر تتعلق بالاحداث التاريخية. فحسب ميكل مارتن :

الملك بن يوسف هو « جد ملك المغرب الحالي » (ص. 27)

- المناضل علال بن عبد الله كان قد حاول اغتيال الكلاوي (ص. 227)....

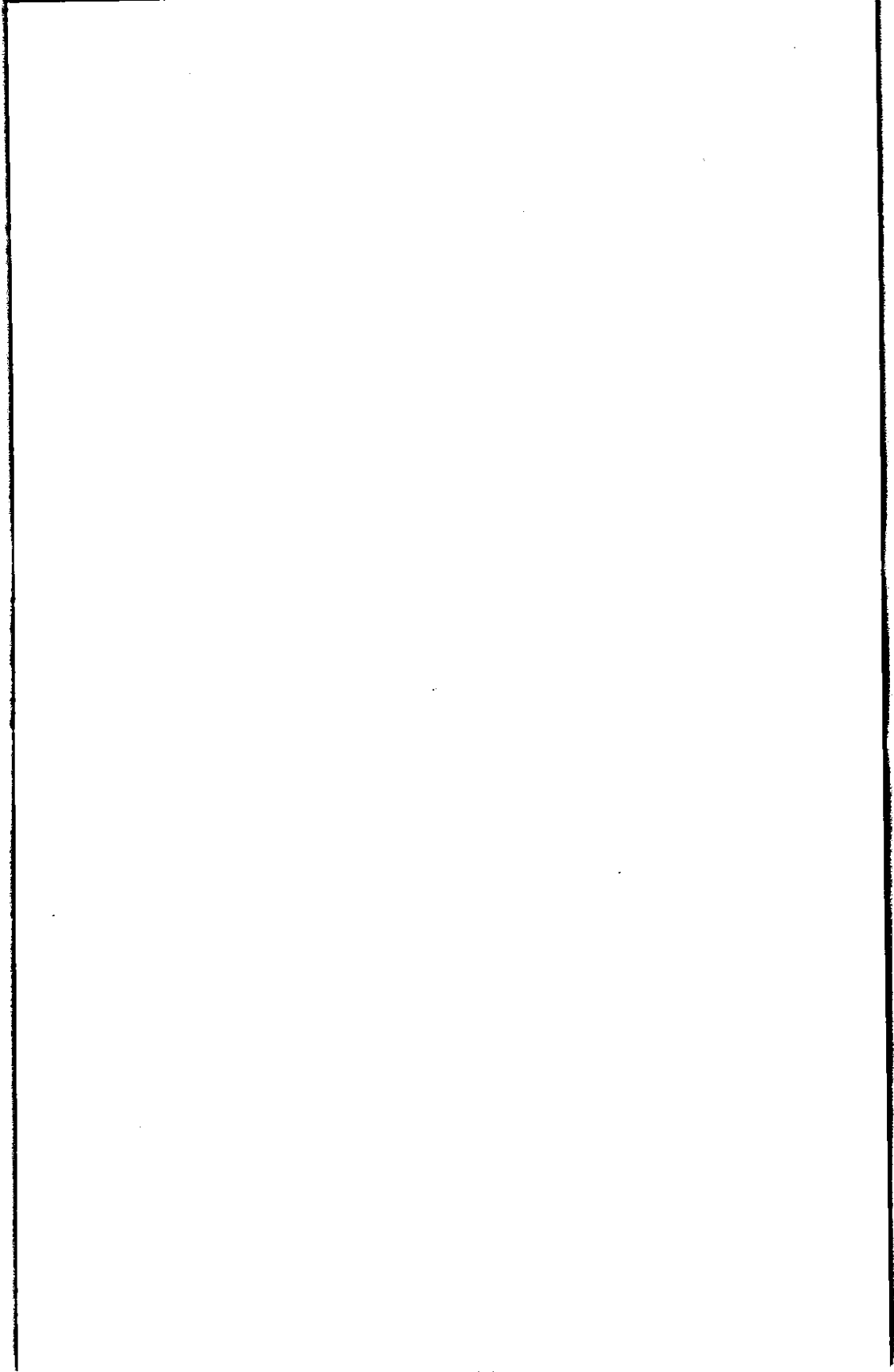
أما محتوى « خاتمة » الكتاب فانه يكشف لنا على الخصوص موقف ميكل مارتن من قضية الصحراء. فوجهة نظره غامضة حيث يعتبر من جهة أن الصحراء مغربية ويحق استرجاعها للمغرب ويقترح من جهة أخرى تنظيم استفتاء لحل القضية. وزيادة على هذا، فالكايت لايتطرق ولو بصفة خاطفة الى موريطانيا كطرف معني في قضية الصحراء. وقد أبدى لنا تطور الأحداث منذ سنة 1973، (سنة صدور الكتاب) أن ميكل مارتن قد أخطأ في تنبؤاته.

وبالاضافة الى هذا، وكما تقدم خلال عرض محتوى الكتاب، فميكل مارتن يتناول في بحثه تطور القضية الاستعمارية خلال تقلبات السياسة التي عرفتها اسبانيا أثناء مرورها من الملكية الى الدكتاتورية ثم الجمهورية، ويركز البحث خصوصا على سنوات الجمهورية، والحرب الأهلية وهي سنوات حاسمة بالنسبة للنظرية التي كان يريد ميكل مارتن عرضها، والمتعلقة بعدم تمسك الحزب الشيوعي الاسباني بخطة معاكسة لفكرة الاستعمار، ومسؤوليته في السياسة الاستعمارية الاسبانية، كما يلاحظ على اليسار الاسباني خطأه المتمثل في عدم نظرتة الى الحركة الوطنية المغربية كحليف قوي يجب اعتباره. وربما ينقص التحليل القيم لهذه الظاهرة عدم التطرق لاسباب تناقض الحزب الشيوعي الاسباني، أسباب لها ارتباط بدون شك مع الحالة الداخلية الاسبانية والوضع الدولي آنذاك والتي تعكس الاتجاه الذي اتخذه الحزب الشيوعي الاسباني بعد

الانشقاق الناتج عن مناقشة موضوع الاستعمار اثناء اجتماع مؤتمر 1907، للاحزاب الشيوعية الدولية (La 2^{eme} Internacional)

لكن ، رغم الانتقادات الموجهة من طرف ميكل مرتين الى الحزب الشيوعي الاسباني، فلا يحق لنا أن نستخلص أن الكاتب ضد الشيوعية، بل أنه يعد من بين أعضاء هذا الحزب، الشيء الذي يظهر جليا خلال التوجيهات المذهبية السائدة في الكتاب، فهو لا يريد انتقاد الايديولوجية الشيوعية ككل بل تعرض فقط لتحليل خطأ سياسة الحزب الشيوعي المتعلقة بنقطة معينة هي قضية الاستعمار.

وختاما، يمكن القول أن كتاب ميكل مرتين رغم تغلب الصبغة السياسية فيه على المحتوى التاريخي ورغم جوانب النقص المشار اليها أعلاه يكون بحثا هاما في موضوع العلاقات المغربية الاسبانية حيث يفتح الطريق لدراسة قضية الاستعمار الاسباني بالمغرب وهي قضية لازالت في حاجة الى مؤرخين يتناولوها بالدرس، كما يشير الى أهمية تحليلها من ناحية جديدة غير الناحية المتداولة في الوثائق الرسمية الاسبانية.



محمد زنيبر وعبد اللطيف الشاذلي

عرض لمجلة هسبريس (العدد 15)

– المقال الاول : مجاعات وأوبئة بمغرب القرنين 16 و 17

بحث للاستاذين روزنبرجي والتريكي (القسم الثاني)

أول مقال بطالعنا في العدد الخامس عشر من مجلة « هسبريس تمودا » يشمل القسم الثاني والأخير من الدراسة التي قام بها الأستاذان « روزنبرجي » « والتريكي » بعنوان مجاعات وأوبئة بالمغرب في القرنين 16 و 17.

وقد سبق لنا أن قدمنا تحليلا ضافيا عن القسم الاول، مبرزين في نفس الوقت أهمية الموضوع بالنسبة للكشف عن جوانب متعددة وأساسية في تاريخنا، وبالأخص الجانب الديموغرافي والاقتصادي الذي مازال في مسيس الحاجة الى أبحاث مكثفة تتناول، في نفس الوقت، البحث عن الوثائق الدفينة وتحليل المعلومات المضمنة فيها.

ولئن كان القسم الاول اقتصر على دراسة القرن السادس عشر، فإن الثاني يعطينا فكرة عن كوارث المجاعات والأوبئة كما تتابعت منذ بداية القرن السابع عشر الى 1670، مع بداية الدولة العلوية. وقد اختار المؤلفان أن يقفا عند هذا التاريخ لا لأنه يعني منعطفا تاريخيا بالنسبة لموضوع الأوبئة والمجاعات، ولكن لأن الموضوع سيتسع كثيرا ويتطلب جهودا دراسية أكبر وأوسع. بل انهما يعتبران أن تلك الكوارث استمرت حسب دورات زمانية تكاد تكون معتادة. ويضيفان ملاحظة من شأنها أن تهم الباحثين، وهي وجود تسهيلات لمواصلة الدراسة فيما يخص القرون الثلاثة الأخيرة، نظرا لوجود « قدر أوفر من الوثائق ». ومهما يكن، فإن المثال الذي بين أيدينا يغري بالاستمرار في مثل هذا العمل.

من مطالعة الفصل الاول من المقال، نخرج بانطباع عام وهو أن المغرب لم تخل ساحته من كوارث المجاعات والأوبئة في القرن السابع عشر. وهكذا تحل المجاعة به في سنة 1613 وظهر أثرها بفاس ومراكش ومات الناس بالآلاف وارتفع ثمن القمح. ففي فاس وحدها بلغت الوفيات من جراء الكارثة 7000 الى غاية يناير 1614، و5000 فيما بين يناير وأبريل 1614.

وفي سنة 1625، ظهر الوباء بفاس، وانقطعت المواصلات، وارتفع ثمن القمح. ويظهر أن الكارثة استمرت سنوات متعددة، حيث تظهر آثارها في 1626 و 1627، وتنقل الى عدة أماكن بالمغرب كالجديدة، مثلا، والغرب ومراكش. والتقت في هاته المدينة الأخيرة المجاعة مع الطاعون منذ 1626، ففتكت فتكا ذريعا بالسكان وتفاقت عواقبها في 1627 حتى أن 7000 أسرة فرت من المدينة. وتشير بعض الروايات الى وفاة 160 000 مغربي من جراء الكارثة في مملكة مراكش التي هي غير مملكة فاس اذ لانسى كارثة التقسيم التي اجتاز منها المغرب في أواخر الدولة السعدية. ويستنتج المقال أن هذا الرقم يعادل 30 في المائة من سكان المنطقة.

يبحث المقال في طبيعة المرض الذي عصف بأعمار عدد كبير من الناس فيستنجد أن الأمر يتعلق بطاعون انتقل من تونس والجزائر الى المغرب اذ انتشر بهذين القطرين فيما بين 1622 و 1624 قبل أن يصل الى المغرب الأقصى.

وكان للكارثة مضاعفاتها من الناحية السياسية، حيث يميل المقال الى ترجيح رأي جديد عن أسباب تدهور الدولة السعدية وعجزها عن انعاش المخزن وتقويته. فقد اقتصر رأي عدد من المؤرخين الى توجيه التهمة الى الملوك وحدهم فيما حصل. ولكن يظهر أن في ذلك الرأي تحاملا عليهم، لأنه لا يوضع في الحساب الظروف القاهرة التي كانت تحيط بهم. فلم يكن في استطاع لا عبد الملك ولا أخويه الوليد ومحمد الأصغر « أن يتلافوا الاحوال لانعدام المال والرجال في يدهم » من جراء ثقل الكوارث التي توالى منذ بداية القرن. وهذا لا يعني، بالطبع، تبرئة ساحتهم من كل ذنب وتبعة. ولكن التاريخ هو التاريخ ينصف ولا يظلم.

ولكن هل توقف الطاعون نهائيا في سنة 1630 ؟ سؤال يعترض الباحث اعتبارا لبعض الوثائق. ولكن كاتب المقال يجيبان عليه بالنفي، مشيرين الى أن الطاعون ظهر

بواي درعة في سنة 1631، حسب مصدر محلي. وهذا يؤكد أن ذلك المرض الخطير استمر مدة طويلة بالمغرب منتقلا من اقليم الى آخر. وبعد ذلك بثلاث سنوات، عرف المغرب القحط في سنة 1635.

ونقفز بعد ذلك الى أواسط القرن لنصادف الكارثة في عنفوانها. ويشير مصدر اسباني الى وجود الطاعون بسلا في سنة 1647 لكن سنة 1650 كانت في الواقع، هي منطلق الأزمة الحادة. وكان سببها الجفاف والقحط وتضاعف ثمن القمح ست عشرة مرة. ويذكر مصدر هولندي أن الناس ماتوا بألاف بمدينة سلا، من جراء الجوع، وكان ذلك الوضع سببا في توقف جهاد القراصنة بالبحار. واستمر ذلك الى سنة 1653 حيث يشير نفس المصدر الى أن « الموتى كانوا يوجدون كل يوم بالشوارع مطروحين كالكلاب » وأن التجارة تضررت من جراء ذلك. ولم تبلغ الكارثة، على ما يظهر، نفس الحدة بمدينة فاس.

ورجعت المجاعة من جديد الى البلاد فيما بين سنتي 1661 و 1663. فبعد شتاء وربيع جافين، ظهرت طلائع المجاعة في بداية صيف 1661. فمات الناس بتادلا وخلت الديار والقرى، واتجهت عدة قبائل تجاه الجنوب نحو الصحراء، وبالزاوية الدلائية كان الناس يموتون بمعدل مائة في كل يوم. وبدأت تظهر عقابيل الكارثة بفاس والغرب، في خريف 1661. وتعممت المجاعة بين أقاليم الصحراء والشمال، مما أثار تحركات بين القبائل وأعمالا فوضوية. وأكل الناس الجيف بفاس وفي نفس الوقت تضررت المدينة من حصار الدلائيين لها. ويقال انه مات في تلك الأزمة مالا يقل عن 12000 من أهل فاس، بغض النظر عن العدد الضخم من أموات الأفاقيين الذين التجأوا اليها بكثرة في تلك الظروف العصيبة أملا في ضمان القوت. وبديهي أن مثل هاته الأرقام دالة على خطورة الكارثة اذا علمنا أن سكان فاس لم يكن يتجاوز عددهم 100 000 نسمة. ولم تقف الكارثة عند أقاليم محدودة، بل تعممت في كل الجهات. فبالإضافة الى فاس وبلاد الدلاء وتادلا، تذكر المصادر مراكش وسوس وسلا. وفي هاته المدينة الأخيرة وناحيتها أورد مصدر هولندي 100.000 من الموتى ذهبوا ضحية المجاعة.

وينتهي المقال من تحليلاته لمختلف الروايات الواردة في المصادر الى استنتاج عام بالنسبة لازمة الأخيرة : النقص الديموغرافي الخطير الذي حدث بالمغرب أدى الى فراغ أقاليم من السكان، وترتب عن ذلك نتيجتان :

1 - تحركات قبائل من الصحراء نحو المناطق الشمالية الخصبة التي مس بها الفراغ الديموغرافي، مثل جروان وأيت يمر الذين استقروا شمال الأطلس.

2 - تسهيل مهمة إخضاع المغرب أمام المولى رشيد، أول سلطان في الدولة العلوية الناشئة، حيث أن الكارثة بمضاعفاتها أضعفت المقاومة في الأقاليم فلم تستطع لا الزاوية الدلائية ولا مراکش ولا إيليغ أن تصمد طويلا أمام القوة الصاعدة.

تلك هي الأحداث كما بسطها المؤلفان في القسم الأول من الدراسة لكنهما لم يريد أن يقفا عند مجرد عرض تاريخي وصفي، فارتأيا أن يضيفا إلى ذلك جملة من الاستنتاجات والتعليق استغرقت ثلاثة أرباع القسم الثاني من الدراسة أي ما يعادل 78 صفحة.

وهكذا ينتقل المقال للحديث عما دعه « أزمات القوت » مبرزا التشابه في شكلية تلك الأزمات بالمقارنة مع ما كان يحدث بأروبا. فيتحول ثمن الحبوب بين الارتفاع والانخفاض تبعا لنزول الأمطار وضمان المحصول المنشود. ولكن الكارثة الحقيقية لاتقع بالنسبة لسنة واحدة من الجفاف فقد يقع الغلاء؛ ولكن المدخرات من القمح تكون كافية، في الغالب، لضمان ضرورات المعاش. بل أن الأزمة لاتبدأ حداثها إلا إذا جاءت سنة عجفاء بعد أخرى. آنذاك تفرغ المخازن والمطامير ويتعمم الخوف ويبدأ العنف والموت ويتأزم الاقتصاد. بصفة عامة.

ويظهر رد فعل السكان في عدة مظاهرات دينية، مثل صلوات الاستسقاء التي تقام في المساجد، وكذلك في البيع عند اليهود. وقد يصوم الناس ويوزعون الصدقات في تلك المناسبة، وقد يرافق استياء الناس من الحالة شعور سياسي. إذ كانوا حسب بعض المصادر، يحملون السعديين مصائبهم. وكانوا. بالطبع، يلجأون إلى الأولياء، منتظرين أن تحدث كرامة نزول الأمطار على أيديهم. وكم تشير كتب المناقب إلى أحداث من هذا النوع وعلى كل، فالدراسة تلح على الجانب الاتكالي في موقف السكان، وتشير مع ذلك، إلى وجود بعض المؤسسات والتقاليد التي يكون دورها هو تدارك الأزمات من هذا النوع. جملة ذلك وجود مخازن كبرى للاقوات بالأطلس الكبير والصغير تدعى أجادير بالبربرية، وهنالك، أيضا، المطامير التي كانت منتشرة بالسهول الساحلية وكانت هنالك أهراء في المدن، وخاصة في العواصم. ولربما قام السلطان بتوزيع الحبوب على الناس. وكانت الزوايا

تقوم بدور مماثل. ويشير المقال في الأخير الى وثيقة لاتخلو من أهمية، وهي نص كتبه عالم سوسي عبد الله بن محمد البوشواري عن فضائل الاقتصاد والاحتياط في نطاق العائلة، وكل هذه معلومات جديدة تدعونا الى اعادة النظر في التهم الموجهة الى المجتمع الاسلامي من كونه يقف مواقف سلبية أمام الاحداث ويستسلم للأقدار دون بذل أي مجهود.

كما تتعرض الدراسة لأنواع المواد الغذائية المساعدة على التخفيف من الأزمة. فهناك الشعير الذي يعتبر من الحبوب الرئيسية بالمغرب. والى جانبه كانت الذرة البيضاء التي حلت محلها الذرة الصفراء فيما بعد، وكذلك القطنيات من عدس وحمص وجلبان الخ.. والخروب وجوز الأركان. وفي حالة الاضطراب يلجأ الناس الى أكل بعض الأعشاب البرية مثل الخبازي والبسباس والخرشوف البري ويرني بالإضافة الى قنص الوحوش التي كانت موجوة بكثرة في البادية المغربية.

ويقف المقال وقفة خاصة عند مرض الطاعون الذي كان هو أخطر الأوبئة وأشدّها فتكاً. فيدرس نوعيته وكيفية انتشاره والناحية العالمية التي يأتي منها. وتشير كل القرائن الى أن المرض كان يأتي من الشرق الأدنى مجمولا مع السفن التي تأتي من جهة الدولة العثمانية الى الجزائر أو مع الحجاج العائدين من الديار المقدسة. ولكن هذا لا يمنع من وجود مراكز محلية موبوءة في بعض الجهات الصحراوية تغذي الوباء من حين لآخر وعلى أي، فالمجاعات تساعد على تفاقم الطاعون لأنها تترك السكان في حالة ضعف جسماني غير قادرين على مقاومة المرض.

ويتعرض البحث، بعد ذلك الى موضوع طريف يتعلّق بالمظاهر الاجتماعية للأزمة، فيتساءل هل هناك مساواة أمام الموت بين الأغنياء والفقراء أم يظل قانون التفاوت ساري المفعول حتى في مثل هذه الحالة. وينتهي الى الاعتراف بأن التفاوت يظل هو القاعدة، ولو كانت معها بعض الاستثناءات. فالأزمة اذا اشتدت تضعف مفعول التضامن الجماعي وأساليب البر والاحسان وتوحي بالأنانية وقساوة النفس ويكون الاغنياء محتاطين لأنفسهم. مدخرين بعض الأقوات لآوقات الشدة، في حين يكون الفقراء، وخاصة بالمدن محرومين من كل وسائل العيش منذ يومهم الاول، وحتى اذا لم يدخر الغني، فإن ماله يساعده على اقتناء العيش الضروري، ولو بأعلى ثمن.

كما أن الأزمة تساعد الاغنياء على توسيع ثروتهم عن طريق القروض التي يقدمونها للفلاحين الفقراء والتي لا تخلو من عملية الربى ولو بصورة مقنعة وغير مباشرة. وهكذا كان القمح يباع بزيادة 50 في المائة اذا كان البائع يدفعه للمشتري على سبيل القرض. ويستنتج البحث من تحليل بعض الأمثلة ان كل أزمة تؤدي الى اعادة توزيع الثروات. وهذا يحدث اما عن طريق المضاربات أو استغلال الظروف للقيام بعمليات تجارية رابحة أو بفضل ارث عائلات انقرضت بسبب الكارثة، أو تعسف رجال السلطة في ظروف استثنائية. ولم تكن هاته التحولات تحدث بدون عنف واصطدامات فبالاضافة الى أمثلة ورد ذكرها من قبل ، يشير مصدر هولندي الى الصراع الذي حدث بين الفلاحين والشيخ بناحية سلا. كما أن تخريب مزارع السكر بسوس من لدن الفلاحين أنفسهم يكاد يدل على وجود نوع من نزاع طبقي. ويلاحظ المقال، أيضا، كيف أن الطاعون يتسبب في تدهور الحضارة كما حدث بالمغرب في القرنين 16 و17.

ما هو أثر التدهور الديموغرافي على الاقتصاد ؟ سؤال آخر تعرض له المقال. ولحاجة الى الالحاح على العلاقة الوطنية بين عدد السكان والنشاط الاقتصادي. ويظهر أن الكوارث التي عاشها المغرب في القرنين 16 و17 أدت به الى تدهور ديموغرافي خطير، حتى أن السهول الأطلسية المعروفة بانتاجها وخصوبتها كانت تترك الانطباع بأنها فارغة من السكان. وهذا ما جعلها مرتعا للرحل، بدل أن تكون مناطق انتاج زراعي كما تدعّر اليه طبيعتها. وانتشار الاقتصاد الرعوي على حساب الاقتصاد الزراعي ناتج عن التقاء عدة أسباب :

- نقل قبائل صحراوية متعودة على حياة الانتجاع الى السهول الأطلسية لملاءمة الفراغ الديموغرافي.

- ضغط الاستعمار البرتغالي على سكان المنطقة

- رغبة المخزن في المحافظة على الخصال العسكرية جعله يشجع الحياة الرعوية لدى عدد من القبائل التي نقلها.

- تكالب المخزن على سكان السهول الأطلسية بالجبايات الثقيلة شجع هو، أيضا، الرعي على حساب الزراعة، لأن المزروعات كانت توظف عليها جبايا أثقل من قطعان الماشية التي

يسهل اخفاؤها، والتي يسهل على صاحبها الفرار من يد الجباة. وهكذا تدهورت الوضعية الزراعية لتلك السهول الخصبة التي طالما أشاد ابن حوقل والبكري بانتاجها.

وتدهور اقتصاد البادية، وبالأخص في السنوات العجاف، كان من نتائج تدهور الصناعات في المدن التي يعيش منها طائفة كبيرة من الناس وتدهور التجارة في الداخل ومع الخارج، أيضا. ومعنى ذلك تدهور المدن في ادوارها الحيوية سواء كانت تتعلق بالاقتصاد أو بالثقافة أو بالفن الخ... ومما زاد في تفاقم هاته الوضعية وترسيخها في المغرب، التطور الذي بدأ يعرفه الاقتصاد العالمي منذ سنة 1600، مع استقرار اقتصاد أطلسي، حيث نشأت روابط مباشرة بين أوروبا وأمريكا، وبين أوروبا وإفريقيا السوداء، مما جعل المغرب يفقد دوره كوسيط ويقع في موقع يكاد يكون هامشيا.

ويتعرض البحث في الأخير، للنتائج السياسية المترتبة على تلك الأزمات والتي تتلخص في سير الدولة نحو الضعف والانهيار. فالفاقة تثير ضروبا من العنف والفوضى وتتعرض هيئة الدولة للانتقاد والاعتراض، في حين أن الطاعون يقضي على جزء كبير من أطرها وأجهزتها المدنية والعسكرية فتفقد بين عشية وضحاها وسائل العمل الناجعة في المدن والبادي سواء منها القريبة أو البعيدة.

وكل هذا يتيح لقوات سياسية أخرى أن تبرز داخل البلاد على النطاق المحلي مثل الزوايا والقبائل. ولا أدل على صعود القبيلة في هاته الفترة من الدور الذي لعبته قبيلة الشبانات العربية التي اعتمد عليها السعديون المتأخرون كقوة تقوم مقام الجيش، فما كان منها في الأخير إلا أن استولت على الحكم لصالحها. ولا أدل على دور القوات الدينية، من الحركة المناهضة للسعديين التي قام بها أبو محلي.

— ان هاته الفترة، بمعطياتها الخاصة، ساعدت على ظهور كيانات سياسية اقليمية على حساب السلطة المركزية كما يظهر من مثال سوس وتافيلالت والزواوية الدلائية وسلا. والتنافس الذي حدث بين هاته القوات الناشئة على المسرح المغربي كان من شأنه أن يؤدي جدليا الى اعادة الوحدة السياسية المغربية وهذا ما حدث مع قيام الدولة العلوية. ولكن، هناك ظواهر سياسية ستطبع تطور المغرب أثناء القرون التالية :

— تطور الاقتصاد العالمي جعل المغرب في منطقة ثانوية.

- التطور السياسي داخل المغرب أدى الى انقسامه الى بلاد مخزن وبلاد سيبة. وهذا ناشيء عن لجوء المخزن الى استعمال القوة لاستخلاص الجبايا.

وينتهي المؤلفان في خاتمة الدراسة الى الاعتراف، بكل تواضع، أنهما لم يجيبا على كل الأسئلة المطروحة ويحددان جملة صالحة من النقاط التي مازالت في حاجة الى المزيد من البحث.

اننا اذ نقدم هذا المقال، منوهين بقيمته العلمية، ومهنتين كاتبه على عملهما الممتاز، لا نريد أن نقول ان كل ما ورد فيه صحيح ولا يقبل المناقشة. بل هنالك مجالات للنقد والنقاش، على الأقل، أذكر منها على سبيل المثال، البحث في البليوغرافيا وتقييم المصادر، قابلية المغرب للاكتفاء الذاتي من حيث الحبوب وتأثير النهب الاستعماري البرتغالي والتهرب والتصدير في نقصان الأغذية والأقوات تأثير وسائل النقل والاتصال بين الأقاليم على أحداث الجماعات، ثم أن القرن السابع عشر انسم، على العموم، بما أظهره المغاربة من وعي سياسي سواء من أجل تحرير بلادهم من خطر الاستعمار أو من أجل البحث عن حل سياسي شامل للمشاكل الداخلية التي كان يتخبط فيها المغرب. فكيف يمكن تفسير تلك الحيوية وتلك الروح النضالية اذا بقينا مع الانطباع العام الذي تركه المقال في نفسنا عن شعب أنهكته الكوارث وأضعفته وقادته الى حالة الانهيار والاستسلام. فلا بد ان، من وضع هاته الكوارث في الإطار التاريخي العام للمغرب حتى لا يظهر تناقض بين أحداث، وأحداث وحتى تحتل مكانها المعروف وسط التطور العام للبلاد.

ومع ذلك فأنا أفضل أن أسكت الآن عن كل نقد ومناقشة وأنوه بالجانب الايجابي في المقال، وهو أنه يقدم لنا نموذجا عاما يجب أن يكون عليه البحث في تاريخنا. فقد سئمتا تلك الأبحاث التي تريد أن تقنعنا بأن كل شيء كان جميلا ومشرقا في ماضينا، وأن الناس كانوا يعيشون في نعيم مقيم، دون مشاكل ولا مصاعب ولا أزمات. صورة رتيبة ومملة، بالإضافة الى كونها مخالفة للحقيقة. فالذي نريده وننتظره اليوم من البحث التاريخي هو أن يبين لنا كيف كان يعيش أجدادنا، على الحقيقة، وما هي مشاكلهم اليومية، وكيف كانوا يتقلبون بين النعماء والبأساء وكيف كانوا يجابهون الأقدار حينما تقسو عليهم، وما هي التيارات والتناقضات التي تبرز في المجتمع، سواء في أوقات الشدة أو في أوقات الرخاء. ومن هاته الناحية أعتبر أن بحث الرميلين الحزيرين روزنبرجي والتريكي كان موفقا.

المقال الثاني :

- رسالة لم يسبق نشرها من مولاي اسماعيل الى أهل فاس : لنورمان سيجار ينطلق نورمان سيجار في مقاله هذا من رسالة توجد بمكتبة (جامعة أكسفورد)، ضمن مجموعة وثائق تاريخية مغربية في الصفحات 24 و 25 من المجموعة المذكورة.

الوثيقة استنسخت في نهاية القرن 18 من أصل رسالة بعث بهامولاي اسماعيل (1662 - 1727) الى اللمطين والاندلسيين من أهل فاس بتاريخ 1130 / 1718.

بعد أن يشير صاحب المقال الى أهمية هذه الوثيقة ومثيلاتها في دراسة تاريخ المغرب مذكرا بعدم كفاية المتوفر من المادة التاريخية المتعلقة بهذه الفترة التي ظهرت فيها الرسالة، ينطلق الى التقديم لمقاله بالقاء نظرة موجزة عن تاريخ المغرب أواخر أيام حكم مولاي اسماعيل، مع التركيز أولا على علاقة سكان مدينة فاس بالمخزن فيما ينشب عادة بين المخزن والرعية من خلاف حول الجيش والضريبة والاستنفار، والاشارة ثانيا الى علاقة المغرب ببعض الدول، ليخلص من ذلك الى الحديث عن الحصار الذي ضربه السلطان المغربي على سبتة - في اطار اهتمامه بتحرير الثغور - حصارا طاك ليذوم 27 سنة دون نتيجة (1693 - 1720).

وفي أواخر أيام الحصار المذكور (1718)، وبعد أن بدأت علامات فشل الحصار تتأكد، بادر السلطان الى القاء اللوم على بعض المناطق التي لايتناسب مجهودها في الجهاد ومقوماتها البشرية والمادية، ومنها مدينة فاس التي يشكل رأي السلطان في موقفها من الحصار فحوى الرسالة التي يدور حولها الكلام.

ملخص الرسالة تذكير السلطان أهل فاس - وخصوصا اللمطين والاندلسيين - بضرورة مشاركتهم في المجهود الحربي، تاركا لهم الخيار « بين أن يكونوا نائية أو جيشا » أي بين تقديم مجموعة محاربة منهم أو تقديم المال اللازم لتجنيد مجموعة من غيرهم مساوية لها. وبعد هذه المقدمات يبدأ سيجار في تحليل الوثيقة معتمدا على اشارة واردة في « الترجمان المعرب » للزياني، وأشارت أهم في كتاب « الدر المنتخب المستحسن في بعض ماثر أمير المؤمنين مولانا الحسن » لاحمد بن الحاج (1815 - 1898)، ليتوسع في تحليل العلاقة بين أهل فاس ومولاي اسماعيل. محور العلاقة مطالبة أهل فاس بأن ترفع

عنهم « الكلف المخزنية »، واستجابة السلطان لهذا المطلب أولا ثم تراجع عنه ثانيا، تحسبا أن تتخذ الرعية من سوى فاس منه سابقة وتعمل على التمكن من مثله، ورسالة السلطان هته ترجمة لتراجع هذا المشار اليه.

بعد ذلك يعود صاحب المقال الى استخلاص ما يمكن استخلاصه من الوثيقة من الفوائد التاريخية فيشير الى أنها تطرح وجها وجيها في علاقة فاس بالمخزن، مسجلا أولا درجة الاستقلال الكبيرة التي حصلت عليها المدينة وغياب أية مراقبة من المخزن فيها بعد مرور 50 سنة من حكم مولاي اسماعيل، وهذا ما يوضحه أسلوب الرسالة التي يلجأ السلطان فيه الى التذكير بعنصر الدين والعدالة والتلفق قبل اللجوء الى التهديد كعنصر لاقناع سكان فاس بما يريده منهم.

كما يشير الى الاضواء التي تلقيها الوثيقة على القوى السياسية والاجتماعية داخل المدينة مذكرا بتقسيمات المدينة من الناحية الطبوغرافية والمجتمعية والعلاقات بين القوى الاجتماعية المتمثلة في وحدات متميزة : البلدية - أهل فاس - اللطيين - الاندلسيون.

- أما عن التطور التاريخي الذي تشكل الرسالة الملكية منطلقه، فسيجار يوضح :
- رفض سكان فاس الاستجابة للسلطان كان سببا في الاصطدام بينهم وبين ممثله عندهم، اصطداما بلغ حد استعمال القوة.
- استجابة الفاسيين أخيرا لمطلب السلطان، حيث تتوفر شهادات على وجود بعض الفاسيين من بين المحاصرين لسبتة.
- وكنتيجة نهائية يرى كاتب المقال أن السلطان العلوي فشل في اقرار نظام جبائي وطني، وعجز عن القضاء على ميل مدينة فاس الى الاستقلال برأيها. وأن هاتين المشكلتين ستأخذان أهمية خاصة خلال السنوات المضطربة التي تلت وفاة السلطان.
ويختم سيجار المقال بإيراد نص الرسالة باللغة العربية مرفقا ببعض توضيحات تعقبها ترجمة لنفس الرسالة الى الفرنسية .

المقال الثالث :

- رسالة حول نشأة الدار البيضاء (كارا بلانكا) (1) في القرن 18 : رامون لوريدودياز. يفتتح رامون دياز مقالته بالإشارة الى كتاب اندري أم عن تاريخ مدينة الدار البيضاء، موضحا أهميته من حيث ما اعتمد عليه مؤلفه من قديم الوثائق وحديث الدراسات، ومن حيث موضوعه اعتبارا لاتجاه الدراسات المونوغرافية عن المدن المغربية نحو العواصم (1) - يناقش قسم من هذا المقال قضية طبونيمية، لذلك سنحتفض بالصيغة العجمية للدار البيضاء، كلما اقتضى السياق في ذلك.

القديمة واهمال أهم مدن المغرب المعاصر : الدار البيضاء. ثم يعمد الى موضوعه ليقدمه في 3 أبواب هي : الخطوط الكبرى لتاريخ أنفا / الدار البيضاء - تسميات المدينة - بناء أسوار المدينة على عهد سيدي محمد بن عبد الله.

أ - الخطوط الكبرى لتاريخ المدينة :

يبدأ رامون دياز بالقاء نظرة سريعة على أصل المدينة مشيرا الى انها كانت ماهولة منذ فترة بناء مراكش حيث كانت منذ ذلك الحين مرفأ صغيرا قليل الأهمية يعرف باسم أنفا مع اختلاف في كتابتها ، وفي أصل تسميتها هل هو بربري أم عربي (انفا التل أو الربوة) ثم ينتقل الى استخراج معلومات عنها من الكاتبين الشهيرين لليون الافريقي ولويس مارمول بالاضافة الى الفزاري وابن سعيد الاندلسي الى أن يصل الى بلقاسم الزباني ليستعرض بعض ما عنده من معلومات عن المدينة التي يدور حولها الموضوع. فيشير الى بداية تدهور أحوال المدينة في القرن 15 بسبب النزاع بين بني مرين والوطاسيين والى استيلاء البرتغال عليها سنة 1468 ليخربوها ويجلوا عنها قبل الرجوع اليها في عدة مناسبات (1487 - 1515 - أواخر القرن 18). ثم يعتمد على أندري أدم في تتبع أخبار المدينة الى الفترة المعاصرة، مشيرا الى اعتبار أدم أن من الصعب تأكيد وجود مدينة الى غاية 1916 والى أن اسم (كازابلانكا) ظهر في القرن 17 أو بداية 18 حيث أحيائها سيدي محمد عبد الله باسم الدار البيضاء وحيث سورها واتخذ منها مرفأ وبني بها قلعة. ثم الى تدهور المدينة مرة أخرى بعد وفاة ذلك السلطان الى أن تنتعش بسبب اهتمام الدول الكبرى بها في اطار اهتمامهم بالمغرب كله، وهكذا تعود الدار البيضاء في أواخر القرن التاسع عشر أهم موانئ المغرب بعدد سكان بلغ 21 ألف نسمة سنة 1901. وبعد أن يتحدث باقتضاب عن عدد سكان المدينة وعدد الجاليات الأجنبية يخلص الى أن المدينة غدت باستقرار فرنسا كقوة حامية مستعمرة، أهم مدن شمال افريقيا.

ب - اسم الدار البيضاء و« كازا بلانكا » :

يورد دياز تأكيد أدم من أن سيدي محمد بن عبد الله هو الذي جدد المدينة وهذا ما جعلها تحمل الاسم الجديد الدار البيضاء / كازابلانكا. ثم يورد تساؤل أدم عن أصل هذه التسمية ؟

يوضح دياز أنه لايوافق ادم مطلقا في ارتباط الدار البيضاء بإعادة بناء السلطان العلوي لها. ويورد على صحة ذلك عدة حجج مبتدئا بالإشارة الى أسطورة وجود زوجة أحد الصلحاء (سيدي غلال القيرواني) باسم لا البيضاء أو تلك التي تقول بوجود بناية عالية

منذ القرن 15 وسط المدينة ترشد المسافرين إليها من البر أو من البحر وتعرف. بالدار البيضاء. ثم ينتقل الى كتاب أندري شنيي ليستشهد منه بفقرة (على بعد 4 أميال من فضالة توجد أنفا التي تسمى اليوم الدار البيضاء) ويستنتج من ذلك أن الاسم الذي كان مستعملا هو الاسم العربي وليس الاسباني. ثم يزيد في تبسيط حججه بالاعتماد على وثائق يظهر منها أن الاسم « كازا بلانكا » لم يستعمل قط خلال القرن 18، وعلى مؤلفات مغربية مثل الضعيف والزباني الذين استعملوا تسميات أنفا والدار البيضاء ولم يستعملوا قط كازا بلانكا.

وبعد ذلك يخلص الى النتائج التالية :

- أن الاستعمال الشائع في النصف الثاني من القرن 18 سواء عند الأهالي أو عند بعض المتوافدين هو الدار البيضاء وذلك بشهادة الوثائق المغربية والأوربية.
- أما التسمية الاسبانية (كازابلانكا) فلم تستعمل في هذه الفترة لا في الوثائق الأوربية ولا المغربية، ولم يبدأ استعمالها الا في القرن 19.

ج - بناء أسوار المدينة :

بعد أن يورد مذكره اندري أدم في مؤلفه عن هذا الموضوع مقارنا ذلك بما ورد في مادة الدار البيضاء في الموسوعة الإسلامية، يلاحظ عليه نقص التحليل وبعض الأخطاء التي يلتزم الكاتب بتصحيحها اعتمادا على الوثائق المغربية والأجنبية التي تتعلق بنفس الموضوع. ويحصر رامون دياز المناقشة في نقطتين أساسيتين :

أسباب بناء المدينة وتاريخ ذلك البناء

ويعمد الى ايراد رأي اندري أدم في الموضوع، ذلك الرأي الذي يمكن تلخيصه في أن تاريخ البناء المدقق غير معروف وأن بالامكان فقط حصره بين 1769 و 1775، وأن الأسباب التي دعت السلطان الى ما أقام من التحصين هي أسباب عسكرية ترتبط من جهة بتحرير البريجة، ومن جهة أخرى بالثورات المحلية.

أما فيما يتعلق بالجانب الاول، فكاتب المقال يذهب - بعد مناقشة الاصول التي اعتمدها اندري أدم لتحديد التاريخ بالتقريب - الى أن بناء المدينة كان سنة 1786/1201 - 1787. اعتمادا على تاريخ الضعيف - ويورد فقرات منه لتأكيد ذلك - وعلى مراسلات اسبانية.

أما الجانب الثاني، فيركز فيه على ما للتجارة من الدور المهم في حفز السلطان على اتخاذ مرسى في الدار البيضاء وتجهيزه بالمرافق والحامية. كل هذا في أسلوب مرح لا يخلو أحيانا من بعض التهجم.

المقال الرابع :

التجزؤية والتراتب المجتمعي والسلطة السياسية والصلاحي.

= نظرات حول أطروحات كلنر لعبد الله حمودي =

يشير الاستاذ حمودي في بداية مقاله الى اقبال الباحثين في المجتمع المغربي القروي « التقليدي » على المنهج التجزئي وأن من بين هؤلاء ارنست كلنر الذي حاول تطبيق ذلك المنهج في دراسته لقبائل الأطلس الكبير الأوسط. ومن بين أهم المشاكل التي يطرح المؤلف المذكور في كتابه : كيف تحافظ تلك القبائل على الأمن والاستقرار في غياب جهاز حكومي ؟ والجواب في اعتقاد كلنر يكمن في الخاصية التجزؤية لتلك القبائل وفي الدور الذي يلعبه فيها العمود النسيبي « المقدس ».

بعد هذا المدخل يعتمد الاستاذ حمودي الى التعليق على دراسة كلنر مع التركيز على النقاط التالية :

- علم الانساب ودوره في تحديد الفئات الاجتماعية.
- العيرارشية والتوزيع التراتبي للمجتمع - ومنها : خصائص السلطة السياسية.
- الخطوط المميزة للصلاء عن العامة.

وقبل تحليل هذه النقاط، يبدأ الاستاذ حمودي بتقديم نظرية كلنر :

- يشير الى أن كلنر أخذ النظرية عن الانثروبولوجي الانجليزي بريثشار.
- النظرية تقوم على أن المجتمع التجزئي مكون من فئات متداخل بعضها في البعض، تحدد كل نقطة تداخل وحدة من مستوى ما. إذ قوام كل قبيلة أعمدة نسب مرتبطة ببعضها على أساس اعتبارات ما، ويكون مجموعها وحدة اجتماعية سياسية يزيد استقلالها أو ينقص. والوحدات الاجتماعية تدخل في « شجرات أنساب » تحدد العلاقات بين المجموعات وبين الافراد بكيفية من الوضوح الذي ينتفي معه كل تصادم محتمل. وتحدد الروابط بين أجزاء المجتمع انتساب واحد أو أرض واحدة (ولو أن كلنر يرى الاحتفاظ بالصفة التجزؤية للمجموعات المرتبطة بالانتساب). وهذا الانتساب من النوع الذكوري بالنسبة لقبائل الأطلس الأوسط، حيث تتحدد الجماعات تبعاً للعلاقات بالجد المذكر من الابن الى الأب الى أن تلتقي خطوط النسب في المستوى الاعلى الذي يحدده الجد

المشترك الذي يحدد بدوره القبيلة أو الاتحاد القبلي.

أما الاجزاء المتداخلة فهي تأخذ شكل شجرة تتفرع أغصانها باستمرار : فمن كل جد تتفرع خطوط نسب جديدة على أساس الخلف المذكور، ويستمر التفرع الى غايته المتمثلة في العائلة ويمثل كل جيل من الجدود مستوى تجزؤيا. ولكل تجزؤ وظيفة معينة: فالعائلة تستغل ملك كبيرها، والجدود في مستوى القرية يصفون مايعرض من مشاكل توزيع الماء والأرض، والقبيلة باعتبارها التجزؤ النهائي تهتم بالعلاقات مع باقي القبائل ...

- تتعارض المجموعات المجتمعية في مستوى ما من مستويات التجزؤ، ولكنها تتآلف في المستوى الذي يليه بكيفية تلقائية. ومثال ذلك امكانية وجود « أسرتين » متنازعتين تفضلان نزاعهما لتحالفا في اطار فرقتهما المحاربة لفرقة ثانية.

- تحتفظ البنية التجزؤية على عدد قار من الاجزاء في كل مستوى من مستويات التجزؤ وهذا ما يسميه كلنر بميكانيكية الامتزاج. حيث يشكل هذا الامتزاج ثقلا موازيا لـ « الانشطار » الناتج عن تعدد الأجداد باستمرار.

- شرط المجتمع التجزؤي أن يتكون من التجزؤات المترابكة، وحالة التعارض والتكامل التي تميزها هي أساس التنظيم والعمل فيها. فالمجتمعات التجزؤية لاتعرف التراتب الاجتماعي كما أن سلطة الرؤساء السياسية ضعيفة محدودة. فالبنية التجزؤية تمنع ظهور الزعامات القوية وتحول دون تركيز السلطة. أما المحافظة على النظام فتتحقق حسب كلنر نتيجة التوازن في الخوف المتبادل من جهة، وبالدور التحكيمي للصلحاء من جهة ثانية.

- هذه الخطوط العريضة لنظرية التجزؤ تنطبق على قبائل الأطلس الكبير الأوسط التي تعطي حسب كلنر مثالا فائق الوضوح لها. فهي حسبه دائما لاتعرف هيرارشية ولا توزيعا للعمل كما أن الزعامات السياسية فيها ضعيفة، يحد من سلطة الزعماء الصلحاء الذين تعتبر مجموعاتهم تراتبية غير ذات مساواة. ميزتهم المساواة وحيادهم يمكنهم من القيام بدور الحكم وبواسطتهم يمكن للعامة التعاون والتسامح.

والصالح يشكل عنصر الاستمرار في مجتمع محكوم عليه بالفناء بسبب النزاع الذي تفرضه البنية التجزؤية نفسها. وللصالح دور الوساطة بين القبائل وبين الأمة الاسلامية.

بعد هذا العرض، يعود الاستاذ حمودي الى مناقشة الموضوع ملتزما بالتعميم الذي

قدم من قبل :

- الانساب :

تشكل الانساب النمط التمثيلي الطائفي في التنظيم الاجتماعي لقبائل الأطلس الأوسط ويوافق صاحب المقال كلنر في أن الانساب تحدد في نفس الوقت الفئات المجتمعية والروابط الموجودة بينها لكنه يعود فيلاحظ أن كلنر وغيره من التجزويين، لم ينتبهوا الى حالة امكانية اختيار الجد بالنسبة لعناصر مكونة لتجزؤ ما، وكانت في البداية غريبة عن بعضها. وهذه الحالة تحدث في مناسبات متنوعة (الحرب - الغزو - تغيير العمود النسيبي أو الفرقة أو القبيلة أو المنطقة ...) وتؤدي الى ادماج العناصر المنتصرة أو المضيقة للعناصر الدخيلة في انسابها.

ثم يشير الاستاذ الى تعدد الأمثلة على ما ذكر في تاريخ المغرب، متوقفا عند المثال الذي توفره للتمثيل بعض الحالات في قبائل آيت عطا. ويخلص من ذلك الى أن مهمة الجد هي تحديد مجموعة ما وهو نفس ما يرى كلنر - مع اضافة أن الجد يفيد في التمييز بين المسألة الحقيقية وغيرها، بين المغلوب والغالب. ثم يفترض أن الرأي صحيح بالنسبة لمن استقر من القبائل - وبعد تحليل طويل، يخلص الى ضرورة اعتبار عنصر الولاء أو التبعية. وهذا ما يؤدي في رأيه الى طرح مشكلة التراتب الاجتماعي، تلك المشكلة التي لاتظهر الا عند ما تطرح قضية توزيع السلطة أو الثروات. ويسجل أن الاجانب يشاركون في جميع تحملات المجموعة التي يعتبرون « أولياء » لها دون أن تكون لهم حقوق الآخرين (الاصلاء).

ويستنتج من كل هذا أن الانساب تحدد واجبات كل فرد وتحدد مكانه في المواجهة، ومن جهة أخرى فهي تحدد التراتب الاجتماعي في مجموعة ما.

- التراتب الاجتماعي والرئاسات :

هذه الفقرة تهتم بمناقشة أطروحة كلنر في باب التراتب الاجتماعي ونتائجه على الحالة السياسية ويذكر الاستاذ حمودي في البداية بأن رأي كلنر يتلخص في أن المجتمعات التجزؤية مجتمعات متعادلة لاتعرف تراتبا طبقيا مستمرا. مما يؤدي الى غياب تركيز السلطة السياسية، ووجود مظهر ديموقراطي بها. تنطلق المناقشة من أن كلنر - ومعه هارت الذي يذهب مذهبه - يكون، عندما يرى بأن كل أفراد المجتمع (في آيت عطا) سواسية ولكل منهم الحق في المطالبة بالسلطة، متأثرا بالنظرة المثالية التي يعطيها آيت عطا لأنفسهم. فاذا التزمنا بهذه النظرة لتبدي عجزنا عن تفسير وجود عائلات كبيرة تقدم المرشحين للرئاسة (اخطارن - ج اخطار).

فما معنى هذه التسمية ؟ يسطر الاستاذ مجموعة أوصاف تنطبق على أخطار آيت عطا، مثل : الكبير - القديم - الكريم - الشجاع - المضيف ... أي أن الرجل يتمتع باحترام أهله وأن له عليهم يد. غير أن هذا - عند حمودي - لا يكفي إذا لم يثبت الرجل حسن نسبه (الأصل) وكل مرشح للرياسة مطالب بأن يذكر عددا من أجداده يختلف حسب القبائل. وهذا ما يعود بنا الى مسألة الانساب فالانساب تزيح من ميدان المنافسة الغرباء عن المجموعة.

وكما توجد الفوارق بين الافراد فهي كذلك موجودة بين « الأجزاء ». أما كلنر فيرى أن ما قد يوجد من الفوارق - في حالات استثنائية - فوجوده ناتج عن صدفة أو أنه من خلق البنية الاجتماعية نفسها، وأن « رتبة الصلحاء » توجد خارج التنظيم الاجتماعي وهي ذات تراتب - فما وجودها الا لأنها تضمن الاستقرار في بنية غير مستقرة، كما لو أن سلطة الصلحاء استقطاب للطاقة اللاتعددية في المجموعات « الغير دينية ».

يلاحظ حمودي أن كلنر يضع الصلحاء خارج المجتمع نفسه، في حين أنهم يوجدون ضمن تراتب وهيكلية معروفة : فالمستويات بالنسبة لآيت عطا ثلاثة : ايماريغن - ايكرامن - احراض على رأس الترتيب الصلحاء وأفضلهم من جمع الى الصلاح النسب الشريف، وفي أسفل السلم الاجتماعي مجموعات متميزة الرتبة والمهمة. فلا حراض الاشغال الفلاحية والصناعية، ولا مازيغن الرعي بالنجعة والسياسة والحرب ولايكرامن النشاط الديني. ولليهود في هذا الترتيب مكان خاص.

يذكر الاستاذ حمودي أنه من خلال دراسة آيت عطا لاتعارض بين الطبيعة التجزؤية لهذه المجموعة وبين الهيكلية والتراتب الاجتماعي الذي يتعدى التجزؤية. وانطلاقا من ذلك يمكن مواجهة مذهب اليه كلنر وهارت من أن « السلطة اللادينية » سلطة محدودة باعتبارها متداولة سنويا وأن لا سلطة لها الا مامنتها الرعية التي انتخبها.

غير أنه يرى من الضروري البدء بتصحيح كلمة انتخاب واستبعادها واستعمال كلمة « تعيين » حيث أن الجاري به العمل عند آيت عطا هو عقد اجتماع يحضره ممثلو أهم المجموعات، يقدم خلاله المرشح ليتم تعيينه بعد حصول الاتفاق.

فمن الموهل - من بين آيت عطا، للطموح الى السلطة العليا ؟

يرى الاستاذ حمودي أن عامل « الهيبة » يتدخل لابعاد كل الذين ليسوا من النواة المؤسسة للجماعة. فالمرشحو للرياسة معروفون قبل التعيين، يمارسون من الوظائف - الممنوعة على العامة - ما يمثك الوصول الى السلطة فتتويجا لها مثل ضمان ما يتم من

الاتفاقات بين الافراد أو حماية المرور.. ويعرف القائمون بهذه المهام بـ « مزراق » ولايتعدى عددهم الاربعة في القبيلة. ثم يخلص من ذلك الى تسجيل أن المرشحين للرياسة يأخذون من بين أفراد العائلات التي تعطي « المزراق ».

بعد ذلك يدخل في مناقشة مبدأ التكاملية مبتدئاً بالإشارة الى رأي كل من كلنر وهارت الذاهب الى أن تعيين الرئيس يتم من قبل باقي المجموعات من غير فئة التي تكتفي بترشيحه.

ثم يخلص من ذلك الى مناقشة قضية سلطة الصلحاء مبتدئاً بالإشارة الى دور الصلحاء في فض النزاعات والحروب والى عدم حملهم للسلاح والى الحرمة التي تتمتع بها أضرحتهم.

ثم يتساءل الى أي حد تنطبق هذه الأوصاف على حنصالة ؟

ينطلق في تحليله لهذه النقطة من استعراض موجز لتاريخ الزاوية. فيتحدث عن تأسيس الزاوية ومؤسسها (القرن 13) محتفظاً بملاحظ أولية قوامها أن التأسيس لحق أحداثاً عنيفة ليست فريدة في مضمونها في تاريخ المغرب حيث يظهر الصالح في عدة مناسبات ممتشقا السيف يدافع عن زاويته، مركزاً على وجود سيدي يوسف احنصال عند وفاة مولاي اسماعيل، كزعيم ديني وقائد عسكري. ويشير في الأخير - قصد المقارنة - الى أحداث القرن 17. وهذا مايتنافى وماتقول به النظرية التجزؤية. فبالنسبة لاحنصال، يجب التمييز بين درجتين في النشاط : الاولى منهما محلية تكون فيها الزاوية المريدين والاتباع، وتحتفظ في هذا المستوى بحيادها. والثانية منهما اقليمية ووطنية وفيها يتراجع النشاط التحكيمي الى الخلف ليلعب الصالح على مسرحي السياسة والدين. ولتوضيح هذه الفكرة يلجأ الاستاذ حمودي - بالاعتماد على وثائق متنوعة - الى أخذ مثال من آيت عطا مرة أخرى. فيلاحظ أولاً أن هنالك علاقة بين انتشار آيت عطا الجغرافي وبين نشاط الزاوية الحنصالية وبين علاقتها بالمخزن. ويبدأ التحليل من توضيح العلاقة بين آيت عطا وزاويتي احنصال وتامصلوحت ويحتفظ بمحلاظة بالزاوية المذكورة من الدالة على آيت عطا، تلك الدالة التي تحاول السلطة المخزنية استغلالها للتوسط بينها وبينهم لتقليل ضغطهم على « الدير » وتتضح بذلك العلاقات : احنصالان ترغب في ولوج الدير التدلاوي، لكن علاقتها الحسنة بالمخزن الاسماعيلي تركي صلاحيتها للتوسط بين المخزن وما تبعها من القبائل، فتستفيد من الوضعية بالعمل على الحصول على ظواهر تعفيها من التحملات العادية التي تفرض على عامة الرعية.

أما بالنسبة لآيت عطا، فيبدأ الاستاذ حمودي تحليله لعلاقتها بالسلطة من توضيح

خاصيتها الاتحادية التي تجعل منها مجموعة قبلية ذات خطورة لتلاحمها ولاهمية المنطقة التي تقطنها. أما عن علاقتها بالمخزن فيرى أنها علاقة اعتيادية، تعتمد على استخدام القوة أحيانا واللين أحيانا أخرى، وأن استعمال المخزن لاحتصال - كما مر - هو من باب استعمال اللين متى كان استعمال القوة مكلفا خطيرا. وأن موقف الزاوية في هذا المخطط مبرر برغبتها في الحصول على مزيد من الهيبة. ولكن هذه العلاقة لم تستمر على هذه الكيفية، ابتداء من 1711، وبالأخص بعد نشوب الحرب بين سيدي يوسف احتصال ومولاي عبد الله بن اسماعيل (1732). فكيف نفسر هذا الانقلاب؟ يرى الاستاذ حمودي أن غياب المادة التاريخية يجعل القول برغبة احتصال في مغامرة سياسية عسكرية مجرد افتراض، ثم يتساءل مرددا ما ذهبت اليه /مورسي/ عن امكانية اعتبار عمل احتصال استمراراً لعمل أهل الدلاء؟ ينطلق لتوضيح الأمر من توضيح الصلات التي ربطت بين علي بن عبد الرحمن - وهو شيخ سعيد الحنصالي - وبين الدلاء وتجاوله في أنشط المراكز الدينية السياسية في النصف الاول من القرن 17 وعلاقته المتينة بآيت عطا بعكس تلك التي تربطه بمولاي رشيد، ويشكك هذا كله الارث العاطفي الذي تسلمه تلميذه سعيد ثم يتساءل اليس من الأحسن اخراج الصالح من اطار المسالمة الدائمة الذي تضعه فيه النظرية التجزئية والنظر اليه في اطار الديناميكية التي تجعله يتحرك بين المسالمة والعمل السياسي الواضح ومنه الى الحرب والسعي الى السلطة؟

ان تحديد هذا التآرجح متوقف على القيام بأبحاث تاريخية تستغل مايتوفر من معلومات.

وأن مايفرد به كلنر في هذا المقام هو تصور القضية دون اعتبار عنصر التاريخ، فهو عندما درس منطقة احتصال، درسها في وقت تغيرت فيه بنيتها الاجتماعية بالحماية. وفي الأخير يختم الاستاذ حمودي مناقشته بتقديم مجموعة من النظرات حول العلاقة بين التاريخ والبنية في باب خاص هو العوامل التي تحدد اختيار الجد المحدد للاجزاء الاجتماعية.

- تنطلق النظرة الاولى من توضيح رأي كلنر الذي يرى رأي الفرضية البنيوية محتجا بأن الجد ليس الا نقطة التقاء مجررة، وأن السير المتعلقة بالاجداد هي أكثر واقعية من الاجداد أنفسهم مستخلصا من ذلك أن دور الجد هو الذي يفسر التاريخ وليس العكس.

- يرى الاستاذ حمودي أن ضرورة وجود الجد معروفة، كنظام من نظم التصنيف. لكن الجد لا يحمل دائما اسم انسان فقد يكون نباتا أو مكانا أو حيوانا الشيء الذي يدعم ما

يذهب اليه كلنر من أن الجد مجرد رمز. لكن هذا قد يعني أن المجموعة عجزت عن تذكر اسم جد لعب دورا موثرا فيها. وهذا ما يؤدي الى مناقشة حجتي كلنر. - لانتوفر على وثائق للبحث في الحالة التي يناقشها كلنر. لكن هذا لا ينفي وجود حالات أخرى يتوفر فيها على أسماء الاجداد الذين لعبوا دورا حاسما في المجموعة، مثل سيدي سعيد أعثمان وسيدي يوسف أسعيد بالنسبة لحنصالة. فيظهر في هذه الحالة تطابق وجود الجد كضرورة تحديدية ووجوده كتاريخ ملموس.

- أما الحجة الثانية، فقوامها ان التراجم والاسطورة تخترق شخصية الصالح وتقولبها حسب متطلبات الظروف وحسب مصلحة الراوي.. غير أن كلنر حسب حمودي لم يميز في الاسطورة بين ما هو واقع وما هو تصوري. حقا أن الروايات المتعلقة بالصالح متشابهة وما يتصف به أحدهم يتصف به الآخر رغم الفارق الزمني. فكان من اللازم أن ينطبق « الصالح » على « الصالح النموذجي ».

ومع ذلك فان أوصاف الصالح المثالي متعلقة بأحداث مسماة وبحضور شخوص من مجموعات ذات أسماء كما أن الرواية تعبر عن تصرفات ومواقف... وهذه أشياء تهم كلها المؤرخ.

ان الوضعيات المذكورة في الروايات والأشخاص والجماعات والاماكن التي تضع فيها الاسطورة بطلها توفر للمؤرخ المادة الاولى، تلك المادة التي يظهر بعد تمحيصها ومقارنتها بغيرها - انها واقعية. ولتوضيح هذه الأفكار يورد حمودي رواية متعلقة باحنصال، ليخلص منها الى أن الاسطورة اذا قرئت في ضوء وثائق أخرى فانها تشكل مادة تاريخية. ثم يعطي مثالا ثانيا يظهر منه - كما يقول كلنر - أن الاسطورة تخلط بين الشخصيات. ويستخلص منه أن الاسطورة - وأن كانت تخلط بين أشخاص وأحداث، فهي تحكي مع ذلك حقيقة تاريخية أكدتها وثائق أخرى. وكخلاصة يرى الاستاذ حمودي أن التاريخ يتغلغل في الاسطورة، وأن الاجداد الذين تحتفظ الانساب بأسمائهم ليسوا نقطا تجريدية دائما.

المقال الخامس :

- جرمان عياش : العواقب الدولية للحرب الريفية (1921 - 1926).

يبدأ الاستاذ عياش مقاله باعطاء صورة مركزة - ومشملة على كل العناصر في نفس الوقت - للحرب الريفية. مشيرا الى انتصار قبائل الريف على الجيش الاسباني النظامي، وكيف أدى ذلك الانتصار الى احياء ما عرف بالمسألة المغربية.

وبعد أن يذكر أهمية حرب الريف من الجوانب العسكرية والسياسية والوطنية - حيث يجعلها نقطة الانطلاق للحركات التحررية - يعود فيوضح بأن هذه القضية لم تحظ بالاهتمام الذي تستحقه ، وأنه يهدف من هذا المقال الى التطرق الى جانب مهم - رغم أنه جزئي من الحرب الريفية، ذلك المتعلق بموقف الدول العظمى من تلك الحرب، وتطور ذلك الموقف بتطور مراحل القضية .

1 - ينطلق الاستاذ عياش في عرض عن التنافس الاستعماري الاوربي حول المغرب وعن أبطال ذلك التنافس (فرنسا - ابريطانيا - اسبانيا - المانيا) ذاكرا استمرار تنافسهم عشر سنوات وبلوغه حد التآزم الحاد في عدة مناسبات (1905 و1911)، وانتهاء ذلك التنافس بارتضاء الجانب الفرنسي بعد أن تأكدت أطماعه في البلاد بارغام السلطان المغربي على توقيع اتفاقية الحماية في 30 مارس 1912. ويشير الاستاذ في آخر هذا الفصل الى أن فرنسا لم تحتج - بفضل الابقاء على شخص السلطان - الا الى سنتين اثنتين لاحتلال معظم الجهات المغربية باستثناء الجبال .

2 - لكن التنافس المشار اليه قبل لم ينتد حتى بعد توقيع الاتفاقية الفرنسية الاسبانية. وان كان في الظاهر قد حسم بايجاد حل دبلوماسي يعين بمقتضاه خليفة عن السلطان في المناطق المغربية الخاضعة للنفوذ الاسباني. ذلك أن هذا الحل وإن ارضى الطرفين الغربيين المتنازعين - لم يتقبل من طرف المغاربة، وما كان أمام الاسبان الا اللجوء الى أحد الحلين : الخنوع للمشيئة الفرنسية التي تجعل منهم المنفذ المطيع، أو الارتقاء في مغامرة عسكرية. وتطرح في هذا الفصل مشكلة الموضوع : مدى رغبة فرنسا في مساعدة اسبانيا في الاحتفاظ بنفوذها في شمال البلاد.

3 - يعود الاستاذ عياش الى اعطاء وصف للمنطقة الخاضعة للنفوذ الاسباني وينتظر الى نية فرنسا في الاستحواذ على تلك المنطقة أو جزء منها على الأقل ، وسعيها، عن طريق مؤتمر السلم الذي تلى الحرب العالمية الاولى، أو عن طريق الاتصالات المباشرة بالاسبان، لتحقيق تطلعاتها. فما كان أمام اسبانيا والحالة هذه الا بسط نفوذها بكيفية فعلية عملية على الريف. وفي الوقت الذي كان فيه الجميع ينتظر تنفيذ هذه العملية، تتعرض الجيوش الاسبانية شرق الريف لأول هزائمها.

يظهر ان عبد الكريم وتظهر بظهوره التساؤلات : من هو وماذا يخفي بالنسبة لفرنسا .. ؟ لقد كان تطمينه لفرنسا ووجوده في نفس الوقت، خطرا على وجود هاته

الأخيرة في البلاد، بل على وجود الاستعمار على العموم. ولتأكيد هاته الفكرة يقول الأستاذ عياش : كان الشائع في شهر يوليوز أن الفاسيين يهتمون بالنزاع اليوناني التركي أكثر مما يهتمون بما يقع حول مليلية أما اليوم (..) فقد ظهر من التعاليف في بعض الأوساط ما يؤكد أن المغامرات الاسبانية قد فتحت في العالم الاسلامي آفاقا جديدة وخلقت أحلاما جديدة. فما هي تطورات العلاقة الاسبانية الفرنسية في هذا الجو الجديد؟ يستغل الجنرال ليوتي هذا الجو ليظهر رغبة خفية في الاستيلاء على الاجزاء الشمالية بدورها. ويتبع في تحقيق تلك الرغبة من التصرف ما يفهم منه الاسبان مساندة فرنسا للثوار الريفيين. ويكاد هذا السعي يأخذ صبغة رسمية عند زيارة رئيس الجمهورية الفرنسية المغرب. هكذا ابن يجد الفرنسيون في القوة الريفية الناشئة الوسيلة لتحقيق الهدف الذي لم ينجح في تحقيقه لا الوعيد ازاء الانجليز ولا الوعد ازاء الاسبان فيما مضى. ولا يبقى لتحقيق عمل تلك الوسيلة الا تمكن فرنسا من تلك القوة وتوجيهها بعدة وسائل. وابتدأ ليوطي ذلك التخطيط باتخاذ مواقع على الحدود عند واد ورغة. فما موقف تلك القوة مما يراد بها؟

يعود الأستاذ الى الحديث عن عبد الكريم مذكرا بمراحل تأسيس دولته وملقيا أضواء على شخصيته مشيرا الى علاقته بفرنسا وبريطانيا التي وأن لم تستفد حرب الريف من الاتصال بها مباشرة فهي قد استفادت منها من حيث ما كان لها من الاصداء في الخارج وبشكل أخص في الشرق الأوسط، ويعطي الأستاذ في آخر هذه الفقرة ملخصا للندائين الموجهيين من طرف الدولة الريفية الى الشرق الأوسط وأوربا يخلص من ذلك الى التعليق على هذه الاتصالات من زاوية استعمال عبد الكريم للشعور الديني في هذا الاتصال.

أما ماعدا ذلك في باب العلاقة بين الريف وبريطانيا فان الحركة الخطابية قد فشلت ظاهريا في اتصالها ببريطانيا حيث أن هذه الأخيرة اتخذت علنيا موقفا معاديا.

3 - أما فيما يتعلق باسبانيا فيناقش الأستاذ عياش في نقطة مستقلة: آثار الحرب

الريفية على الاحوال الداخلية بها. مستهلا كلامه بتوضيح مواقف القوى السياسية في البلاد الاسبانية من القضية الريفية تلك المواقف التي تولد عنها توتر اجتماعي وسياسي لم يكن من الغريب بعده اقرار نظام عسكري دكتاتوري في البلاد الاسبانية. لقد كان موقف النظام الجديد المتمثل في شخص الجنرال بريمودي ريبيرا هو تلافي توريث اسبانيا في مغامرة خطيرة. لكن هذا الموقف كان مشوبا بكثير من التردد وانعدام الوضوح وفي نفس هذا الوقت كانت السلطة الاسبانية الفعلية في شمال المغرب تقتصر على نقط

حصينة على الساحل. وتتجه أنظار الجميع الى الرباط، الى الموقف الذي يتخذه ممثل القوة الفرنسية : ليوطي.

أما موقف ليوطي، فلا يعدو حالتين : أن تتمكن فرنسا من تأليف محمد بن عبد الكريم فتقديم العون له بالتدريج الى أن تخرج المنطقة الشمالية من المغرب من تحت يد الاسبان أولا تستطيع ذلك التمكن وفي هذه الحالة تترك الأمور تسير السير التلقائي الذي ينتهي بانتصار عبد الكريم، وعندئذ يغدو بإمكان فرنسا استعمال كل الوسائل للقضاء عليه، دون أن يجز ذلك مشاكل دبلوماسية.

دلت عمليات جس النبض أن الحل الاول صعب تحقيقه بالصفة المباشرة، فلجأ ليوطي الى تقديم عون الى عبد الكريم بطرق ملتوية، وبمجرد أن أحس بـ « نضج القضية » يعرض على عبد الكريم كل العون اللازم في مقابل اعتراف هذا الأخير بولائه للسلطان. يقف الاستاذ عياش لتوضيح مافي هذا العرض من التناقض مستخلصا من ذلك مرامي السياسة الفرنسية التي طبقها ليوطي والتي كانت وسيلتها الاولى التسرب في الاجزاء الواقعة شمال واد ورغة.

لكن تطبيق هذه السياسة يصطدم بعدة صعوبات أولها موقف القوى اليسارية المناوئة للاستعمار بشكل عام وثانيها موقف الحكومة البريطانية. غير أن ليوطي ينجح في اقناع الطرفين معا بوجهة نظره بعد أن وضع المشكل أمام ابريطانيا بكيفية أخرى، الخيار بين السماح باستقرار الفرنسيين جنوبي المتوسط، أو بتكوين بؤرة دسائس وعصيان في نفس المنطقة ثم يحل الاستاذ بعد ذلك جوانب الموقف البريطاني المتسم بكثير من التردد والمركز حول سياسة تلافية خلف مشكلة دولية. ويتضح الموقف عندما ترى ابريطانيا بأن فرنسا مؤهلة للقضاء على العصيان في الريف. ويختم الاستاذ هذه الفقرة بالتساؤل اليس هذا السعي الى تجاوز المنافسات الامبريالية ناتج عن الشعور بأن في الثورة الريفية تهديدا للوجود الاستعماري على وجه العموم ؟.

4 - الموقف الفرنسي اذن واضح : الرغبة في بسط النفوذ على كل الشمال الافريقي. ثم يتتبع الاستاذ عياش تطورات هذه الرغبة من خلال تقرير ليوطي الذي ينتهي بهذه الفقرة : ان من العمى وقصر النظر.. الجهل بخطورة التهديد (تهديد الريف لفرنسا) وعدم أخذ التدابير التي تفرضها الوضعية في العاجل...

وكانت هذه التدابير تقتضي فصل الريف، الشرقي عن الغربي بالتوغل في أراضي قبيلة بني زروال وضرب حصار بري وبحري على عبد الكريم، لخلق ظروف تجبر هذا الأخير على الخروج عن موقفه المتصلب للدخول في المفاوضات.

5 - ودون أن يتتبع الاستاذ عياش الاحداث يؤكد بأن مخطط ليوطي قد فشل بفعل موقف القوات الريفية التي منعت منذ البداية تحقيق التصميم المعد عندما حولت العمليات العسكرية الى حرب منظمة هددت بشكل أو بآخر الوجود الفرنسي في المغرب كله. ثم يتطرق انطلاقا من ذلك الى الحديث عن انعكاسات هذه الحالة على الوضعية السياسية في فرنسا والمتلخصة في أزمة 1925 السياسية. وكذا على الوضعية في المغرب المتمثلة في اعادة ليوطي النظر في سياسته والعمل من أجل الحصول على مساندة اسبانيا. وبعد تحليل أسس الموقف الاسباني ونظرة فرنسا الى المسألة، يعود الاستاذ الى توضيح الجوانب الدبلوماسية والعسكرية والسياسية للمسألة. أما الاولى فلم تخلق أية صعوبة نظرا لاستعداد الجانب الفرنسي لكل التحملات أثناء تفاوضه مع الاسبان حيث تم التوصل بسرعة الى الاتفاق. أما من الجانب العسكري فقد اتضح بعد زيارة رئيس الحكومة الفرنسية للجبهة، ضرورة تزويد الجيش الفرنسي بفرق مجهزة بالطائرات والمدفعية والمصفحات، بالإضافة الى اسناد قيادة تلك القوات لشخص غير ليوطي. كما يوضح الاستاذ عياش في هذا الباب أيضا الاجراءات العسكرية المتخذة في المنطقة وتضارب وجهات النظر بين ليوطي وبيتان تضاربا يظهر أن أساسه تقني عسكري بينما هو في الواقع سياسي، أساسه اختلاف وجهتي نظر الرجلين حول الهدف من الحرب : فبيتان يرى في تلك الحرب خطرا على سمعة فرنسا في المغرب والهدف بالنسبة له ان هو ارغام عبد الكريم على الاستسلام أو الاختفاء، أي الوصول الى السلم في غياب عبد الكريم، ووسيلة ذلك التحالف مع الاسبان. أما هدف تلك الحرب عند ليوطي فهو ضم كل المغرب الشمالي لفرنسا عن طريق ارغام عبد الكريم على اعلان ولائه للسلطان.

ويختم الاستاذ هذه الفقرة بالإشارة الى انسحاب ليوطي بعد فشله في تحقيق مخططة، وإلى محاولة خلفه السير على منواله، ثم بالإشارة الى مفاوضات وجدة (أبريل 1926) ودور بيتان في افشالها، وإلى العمليات العسكرية الفرنسية الاسبانية التي انتهت باستسلام عبد الكريم وانسحاب القوات الفرنسية وتثبيت قدم الاسبان في الريف.

6 - في الفقرة الأخيرة يصل الاستاذ عياش الى أن حرب الريف وقعت في وقت لم تكمل فيه بعد مرحلة الاستعمار، وانها كانت سببا في تنشيط ردود فعل ومناقصات مثل التي شهدتها القرن التاسع عشر وبداية العشرين. لكن عناصر أخرى تظهر بالتدرج لم تكن معروفة قبل : ف « التمرد » الريفي في الواقع حرب شعبية تهاجم الحركة الاستعمارية الاوربية، وهي أكثر من ذلك حرب منتصرة تتولد عنها دولة منظمة نجحت في الحاق

الهزيمة بدولتين أوروبيتين والاضطراب بمجتمعهما وماليتهما، لتبعث في الشعوب المستعمرة أفكارا خطيرة سواء في الجزائر أو في تونس أو في مصر أو في الهند. في حالة أجبرت المستعمر على مراجعة موقفه وإلى تكوين جبهة موحدة ضد الريف عوض التنارع حول امتلاكه. بذلك انبثق عهد جديد، عهد تحاول فيه الدول الأوروبية البحث عن كيفية المحافظة على المستعمرات عوض الزيادة من عددها.

المقال السادس :

- مساهمة في دراسة فن التطريز في المغرب : مارتا كيار
وفي هذا المقال الذي يمثل القسم الرابع من الموضوع - تواصل السيدة مارتا كيار
دراسة فنون التطريز المغربية مخصصة هذا القسم للتطريز الشفشاوني، ويتناول المقال الفن
المذكور من حيث تقنياته وتزيينه وصباغته وعلاقته بالطرازات الاندلسية العربية. وقد
الحق بالمقال عدد من الصور الممثلة لخصائص ذلك الفن.

عبد اللطيف الشاذلي

عرض مجلة البحث العلمي

صدر العدد 26 من مجلة البحث العلمي مشتملا على افتتاحية و19 مقالا ميوّبة الى ثلاثة أبواب الاول منها تاريخي والثاني فلسفي والثالث لغوي. وفيمايلي عرض تلخيصي للمقالات الواردة في المجلة :

الافتتاحية :

- الثغور المغربية المحتلة بين المواجهة المسلحة والتدخل الدبلوماسي، للدكتور عبد الهادي التازي يتناول الدكتور عبد الهادي التازي في هذا المقال بالتحليل بعض الجوانب من السياسة الخارجية للمغرب وبالأخص تلك المتعلقة بالمحاولات الاستعمارية الأوربية من بداية حكم المولى يزيد بن محمد (1792) الى فترة حكم السلطان محمد بن عبد الرحمن (1871).

1 - الدبلوماسية المغربية ومقاومة أطماع الاستعمار في العهد العزيري : عبد الله بنسعيد دبلوماسي خبير يعتمد أحمد معنيو في مقاله هذا على عدة وثائق هي :

- ظهير عزيري « يأمر بالاستعداد للاستقبال ويعين الوفد الرسمي ».

- وثيقة استقبال امبراطور ألمانيا في طنجة.

- ظهير اقالة عبد الله بنسعيد من النيابة بطنجة

- ظهير اقالة عبد الله بنسعيد من قيادة سلا

- ظهير عزيري بتعيين عبد الله بنسعيد شريكا في مهمة بالدار البيضاء

- ظهير حفيظي بتعيين عبد الله بنسعيد خليفة لنائب طنجة.

ويستغل هذه الوثائق لتوضيح موقف خليفة النائب السلطاني في طنجة السيد عبد الله بنسعيد من الأطماع الأجنبية في المغرب، ورد فعل بعض الهيئات التي عملت على ابعاد النائب المذكور من كل مهامه، الى أن أعيد الى ممارسة السلطة بعد 3 سنوات من ابعاده.

2 - عثمان بن فوديو وسياسة الجهاد الاسلامي التي اتبعها. (في ضوء مخطوط فريد بوثائق الرباط). يعتمد الدكتور شوقي عطا الله الجمل في هذا المقال على مخطوط « انفاق الميسور في تاريخ التكرور » لتحليل جانب مهم من تاريخ افريقيا الغربية في

نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، حيث عرفت المنطقة ظهور شخصية اصلاحية متمثلة في الشيخ عثمان بن محمد فوديو بن عثمان بن صالح (1745- 1817) الذي أسس حركة اصلاحية على غرار الدعوة الوهابية في جزيرة العرب، وتصدى لنشرها بالقوة من بعده ابنه محمد بلو، الى وفاته 1837.

ويختتم الدكتور شوقي الجمل مقاله بتقديم مخطوط الرباط والتعريف به شكلا ومضمونا.

3 - تقاليد جامعية في العصر السعدي يصف الأستاذ محمد حجي في هذا المقال بعض التقاليد المرتبطة بالتعليم في عصر السعديين، مثل موسم الدراسة وموعد العطلة ونوع الدراسة المتنقلة التي يتتبع الطلبة في اطارها تنقل أساتذتهم ويختتم المقال بالاشارة الى « محفل الختم ».

4 - الصوفية وحركاتها في الاسلام :

يبدأ عبد الله الجرابي مقاله بعرض سريع لنشأة التصوف في أواخر الدولة الأموية، مشيرا الى أهم طرقه مذكرا بموقف السنة من التصوف. ثم يعود الى ذكر أهم الطرق من جيلانية في المشرق وشاذلية في المغرب مشيرا في خلال ذلك الى الدعوة الموحدية ثم يعود الى الحركات التصوفية في المغرب من القرن السابع عشر الميلادي الى القرن العشرين خاتما مقاله بقوله بأن « الموضوع في مضمونه ثرى خصب يتطلب توسعا أكثر ».

5 - مؤرخو الشرفاء. تأليف ليفي بروفنصال تعريب عبد القادر الخلافي.

وهو تعريب للباب الخاص بالسير والتراجم من الكتاب المذكور.

6 - الاشارة الى آداب الوزارة للوزير الغرناطي لسان الدين ابن الخطيب (713 - 776هـ).

يشكل المقال القسم الثاني من عمل الاستاذ محمد كمال شبانة. الجزء الاول يعطي لائحة بالعناوين البيبليوغرافية للنسخ المعتمدة في تحقيق الكتاب. أما الجزء الثاني فهو جزء محقق من كتاب الاشارة.

7 - بنو الأحمر في غرناطة.

يتحدث الاستاذ عبد القادر زمامة عن دولة بني الاحمر في غرناطة (1238 - 1492)

مخصصا القسم الاول لذكر كيفية تأسيسها والثاني لتفصيل ما دعى به ملوكها من أسماء بينما تتبع في القسم الثالث أطوار تاريخها السياسي ليخلص في القسم الرابع الى الحديث عن مدينة غرناطة ؛ أصلها وما ألف فيها وأشهر رجالها.

8 - سبئة الأسيرة.

يوصل الاستاذ محمد بن تاويت في هذا القسم الثاني من بحثه المتعلق بمدينة سبئة وصف أحوال المدينة في العهدين المريني والوطاسي. مبتدئاً بالإشارة إلى علاقة المغرب بالأندلس ثم مركزاً وصفه على دور عائلة العزفي في حكم سبئة، متخذاً ذلك محورا للحديث عن علاقة سبئة بالسلطة المرينية وبعد ذلك يتتبع علاقة المغرب بالأندلس محتفظاً فيها بكل مذكر فيه اسم مدينة سبئة ثم يعتمد الاستاذ على الترجمة لحوالي 60 شخصية من شخصيات المدينة في العهد المريني كتكملة لما في كتاب « بلغة الأمانة ومقصد اللبيب فيمن كان بسبئة في الدولة المرينية من مدرس وأستاذ وطبيب » الذي يرجع إليه صاحب المقال لذكر من ترجم له فيه ثم يقدم تلخيصاً لكتاب (اختصار الأخبار) للانصاري.

9 - الشاي أو الأتاي :

في بداية المقال يتتبع الاستاذ محمد زمامة أصل الشاي وتسميته وكيفية دخوله المغرب. ثم يقدم أرجوزة في الموضوع لعبد السلام الزموري (م 1824) بعد أن يترجم له ويذكر بعض ما ألف في الموضوع. وقد قلم صاحب المقال بشرح غوامض الأرجوزة وعلف عليها.

10 - شخصيات مغربية في مصادر مشرقية.

الوزير المغربي (370-418هـ)

يستعمل الدكتور محسن جمال الدين بعض كتب التراجم العامة الشرقية للتعريف بأبي القاسم الحسين بن علي بن محمد بن يوسف المعروف بالوزير المغربي (أو ابن الوزير المغربي) وهو أديب التحق أهله بحلب وقتل والده في مصر فتجول، في أهم حواضر المشرق العربي إلى أن توفي في العراق 418. ثم يورد صاحب المقال نماذج من شعره. وينتهي المقال بذكر بعض مؤلفات ابن الوزير.

11 - المقامة الأزاريفية لأبي محمد الأزاريفي الحامدي :

يبدأ أحمد سعيد أعراب مقاله بالحديث عن سوس في العصر السعدي (?) والعلوي في النصف الأول من القرن 13 الهجري، ليعرف بعد ذلك بالأزاريفي ثم يورد نص المقامة الأزاريفية.

12 - مقترحات من أجل معجم فلسفي، محمد عزيز الحبابي :

يقدم الأستاذ الحبابي مجموعة من الالفاظ الفلسفية باللغتين الفرنسية أو الانجليزية، مبتدئاً بحرف A ويقترح لها مقابلات عربية مع ابداء ملاحظاته حول استعمالاتها.

13 - الفارابي ، موطنه وثقافته :

يستهل الدكتور نور الدين آل علي مقاله بالتعريف بمحمد بن محمد الفارابي (259- 335 هـ) والتعريف بأقاليم ايران وتكوين الفيلسوف وثقافته. ذكرا بالمناسبة المراكز العلمية في المشرق في عهد الفارابي.

14 - عرض وتحليل لآراء أهل المدينة الفاضلة للفارابي :

يجيب الأستاذ محمد الديباجي في هذا المقال على الاسئلة التالية :

ما هو فحوى كتاب المدينة الفاضلة ؟ ما هي الدوافع التي حملت المؤلف علي التأليف ؟ وما هو مدى تأثير الفلاسفة المسلمين بهذا الكتاب ؟.

15 - المفكر المسلم والواقع :

د. فوقية حسين محمود

تحاول الدكتورة فوقية حسين محمود ابراز مفهوم « الواقع في الفكر الفلسفي الاسلامي » من خلال موقف المتكلمين من تلك القضية ومن خلال تتبع المعاني التي حملوها للتعبير الفلسفية اليونانية.

16 - السريانية أخت لغتنا العربية :

يبدأ الدكتور عبد الله العمراني مقارنته بين اللغتين السريانية والعربية بتتبع انتشار الشعوب السامية، انطلاقاً من الطوفان، في انسابها ومواطنها ولغاتها. مستعينا على توضيح ذلك بجدول لانساب الشعوب السامية وآخر للغات السامية.

17 - رسائل لغوية بين الكرمللي والزهراوي

يقدم الأستاذ عبد الرزاق الهلاي نماذج من ملاحظات وانتقادات متبادلة بين الشاعر جميل صدقي الزهراوي والعلامة انسطاس الكرمللي حول استعمالات بعض الالفاظ والتعابير العربية.

18 - رأي الفارابي في نشأة اللغة وتطورها مع تطور المعرفة :

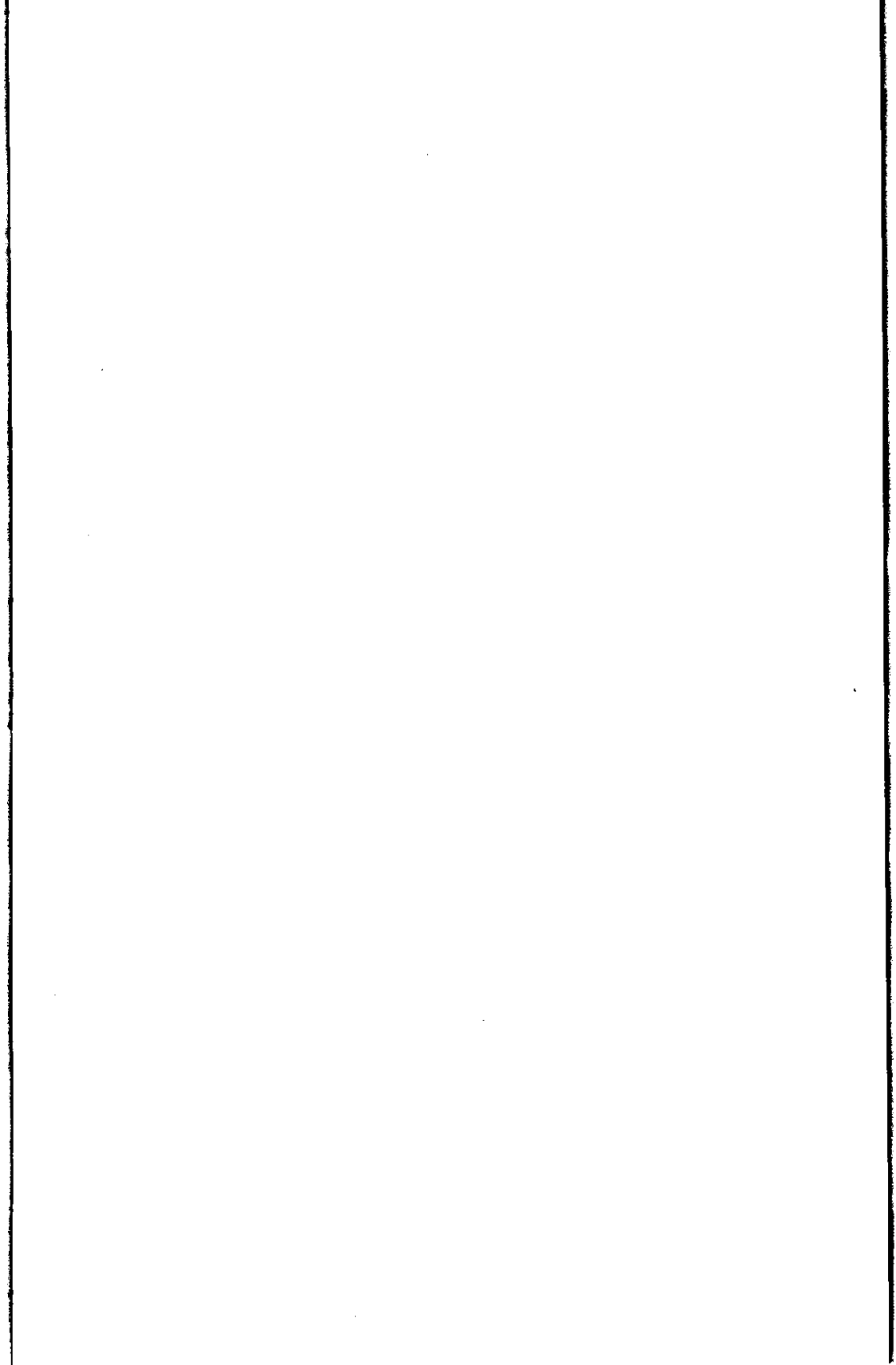
يقدم الدكتور فاروق عمر العمر تعريفا مختصرا بالفارابي ثم يستعرض بعض الآراء حول نشأة اللغة قبل أن يتتبع رأي الفارابي في الموضوع من خلال كتابه (الحروف).

19 - الالفاظ الدخيلة في رحلة ابن بطوطة : ابراهيم السامرائي

يبدأ المقال بترجمة لابن بطوطة وذكر خط سير رحلته. ثم يعمد الى كتاب (رحلة ابن بطوطة) مستخرجا منها الكلمات غير العربية أو العامية مع ذكر معناها العربي.

20 - تعقيب على تعليق : عبد الله كنون

وفيه يسجل الاستاذ عبد الله كنون بعض ملاحظات على الاستاذ محمد بن تاوويت ويورد بحثا لغويا عن أصل كلمتي قنذاق والفنذاق ومعناهما.



مكتبة الكلية

بيبليوغرافيا المغرب والاندلس منذ سنة 1970

- وزارة الدولة المكلفة بشؤون الثقافة والتعليم الأصلي
المحاضرات الثقافية الاسبوعية، فاس، مطبعة محمد الخامس، 1970.
- مطبوعات وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية والثقافية
فهرس المخطوطات العربية المحفوظة في الخزانة العامة للكتب
والوثائق بالمغرب، الرباط، مطبعة التومي، 1973.
- ابن رشد، محمد بن أحمد بن محمد الأندلسي
تلخيص السفسطة، تحقيق محمد سليم سالم. القاهرة، دار الكتب، 1972.
- المكي، عبد الرزاق
الفكر الفلسفي عند ابن خلدون، تأليف عبد الرزاق المكي. الاسكندرية،
مطابع روايال، 1970.
- العروبي، عبد الله
العرب والفكر التاريخي، تأليف عبد الله العروبي، بيروت دار الحقيقة، 1973
- العروبي عبد الله
الايدولوجية العربية المعاصرة، ترجمة محمد عناني. بيروت، دار الحقيقة،
1970.
- الجزائر، وزارة التعليم الاصيلي والشؤون الدينية
محاضرات
الملتقى الرابع للتعرف على الفكر الاسلامي. قسنطينة، وزارة التعليم الاصيلي
والشؤون الدينية، 1970.
- الجزائر، وزارة التعليم الاصيلي والشؤون الدينية
محاضرات وتعقيبات الملتقى السادس للتعرف على الفكر
الاسلامي، الجزائر، وزارة التعليم الاصيلي والشؤون الدينية، 1972.
- الجزائر، وزارة التعليم الاصيلي والشؤون الدينية
محاضرات ومناقشات الملتقى الثامن للفكر الاسلامي، بجاية، وزارة
التعليم الاصيلي والشؤون الدينية، 1974.
- الجزائر، وزارة التعليم الاصيلي والشؤون الدينية
الملتقى السابع للتعرف على الفكر الاسلامي، تيزي وزو، مطبعة البعث،

- لسان الدين ابن الخطيب السلماني
مثلا الطريقة في ذم الوثيقة، تأليف لسان الدين ابن الخطيب السلماني.
الرباط، دار المنصور للطباعة، 1973.
- الكتاني محمد المنتصر
فتية طارق والغافقي، تأليف محمد المنتصر الكتاني، بيروت منشورات دار ادريس للتأليف والترجمة والنشر. 1972.
- غلاب، عبد الكريم
صراع المذهب والعقيدة في القرآن، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1973.
- ابن عبد البر، يوسف بن عبد الله النمري القرطبي.
التمهيد لما في الموطأ من المعاني والاسانيد، تحقيق سعيد أحمد
اعراب. الرباط، منشورات وزارة الاوقاف، 1976.
- باجيه، صالح
الا باضية بالجريد في العصور الاسلامية الاولى، تأليف صالح باجيه.
تونس، دار بوسلامة. 1976.
- الباجي، أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعد التجيبي القرطبي
كتاب الحدود في الأصول، تحقيق نزيه حماد. بيروت، مؤسسة الزعبي،
1973.
- الشاطبي، ابراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي
الموافقات في أصول الاحكام تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد.
القاهرة، مكتبة محمد علي صبيح وأولاده، 1969 - 1970.
- الجراري، عباس
وحدة المغرب المذهبية خلال التاريخ، تأليف عباس الجراري. البيضاء،
دار الثقافة، 1976.
- حداد، الطاهر
امرأتنا في الشريعة والمجتمع، ط 2 تأليف الطاهر حداد. تونس، الدار
التونسية للنشر، 1972.
- لقبال، موسى
الحسبة المذهبية في بلاد المغرب العربي تأليف موسى لقبال. الجزائر

الشركة الوطنية، 1971.

- ابن عربي، محي الدين محمد بن علي بن محمد

المقدمات من كتاب نص النصوص في شرح فصوص الحكم، شرح سيد
حيدر آملی. تهران، انستيتوا ايران وفرنسه، 1975.

- لسان الدين بن الخطيب السلماي

روضة التعريف بالحب الشريف، تحقيق محمد الكتاني. الدار البيضاء دار
الثقافة، 1970.

- ابن الازرق، محمد بن علي بن محمد ابن الازرق

بدائع السلك في طبائع الملك، تحقيق وتعليق علي سامي النشار.
بغداد، وزارة الاعلام، 1977.

- الجابري، محمد عابد

العصبية والدولة معالم نظرية خلدونية في التاريخ الاسلامي،
تأليف محمد عابد الجابري. البيضاء، دار الثقافة، 1971.

- الساعاتي حسن

علم الاجتماع الخلدوني، تأليف حسن الساعاتي. القاهرة، دار النهضة
العربية، 1972.

- غلاب عبد الكريم

الثقافة والفكر في مواجهة التحدي، تأليف عبد الكريم غلاب. البيضاء، دار
الثقافة، 1976.

- الجراري عباس

الثقافة في معركة التعبير، تأليف عباس الجراري. البيضاء، دار النشر
المغربية، 1972.

- بن نبي مالك

آفاق جزائرية للحضارة - للثقافة - للمفهومية، تأليف مالك بن نبي
بيروت دار الفكر (1971).

- حلمي علي عبد القادر تازاوتطو رهاميل 1930. الجزائر، دار الفكر الاسلامي، 1972
- المليلي، محمد
- فرانز فانون والثورة الجزائرية، تأليف محمد المليلي. الجزائر، الشركة الوطنية، 1973.
- ولعلو، فتح الله
- الاقتصاد السياسي، ط 2ى تأليف فتح الله ولعلو. البيضاء، دار النشر المغربية، 1974.
- أمين، عبد العزيز وآخرون
- جغرافية حوض البحر الأبيض المتوسط والشرق الأوسط. الدار البيضاء، دار النشر المغربية، 1974 - 1976.
- كتابة الدولة في التخطيط والتنمية الجهوية وتكوين الاطارات
- مخطط التنمية الاقتصادية والاجتماعية 1973 - 1977 الدار البيضاء، مطبعة الدار البيضاء، 1973.
- السباعي، شكري أحمد
- الشركات في التشريع المغربي والمقارن، تأليف شكري أحمد السباعي. الرباط، مكتبة المعارف، 1976.
- البوزيدي، محمد
- المختصر في القانون الدستوري والانظمة السياسية، تأليف محمد البوزيدي الرباط، مكتبة المعارف، 1976
- بنجلون، أحمد مجيد
- الدستور المغربي مبادئه وأحكامه، تأليف أحمد مجيد بنجلون. البيضاء، دار الكتاب، 1977.
- السباعي، شكري أحمد
- نظرية بطلان العقود وابطالها في قانون الالتزامات والعقود، تأليف شكري أحمد السباعي. الرباط، المطبعة المثالية، 1971.
- السباعي، شكري أحمد
- نظرية الغلط والتدليس في قانون الالتزامات والعقود المغربي. الرباط، مطبعة المغرب، 1972.

- الكعاك، عثمان
التقاليد والعادات التونسية، تأليف عثمان الكعاك. تونس، الدار التونسية
1972.
- ابن دحية، عمر بن الحسن
المطرب من أشعار أهل المغرب، تحقيق ابراهيم الابياري وآخرون. بيروت
دار العلم للجميع، 1976.
- الفاسي، محمد
رباعيات نساء فاس (العروبيات) فاس، مطبعة محمد الخامس، 1972.
- بنمنصور عبد اللطيف محمد محقق
مجموع أزجال وتواشيح وأشعار الموسيقى الأندلسية
المغربية، الرباط، مطبعة الريف، 1977.
- الزجالي، أبو يحيى عبد الله بن أحمد
أمثال العوام في الأندلس، تحقيق وشرح محمد بن شريفة. الرباط، وزارة
الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية والتعليم الأصلي، 1971 - 1975.
- الافغاني، سعيد
نظرات في اللغة عند ابن حزم الاندلسي، ط 2 تأليف سعيد الافغاني.
بيروت، دار الفكر، 1973.
- بن سلامة البشير
اللغة العربية ومشاكل الكتابة، تأليف البشير بن سلامة. تونس، الدار
التونسية، 1971.
- الزبيدي، أبو بكر محمد بن الحسن
الواضح في علم العربية، تأليف أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي القاهرة، دار
المعارف، 1975.
- ابن عصفور، علي بن مومن بن محمد
المتع في التصريف، تحقيق فخر الدين قباوة، حلب، المكتبة العربية،
1970.
- اللجنة الدائمة للرصيد اللغوي
الرصيد اللغوي الوظيفي، تأليف اللجنة الدائمة للرصيد اللغوي الرباط
الهيئة الاستشارية للمغرب العربي، 1975.

- الشرقي، صالح
أضواء على الموسيقى المغربية، تأليف صالح الشرقي. المحمدية، مطبعة
فضالة، 1977.
- الحايك، محمد المالك بن الحسين جامع
مجموعة الحايك للطرب الاندلسي. (ب. ن)، (ب. م)، 1972.
- الجراري، عباس
الحرية والأدب، تأليف عباس الجراري. الرباط، مطبعة الأمنية، 1971.
- البورقادية، حبيبة
الأدب الأندلسي وأثره في الآداب الأوروبية خلال القرون
الوسطى، تأليف حبيبة البورقادية. الرباط، مطبوعات وزارة الثقافة، 1972.
- الركابي، جودت
في الأدب الأندلسي ط 3، تأليف جودت الركابي. القاهرة، دار المعارف،
1970
- الشكعة، مصطفى
الأدب الاندلسي، تأليف مصطفى الشكعة. بيروت دار النهضة العربية 1972.
- الشكعة مصطفى
الأدب الاندلسي : موضوعاته وفنونه، تأليف مصطفى الشكعة. بيروت،
دار العلم للملايين، 1974.
- عباس، احسان
تاريخ الأدب الأندلسي : عصر الطوائف والمرابطين، ط 2 تأليف
احسان عباس. بيروت، دار الثقافة، 1971.
- هيكل، أحمد
الأدب الأندلسي من الفتح الى سقوط الخلافة ط 6، تأليف أحمد هيكل،
القاهرة، دار المعارف، 1971.

- ابن عاشور، محمد الفاضل
الحركة الأدبية والفكرية في تونس، تأليف محمد الفاضل ابن عاشور.
تونس، الدار التونسية، 1972.
- الغزي الهادي حمودة
الأدب التونسي في العهد الحسيني، تأليف الهادي حمودة الغزي.
تونس الدار التونسية، 1972.
- زياد، أحمد
لمحات من تاريخ الحركة الفكرية بالمغرب، تأليف أحمد زياد. الدار
البيضاء، دار الكتاب، 1973.
- غلاب، عبد الكريم
دفاع عن فن القول، تأليف عبد الكريم غلاب. طنجة، دار الفكر المغربية،
1971.
- ابن رشيق القيرواني الحسن بن علي
العمدة ط 4، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد. بيروت، دار الجيل،
1972.
- الجراي، عباس
موشحات مغربية، تأليف عباس الجراي. البيضاء، دار النشر المغربية، 1973.
- الجراي، عباس
الأمير الشاعر أبو الربيع سليمان الموحدي، تأليف عباس الجراي.
بيروت دار الثقافة، 1974.
- حجاجي، حمدان
حياة وآثار الشاعر الاندلسي بن خفاجة، تأليف حمدان حجاجي. الجزائر،
الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1974.
- ابن خاتمة أحمد بن علي بن محمد بن خاتمة الانصاري الاندلسي
ديوان ابن خاتمة الانصاري الاندلسي، تحقيق، محمد رضوان الداية.
دمشق، وزارة الثقافة والارشاد القومي، 1972.

- سيدي الأهل عبد العزيز
محي الدين بن عربي من شعره، تأليف عبد العزيز سيد الأهل. بيروت ،
دار العلم للملايين، 1970.
- ابن شهيد الأشجعي، أحمد بن عبد المالك
ديوان ابن شهيد الأندلسي، جمع يعقوب زكي، قرطبة، الأكاديمية الملكية،
1975
- عاصي، ميشال
الشعر والبيئة في الأندلس، تأليف ميشال عاصي. بيروت، المكتب التجاري
للطباعة والنشر، 1970.
- العماد الاصفهاني، محمد بن محمد الكاتب
خريدة القصر وجريدة العصر، ط م تحقيق محمد المرزوقي وآخرون. تونس،
الدار التونسية للنشر، 1971 - 1973.
- القرطاجني حازم بن محمد بن حسن
قصائد ومقطعات صنعة أبي الحسن القرطاجني، تحقيق محمد الحبيب
ابن الخوجة. تونس، الدار التونسية ، 1972.
- كراتشكوفسكي اغناطيوس يوليا نوفتش
الشعر العربي في الأندلس، ترجمة محمد منير مرسى، القاهرة، عالم الكتب،
(ب.ت.ل).
- لسان الدين ابن الخطيب السلماي
ديوان الصليب والجهام والماضي والكهام، تحقيق محمد الشريف قاهر.
الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1973.
- الجابري محمد صالح
الشعر التونسي المعاصر، 1870 - 1970، تأليف محمد صالح الجابري.
تونس، الشركة التونسية، 1974.
- ابن سالم، عمر
قابادو، حياته، آثاره وتفكيره الاصلاحى. تونس، مركز الدراسات والابحاث
الاقتصادية والاجتماعية، 1975.

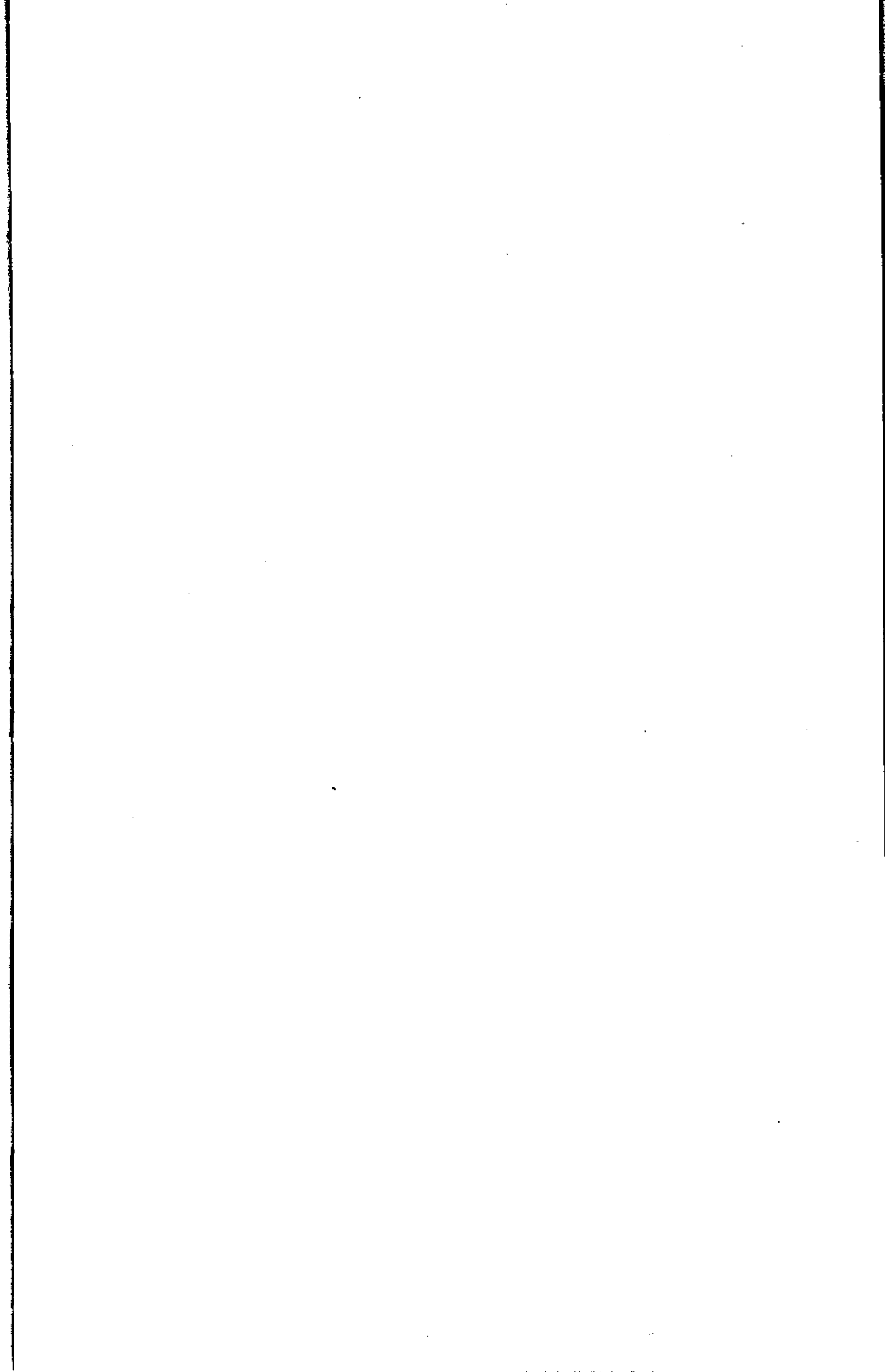
- الشابي، أبو القاسم
ديوان أبو القاسم الشابي، بيروت، دار العودة، 1972.
- الجراي، عباس بن عبد الله
القصيدة، تأليف عباس بن عبد الله الجراي. الرباط، مكتبة الطالب، 1970.
- السولامي، إبراهيم
الشعر الوطني المغربي في عهد الحماية، 1912 - 1956 تأليف
إبراهيم السولامي. البيضاء، دار الثقافة، 1973.
- العرائشي، محمد
ترجمة الشاعر أبي محمد عبد القادر العرائشي المكناسي، تأليف
محمد العرائشي. تطوان، مطبعة كريماديس، 1972.
- الفاسي، علال
المختار من شعر علال الفاسي. البيضاء، مطبعة الدار البيضاء، 1976
- الدقاق، عمر
شعراء العصبية الاندلسية في المهجر، تأليف عمر الدقاق. بيروت دار
الشرق 1973.
- الخطيبي، عبد الكبير
الرواية المغربية، ترجمة محمد برادة. الرباط، منشورات المركز الجامعي للبحث
العلمي، 1971.
- السائح، الحسن
الحضارة المغربية عبر التاريخ، تأليف الحسن السائح. البيضاء، دار الثقافة،
1975.
- أمين، عبد العزيز وآخرون
جغرافية افريقيا، تأليف عبد العزيز أمين وآخرون. البيضاء دار النشر
المغربية، 1976.
- أمين، عبد العزيز وآخرون
جغرافية افريقيا، تأليف عبد العزيز أمين وآخرون. البيضاء، دار النشر
المغربية، 1973.

- الادريسي، محمد بن محمد بن عبد الله بن ادريس
نزهة المشتاق في ذكر الامصار والاقطار، نابولي، المعهد الشرقي، 74-
1975.
- البلوي، خالد بن عيسى الاندلسي
تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، تحقيق الحسن السائح، فاس،
مطبعة محمد الخامس، 1970.
- ابن سعيد المغربي، نور الدين أبو الحسن علي.
كتاب الجغرافيا، تحقيق اسماعيل العربي. بيروت، المكتب التجاري، 1970.
- الريحاني، أمين
المغرب الأقصى، ط 3، تأليف أمين الريحاني. بيروت دار الثقافة، 1976.
- أمين عبد العزيز وآخرون
جغرافية العالم ، ط 6، تأليف عبد العزيز أمين وآخرون. الدار البيضاء، دار
النشر المغربية، 1976.
- الزاوي، الطاهر أحمد
ولاية طرابلس من بداية الفتح العربي الى نهاية العهد التركي،
تأليف الطاهر أحمد الزاوي. بيروت، دار الفتح، 1970.
- بن عبد الله، عبد العزيز
الموسوعة المغربية للاعلام البشرية والحضارية، تأليف عبد العزيز بنعبد
الله. الرباط، مطبوعات وزارة الاوقاف، 1975.
- ليفي، بروفنصال
مؤرخو الشرفاء، ترجمة عبد القادر الخلافي. الرباط، دار المغرب، 1977.
- الجراري، عبد الله
من أعلام الفكر المعاصر بالعدوتين الرباط وسلا، تأليف عبد الله
الجراري الرباط، مطبعة الامنية، 1974.
- ابن القاضي، أحمد بن محمد بن أبي العافية
جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الاعلام مدينة فاس، الرباط، دار

- دار المنصور، 1973 - 1974
- المراكشي، العباسي ابراهيم
الاعلام بمن حل مراكش وأغامت من الاعلام. الرباط، المطبعة الملكية،
1974.
- حجي محمد (محقق)
ألف سنة من الوفيات في ثلاثة كتب، الرباط، دار المغرب، 1976.
- ابن عاشور، محمد الفاضل
تراجم الاعلام، تأليف محمد الفاضل ابن عاشور. تونس، الدار التونسية، 1970.
- ابن قنفذ، أحمد بن حسين بن علي بن الخطيب
كتاب الوفيات، تحقيق عادل نويهض. بيروت المكتب التجاري للطباعة
والنشر، 1971.
- الكنانى، أبو عبد الله محمد بن صالح عيسى الكنانى القيرواني
تكميل الصلحاء والأعيان لمعالم الايمان في أولياء القيروان. تحقيق
محمد العنابي. تونس، المكتبة العتيقة، 1970.
- الجرابي، عبد الله
المحدث الحافظ أبو شعيب الدكالي. تأليف عبد الله الجرابي. البيضاء،
مطبعة النجاح. 1976.
- عنان، محمد عبد الله
تراجم اسلامية شرقية وأندلسية، ط 2، تأليف محمد عبد الله عنان،
القاهرة مكتبة الخانجي، 1970.
- ابن عسكر الحسني الشفشاوني، علي بن محمد
دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن
العاشر، تحقيق محمد حجي. الرباط، دار المغرب، 1976.
- المنوني، محمد
وثائق ونصوص عن أبي الحسن علي بن منون وذريته، تأليف محمد
المنوني الرباط، المطبعة الملكية، 1976.
- لاکوست، ايف
العلامة ابن خلدون، ترجمة ميشال سليمان. بيروت دار ابن خلدون، 1974.

- وافي، علي عبد الواحد
عقريات ابن خلدون، تأليف علي عبد الواحد وافي. القاهرة دار عالم الكتب،
1973.
- الملي، محمد
ابن باديس وعروبة الجزائر، تأليف محمد الملي. الجزائر، الشركة الوطنية،
1973.
- سوسة، أحمد
الشريف الادريسي في الجغرافية العربية، تأليف أحمد سوسة. بغداد
مكتبة صبري، 1974.
- ابن حيان، حيان بن خلف بن حسين بن حيان
المقتبس من أنباء أهل الأندلس، تحقيق محمود علي مكّي. القاهرة،
المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، 1971.
- ابن سودة المري، محمد بن عمر
قبيلة زعير قديما وحديثا، تأليف محمد بن عمر ابن سودة المري. البيضاء،
دار الكتاب، 1977.
- ابن طفيل، محمد بن عبد الملك بن محمد
حي بن يقظان، تحقيق فاروق سعد، بيروت، دار الآفاق الجديدة. 1974.

عروض عن المؤتمرات العلمية



تقرير عن الحلقة الدراسية المنظمة بالسنغال
تحت رعاية هيئة الأمم المتحدة
في ربيع سنة 1977

نظم برنامج « التكوين من أجل البيئة » تحت اشراف « المعهد الافريقي للتنمية الاقتصادية والتخطيط » التابع لهيئة الأمم المتحدة بمقره بداكار حلقة دراسية خلال ربيع سنة 1977 موضوعها « تحليل واعداد البيئة القروية في منطقة الساحل ». وقد استدعت المنظمة لهذا الغرض مجموعة من الاختصاصيين من مختلف بلدان الساحل كالسنغال وموريتانيا ومالي والنيجر والتشاد وقولتا بالإضافة الى ممثلين عن تونس والمغرب. وتجدر الاشارة الى أن هذه المجموعة كانت متعددة الاختصاص تضم المهندس الفلاحي والبيطري ومهندس الغابات وتقني التغذية والاختصاصي في علم البيئة والعالم الاجتماعي ورجل الاقتصاد. وقد كان تمثيل المغرب من نصيب الجغرافيا.

1) موضوع ومراحل الحلقة الدراسية.

السبب في اختيار هذا الموضوع بالذات هو الأزمة الطبيعية والاقتصادية التي تخيم منذ سنة 1972 على بلدان افريقيا السوداء المجاورة للصحراء والتي قيل عنها الكثير. وأما الدافع لاختيار المشاركين وجلهم من ذوي المسؤوليات الادارية العالية فهو السعي لضمان اشاعة نتائج هذا العمل ومحاولة تطبيقه في كل البلدان المعنية بالأمر.

واذا كان الجميع يدرك الآن أن كارثة الجفاف الطبيعية ليست في الحقيقة الا المنبه الذي يلفت النظر الى الواقع الاقتصادي والاجتماعي لهذه البلدان فقد أصبح من الضروري تحديد المسؤوليات بصفة أكثر دقة والتعرف على مدى العلاقة الموجودة بين العامل البشري والطبيعي وأيهما يلعب الدور الاول.

تتلخص المنهجية التي اعتمدت في طرف الموضوع في تقسيم الوقت الى مراحل ثلاثة. فترة أولى هي مرحلة الاعداد قضيها بالعاصمة خصصت لجمع المعلومات والاستماع الى عروض الباحثين والاتصال بالأوساط الادارية والتقنية التي من شأنها أن تسهل علينا العمل الميداني.

أفرغت الفترة الثانية للعمل الميداني بعد أن اختير الحيز الجغرافي الذي يعتبر عينة معبرة عن الوضع في بلدان الساحل. وليس أكثر تمثيلية في هذا المجال من إقليم وادي السنغال الأوسط ومنطقة الفرلو الشمالية الشرقية من القطر السنغالي. وخلال هذه المدة تم توزيع المشاركين مثنى مثنى على عائلات قروية من مختلف الأوساط مع الحرص على أن يكون التجانس بين اختصاص الضيوف وحرقة رب العائلة وأن لاتقف اللغة دون تحقيق التفاهم والاندماج في الأسرة.

والفترة الثالثة كانت بالطبع فترة التقييم ومقارنة النتائج التي توصل اليها مختلف الأشخاص والمجموعات كل في إطار اختصاصه.

ومن جملة المواضيع التي اهتمت بها اللجان موضوع الرعوية والوضع الحالي للثروة الحيوانية. مبيعات الأرز والزراعة العصرية، مشكل الماء، مشاكل الصحة والتغذية، أنماط السكن، التجهيزات الاجتماعية والثقافية، التطور الحالي للطبقات في مجتمع « التكرور »... نسوق في مايلي ملخصا للعمل الجغرافي المتعلق بدراسة تدهور البيئة الطبيعية في الاقليم.

(2) تدهور البيئة الطبيعية في وادي السنغال الأوسط ومنطقة الفولو.

يتناول البحث ثلاثة جوانب : المعطيات الطبيعية، مظاهر وأسباب اختلال التوازنات الطبيعية واقتراح بعض الحلول.

نستنتج من عرض المعطيات الطبيعية ضعف بيئة النطاق الساحلي وحساسيته العالية ازاء كل التدخلات البشرية ويظهر هذا واضحا من خلال المناخ والنبات والحيوان وكذا من خلال طبيعة القاعدة الصخرية - الترابية وحتى من جراء الفيضانات الموسمية لنهر السنغال التي وان كانت مصدر النعمة على المنطقة فهي تسبب مع ذلك، في أسلوبها الحالي، بعض الاتلاف على مستوى التربة. نستخلص ان من هذا القسم الطابع المميز للنطاق وضرورة ايجاد أنماط نوعية للتطور فيه حتى لايمس توازنه الضعيف الذي لايقبل استيراد نماذج دخلية عليه.

القسم الثاني يتعرض لأساليب اختلال التوازن الطبيعي. والمتهم الاول هو المناخ. لكنه واحد من جملة الأسباب يمكن التغلب على نتائجه بتنظيم تصريف وجلب

★ ادريس الفاسي « تدهور البيئة الطبيعية في وادي السنغال الأوسط ومنطقة الفولو »
(بالفرنسية) مجلة جغرافية المغرب العدد 1 من السلسلة الجديدة (1977).

المياه وتقنين استعمالها في اطار متدارس مع السكان لا مفروض عليهم. أسباب أخرى لانفصام التوازن هي حريق الأدغال بما في ذلك الحريق المبكر والمتأخر وقطع الأشجار باختلاف أساليبه بين الرحك والمستوطنين والتركيزات الكثيفة للسكان والماشية حول مناقب الماء العصرية، والفلاحة المستوطنة في المواضع القابلة للتعرية.

القسم الثالث يعطي مجموعة من الاقتراحات المتحفظة ممیزا في ذلك بين الأراضي التي تغمرها مياه فيضانات نهر السنغال والأراضي الجافة. وأخذا بعين الاعتبار العلاقات الممكنة بين طبيعة كل بيئة ونوع الاستغلال فيها. وتم تدعيم كل ذلك ببعض استدلاليات امكان وجود مياه جوفية بالاضافة الى مياه النهر وكذا انجاز مقطع تأليفي لأنواع التربة الموجوة في الاقليم.

ليس المهم استعراض تفاصيل هذه المقترحات في عجلة كهذه بقدر ما هو تحديد موقعها حيال الواقع المعاش. الخط الواصل بين حلقات المشروع يراعي سلوك الفلاحين ازاء الرصيد الطبيعي الموضوع بين أيديهم على مدى الأجيال. والمشكل المطروح هو السبب في انقلاب الأهالي من رعاة وفلاحين حريصين على صيانة بيئتهم الى مخربين يحرقون النبات ويقطعون الغابات ويبدرون الماء ويتلفون التربة ؟

ولماذا تفهقرت دراياتهم في الانتاج عوض أن تتقدم ؟
كل القرائن تدل على أن المسؤول الرئيسي في الفوضى التي اعترت استغلال التربة هو نوع الازدواجية الحاصل في الاستثمار الفلاحي بين الزراعة التقليدية البدائية الوسائل والآخذة في التراجع والزراعة العصرية المستوردة كتلة واحدة دون تمييز.

ونذكر من نتائج هذه الازدواجية :

- التضحية دفعة واحدة برصيد الدرايات التي تجمعت لدى الأهالي من خلال اختبارهم الطويل لبيئتهم الطبيعية وعدم الاهتمام بتطويرها بل والحكم عليها بالعقم.
- القضاء بهامشية العدد الأوفر من القرويين وذلك بالادخال العنيف لتقنيات مستوردة لاسيما الى التمكن منها لاماديا ولا تكوينيا. مع العلم أن هذه التقنيات وان كانت تعطي نتائج باهرة في مرحلة أولى فانها غالبا ما تكون وبالأعلى البيئة في المدى الطويل أضف الى هذا سياسة الاصطفاء التي تلعب لصالح أقلية من الأهالي استطاعت استيعاب النماذج الجديدة .

- الربط العضوي بالسوق الخارجية ووقف الانتاج على متطلبات هذه السوق. فنكون انن لم نحد قيد أنملة عن بنية « المغرسات الافريقية » التي وضعها المعمرون والداخلية في بوتقة سياسة تصريف المنتج الزراعي المتخصص الى الخارج مقابل جلب المواد الغذائية الأساسية التي لم يبق مجال لانتاجها في الداخل بالاضافة الى بعض الآليات والتقنيات التي تزيد من التبعة الاقتصادية.

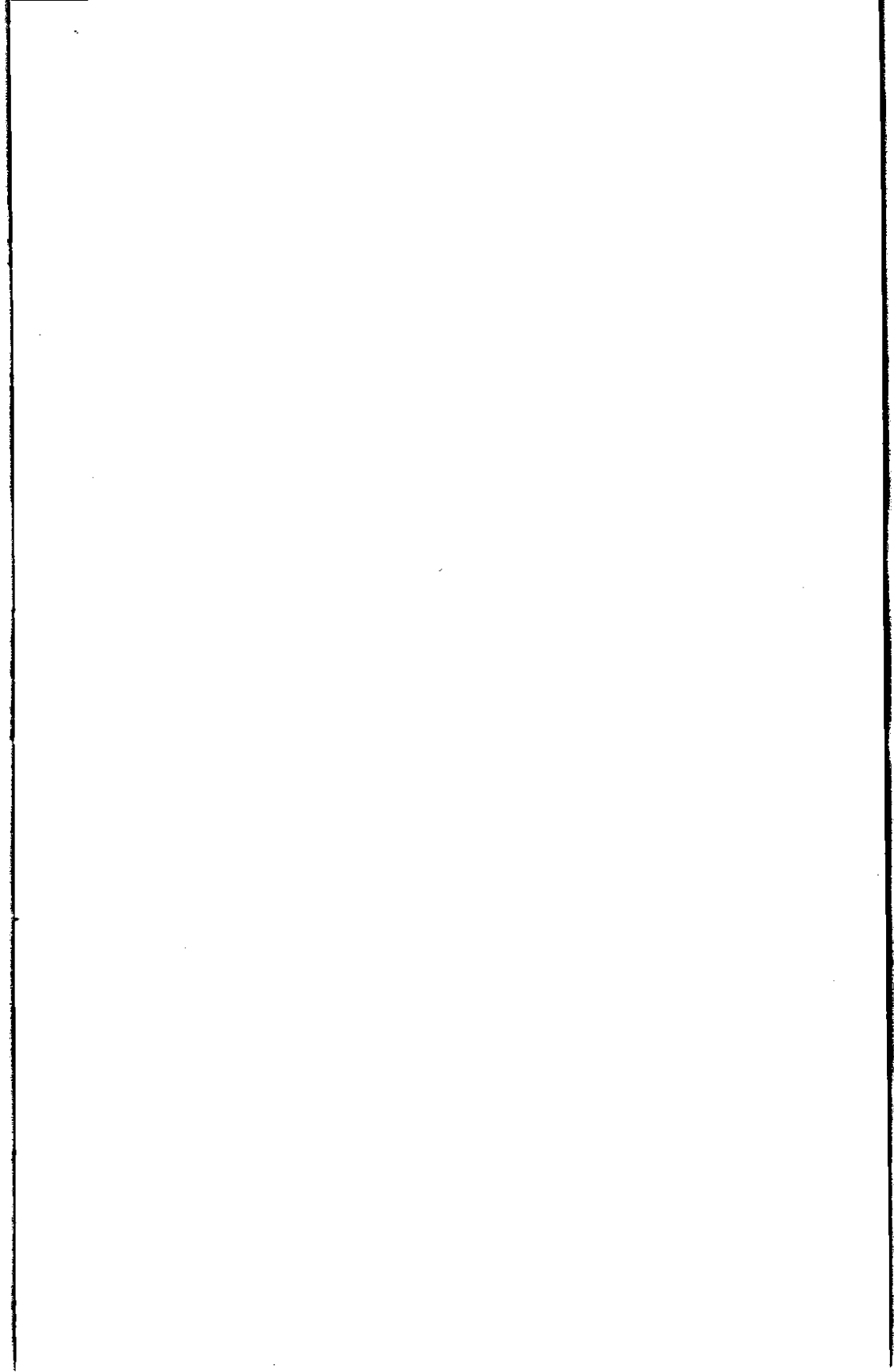
- الدخول في « الدورة الجهنمية » لتدهور البيئة. اذ انطلاق هذه الدورة يرجع لاقامة المغرسات من طرف الشركات المختلفة، المرتبطة بالمصالح الأجنبية الظاهرة أو الخفية، وذلك حسب أنماط علمية محكمة تقضي بانتقاء أفضل المواضع من حيث جودة التربة وسهولة جلب المياه والمواصلات. وتفرض بالتالي على الأهالي استعمال الأراضي الهامشية لزراعتهم المعاشية في حين لم تكن تلك الأراضي مخصصة من قبل الا الى الانتجاع أو الترحل.

وحتى بالنسبة للنخبة الموسرة التي استطاعت التعاون مع الشركات على استثمار الأراضي الجيدة في اطار الفلاحة العصرية فان مصيرها لا يصمد أمام الطوارئ. فهي تبقى معرضة للكارثة الطبيعية التي تضعف المحصول أو تقضي عليه فتحرمها من الدخل المالي الذي يكفل لها استيراد المواد الزراعية المعاشية كما تكون عرضة لأزمات التسويق التي تعطي نتائج مشابهة. فيكون على الذين دخلوا في هذا الرهان أن يعانون من المجاعة أو الهجرة الى المدينة ثم منها الى الخارج.

أما الفلاحة التقليدية، التي تكفل العيش للأغلبية، فبعد أن حرمت من قاعدتها الأساسية وأضاعت مجال تعاملها فانها قد بدأت تتصرف تصرفا عشوائيا ينتهي بأفقار التربة معدنيا وأحيائيا واعدادها للتعرية والاقحاح السريعين.

وأمام تضلُّل مردود الأراضي المغضوب عليها والمتروكة تحت تصرفهم، يزيد الأهالي من تكثيف استغلالها وتوسيع رقعتها على حساب الغابات المحظورة فيوفرون آخر الأمر كل الظروف لتراجع النطاق الساحلي وظهور دروع الحديد المجدية وزحف الصحراء. وزحف الصحراء هذا في الواقع يهدد الهوامش الشمالية للساحل عامة مستغلا في توغله بعض مناطق، الضعف كأراضي الفلاحة التقليدية المتدهورة عازلا المساحات المسقية التي تتحول تدريجيا الى واحات.

وعليه فالسر في اندلاع الكوارث من مجاعة وهجرة لدى حدوث أية أزمة، طبيعية كانت أم اقتصادية، راجع لتوفر الأسباب والظروف بصفة مستديمة. ورغم ذلك فتطور الأوضاع لازال قابلا للتغيير والاصلاح في الوقت الراهن. أما اذا لم يوضع حد لهذا النوع من السلوك في أسرع الآجال فستكون النتائج غير رجعية ويترتب عليها الاجذاب النهائي والقضاء على حضارات بأكملها.



حسن بنحليمة

نبذة عن اشغال المؤتمر الثالث للأمم المتحدة حول تنميط الأسماء الجغرافية (أثينا - غشت - شتنبر 1977)

انعقد بأثينا عاصمة اليونان من 16 غشت الى 7 شتنبر 1977 المؤتمر الثالث للأمم المتحدة الخاص بتنميط الأسماء الجغرافية في العالم ضم ممثلي حوالي 60 دولة من بينها المغرب الذي مثل بوفد من مختلف المصالح الوزارية المعنية بهذا الموضوع وهي المركز الجامعي للبحث العلمي، مصلحة الجيولوجيا، مديرية المحافظة العقارية والأشغال الطبوغرافية وكلية الآداب والعلوم الانسانية، التي مثلها الاستاذ محمد الغوات والاستاذ حسن بنحليمة من شعبة الجغرافيا.

وقد تركزت أشغال المؤتمر على دراسة 5 مواضيع هي :

- 1 - التنميط على المستوى الوطني لكل دولة
 - 2 - ضبط لوائح الأسماء الجغرافية وطنيا ودوليا
 - 3 - الأسماء الدخيلة
 - 4 - طرق نسخ الأسماء الجغرافية
 - 5 - التعاون الدولي في ميدان التنميط
- وتميزت تدخلات الوفد المغربي بعرض يعكس اهتمامات المغرب بموضوع التنميط ومشاكله.

هذا وتجدر الإشارة الى أن الحافز الأساسي الذي دفع المجلس الاجتماعي والاقتصادي للأمم المتحدة لتنظيم هذا النوع من اللقاءات هو الايمان بأن الاسم الجغرافي يعتبر عنصرا حيويا من عناصر التراث الثقافي والحضاري لكل أمة وأنه من اللازم احترام طرق النطق والنسخ لهذا الاسم.

ولما كان عدد من الأسماء قد تعرض للتشويه والتحريف اما لسوء الفهم أو نتيجة لاحتلال استعماري (كسوء نطق وكتابة كثير من أسماء المدن المغربية من طرف المعمرين مثال ذلك طنجة ، فاس : ، تطوان : : أو التماذي في استعمال أسماء دخيلة مثل أو

ولما كان من الضروري الاتفاق نهائيا على النطق والنسخ على المستوى الوطني كمرحلة للتنميط على المستوى الدولي، فقد حثت مختلف التدخلات والتوصيات على ضرورة القيام بمجهودات كبيرة في هذا الميدان.

ولأجل ذلك تم استعراض مختلف المناهج التي يمكن اتباعها في هذا الباب كخلف لجن وطنية تضم عددا من المختصين من مؤرخين وعلماء اللسانيات وجغرافيين وطبوغرافيين ورجال إدارة (كالداخلية والفلاحة والجيولوجيا الخ...) تقوم بدور التحقيق في الأسماء في عين المكان بمساعدة السكان.

ومن جهة أخرى وحتى تؤدي هذه العملية دورها على أحسن مايرام فقد أقترح تجميع حصيلة المعلومات فيما أطلق عليه إبتاك لحفظ الأسماء الجغرافية التي تكون عندئذ مرفوقة بجميع المعلومات الخاصة بها (لغويا وجغرافيا)

أما بالنسبة لبلادنا، فعمل من هذا القبيل يفرض نفسه يوما عن يوم، خصوصا اذا اعتبرنا أن هنالك كثيرا من الأسماء العربية والبربرية التي حرفت في نطقها ونسخها من طرف الاستعمار، وأنه حان الاوان لتحقيقها وتنميطها محافظة على جانب من جوانب انسيبتنا وأصالتنا. وقد يكون هذا العمل من اختصاص لجنة وطنية للتسمية نأمل أن ترى الوجود في القريب.

عبد الله العويينة وادريس الفاسي

الندوة العالمية للكرطوغرافيا الجمرفلوجية

(بودابست 25 - 28 أكتوبر 1977)

انعقدت ببودابست عاصمة هنغاريا ما بين 25 و 28 أكتوبر 1977 ندوة عالمية حول الكرطوغرافيا الجمرفلوجية، حضرها ممثلون مختلفون من أوروبا وأمريكا والاتحاد السوفياتي، كما مثل اللجنة الوطنية للجغرافيا بالمغرب، في هذه الندوة الاستاذان ادريس الفاسي وعبد الله العويينة.

اهتمت هذه الندوة بالتعريف بأهداف ومناهج الكرطوغرافيا الجمرفلوجية وقد اتضح من خلال العروض والمناقشات مايلي :

1) الخريطة ليست فقط وسيلة لتوضيح نص جمرفلوجي ، بل قد تكون مستقلة وهي على كل حال النتيجة الأساسية والأفيد للبحث الجمرفلوجي ذلك لأنها تشير الى العناصر الممثلة في اطارها الحقيقي وبطريقة تمكن من المقارنة بين الاختلافات الاقليمية. وبما أنها تستعمل من طرف باحثين مختلفين فانه من الضروري توحيد مفتاح هذه الخريطة على المستوى المحلي والعالمي لتسهيل قراءتها على الجميع.

2) ان للخريطة الجمرفلوجية خصوصيات تجعلها تختلف في شكلها وفي أهدافها عن الخرائط الطبيعية الأخرى كالخريطة الجيولوجية، فلهاته هدفان احدهما تاريخي (تتابع الطبقات) والآخر صخوري (أنواع الركيزة الصخرية). أما في الخريطة الجمرفلوجية فان العامل الجيولوجي لايلعب الا دورا ثانويا. والأساس هو تفاعل الأشكال والعمليات الخارجية مع هذه الركيزة الصخرية.

3) يتحتم على الخريطة الجمرفلوجية أن تكون ممثلة لعناصر دينامية والا تكتفي بالوصف. يجب أن تعرف بالتطور الحالي لاشكال سطح الأرض، وهدفها الأساسي أن يتوصل قارئها الى التفريق بين مناطق وسفوح مستقرة أو شبه مستقرة، وأخرى في تحول سريع بفعل العمليات الخارجية.

ولهذا الغرض فان كل الأشكال وكل العمليات يجب أن تقاس قياسا حسابيا مدققا، لا أن توصف وصفا تقريبا فقط. كل هذا لتكون خرائطنا صالحة مباشرة للتطبيق. فالمهندس المطبق لا يمكن أن يركز عمله على دراسة تقريبية وانما يحتاج الى قياسات صالحة يبنى عليها تدخلاته. ومعلوم أن البحث الجمرفلوجي في العشر سنين الأخيرة تحول لمسايرة المجهود القومي فيما يرتبط بالتخطيط الاقتصادي والتقني، وهذا الاتصال

الوثيق بين الجيومفولوجيا والتطبيق قد أدى بدوره بالبحث الجيومفولوجي الى تغيير أساليبه وتطوير مناهجه.

وكمثال لهذا، عرض علينا الاستاذ بتشي منظم الندوة، الابحاث التي أقيمت في هنغاريا على ضفاف نهر الدانوب لوضع خرائط جيومفولوجية حول مناطق تتعرض لحركات انزلاقية كتلية. وقد وضعت هذه الخرائط ليستعملها المهندسون الذين يحاولون الحد من هذه الانزلاقات، بل من الممكن أن نعتبر أن في المجهود الكارطوغرافي نفسه جوابا وحلا لعدد من المشاكل التي تطرحها تلك التكدسات.

وهاته الخرائط - منها الاجمالية - (بمقياس 100 000 أو 25 000) - التي تتداخل بها كل العناصر المعبرة عن التضاريس، شكلها وتطورها الحالي، ومنها التحليلية المفصلة (بمقياس 10 000) التي تأخذ الانزلاقات كلا على حدة لتعبر عن مختلف عناصره بتدقيق.

ولقد مكن هذا المجهود بالفعل من العثور على الحلول التقنية المضبوطة التي ساعدت بسرعة على الحد من تلك الانزلاقات الكارثية.

اتضح إذن أن المنشآت البشرية التي تقام الآن تتطلب دراسات تحضيرية مهمة. ويظهر في هذا الاطار أن الدراسة الجيومفولوجية مفيدة جدا لأنها تعطي فكرة مدققة واجمالية عن الوسط الطبيعي وتظهره بمظهره الدينامي وفي تفاعله مع النشاط البشري.

4) ان كان التطبيق هو الهدف الأساسي من وضع خرائط جيومفولوجية فان هاته يجب أن تتجرد من كل المعلومات حول تاريخ الأشكال وتطورها في الماضي لتهتم على الخصوص بالأشكال الحالية من حيث قياسها المضبوط وبالتطور الحالي لهذه الأشكال بفعل عوامل التعرية. ومن بين الخرائط التطبيقية نورد النموذج الذي يميز بوضوح بين الدراسة الوصفية والقياسية للسطح وتطوره الحالي من جهة، والدراسة التاريخية لتكوين التضاريس. فالاولى تمثل خطوط التسوية وبرموز سوداء تحدد أشكال السطح ونطاق تأثير كل عملية من عمليات التطور الخارجي. وهذه الخريطة البسيطة (خطوط التدويرية - برموز سوداء) يمكن استعمالها مباشرة من طرف المهندس والادارة والجهاز المطابق، أما الجيومفولوجي الذي يهتم بتكوين التضاريس فانه يستعمل خريطة أخرى اجمالية زيدت فيها ألوان تدل على التطور التاريخي للسطح.

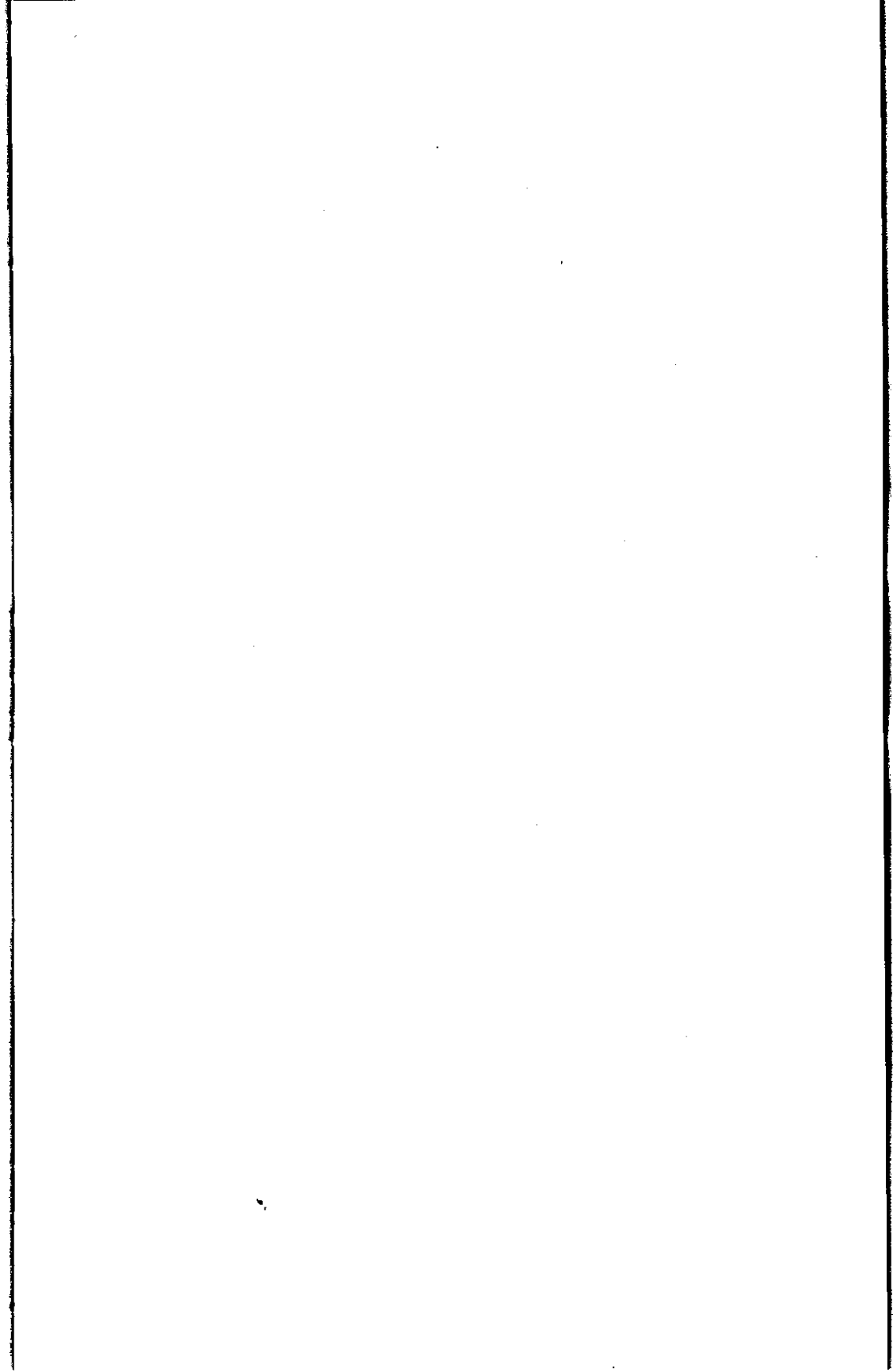
5) ولقد اتضح أخيرا خلال هذه الندوة بأن الحمل الكارطوغرافي المفصل للأشكال

سطح الأرض وتطورها الجمرفلوجي يتطلب الزمن الطويل والمجهود الدائم لانجازها. بينما نلاحظ يوما بعد يوم سرعة النماء الاقتصادي والتقدم التقني، الأمر الذي جعل الانسان ملزوما باستصلاح البيئة، والمحافظة عليها قبل ضياعها ولهذا الغرض فان الدراسات الاولى والتحضيرية صارت أساسية. والكرتوغرافيا الجمرفلوجية إحدى هذه الدراسات ومن أفيدها. يظهر بوضوح ان التناقض بين سرعة الطلب وكثرتة وبطء الانجاز الكرتوغرافي التفصيلي وليس هناك الا وسيلتان لحل هذه المشكلة.

- لحل مشكل بطء العمل الميداني لوضع الخريطة يلزم الاكثار من استعمال الصور الجوية وصور الكواكب الاصطناعية التي تمكن اذا ما درست وحلت بدقة من التقليل من المجهود الشاق الذي تتطلبه الدراسات الميدانية.

- الاعتماد على الوسائل الالكترونية لوضع خرائط للسطح وعلى الخصوص خرائط قياسية (درجات الارتفاع - درجات الانحدار الخ...) وهذه الخرائط فضلا عن سرعة انجازها - تمتاز بالدقة العالية وبالتفصيل التام.

وقد نظم الجمرفلوجيون الهنغاريون بعد نهاية الندوة يوما خصص للعمل الميداني في شمال البلاد. وقد جاءت هذه الرحلة لتعزيز العروض النظرية التي قدمها الجغرافيون المحليون حول كرتوغرافية عمليات التعرية وعلاقتها بمختلف الانشطة البشرية. بديهي أن مثل هذه الخرائط « النقدية » ازاء مختلف النشاطات البشرية تفتح آفاقا مهمة في سبيل اصلاح البيئة والحفاظ عليها.



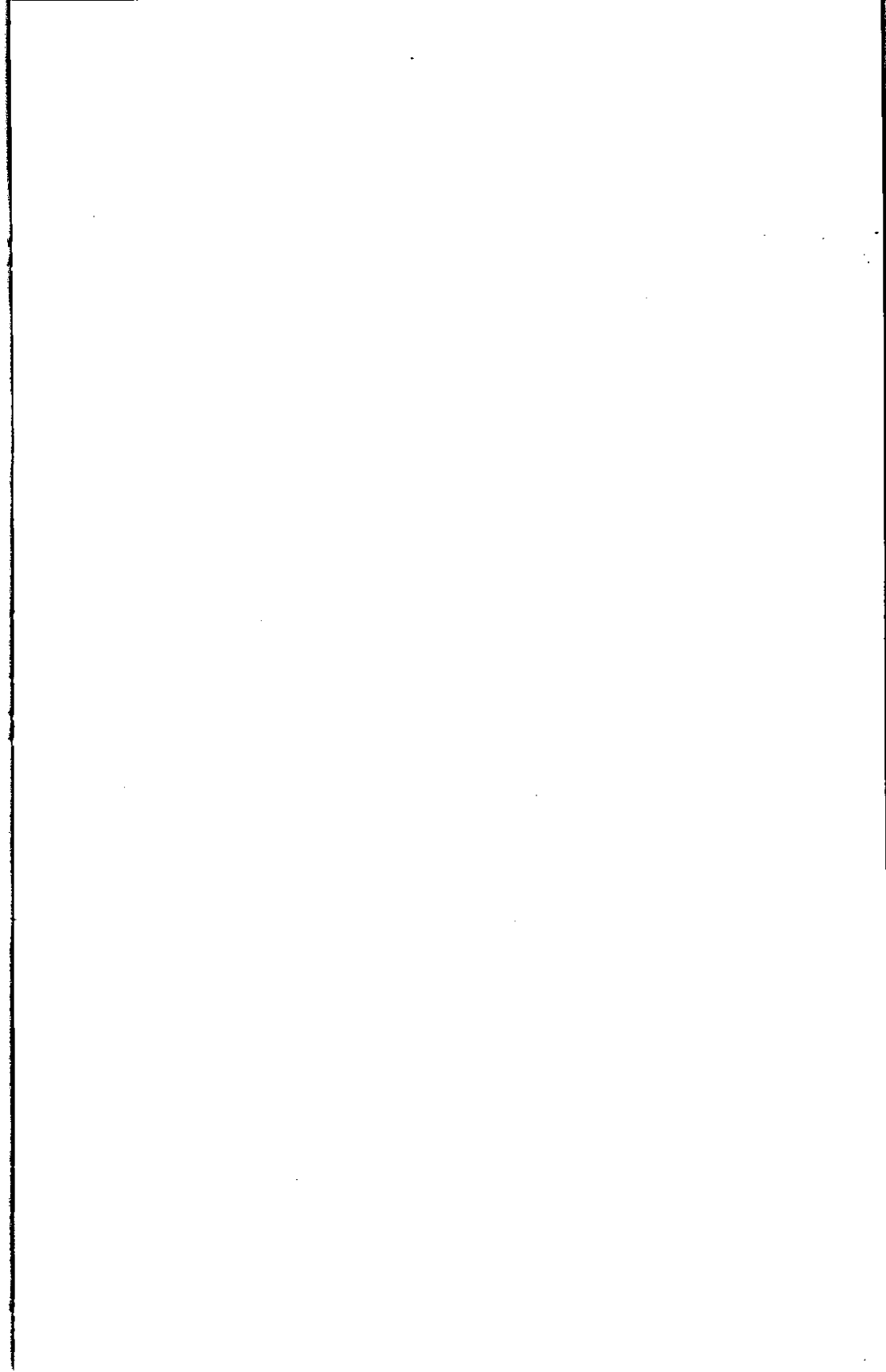
ندوة حول النمو الحضري في بلدان المغرب العربي

نظم المعهد الجغرافي بجامعة تور بفرنسا ندوة في موضوع « النمو الحضري في بلدان المغرب العربي » ساهم فيها عدد من الباحثين الجغرافيين من المغرب وتونس والجزائر بالإضافة الى بعض زملائهم الفرنسيين الذين يهتمون بهذا الموضوع. وقد كان ذلك خلال الأيام 17 و 18 و 19 نوفمبر 1977 بمساعدة المركز الوطني للبحث العلمي بفرنسا.

كانت العروض التي تقدم بها الاختصاصيون مهمة جدا ومتنوعة تضمنت عدة جوانب وطرحت عدة مشاكل تهم التطور الحالي للنشاط الحضري والسياسة الجهوية في البلدان الثلاث.

وقد دارت المناقشة حول محاور رئيسية هي :

- 1) الاشكال الهامشية للنمو الحضري على ضوء أمثلة مختلفة تقدم بها الباحثون بعد تصنيفها وتحليلها.
 - 2) الشبكات الحضرية مع الاهتمام بصفة خاصة بدور المدن الصغرى والمتوسطة في تنظيم المجال الجغرافي وتنشيط الحركة الاقتصادية.
 - 3) المدينة والتنظيم الاقليمي مع التمييز بين الأقاليم المنعزلة والمتخلقة والأقاليم المحظوظة التي يتركز نشاطها على أقطاب حضرية قوية ومنظمة.
- وقد ساهم الباحثون المغاربة بعروض في المواضيع التالية :
- الحالة الحضرية والاندماج الاقليمي للمغرب الشمالي-الشرقي (محمد الغوات)
 - التطور الديموغرافي لمركز بوزنيقة (عبد اللطيف فضل الله)
 - تأثير مدينة مغربية صغيرة (صفرو) على ناحيتها (حسن بنحليمة)



بوشعيب الادريسي

بعض الأنشطة الجامعية لمختلف شعب كلية الآداب والعلوم

الانسانية بالرباط خلال السنة الجامعية

1976 _ 1977

شعبة اللغة الانجليزية وآدابها :

- ★ قامت الاساتذة مرسىلا فرانك من جامعة نيويورك والمتخصصة في تدريس اللغات الأجنبية بالقاء عروض حول تدريس اللغة الانجليزية كلغة أجنبية.
- ★ ألقى الأستاذ موري Murry رئيس شعبة اللغة الانجليزية بجامعة لنكستر ببريطانيا عروضاً حول الشعر الانجليزي في القرن السابع عشر، كما نظم ندوة حول موضوع « علم اللسانيات وتطبيقه » وذلك ما بين 30 أبريل و 6 ماي 1977.
- ★ ألقى الأستاذ بول ادوردز Edwards من جامعة ادنبرغ ببريطانيا ندوات فيما بين 5 و 9 دجنبر 1977. حول المواضيع التالية :
 - القصة الشعرية في القرن الثامن عشر.
 - قراءة جديدة للأدب الافريقي المكتوب بالانجليزية.
 - القصة الخيالية : نموذج من جوزيف كونراد.
 - الشعر الرومنطقي.
- ★ سافر الأساتذة محمد أبوطالب وعبد الحميد لطفي وحسن مكوار الى تونس لحضور ندوة حول « الثقافات المقارنة » وذلك بين 15 يوليوز و 25 منه.

شعبة اللغة الفرنسية وآدابها :

★ عقدت السيدة جان مارتيني الأستاذة بجامعة باريس ندوات في نطاق نشاط شعبة اللغة الفرنسية وآدابها وذلك ما بين 21 و 25 فبراير 1977، وتناولت هذه الندوات المواضيع التالية :

Facteurs non - Linguistiques de la communication
Sémiologie de la Publicité
Sémiologie de la communication

★ قام الأستاذ مارك ريكالدو Marc Regalado من جامعة بوردو III بإعطاء دروس حول البيبليوغرافيا وذلك ما بين 26 و 29 أبريل 1977.
★ قام الأستاذ أندري مارتيني André Martinet بالقاء محاضرات وتنظيم مناظرات ما بين 21 و 26 فبراير 1977، في المواضيع التالية :

La double articulation et les universaux (rencontre avec enseignants et étudiants de 3^{ème} Cycle
Phonologie et morphologie
Réalité perceptible et réalité linguistique
Linguistique fonctionnelle et grammaire générative
Une grammaire fonctionnelle du français
Qu'est-ce que l'axiologie?
Aquisition du langage et structures linguistiques
Linguistique et Sciences de l'homme
Pourquoi faire de la linguistique?

شعبة الفرنسية :

★ قام الأستاذ دوفينيو Jean Duvignaud أستاذ ومدير مختبر سوسيلوجيا المعرفة بجامعة تور ما بين 9 و 14 دجنبر 1977، بالقاء محاضرات وتنظيم مناظرات وذلك حول المواضيع التالية :

SUJETS

Méthodes d'approche dans les problèmes de la mémoire collective : le domaine des littératures orales au Maroc
Méthodologie : Analyse des textes en Sociologie de la littérature. Application au Théâtre et au Roman.
Méthodologie : Analyse des textes (Suite)
Conférence publique : la variété des cultures
Problèmes de l'information artistique dans le monde

شعبة اللغة الاسبانية وآدابها

★ قامت من 4 مايو الى 7 منه الاستاذة السيدة نيلي كليمسي من جامعة نيس بفرنسا بالقاء عروض حول المواضيع التالية

Le Roman espagnol : du post romantisme jusqu'à la fin du siècle.
Aspects du réalisme naturaliste espagnol dans «La desher edado»
De Perer Galdès et «Los paros des Ullea» de Umilia Pardo Bazàn
Naissance du féminisme dans la Société et la littérature espagnole du 19^e siècle
Le phénomène régionaliste dans la création littéraire du XIX siècle (causes, développement, conséquences)

★ قام الدكتور ايميليو نانيس Emilo Nanez بالقاء الدرس الافتتاحي للشعبة للسنة الجامعية الحالية يوم 10 نونبر 1977 في موضوع :
«Sugerancias a proposito de un recurso linguistico - poético de Ibn Quzman el diminutivo»

شعبة الفلسفة وعلم الاجتماع

★ نظمت شعبة الفلسفة وعلم الاجتماع ندوة في موضوع « العلة في بواكير أصول الفقه وعلم الكلام » وقدم خلالها الاستاذ نبيل الشهابي دراسة عقبتها مناقشة.
★ عقد الاستاذ د. سبيمان من جامعة ميونيخ بألمانيا ندوة باللغة الفرنسية في موضوع « المساواة في النقاش الفلسفي المعاصر » وذلك يوم 16 مارس 1977.
★ ألقى الاستاذ أدام محاضرة بعنوان « الاتصال الثقافي » يوم 28 فبراير وأخرى تحت عنوان « السوسيولوجيا الحضرية » يوم فاتح مارس 1977.

شعبة التاريخ

- ★ قام الاستاذ أندري نوشي من جامعة نيس بزيارة الى كلية الآداب من 25 الى 29 أبريل أشرف خلالها على ندوات وألقى بعض المحاضرات في المواضيع التالية :
 - النفط في العالم العثماني والعربي ما بين 1880 و 1928.
 - فرنسا والبلاد الاسلامية الواقعة على البحر الأبيض المتوسط منذ 1945.
 - العلاقات ما بين أوروبا المصنعة والبلاد الاسلامية الواقعة على البحر الأبيض المتوسط ما بين 1850 و 1914.
 - أفكار في التاريخ الاجتماعي للبلاد الاسلامية الواقعة على حوض البحر الأبيض المتوسط.
- ★ في نطاق نشاط شعبة التاريخ بكلية الآداب والعلوم الانسانية قام الاستاذ كلود كاهين من جامعة السربون الجديدة (باريس III) بالقاء ندوات حول المواضيع التالية وذلك ما بين 18 و 21 مايو 1977.
 - « الفيودالية والاقطاع » (دراسة مقارنة للفيودالية في أوروبا وفي العالم الاسلامي).
 - « التاريخ التجاري والنقد للبحر المتوسط من بداية الاسلام الى القرن الحادي عشر الميلادي »
 - محاضرة عمومية : النهوض والتدهور الاقتصادي للعالم الاسلامي في العصر الوسيط.
 - تاريخ النقود والنميات .
 - لقاء مع الأساتذة الباحثين : نقاش حول (مسألة الوثائق والنصوص التاريخية).
- ★ وقام الاستاذ أندري ميكيل الاستاذ بكوليج دوفرانس من 3 جنبر الى 7 منه بالقاء عروض حول المواضيع التالية :
 - عرض عام عن شرح النصوص من وجهة النظر التاريخية والسوسيولوجية.
 - درس منهجي : شرح النصوص.
 - محاضرة عامة : التاريخ والجغرافية في الأدب العربي.
 - درس منهجي : « تابع »
 - التاريخ والجغرافية في الأدب العربي.
 - درس منهجي.

